المناقب المرزوقية

لأبي عبد الله محمد بن مرزوق التلمساني

(ت 781 هـ)

دراسة وتحقيق

الأستاذة سلوى الزاهري

منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - المملكة المغربية

https://albordj.blogspot.com

الكتـــــــاب : المناقب المرزوقية لأبي عبد الله محمد بن مرزوق التلمساني
دراســةوتحقـيق : الأستاذة سلوى الزاهري
مـــنشـــــورات : وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - المملكة المغربية
الـطبـعـــــــة : الأولى 1429هـ/2008م

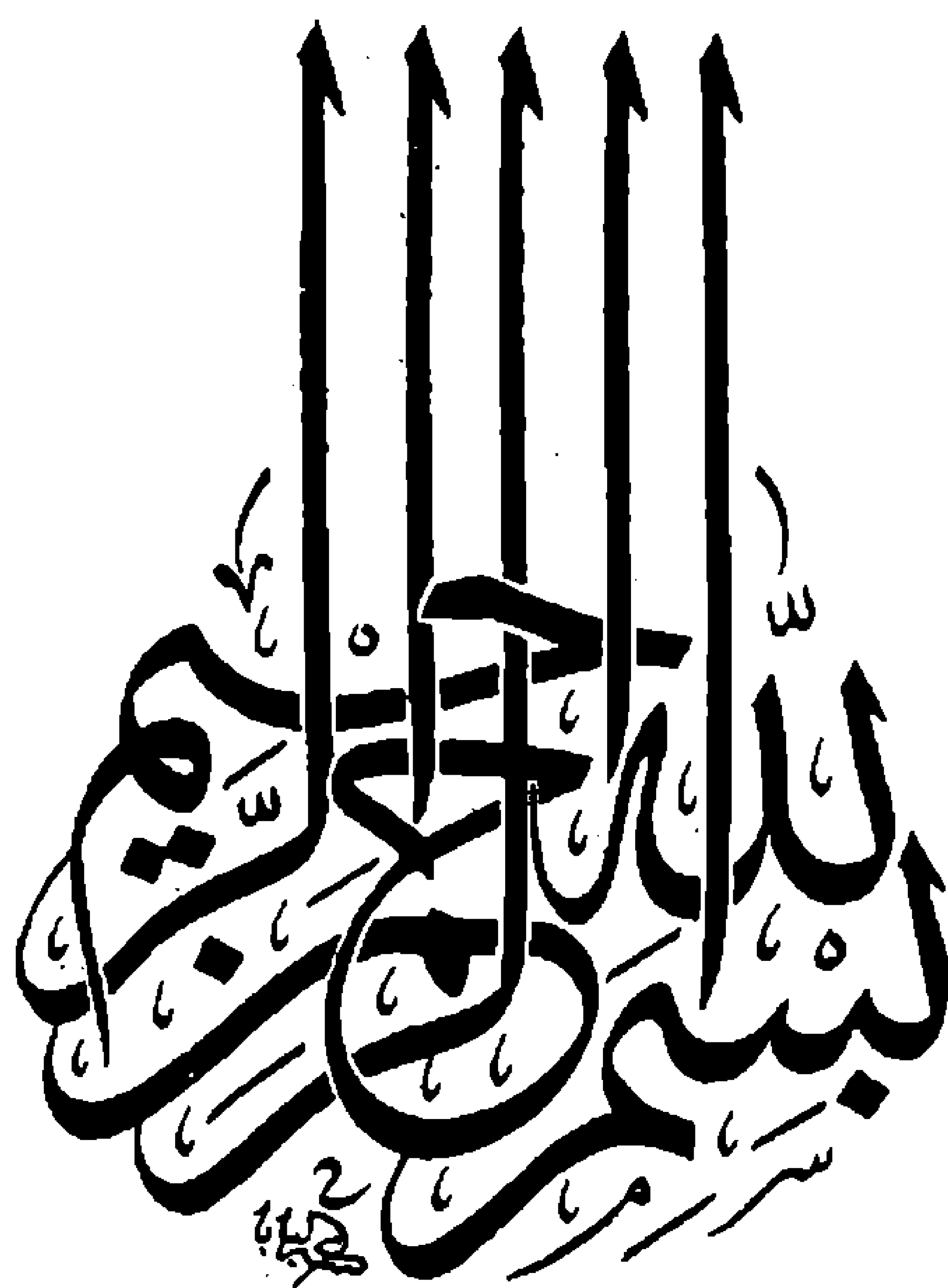
الــطـبـــــع : مطبعة النجاح الجديدة - الدار البيضاء
الإيـــــــداع : 2008 MO 1788
ردمــــــــك : 978-9954-0-5142-2

المناقب المرزوقية

لأبي عبد الله محمد بن مرزوق التلمساني
(ت 781 هـ)

دراسة وتحقيق
الأستاذة سلوى الزاهري

منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - المملكة المغربية


بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة المراجع

عرض عليّ هذا العمل لأنظر فيه وأقوم بمراجعته، وهو عمل لي به سابق معرفة، فقد قرأته من قبل مخطوطاً ورجعت إليه مرارا، ولعلي كنت أول من حصل على صورة من مخطوطته التي قدمت إلى جائزة الحسن الثاني للمخطوطات في سنة 1996، وقبلها كانت لدي صورة النسخة الأولى الموجودة بالخزانة.

وإذا كانت قراءة هذا العمل مخطوطا تتعب العين وتكد الذهن، فإن في قراءته مطبوعا راحة ومتعة وفائدة مضاعفة، فقد بذلت الدكتورة سلوى الزاهري جهودا مشكورة في خدمة هذا الأثر القيم من آثار الخطيب المؤرخ أبي عبد الله ابن مرزوق ؛ وتتجلى هذه الجهود في التمهيد له بتحليل الأوضاع العامة بالغرب الإسلامي في عصر المؤلف، وذلك من النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية، ثم في التعريف بابن مرزوق وتتبع مراحل حياته، من ولادته إلى وفاته، في حله وترحاله ؛ وهي حياة حافلة بأحداث ذلك العصر المضطرب، تقلّبَ فيها بين النعم والنقم، وخدمة السيف والقلم. وقد انتقلت الدكتورة بعد ذلك إلى دراسة التأليف الذي هو موضوع الأطروحة، ولما كان خاليا من العنوان، فقد اجتهدت في وضع عنوان له وهو **المناقب المرزوقية**، وهو عنوان منتزع من محتوى الكتاب الذي عرض فيه ابن مرزوق حياة جده ووالده، وما ظهر لهما من كرامات ومناقب، وسماه «تعليقا» مرة، و«مجموعا» مرة أخرى. وقد وجدت ورقة بداخل نسختي

المصورة من الكتاب فيها العنوان التالي : **سواطع الشروق، ولوامع البروق، في مآثر ومفاخر بني مرزوق** ولا أتذكر الآن من هو كاتب هذا العنوان بخط مغربي معاصر في ورقة صغيرة جديدة، وقد كتبت تحتها بخطي : إنه عنوان جميل لهذا الكتاب ! وعلى كل حال فإن عنوان «المناقب المرزوقية» يمكن قبوله.

وقد راجعت هذا القسم الثاني من الأطروحة فوجدت أن الدكتورة سلوى قد التزمت بشروط التحقيق الأساسية من معارضة الكتاب بالنسختين الموجودتين، وقامت بالتعريف بأسماء الأعلام والأماكن الواردة في المتن، وكذلك بتخريج الآيات والأحاديث. وفي رأيي أن مثل هذا الكتاب يحتاج إلى الشكل، ويمكن الاكتفاء بشكل جزئي يقتصر على ما لا بد منه، وذلك هو الموجود في النسختين الخطّيتين.

وقد قمت في أثناء مراجعة هذا القسم بتصحيح بعض الأخطاء النحوية واللغوية التي لعلها من النساخ، وثمة عبارات للمؤلف يبدو فيها اضطراب أو تأثر بكلام العامة، ولا سيما عندما يحكي كلام بعض العوام أو العجائز ؛ كما توجد عنده بعض الألفاظ المحلية، وقد شرحت بعضها، كما أني أضفت بعض الحواشي وأتممت بعض ما للمحققة منها، وهي أشياء خفيفة بالنسبة إلى المجهود الكبير الذي بذلته الدكتورة سلوى في تحقيق الكتاب ودراسته حتى خرج على هذه الصورة التي تجعل منه مصدرا نافعا في تاريخ الغرب الإسلامي في القرنين السابع والثامن الهجريين، ولا سيما ما يتعلق بالحياة الروحية لذلكم السلف الذي كانت العبادات علة حياته، والأعمال الصالحات غاية وجوده. ولاشك أننا حين نقف على مجاهدات أولئك الأعلام في عباداتهم ومناسكهم ومعاملاتهم، نعجب لطاقة الإيمان الذي كان بين جنوبهم.

وليس هذا الكتاب مقصورا على المناقب والكرامات، وبين ثناياه من الفوائد التاريخية ما لا يوجد في غيره، وذلك أن مؤلفه عاش في قلب أحداث

تلك الحقبة التي اشتد فيها الصراع بين الإخوة الأعداء الزناتيين. وكان يتراوح بين كرّ وفرّ، وحرب وسِلم. وفي هذه المناقب صدى لذلك، ونقتبس منها مثالا لما كان بين ملوك الدولتين. فقد توجهت سفارة من تلمسان إلى فاس من أجل الصلح بين السلطان أبي عثمان بن يغمراسن العبدلوادي والسلطان أبي يعقوب المريني وكان في هذه السفارة الشيخ الصوفي إبراهيم بن يخلف التنسي وخطيب الحضرة، ولد حاجب الدولة عثمان بن عامر وبعد وصولهما إلى فاس واستقبال السلطان لهما «طلب الخطيب من السلطان أن يخلو به فخلا به وفاوضه في حديث، وأطلعه على أسرار، وتمادى في حديثه إلى أن وقع في سلطانه بقبيح من القول، وكان السلطان أبو عثمان الزياني قد أهدى للسلطان أبي يعقوب رومية وسيمة وأجرى لها رزقا يبعث لها في كل حين على أن تعرفه بالأخبار، وكانت واقفة خلف الحجاب، فكتبت إليه بالمجلس على التفصيل، وعرفته بأمارات لا يعرفها إلا أبوه، فقتلا بعد وصوله إلى تلمسان قتلا شنيعا وانتهبت أموالهما وسُبي من لهما من الأهل». ومن هذه الحكاية وغيرها نلمس الفوائد التاريخية في هذه المناقب، ولعلها تتكامل مع بعض ما يوجد في «المسند الصحيح الحسن» للؤلف نفسه.

وبعد، فقد ختمت الدكتورة سلوى دراستها للكتاب بأن أهميته تبرز في كونه يقدم ترجمة ذاتية له ولأسلافه، ويسلط الضوء على رحلته الحجازية مع والده، كما أنّه يحفل بإشارات عديدة إلى جوانب سياسية واجتماعية وثقافية من تاريخ الغرب الإسلامي في القرن الثامن الهجري.

وهو لا يعتبر مصدرا من مصادر التاريخ المشترك بين الأقطار المغاربية فحسب، ولكنه يعتبر أيضا وثيقة تؤرّخ للتواصل بين المغرب والمشرق.

د. محمد بنشريفة

مقدمة
حول مشروعية البحث ومنهجه

تفيض الخزانات في العالم الإسلامي، ومن ضمنها الخزانات المغربية، بالمخطوطات التراثية النفيسة، ومع ذلك، وبتأمل فهارسها، يتبين أنه لم يُحقّق منها إلا النزر اليسير.

ومن المسلم به حاليا أن تقدم البحث التاريخي يظل رهينا بمدى إسهام الباحثين في الحفر داخل التراث المخطوط وتحقيقه تحقيقا علميا، حتى يتسنى الاستفادة منه وتقويمه بشكل صحيح. ولا ريب كذلك في أن "عملية تحقيق النصوص التراثية هي عملية مشروعة"، كما أنه لا أحد يجادل في كون التحقيق "يمثل إحدى المحطات الأساس في البحث العلمي"(1).

ذلك ما دفعني دفعا إلى الانفتاح على عالم المخطوطات، فكان مجموع ابن مرزوق جسراً اقتحمت من خلاله هذا العالم الذي اختلط فيه التاريخ بالتصوف، وامتزجت فيه المعرفة بالموعظة.

ومن المعلوم أن التراث الصوفي عامة، والمؤلفات المناقبية بصفة خاصة، أصبح يثير اهتمام الباحثين منذ مدة. فالبحث التاريخي بالمغرب العربي بدأ يولي أهمية خاصة لهذا الأدب، لما يقدمه من إمكانات البحث في التاريخ الاجتماعي والديني عامة، وفي تاريخ تكوُّن المخيال والعقليات بالمغرب الإسلامي بصفة خاصة(2)، ويتجه البحث التاريخي حاليا، أكثر فأكثر، نحو إقرار قيمة كتب المناقب، ليس فقط كمصادر من مصادر التاريخ المغربي، بل كمصادر تُعتبر "قرابتُها" مع التاريخ أكبر وأوثق من المصادر المسماة بـ "التاريخية" نفسها ؛ ثم إن "للتاريخ وأدب المناقب من نقط الالتقاء وأوجه الاختلاف ما

(1) محمد التميمي، **المستفاد في مناقب العباد**. تحقيق د. محمد الشريف، الرباط، 2002، ج 1، ص 6 من مقدمة المحقق.

(2) دة. نللي سلامة العامري، **الولاية والمجتمع : مساهمة في التاريخ الديني والاجتماعي لإفريقية في العهد الحفصي**، جامعة منوبة، تونس، 2001، ص 32

يدعو إلى الربط بينهما على أكثر من مستوى"[3]. ولذا لا يمكن للمؤرخ بصفة عامة، وليس لمؤرخ الظواهر الدينية فحسب، أن يتجاهل هذا النوع من المصادر، بما إنها تزخر بالإشارات النابضة عن المجتمع المغربي بمختلف فئاته. وقد وُصفت كتب المناقب المغاربية بأنها تقدم "صورة لذلك المجتمع بمختلف تناقضاته ومكبوتاته وطموحاته... وعن الجوع والفقر والآفات الاجتماعية، وغيرها من المعلومات التي تندرج في إطار التاريخ الاقتصادي والاجتماعي. وباختصار، فإن هذه المؤلفات هامة بالنسبة للمؤرخ المتفطن الذي يستطيع أن يخلص خيوط الواقع من الأسطورة"[4].

وعلى الرغم من هذه الأهمية الكبيرة لكتب المناقب فإن المجهود التحقيقي المكرس لها ما يزال ناقصا. إذ إن الأدب المناقبي ما يزال مخطوطا في مجمله، ولم يحقق منه إلا القليل، خاصة في السنوات الأخيرة، التي ظهر خلالها :

- "**المنهاج الواضح في تحقيق كرامات الشيخ أبي محمد صالح**"[5]، لإبن أبي محمد صالح الماجري، المتوفى منتصف القرن الثامن الهجري ؛
- وطبع "**أنس الفقير وعز الحقير**"، لابن قنفذ القسنطيني[6] ؛
- وطبع كتاب "**تحفة المغترب ببلاد المغرب**" (في كرامات الشيخ أبي مروان اليحانسي) على يد المستعرب الإسباني فرناندو دي لا غرانخا[7] ؛
- تحقيق كتاب "**المقصد الشريف**"، لعبد الحق البادسي، على يد المرحوم سعيد أعراب[8] ؛

---

(3) محمد القبلي، الكلمة التقديمية لكتاب : **التاريخ وأدب المناقب**، منشورات الجمعية المغربية للبحث التاريخي، عكاظ، 1989، ص 7، وكذلك : وعن التداخل بين المناقب وكتب الأخبار : انظر عبد الأحد السبتي، "**أخبار المناقب ومناقب الأخبار**" ضمن نفس الكتاب، ص 93 وما بعدها،

Kably M., Société, pouvoir et religion au Maroc à la fin du Moyen Age, Paris, 1986, p. XXX

(4) د. محمد حسن، **المدينة والبادية بإفريقية في العهد الحفصي** ، ج 1، منشورات كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، تونس، 1999 ، ص 23.

(5) صدر بالقاهرة، من دون تحقيق، سنة 1933 توجد نسخة مرقونة من هذا الكتاب بخزانة كلية الآداب بتطوان، وهي بحث لنيل الإجازة في التاريخ تحت إشراف ذ. محمد الشريف (السنة الجامعية 1993-1994) في جزئين. وحققه عبد السلام السنغيدي لنيل دبلوم الدراسات العليا بكلية الآداب بالرباط عام 1992-1993.

(6) حققه محمد الفاسي وأدولف فور، وأصدراه ضمن منشورات المركز الجامعي للبحث التاريخي سنة 1965.

(7) صدر بمجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمدريد، المجلد 17، 1972-1973.

(8) صدرت الطبعة الأولى سنة 1982 والطبعة الثانية سنة 1993.

– ونشر "**مناقب أبي يعقوب الزهيلي البادسي**"[9] ؛
– وإعادة تحقيق كتاب "**التشوف إلى رجال التصوف**"، لابن الزيات التادلي[10] ؛
– وإعادة طبع كتاب "**رسالة روح القدس**"، لمحيي الدين بن عربي أكثر من مرة[11]، كما ترجمت إلى اللغة الفرنسية[12] ؛
– وإعادة تحقيق "**السلسل العذب والمنهل الأحلى**"، لمحمد بن أبي بكر الحضرمي[13]؛
– وتحقيق "**دعامة اليقين في زعامة المتقين**" (مناقب الشيخ أبي يعزى)، لأبي العباس أحمد العزفي[14] ؛
– وإعادة طبع كتاب "**البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان**"، لابن مريم التلمساني سنة 1986 [15] ؛
– وتحقيق وترجمة "**رسالة صفي الدين بن أبي منصور الأنصاري**" المتوفى سنة 682هـ[16] ؛
– وتحقيق كتاب "**الروض العطر الأنفاس بأخبار الصالحين من أهل فاس**"، لابن عيشون[17] ؛
– وتحقيق كتاب "**سبك المقال لفك العقال**"، للشيخ عبد الواحد ابن الطواح[18] ؛

---

(9) صدرت ضمن كتاب أحمد البوعياشي : **حرب الريف التحريرية ومراحل النضال**، الجزء الأول، طنجة (د. ت) ص 301-343.
(10) تحقيق ذ. أحمد التوفيق 1984، وقد صدرت ترجمة فرنسية لكتاب التشوف مؤخرا. وكانت الطبعة الأولى من التشوف قد صدرت سنة 1958 على يد أدولف فور.
(11) نشرها أول مرة المستعرب الإسباني آسين بلاسيوس سنة 1939، وصدرت آخرها بعناية محمود محمود الغراب عن مطبعة نضر، دمشق، الطبعة الأولى، 1985، الطبعة الثانية، 1994.
(12) ترجمها إلى الفرنسية Austin بعنوان *Les Saints d'Andalousie* وصدرت بباريس سنة 1979.
(13) على يد ذ. مصطفى النجار سنة 1988 وكان قد نشره أول مرة الأستاذ محمد الفاسي بمجلة معهد المخطوطات العربية، المجلد العاشر، الجزء الأول، 1966.
(14) صدر سنة 1989 بتحقيق أحمد التوفيق.
(15) صدر ضمن ديوان المطبوعات الجزائرية بعناية عبد الرحمان طالب وكانت الطبعة الأولى منه قد صدرت بالجزائر سنة 1908 بتحقيق ابن أبي شنب وترجم إلى اللغة الفرنسية سنة 1910 على يد F. Provenzali بعنوان : *Bostan ou jardin des biographies des saints et savants de Tlemcen*.
(16) تضم عدد كبير من تراجم أولياء المغرب والأندلس، وقد حققها وترجمها إلى الفرنسية ديني جريل، وصدرت سنة 1986 بالقاهرة، وأعيد نشرها تحت عنوان **سير اولياء في القرن السابع الهجري**، بتحقيق مأمون محمود ياسين وعفت وصال حمزة، بيروت، د. ت.
(17) صدر ضمن منشورات كلية الآداب بالرباط، بتحقيق فاطمة الزهراء النظام سنة 1997.
(18) صدر ضمن منشورات دار الغرب الإسلامي ببيروت سنة 1995 بتحقيق محمد مسعود جبران.

– وتحقيق كتاب "**السر المصون فيما أكرم به المخلصون**"، لطاهر بن محمد الصدفي[19] ؛
– وتحقيق كتاب "**المعزى في مناقب الشيخ أبي يعزى**"، لأحمد التادلي الصومعي[20] ؛
– وتحقيق كتاب "**المستفاد في مناقب العبّاد بمدينة فاس وما يليها من البلاد**"، لمحمد بن عبد الكريم التميمي الفاسي[21] ؛

ويمكن القول إن أكثر ما حُقق من مؤلفات مناقبية خلال النصف الأول من القرن الماضي (القرن العشرين) في حاجة إلى إعادة تحقيق، على ضوء ما استجدّ من نسخ مخطوطة. وهناك مؤلفات مُحققة، ولكن ما تزال مرقونة، منها :

– كتاب "**إثمد العينين ونزهة الناظرين في مناقب الأخوين**"، لأبي محمد عبد الله ابن تجلات[22] ؛
– كتاب "**بهجة الناظرين وأنس العارفين**"، لابن عبد العظيم الآزموري[23] ت. بداية القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي.

وهناك مؤلفات ما زالت مخطوطة، من بينها على سبيل الذكر :

– "**النجم الثاقب فيما لأولياء الله من مفاخر المناقب**"، لأبي عبد الله محمد بن صعد التلمساني[24] ؛
– "**تقييد في ذكر شرفاء المغرب وصلحائه وقبائله**"، لعبد العظيم الآزموري[25] ؛
– "**الوسيلة إلى المرغوب في كرامات الشيخ الوالي أبي يعقوب**"[26] ؛
– "**مناقب أبي يعزى آل النور**"[27] ؛

(19) تحقيق ذ. حليمة فرحات، دار الغرب الإسلامي، 1998.
(20) صدر ضمن منشورات كلية الآداب بأكادير سنة 1996، بتحقيق الأستاذ علي الجاوي.
(21) صدر ضمن منشورات كلية الآداب بتطوان سنة 2002، بتحقيق د. محمد الشريف.
(22) تحقيق محمد رابطة الدين، رسالة د. د. ع. كلية الآداب الرباط، نوقشت سنة 1986.
(23) حققها الأستاذ محمد المازوني ملحقة برسالته لنيل دبلوم الدراسات العليا سنة 1986-1987 حول "**آل أمغار في تيط وتامصلوحت**" (نسخة مرقونة بكلية الآداب بالرباط). قلت : كنت قبل هذه الرسالة كتبت عنه بحثا نشر في مجلة دعوة الحق ع. 262 وحاضرت به في الجديدة سنة 1980.
(24) توجد أجزاء منه مخطوطة في عدد من الخزانات منها الخزانة ع. بالرباط رقم : 1292، والخزانة الداودية بتطوان رقم 53 صعن
(25) مخطوط الخزانة العامة بالرباط رقم د 1512.
(26) مخطوط الخزانة العامة بالرباط رقم 9447.
(27) مخطوط الخزانة العامة بالرباط رقم 2100د/1.

– "**كتاب في تراجم الأولياء**" لمؤلف مجهول، لعله من القرن السابع الهجري"[28].

هذا ولم يكن المغرب الأقصى الوحيد الذي أنتج أدبا مناقبيا غزيراً. إذ لم تخل إفريقية (تونس) من هذا النوع الأدبي التاريخي. بل لعلها كانت رائدة في هذا الميدان بتأليف كتاب "**رياض النفوس**"، لأبي بكر عبد الله المالكي القيرواني (توفي سنة 474 هـ)، ثم بعده كتاب "**معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان**"، لأبي زيد عبد الرحمان الدباغ، المتوفى سنة 696 هـ. وقد طبعت "**مناقب عائشة المنوبية**" (ت 665 هـ) سنة 1925 [29].

ونجد بدار الكتب الوطنية بتونس مجموعة من المؤلفات المخطوطة[30] نذكر منها :

– مناقب أبي الحسن الشاذلي، لابن الصباغ الحميري[31].
– تعريف أولياء الأربعين أصحاب الشاذلي[32].
– "الأسرار الجلية في المناقب الدهمانية"، لأبي زيد عبد الرحمان ابن الدباغ[33].
– مناقب أبي سعيد الباجي، لعلي بن محمد الهواري[34].
– مناقب محرز بن خلف، لمحمد بن الحسن الفارسي[35].
– مناقب أبي عبد الله محمد المغربي (ت. 996 هـ)[36].
– ابتسام الغروس في مناقب ابن عروس (ت. 868 هـ).
– مناقب أحمد التباسي (ق 9 هـ)، لأبي الحسن علي بن ميمون الغماري[37].

---

(28) مخطوط الخزانة العامة بالرباط رقم ج 1271.
(29) طبعت بدون تحقيق بتونس سنة 1344 هـ. وتوجد مخطوطة دار الكتب الوطنية بتونس رقم 17945، 18221.
(30) أفردت رجاء فنيش دواس بحثا بعنوان "**دراسة تحليلية وبيبليوغرافية لمخطوطات التصوف بدار الكتب الوطنية التونسية**"، لنيل شهادة التعمق في البحث (تاريخ)، جامعة تونس الأولى، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، 1989 (لم نتمكن من الحصول على هذا البحث).
(31) مخطوط دار الكتب الوطنية بتونس رقم 17945، 18221، 18555.
(32) مخطوط دار الكتب الوطنية بتونس رقم 18555 نسخة أخرى رقم 18221 ورقم 18441.
(33) مخطوط دار الكتب الوطنية بتونس رقم 17944.
(34) مخطوط دار الكتب الوطنية بتونس رقم 18419، 17945.
(35) مخطوط دار الكتب الوطنية بتونس رقم 18105، 18419، 18441.
(36) مخطوط دار الكتب الوطنية بتونس رقم 18441.
(37) مخطوط دار الكتب الوطنية بتونس رقم 18110.

وغيرها من المخطوطات التي زادت على الثلاثين، وكلها ترجع إلى الفترة الوسيطة (القرن الخامس الهجري- القرن التاسع الهجري)، حسبما تورد الباحثة التونسية نللي سلامة العامري، في أطروحتها[38].

والجدير بالذكر أن المدرسة الاستعمارية الفرنسية كانت سباقة للاهتمام بهذا النوع من المؤلفات، وذلك في سياق بحثها عن جذور المعتقدات الشعبية للمغاربة، وأسباب تقديسهم لأضرحة الأولياء ولرباطاتهم. فقد عمد المستعرب الفرنسي جورج كولان G. Colin منذ سنة 1926 إلى ترجمة كتاب "**المقصد الشريف**" لعبد الحق البادسي، ونشره بالمجلد 26 من سلسلة "المحفوظات المغربية" Archives Marocaines التي كانت تصدرها "البعثة العلمية" Mission Scientifique وهي البعثة التي حُددت مهمتها في "البحث في عين المكان عن الوثائق القمينة بدراسة المغرب، وفهم تنظيمه الاجتماعي، عن طريق الكتب والمخطوطات والروايات الشفوية، وتراث القبائل والأسر، إلخ..."[39]. واستتبع ذلك ظهور مجموعة من المنغرافيات والدراسات الفرنسية حول المعتقدات الدينية للمغاربة، لا تخلو من محاولة لربطها بالماضي الوثني[40] . ثم عمد أدولف فور A. Faure سنة 1958 إلى إصدار كتاب "**التشوف إلى رجال التصوف**"، ضمن مطبوعات معهد الأبحاث العليا المغربية (الجزء الثاني عشر)، وكان لهذا الرجل اهتمام خاص بالنصوص المناقبية، إذ نجده يشترك مع الأستاذ محمد الفاسي بعد ذلك، في تحقيق كتاب "أنس الفقير وعز الحقير"، لابن قنفذ القسنطيني، وأصدراهُ ضمن منشورات المركز الجامعي للبحث التاريخي، سنة 1965.

لكن هذا الاهتمام سرعان ما انتقل إلى "المدرسة" التاريخية المغربية الحديثة المنادية بضرورة الانفتاح على المصادر التاريخية التي ظلت إلى وقت قريب، خارج دائرة المؤرخ ؛ وعلى رأسها : المصادر الفقهية (كالنوازل) وكتب التراجم والأنساب، وكتب الطب والفلاحة والنبات، ومؤلفات البدع، والكناشات، وكتب المناقب...

(38) نللي سلامة العامري، **الولاية والمجتمع**، م.س.، ص 547-549.

(39) Michaux Bellaire, «*La Mission Scientifique du Maroc*», Rabat, Services des Renseignements, 1925, p. 22.

(40) Basset, H., "Recherche sur la religion des Berbères", *Revue de l'histoire des religions*, LXI, 1910, pp. 291-341.

Douté, E, *Notes sur l'Islam en Berbérie, Revue de l'histoire des religions*, n° 40, 1900.

Drague G. *Esquisse d'histoire religieuse du Maroc, Confréries et Zaouias*, Paris, 1950.

Michaux Bellaire, E. "*Les confréries religieuses au Maroc*", *Archives Marocaines* XXVII, 1927.

Dermenghen, E, *Le culte des saints dans l'Islam maghrébin*, 2e éd, Paris, 1982.

إلخ؛ مقتفية بذلك، على ما يبدو، أثر توجهات "مدرسة الحوليات" الفرنسية، المنادية بتوسيع مفهوم الوثيقة التاريخية، والاهتمام بمختلف آثارها المتمثلة في الرحلات، والأساطير، والتراث الشفوي، والمذكرات الحميمية، والرسوم الدينية، وأدب المناقب... إلخ؛ كما دعت إلى توسيع مجال التاريخ والانفتاح على "مواضيع جديدة"، واستعمال "مقاربات جديدة"[41]. وظهرت مجموعة من الدراسات الحديثة الموظفة للأدب المناقبي، سواء في ميدان البحث التاريخي، أو في ميادين أخرى من العلوم الاجتماعية، كالسيميائيات والأنتروبولوجيا[42]. ولعل أبرز من يمثل هذا التوجه الجديد في التعامل مع الأدب المناقبي في الدراسات التاريخية المهتمة بالعصر الوسيط بالمغرب هما : الأستاذ إبراهيم القادري بوتشيش، والأستاذة حليمة فرحات، ومن نحى منحاهما[43] ؛ الأول في أطروحته حول "الحياة الاجتماعية بالمغرب والأندلس خلال عصر المرابطين"، وهي الأطروحة التي خَصص جزءها الثالث للبحث في تاريخ "**المجتمع والذهنيات والأولياء**"، معتمداً في ذلك بدرجة كبيرة على ما تقدمه كتب المناقب المغربية من معطيات حول البنيات الاجتماعية، والعقليات السائدة آنذاك[44] ؛ والثانية في كتابها حول "التصوف والزوايا ببلاد المغرب"[45]، وفي مجموعة من المقالات حول كتب المناقب المغربية[46]، ضمَّنَتْها كتابها "بلاد المغرب في القرنين الثاني عشر والثالث عشر : **قرون الإيمان**"[47]. ولقد تعددت الدراسات المتعلقة بتاريخ

---

(41) التميمي، **المستفاد**، 12/1، 11 ؛ محمد الشريف، **الغرب الإسلامي، نصوص دفينة ودراسات**، ط 2، ص 4-72.

(42) انظر مثلا : التاريخ وأدب المناقب (كتاب جماعي)، منشورات الجمعية المغربية للبحث التاريخي، عكاظ، الرباط، 1989؛ د. محمد مفتاح، **الخطاب الصوفي : مقاربة وظيفية**، توزيع مكتبة الرشاد، الدار البيضاء، 1997.

Zeggaf A., *Des récits hagiographiques marocains. Essai d'analyse morphologique et mythologique*, thèse d'Etat, Université de Toulouse,1988.

(43) مثلا : د. الحسين بولقطيب، "**الكرامة والرمز : كرامات أولياء دكالة خلال عصريْ المرابطين والموحدين نموذجا**"، دراسات عربية (بيروت)، العدد 4 3 ، يناير/ فبراير، 1996، ص 70-80.

(44) ناقش الدكتور إبراهيم القادري أطروحته المعنونة بـ "الحياة الاجتماعية في المغرب والأندلس خلال عصر المرابطين" سنة 1991. وصدر قسمها الثالث – المشار إليه في المتن– في كتاب مستقل سنة 1993 ببيروت.

(45) Halima Ferhat, *Le soufisme et les Zaouyas au Maghreb*, Toubkal, Rabat, 2003.

(46) Halima Ferhat et Hamid Triki, *"Hagiographie et religion au Maroc médiéval"*, Hespéris-Tamuda, vol. XXIV, 1986, pp. 17- 51.

(47) Halima Ferhat, *Le Maghreb aux XIIe et XIIIe siècles : Les siècles de la foi*,Wallada, Casablanca, 1993.

المغرب الحديث والمعاصر، ونهلتْ بدورها من الأدب المناقبي، الذي ازداد انتشاراً وتشعبا[48].

ومن المعلوم أن لكتب المناقب كثير من الخصائص التي تقربها من كتب التراجم العامة. بل إنه يصعب في كثير من الأحيان التمييز بين هذين الصنفين من التأليف. ولعل هذا الأمر هو الذي دفع بالأستاذة حليمة فرحات إلى إدراج كتاب "**المسند الصحيح الحسن في مآثر مولانا أبي الحسن**"، لمؤلفه محمد ابن مرزوق الجد، ضمن كتب المناقب[49]، على الرغم من أنه أقرب إلى كتب التاريخ وكتب التراجم الفردية منه إلى كتب المناقب.

ولئن كان حضور عنصر الكرامة هو الطابع المميز لكتب المناقب عن غيرها من كتب التراجم، فإن كتاب "**المسند الصحيح الحسن**" يفتقد لهذا العنصر. وهذا لا يعني أن مؤلفه ابن مرزوق لم يكن يؤمن بالكرامات، ولا بجواز وقوعها ؛ بل إنه يورد من أخبار السلطان المريني ما يشبه الكرامات. ولقد أصبحت الكرامة عنصراً محوريا في مؤلفه الآخر، الذي هو موضوع هذا الكتاب.

لقد ظل مخطوط "**المناقب المرزوقية**" مجهولا لدى الباحثين والمهتمين بتاريخ المغرب ومصادره، إلى أن ظهرت نسخة مخطوطة منه ضمن جائزة الحسن الثاني للمخطوطات والوثائق لسنة 1979. ولكن لم يلتفت إليها الباحثون، ولا أعاروها اهتماما، ولم يعرّف بها أحد، لا في مقال، ولا في نشرة علمية. بل ساد الاعتقاد أنها نسخة من فهرسة ابن مرزوق الموسومة بـ"**عجالة المستوفز...**"، وهو العنوان الذي نجده مثبتا على شريطها في الخزانة العامة بالرباط. بل إن مصوّرة الدكتور عبد الله المرابط الترغي من هذه المخطوطة تضم العبارة التالية : "أخبرني الدكتور محمد بن شريفة أن نسخة أخرى من هذا المخطوط توجد بالخزانة الحسنية"، ولعل المقصود بذلك، نسخة الخزانة الحسنيّة الوحيدة، من "عجالة المستوفز"، المعروفة لدى المهتمين بكونها "نسخة رديئة جداً، متلاشية مرممة الأوراق، مطموسة الكتابة"[50]. ولئن كنا لا

(48) انظر : د. عبد الله المرابط الترغي، "**كتب التراجم العامة وكتب المناقب خلال عصر المولى إسماعيل (1082– 1139 هـ)**"، مجلة المناهل، وزارة الشؤون الثقافية، العدد 51، 1996 ؛ عبد اللطيف الشاذلي، **التصوف والمجتمع : نماذج من القرن العاشر**، منشورات جامعة الحسن الثاني، سلا، 1988.

(49) Halima Ferhat, *Le Maghreb aux XIIe et XIIIe siècles*, op.cit, p. 27.

(50) انظر : فهارس الخزانة الحسنية، ج 2 (فهرس قسم التاريخ والرحلات والإجازات)، المطبعة الملكية، الرباط، 2000، ص 737.

نستبعد وجود نسخة من "المناقب المرزوقية" ضمن إحدى المجاميع الغير مفهرسة بهذه الخزانة العامرة، فإننا لم نتوفق في العثور عليها، رغم إصرارنا وإلحاحنا في السؤال عنها.

وبالنظر إلى حالة هذه المخطوطة الأولى من "المناقب المرزوقية"، وما أصابها من سقط وخروم واختلاط في ترتيب الأوراق، وغيرها من العيوب والنواقص، لم يكن من الوارد المجازفة بالاشتغال عليها، أو اتخاذها موضوع أطروحة، على الرغم مما كان يخالجنا من رغبة شديدة للإقدام على ذلك.

ولم يكن الحصول على نسخة مخطوطة ثانية من هذا العمل بالشيء الهين، فقد استفرغنا جهداً في تصفح فهارس المكتبات والخزائن العمومية، وكاتبنا عدداً من العلماء والباحثين الذين لهم إلمام بالتراث المغاربي، في كل من المغرب والجزائر وتونس، نستفسرهم عن إمكانية وجود أثر لهذا المؤلف في مكتبة من المكتبات، أو ضمن مجموع غير مفهرس ؛ فأكدوا عدم معرفتهم بالمخطوط. ويسر الله تعالى سبل الحصول على نسخة ثانية من هذا المخطوط بفضل إشارة حميدة من الأستاذ الباحث المطلع، السيد عبد العزيز الساوري، الذي هداني إليها، وهي بدورها من ضمن جوائز الحسن الثاني للمخطوطات والوثائق لسنة 1996، وفُهرست هي الأخرى، تحت عنوان غير دقيق، لا يعكس محتواها وهو : "تقييد في شيوخ ابن مرزوق"، بما يوحي بأنها فهرسته "عجالة المستوفز".

وحينما حصلت على مصورة من المخطوطة الثانية، وقابلت النسختين تبين لي أنهما نسختان متكاملتان لا علاقة لهما بفهرسة ابن مرزوق، ومن شأن تكاملهما أن ييسر إخراج نسخة مقبولة، تطمئن إليها نفس الباحثين.

وبالفعل، ما كان ساقطا في النسخة الأولى احتفظت به النسخة الثانية كاملا، وما أتت عليه الأرضة من النسخة الثانية نجى منها في النسخة الأولى. وبذلك تكاملت النسختان، وغطت الواحدة منها على عيوب الثانية. ولذلك عزمت على جعل المخطوط موضوع دكتوراه، بعدما تبين لي أهميته التاريخية، وما يمثله من إضافة نوعية إلى رصيد المكتبة التراثية المغربية.

لقد انقسم العمل في هذا الكتاب إلى مرحلتين متكاملتين : أولهما مرحلة التحقيق والتعليق والمقابلة بين النسختين، وثانيهما مرحلة الدراسة. فعمدت في المرحلة الأولى

إلى نقل المجموع، واستخراج ما تضمنه من أعلام بشرية وجغرافية، والتعريف بأكبر عدد منها، بالإضافة إلى استخراج الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، وكذا أسماء القبائل والجماعات وأسماء الكتب، والمصطلحات الحضارية.

هذا فيما يخص عملية التحقيق، أما فيما يتعلق بمرحلة الدراسة، فلقد تلخصت في تقديم هذا العمل بمقدمة شاملة حول الأوضاع العامة ببلاد المغرب في القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، وألحقت بها ترجمة مفصلة لابن مرزوق، مؤلف "المناقب المرزوقية"، إضافة إلى توضيح مضمون النص المحقق، وإبراز قيمته، وفحصه من الداخل، بتناول مصادره، ومنهجيته، وأسلوبه، وظروف تأليفه، وغيرها من المواضيع التي أضاءت الإطار العام للنص، فضلا عن وصف المخطوطتين المعتمدتين في التحقيق، والمنهجية المتبعة في ذلك.

والحال أن دراسة هذا المخطوط، لم تكن لتكتمل لولا الاحتكاك الدائم والمتواصل بأمهات المصادر والمراجع، التي كان لها بالغ التأثير في ثراء مادتي المعرفية، وتطوير تجربتي في ميدان التحقيق.

ولقد حتمت علينا عملية التحقيق والدراسة الرجوع إلى مختلف مصادر الغرب الإسلامي، مهما تباينت أصنافها، فنهلنا من معين كتب التاريخ، والرحلات، والتراجم، والمناقب، والفتاوى، واضطررنا في كثير من الأحيان للاستعانة بالمصادر المشرقية. على أن استفادتنا كانت متباينة من هذه المصادر، فقد **عولنا بالدرجة الأولى على مصادر القرن الثامن الهجري**، أي المصادر المعاصرة لابن مرزوق، وعلى رأسها كتاب "بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد"، لمؤلفه يحيى ابن خلدون الذي مكننا من ضبط عدد مهم من التراجم التي وردت في "المناقب المرزوقية"، وكذا كتاب "العبر"، وكتاب "التعريف بابن خلدون ورحلته شرقا وغربا"، وكلاهما لعبد الرحمان ابن خلدون ؛ ومؤلفات لسان الدين ابن الخطيب، كـ "الإحاطة في أخبار غرناطة"، و"ريحانة الكتاب" ؛ ومؤلفات ابن الأحمر (نثير فرائد الجمان، ونثير الجمان، وروضة النسرين...)، كما أفدنا كثيراً من مصنفات ابن مرزوق نفسه، وعلى رأسها "المسند الصحيح الحسن"، و"جنى الجنتين في فضل الليلتين" وغيرهما.

أما بالنسبة للدراسات الحديثة، فلئن كنت قد رجعت إلى مقالات ودراسات كل من الحاج صدوق، ومايا شاتزميلر، ومحمد بن شقرون، ومحمود بوعياد، وغيرهم،

وخاصة فيما يتعلق بالقسم الأول من هذا الكتاب المخصص لسيرة ابن مرزوق وآثاره العلمية، فإن عُمْدتي كانت هي الدراسة القيّمة التي صدّرتْ بها الباحثة الإسبانية، الدكتورة ماريا خيسوس بيغيرا، تحقيقها لكتاب "المسند الصحيح الحسن" لابن مرزوق الخطيب ؛ فعليها استندتُ، ومن معطياتها نهلتُ، ولبعض خلاصاتها وفرضياتها ناقشتُ وعدّلتُ.

تلك كانت لمحة موجزة عن موضوع الأطروحة، بما في ذلك مشروعية البحث وطبيعته، ومنهج التحقيق والدراسة. وأرجو أن تكون قد عكست ما بذلت من جهود، على امتداد فترة إنجازها، من مقابلة وتخريج وتصنيف وتبويب ودراسة. وعلى الرغم مما قد يعتور هذا البحث من قصور ونقص فإنه في الآن نفسه محاولة مخلصة مني للتعريف بهذا المتن وبصاحبه، أخذت مني جهداً كبيرا.

ولولا مساعدة وتشجيع ودعم علمي من ثُـلّة من الباحثين ذوي الفضل علي وعلى أطروحتي، لما استطعت الانتهاء منها، وفي مقدمتهم أستاذي الفاضل، الدكتور امحمد ابن عبود، الذي قبل الإشراف عليها بصدر رحب، وتواضع علمي جمّ، والأستاذ الدكتور محمد مفتاح، والأستاذ الدكتور عبد الله المرابط الترغي، والأستاذ الدكتور محمد الشريف، والأستاذ الباحث عبد العزيز الساوري. والأستاذ الدكتور محمد المغراوي، والأستاذة الدكتورة مارية خيسوس بيغيرا، والأستاذ الدكتور محمد بنشريفة. فلكل واحد من هؤلاء السادة الأساتذة العلماء بصمة وأثر في ما هو إيجابي في هذا العمل، والفضل كل الفضل يرجع إليهم. أما ما قد يكون فيه من تقصير فمن أنفسنا، ومردّه إلينا.

فنسأل الله، سبحانه وتعالى، أن يثيبنا أجر المجتهد.

فصل تمهيدي

الأوضاع العامة ببلاد المغرب
في عصر ابن مرزوق الخطيب

لعل الطابع العام الذي ميز الحياة السياسية ببلاد المغرب خلال عصر ابن مرزوق هو الفوضى وعدم الاستقرار، وما يتبع ذلك من تدهور في الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والثقافية. بل إن التراجع والانحطاط هي أهم سمات العالم الإسلامي قاطبة خلال القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي. فقد كان هذا القرن قرن تفكك الوحدات السياسية الكبرى التي حملت مشعل الحضارة الإسلامية في المغرب والمشرق. فالدولة العباسية أصبحت أثرا بعد عين، والإمبراطورية الموحدية بدورها تلاشت واضمحلت، والحروب بين الدويلات والإمارات المنبثقة عنها كانت لا تهدأ إلا لتشتد، والضغط المسيحي يستأصل الوجود الإسلامي في أهم الحواضر الأندلسية. وفضلا عن هذا وذاك، كان القرن قرن مجاعات وأوبئة، مع انعكاساتها السلبية على مختلف الميادين.

وقبل أن نفصل القول في هذه المعطيات، لا بأس من إيراد نص بليغ من مقدمة ابن خلدون، يبرز فيه، بقتامة منقطعة النظير، أهم معالم القرن الثامن ببلاد المغرب. يقول صاحب "المقدمة" : "**وأما لهذا العهد، وهو آخر المائة الثامنة**، فقد انقلبت أحوال المغرب **الذي نحن شاهدوه** وتبدلت بالجملة، واعتاض عن أجيال البربر أهله على القدم بمن **طرأ فيه من لدن المائة الخامسة** من أجيال العرب بما كسروهم وغلبوهم وانتزعوا منهم **عامة الأوطان**، وشاركوهم **فيما** بقي من البلدان لملكهم. هذا إلى ما نزل بالعمران شرقا **وغربا في منتصف** هذه المائة الثامنة من **الطاعون** الجارف، الذي تحيف الأمم وذهب **بأهل الجيل**، وطوى كثيرا من محاسن العمران ومحاها، وجاء **للدول على حين هرمها وبلوغ الغاية من مداها**، فقلص من ظلها وفل من حدها، وأوهن من سلطانها، وتداعت إلى **التلاشي والاضمحلال** أحوالها، وانتقص عمران الأرض بانتقاص البشر، **فخربت الأمصار والمصانع**، ودرست السبل والمعالم، وخلت الديار والمنازل، **وضعفت الدول والقبائل**، وتبدل الساكن، وكأني بالمشرق قد نزل به ما نزل بالمغرب، لكن على نسبته ومقدار عمرانه، **وكأنما نادى لسان الكون في العالم بالخمول والانقباض فبادر بالإجابة**"[51].

(51) **المقدمة**، طبعة علي عبد الواحد وافي، القاهرة، 1965، ج 1 ، ص 405-406 ؛ وانظر كذلك د. محمد رزوق، "**الرؤية الخلدونية للحضارة الإسلامية**"، أعمال الملتقى الدولي الثاني عن ابن خلدون، المنعقد بفرندة، 1986، ط. الجزائر، 1992، ص 45-58.

- أولا : الأوضاع السياسية

خلف تفكك الدولة الموحدية – التي كانت قد تمكنت من بسط سلطتها على بلاد المغرب الإسلامي وجزء من الأندلس– ثلاث وحدات سياسية وهي : الدولة الحفصية (بإفريقية) والدولة الزيانية (بالمغرب الأوسط) والدولة المرينية (بالمغرب الأقصى). وحاول الحفصيون والمرينيون، عبثا، إحياء وحدة الإمبراطورية الموحدية بعد انهيارها، طارحين أنفسهم ورثة شرعيين للحركة الموحدية ولمشروع المهدي ابن تومرت. ولم تقنع أي دولة بالمناطق التي تأسست عليها، بل حاولت ضم بقية التركة الموحدية، إما بادعاء تمثيل استمرارية للدولة الموحدية (الشرعية الموحدية)، كما هو الأمر بالنسبة للدولة الحفصية، أو رغبة في التسلط والزعامة على الملك وعرش زناتة، كما هو الحال بالنسبة للدولتين المرينية والزيانية.

وعلى الرغم من أن هذا الصراع لم يغير الخريطة الجيو سياسية للمنطقة جذريا، ولم تتمكن أي دولة من فرض سيطرتها المطلقة والمستمرة على بقية الدول، لأن "الظروف العامة لم تكن مواتية"[52]، أو بسبب توازن القوى[53]، إلا أن هذا الصراع خلّف حالة من عدم الاستقرار السياسي والأمني في منطقة المغرب الإسلامي برمتها، وأهدر طاقات كبيرة، في وقت كان العالم الأوربي يشهد تحولات سوف تكون لها انعكاسات خطيرة على مستوى توازن القوى المسيحية والإسلامية، وكذا بين ضفتيْ البحر الأبيض المتوسط، الشمالية والجنوبية[54].

وكانت الدولة الزيانية (العبد – الوادية) أكثر تأثراً بالصراع بين القوى المغاربية، وأكثر عرضة له، بسبب موقعها الجغرافي الوسطي بين الدولتين الحفصية والمرينية، وبالتالي تعرضت إلى ضغط مستمر من هاتين الدولتين، منفصلة أحيانا ومتحدة أحيانا أخرى[55].

(52) العروي، **مجمل تاريخ المغرب**، م. س.، ج 2، ص 193.

(53) بوداود عبيد، **ظاهرة التصوف في المغرب الأوسط**، دار الغرب للنشر والتوزيع، الجزائر، 2003، ص 156.

(54) M.J.Viguira, *Le Maghreb mérinide : un processus de transfèrement,* in **La signification du bas Moyen Age**... p. 309.

عبد السلام الشدادي، "**المسلمون والبحر الأبيض المتوسط**"، ضمن كتابه : **ابن خلدون من منظور آخر**، ترجمة محمد الهلالي وبشير الفكيكي، دار توبقال، 2000، ص 63-68.

(55) بوداود عبيد، م. س. ص 157.

أ) الصراع الحفصي الزياني :

نجد صدى خافتا لهذا الصراع في "المناقب المرزوقية"، ولذلك سنكتفي بدورنا بإعطاء لمحة سريعة عنه.

لقد تلخص الصراع الحفصي الزياني في أمرين : الأمر الأول رغبة السلطنة الحفصية منذ استقلت بالمغرب الأدنى (افريقية) في فرض سلطتها على باقي بلاد المغرب الإسلامي- وهنا يأتي المغرب الأوسط في صدارة اهتمامات هذه السلطة بحكم الجوار- باسم الشرعية الموحدية؛ ذلك أن الحفصيين اعتبروا أنفسهم امتدادا للعرش الموحدي. والظاهر أن السلطان الحفصي أبا زكرياء يحيى بن أبي محمد (625-647هـ) ظل يخامره هذا الشعور وتلك الرغبة طوال فترة حكمه، بل ومنذ أن استقل بأمر إفريقية سنة 625 هـ. غير أن انشغاله باستتباب الأمر له أولا، ثم محاربته لبني غانية ثانيا، هو الذي أخّر الشروع في إنجاز هذا الطموح[56].

إن أول حملة سيرها السلطان الحفصي أبو زكرياء إلى تلمسان لفرض سلطانه عليها كانت أواخر سنة 639 هـ وأوائل سنة 640 هـ/2421م. هذه الحملة التي قادها بنفسه، وعبأ لها جيشا ضخما تراوح عدد رماته فقط ما بين أربعة وعشرين ألفا وأربعة وستين ألفا، وحوصرت المدينة عدة أيام قبل أن تقتحم أسوارها، ويعمل فيها وفي أهلها القتل والنهب والتخريب. ويتحدث ابن مرزوق عن "دخلة تلمسان" العنوية، واستباحها من قبل جيش أبي زكريا بن عبد الواحد، وما خلفه ذلك الاقتحام من خراب وضياع أملاك، ومنها "ضياع أكثر ما كان بيد أبي عبد الله الأكبر، والد جده"[57]. واستطاع يغمراسن بن زيان (633-681 هـ) الحفصي الفرار من المدينة والالتحاق بالجبال، صحبة مجموعة من أنصاره، ثم طلب الصلح من القائد المنتصر، وتم الاتفاق على انفصال عبد الوادي نهائيا عن الخليفة الموحدي بعد استرجاع منصبه بتلمسان، على أن يصبح من ذلك التاريخ تابعا للأمير الحفصي، وأن يذكر إسمه في الخطبة[58].

(56) روبار برونشفيك، **تاريخ إفريقية في العهد الحفصي**، ج 2، ص 50-53.

(57) المناقب المرزوقية، ص 172.

(58) ابن عذاري، **البيان**، قسم الموحدين، 361-362 ؛ الزركشي، **تاريخ الدولتين**، 29، **الذخيرة السنية**، 61 ؛ ابن خلدون، **العبر**، 7/166-167.

(59) ابن خلدون، **العبر**، 7/203.

ويبدو أن هذا الصلح ظل قائما، والدعوة لبني حفص على منابر تلمسان محترمة، إلى أن عطلها عثمان بن يغمراسن (681-703 هـ) أواخر القرن السابع الهجري[59]، مما أدى إلى تدهور العلاقة بين الطرفين من جديد.

وظل التوتر يطبع العلاقة بين الجانبين إما بسبب النزاع على بعض الأقاليم والمدن، كما هو الحال في الصراع الذي دار بينهما سنة 732 هـ للسيطرة على بجاية، حيث وجدت السلطة الحفصية دعما من السلطان المريني أبي الحسن (731-752 هـ)[60]، أو لفرض الشرعية كما حدث مع الحملات العسكرية على تلمسان لاحقا خلال القرن التاسع الهجري (سنة : 827 - 832 - 835 - 866 - 870)[61].

إن تعدد هذه الحملات لدليل على حالة الحرب التي كانت شبه مستمرة بين الدولتين، وعدم قدرة السلطة الحفصية فرض سيطرتها المطلقة على تلمسان، التي كانت تحدوها إرادة قوية نحو الاستقلالية في شؤونها الداخلية. لذلك كانت تشق عصا الطاعة كلما سمحت لها الفرصة في وجه الضغط الحفصي. وبالمقابل كانت هذه الحروب المتكررة تشيع حالة من الفوضى وعدم الاستقرار، وتستهلك طاقات وموارد باستمرار، مما شكل نزيفا حقيقيا لإمكانات الدولتين.

ب) الصراع المريني العبدلوادي

أما الصراع المريني العبدلوادي، فكان أشد وأنكى، ودار على اختلاف بواعثه المعلنة حول رياسة زناتة، وملك المناطق التي تنتشر بها هذه القبيلة البربرية الكبيرة[62]. ومما أجج ذلك الصراع تجاور الحيين، وعدم تكن أحدهما من فرض سيطرته المطلقة على الآخر. وبهذا الصدد يؤكد د. محمد القبلي أن "القرن الرابع عشر يمتاز على مستوى المغرب الكبير بتطاحن دائم على جميع المستويات بين فاس وتلمسان"[63]. إذ إن الحملات المرينية الموجهة ضد دولة بني عبد الواد لم تنقطع طوال القرن الثامن الهجري، حتى عد هذا الأخير قرن الحروب بين الدولتين[64]. ومن الواضح أن هذه الصراعات كان محركها الأساسي هو رغبة المرينيين في انتزاع زعامة المغرب

---

(60) ابن خلدون، **العبر**، 228/7، 226..

(61) عن هذه الحملات انظر : برونشفيك، **تاريخ إفريقية في العهد الحفصي**، في صفحات متعددة.

(62) نفسه، 159.

(63) محمد القبلي، **مراجعات...**، م.س.، ص 82-83.

(64) عبد الله شريط ومحمد الميلي، **الجزائر في مرآة التاريخ**، قسنطينة، 1965، ص 100.

الإسلامي من يد الحفصيين بعد وفاة المستنصر الحفصي، وظهور بوادر الضعف والانقسام بتونس وتلمسان. فقد سير المرينيون أكثر من أربعة عشر (14) حملة ضد تلمسان، ابتداء من سنة 1272/671، وانتهاء بحملة سيرها أحد الوطاسيين سنة 804هـ /1401، وهي آخر حملة قبل نهاية الدولة المرينية[65]. يتعلق الأمر إذا بمجهود كبير، صرف في حروب مكلفة، لم تسفر في مجموعها سوى عن عشرين سنة من السيطرة المرينية الفعلية على عاصمة الزيانيين طيلة قرنين من عمر الدولة المرينية[66].

ويصعب علينا تتبع جميع هذه الحملات المرينية بتفصيل، لكننا سنقتصر على حملتين، ورد ذكرهما في "المناقب المرزوقية"، وهما حملة السلطان أبي يعقوب المريني على تلمسان، وحصاره التاريخي لها، ابتداء من شهر شعبان من عام 698هـ/ ماي 1299، وحملة السلطان أبي الحسن على تلمسان وإفريقية سنة 748 هـ/ 1347م.

ولا بد من التذكير بأن أولى المحاولات التي سيرها المرينيون لاقتحام تلمسان قد تمت على يد السلطان **أبي يوسف يعقوب** (656-685 هـ) الذي قام بمجهودات خارج المغرب الأقصى بمجرد استيلائه على مراكش سنة 668 هـ. وتخبرنا المصادر أن هذه المحاولة كانت بسبب عرقلة يغمراسن بن زيان لتحركات أبي يوسف في بلاد المغرب. وعلى هذا الأساس تقدم أبو يوسف بجيوشه إلى تلمسان لحصارها. واقتصر الأمر على عمليات تخريبية، وفشلت هذه المحاولة، إذ عاد أبو يوسف إلى المغرب بمجرد امتناع العاصمة العبدلوادية[67].

بعد الفشل الذي لقيه أبو يوسف في الأراضي العبدلوادية، وجه اهتمامه إلى المسألة الأندلسية، بحيث دخل في منافسة مع المسيحيين على مضيق جبل طارق، واصطبغت هذه المنافسة بصبغة الجهاد، والدفاع عن القضية الإسلامية.

---

(65) الحملات المرينية الأخرى وقعت في عهد أبي يعقوب يوسف سنة، 689 هـ/1290 وسنة 694 هـ/1295، وسنة 697 هـ/1298، وسنة 698 هـ/1299 وفي عهد السلطان أبي سعيد سنة 714 هـ/1314 وسنة 730 هـ / 1330 وفي عهد السلطان أبي الحسن سنة 735 هـ/ 1335 وفي عهد السلطان أبي عنان فارس سنة 753 هـ/ 1352 وفي عهد السلطان أبي سليم سنة 761 هـ/ 1360 وفي عهد السلطان أبي فارس سنة 772 هـ/ 1370 وفي عهد السلطان أبي العباس سنة 785 هـ/ 1383 وسنة 788 هـ/1387. (العبر، ج 7 وبغية الرواد، في مواضع مختلفة من الكتابين).

(66) عبد الله العروي، مجمل تاريخ المغرب، 205/2.

M. J. Viguira, *Le Maghreb mérinide : Un processus de transfèrement* p. 312

(67) ابن خلدون، العبر، 253/7-254.

ولقد فشلت سياسة أبي يوسف الأندلسية بسبب موقف الحاكم الغرناطي المتقلب والمتخوف من أطماع السلطان المريني[68] ؛ ولكنها فشلت بصفة خاصة، بسبب العداوة العبدلوادية التي كان حكام تلمسان يهدفون من ورائها إبعاد المرينيين عن مياه الزقاق[69].

مع وصول السلطان أبي يعقوب يوسف إلى السلطة في بداية سنة 685 هـ/1286 م عرفت السياسة المرينية تغيرات جذرية، تجلت في التخلي عن الأندلس، وإعطاء الأولوية للمسائل المغاربية. وهناك مجموعة من المؤشرات الدالة على أن المسألة الأندلسية لم تعد تحظى عنده بنفس الأهمية التي أضحت تكتسيها المسألة المغاربية لديه[70].

فرغم الصراع الحفصي الزياني عقب بداية انحلال الخلافة الحفصية بعد وفاة المستنصر (1277)، وانشغال الزيانيين بالجانب الغربي من افريقية، فإن حكام تلمسان لم يتخلوا عن إيقاد الكثير من الفتن في وجه السلطان أبي يعقوب، وإيوائهم للمعارضين من أفراد البيت المريني. إذ نجد أن جميع الثورات التي قامت في وجه أبي يعقوب قد وجدت تأييدا لها في تلمسان. فلا غرابة أن وجدنا الثائرين، الذين تحركوا إما في أقصى الشمال، أو في الجنوب الشرقي من المغرب الأقصى، يلتجأون إلى تلمسان بعد فشل محاولاتهم (أولاد بن ادريس، الأمير عمر بن عثمان، الأمير أبو عامر، محمد بن عطو...)[71].

---

(68) يعبر ابن خلدون عن ارتياب السلطان النصري من أبي يوسف المريني بهذه العبارات الدالة : "ارتاب ابن الأحمر بمكانه، فبدا له ما لم يكن يحتسب، وظن بأمير المسلمين الظنون، واعترض ذكره شأن يوسف ابن تاشفين والمرابطين مع ابن عباد سلطان الأندلس، وأكد ذلك عنده جنوح الرؤساء من بني أشقيلولة وغيرهم إليه، وانقيادهم لأمره، فشرق بمكانه وحذر غوائله، وتكدر الجو بينهما، وأجاز الإجازة الثانية فانقبض ابن الأحمر عن لقائه" (العبر، 7/198).

(69) Kably, *Société, pouvoir et religion*, op. cit. p. 100.

(70) فقد قبل السلطان أبو يعقوب بتثبيت اتفاقية السلام المرينية القشتالية المعقودة مع والده سنة 1285م، بل ذهب أبعد من ذلك عندما جدد هذه الاتفاقية مرة أخرى سنة 1288 لمدة أربع سنوات أخرى. كما عقد اتفاقا مع النصريين في أبريل 1288، اعترف لهم بسلطتهم على الأندلس، ولكن في إطار نوع من السيادة المرينية، وتنازل لهم عن جميع ممتلكات المرينيين، باستثناء الجزيرة الخضراء وطريفة ورندة ووادي آش. **القرطاس**، 376 ؛ **العبر**، 7/251-252.

Dufourcq, *L'Espagne catalane et le Maghreb*, p. 216, Kably, *Société, pouvoir et religion*, op. cit. p. 100-101.

(71) عن هذه الثورات، انظر : محمد عيسى الحريري، **تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس في العصر المريني**، ط 2، 1987، ص 83-84.

وأمام رفض عثمان بن يغمراسن تسليم ابن عطو الثائر، اندلعت الحرب بين المرينيين والزيانيين. ونشير إلى أنه إذا كان السلطان الزياني قد أبقى على رفضه التام لطلب السلطان المريني بتسليم الثائر، فإن موقفه كانت له مبررات موضوعية. إنه كان يدرك بدون شك الخطر الذي يمكن أن يشكله المرينيون، إن هم تحرروا من القيود التي كانت تحد من تحركاتهم بسبب هذه الفتن الداخلية؛ خصوصا وأنهم كانوا، في هذه الفترة، قد تحرروا من شباك المشاكل الإيبيرية. فالحاكم العبدلوادي كان يساند أي ثورة من شأنها أن تؤذي بني مرين، أو تشغلهم عن المغرب الأوسط.

كانت حملة أبي يعقوب الأولى هذه ضد عاصمة العبدلواديين جد قصيرة (15 يوما من رمضان 689 هـ/ بداية شهر شتنبر 1290) ولم تسفر عن نتائج حاسمة، ما عدا "نسف الآثار، وتخريب القرى، وتحطيم الزروع"[72].

ولما امتنعت عليه، رفع حصاره عنها وانكفأ راجعا إلى المغرب بسرعة، خصوصا وأن ابتعاده عن عاصمته في بداية حكمه كان من شأنه أن يثير تمردات أفراد عائلته، وقبائل المغرب التي كانت تمر بفترة عصيبة بسبب المجاعة التي كانت تجتاح البلاد خلال سنوات 687-690 هـ/1288-1291 م[73].

ثم إن الأوضاع بالأندلس كانت تتطور لغير صالح المغرب؛ إذ إن تكتلا يضم كلا من أرغون وقشتالة وغرناطة قد رأى النور سنة 1291، وكان هدفه انتزاع ثغر طريف من يد المرينيين وتسليمه إلى حاكم غرناطة. وهي نفس السنة التي تم فيها عقد اتفاق بين جاك الثاني الأرغوني وسانشو الرابع القشتالي، عرف باتفاق مونتياغدو *Monteagodo* الذي يقسم المغرب الكبير سرا إلى منطقتيْ نفوذ : الأولى لقشتالة، وتضم الأراضي المحصورة بين الأطلسي وملوية، والثانية أرغونية، وتغطي باقي المناطق المغاربية[74]. وأخيرا فإن محمدا الثاني، سلطان غرناطة، استطاع استقطاب عثمان بن يغمراسن ليضمه إلى حلفهم بهدف استرجاع ميناء طريفة من يد المرينيين[75].

(72) **القرطاس**، 279 ؛ **العبر**، 111/7، 259-261.

(73) **القرطاس**، 408.

(74) Ph. Gourdin" *"Le partage du Maghreb entre l'Aragon et la Castille au traité de Monteagudo (1291*, in, **Le partage du monde. Echanges et colonisation dans la Méditerranée médiévale**, publications de la Sorbonne, Paris, 1998, pp. 399-409 ; Dufourcq, L'Espagne, 218-221 ; R. Arié, L'Espagne musulmane, p. 77.

(75) **القرطاس**، 380، 381.

نتيجة هذا التحالف، سقط ثغر طريف في شوال 691 هـ/ أكتوبر 1292، لكن ليس بيد ابن الأحمر، كما كان مقررا، وإنما بيد قشتالة[76]. واستتبع ذلك محاولة صلح بين بني الأحمر والمرينيين لاسترجاع هذه المدينة[77]. وساعد أبو يوسف النصريين من بعيد لاسترجاع ذلك الثغر بإرسال عدد من العساكر بقيادة عمر بن السعود خرباش الجشمي الذي نازل طريف سنة 692 هـ[78]. وما أن امتنعت عليه حتى أفرج عنها؛ وأمام عدم جدوى النصريين، فضل السلطان الانسحاب كليا من الصراع، وذلك بالتخلي عن مجموع باقي الممتلكات المرينية بالأندلس (694 هـ/1295)[79].

يدخل هذا القرار في برنامج استراتيجي لأبي يعقوب، يعطي الأولوية للأمور ذات الأسبقية، ويأخذ بعين الاعتبار جميع العوامل المحددة لعملة السياسي، وكذلك إمكانياته المادية لتنفيذ هذا العمل[80]. فبدون أسطول حربي قوي، وبدون حلفاء أقوياء وثقاة، فإن كل وجود مريني بالأندلس مآله الفشل، ويمكن أن يكون له نتائج وخيمة على الحالة السياسية بالداخل، خصوصا وأن الزيانيين كانوا شوكة في شرق المملكة، يرتمون في أي تكتل ضد المرينيين لإبعادهم عن مياه الزقاق. فأبو يوسف يعقوب كان يرى أن الخطر كله آت من جهة الشرق [81]، بينما كان المسيحيون في نظره يشكلون خطرا أقل، ما داموا منشغلين في حروبهم مع الغرناطيين.

وقد زاد يقين السلطان المريني من خطر جيرانه الشرقيين بعد ثورة بني وطاس - المنافسين للبيت المريني الحاكم - سنة691هـ/ 1292، بمنطقة تازوطة بالريف بقيادة بني الوزير، وفرارهم إلى تلمسان بعد إخماد ثورتهم (692/ 1293م)[82].

استمر حصار تلمسان لسنة 696 هـ ما يقرب من ستة أشهر. وأمام صمود المدينة، أمر السلطان برفع الحصار في بداية سنة 697 هـ/1297م، مع إعطاء الأوامر لأخيه أبي يحيى بتسيير حملات فجائية ضد الأراضي العبدلوادية ؛ وهي حملات كانت ترمي إلى تخريب "أعمال ابن يغمراسن وإفساد سابلتها"[83]، وإخضاع القبائل التي كانت تدين

(76) **العبر**، 7/255-256 ؛ **القرطاس** 380.

(77) **العبر**، 7/256-257.

(78) نفسه، 7/282.

(79) R. Arié, *L'Espagne musulmane*, op. cit. p. 78-79.
(80) Kably, *Société, pouvoir et religion*, op. cit. p.103.
(81) Ibid, p.104.

(82) **العبر**، 7/257، 258.

(83) **العبر**، 7/261.

بالطاعة لعثمان بن يغمراسن الزياني، وكانت تهدف بالأساس تخويف القوافل التجارية، والإضرار بالحركة التجارية بصفة عامة. وقد أعطت الخطة أكلها سريعا، إذ بدأت القبائل الواقعة بين ندرومة وتوانت تتوافد على فاس سنة 1299 تقدم بيعتها للمرينيين، مع التماس "الحركة إلى بلادهم ليريحهم من ملكة عدوهم ابن يغمراسن"، ومن عدائه وجوره لهم(84).

هذا الانتصار الذي حققه أبو يعقوب شجعه على القيام بحصاره "التاريخي" لتلمسان، الذي بدأ في الثاني من شعبان 698 هـ/ 5 ماي 1299. ولتقوية الأثر النفسي للحصار، قرر السلطان عزل المحَاصرين عزلا تاما(85)، كما استعملت الحرب الاقتصادية ضدهم، وذلك ببناء مدينة "المنصورة" وجعلها محطة للقوافل التجارية حتى أن ابن خلدون يصف هذه المدينة التي اتسع عمرانها وقويت مكانتها الاقتصادية بقوله : "اتسعت خطة مدينة المنصورة... ورحل إليها التجار بالبضائع من الآفاق، واستبحرت في العمران بما لم تبلغه مدينة"(86)، كما عمد السلطان المريني إلى السيطرة على منافذ تجارة تلمسان الواقعة على الساحل، مثل وهران وشريش والجزائر، وإحكام المراقبة على مزونة ومستغانم ومليانة(87).

في الوقت الذي كان أبو يعقوب يسعى فيه لتثبيت سيطرته، كانت القوى الإيبيرية تعمل على إنهاء خصوماتها، وتنقية أجوائها الداخلية. حقيقة إن المصالحات والتوجهات الجديدة للقوى الإيبيرية قد حددتها عوامل داخلية. ومع ذلك لم تكن قشتالة ولا غرناطة لتقبل بوجود هيمنة مرينية على المغرب الكبير، بسبب المضاعفات التي ستترتب عن هته الهيمنة على القوى بغرب حوض البحر المتوسط، سواء على المستوى الجيو سياسي، أو على المستوى الاقتصادي(88).

لهذا نجد أن السلطان النصري يتحالف مع قشتالة (702 هـ/ 1303م)، الأمر الذي أدخل خللا على مخططات أبي يعقوب، خصوصا وأن ملك قشتالة كان معروفا

(84) **العبر**، 261/7 ؛ **القرطاس**، 387.

(85) انظر شهادة معبرة عن ذلك في **المناقب المرزوقية**، ص 194.

(86) **العبر**، 7 ص 114.

(87) خرجت جيوش بني مرين للاستيلاء على مدن وأقاليم دولة بني عبد الواد، فاستولت على "ندرومة وهنين ووهران وتاونات ومزغران ومستغانم وتنس وشرشال وبوشك والبطحاء ومازونة وونشريش ومليانة والقصبات والمدية وتازجدت وجميع بلاد بني عبد الوادي وبلاد تجين وبلاد مغراوة" (العبر، 7، ص 261).

(88) Kably, *Société, pouvoir et religion*, op. cit. p. 113.

بأطماعه المغربية، ونجح في التحالف مع ملك أرغون سنة 1304 هـ، الذي كان، من جانبه، يحاول السيطرة على مياه الزقاق[89].

هذه المستجدات في السياسة المتوسطية سيكون من نتائجها المباشرة إعلان سبتة استقلالها (703 هـ/ 1340م)، تم احتلال النصريين لها سنة 1306م، ودفعهم شيخ غزاة مالقة، عثمان بن أبي العلا، للمطالبة بعرش المغرب. وسرعان ما اعترفت به منطقة الريف وبسط سيطرته على أصيلا والعرائش والقصر ونواحي تازة، بينما سيهاجم الأسطول النصري بعض نقط الساحل المغاربي وخصوصا هنين[90].

من مختلف هذه المعطيات التاريخية يتضح أن الأمر كان يتعلق أساسا بمنع المرينيين من بسط هيمنتهم على الساحل، سواء في المغرب الأوسط، أو بالمغرب الأقصى نفسه[91]. ولم يكن أمام السلطان المريني سوى الانتهاء بسرعة من حصار تلمسان لاسترجاع سبتة، وإنقاذ سلطته بالمغرب، ودفع الأطماع الغرناطية القشتالية[92].

لكن الحصار انتهى باغتيال السلطان المريني، في ذي القعدة 706 هـ/ أبريل 1307م، على إثر "ملابسات غامضة، كان الحريم مسرحا لها"[93]، أو "بسبب مؤامرة دبرها خصيان القصر السلطاني"[94] انتقاما لضياع مكانتهم داخل البلاط المريني[95]، أو نجد من يربط ذلك الاغتيال بتصفية أخلاء السلطان من بني وقاصة اليهود في شعبان 701هـ/1302م. أما الأسباب الحقيقية لعملية الاغتيال فغالبا ما أبقيت في الظل [96]. لكن ما يلفت الانتباه في حصار تلمسان التاريخي هي المدة غير العادية التي استغرقها[97].

(89) Dufourcq, *L'Espagne*, 362, 363.

(90) **العبر**، 7، ص 270-271 ؛ **القرطاس**، 387 ؛ **الإحاطة**، 4 ، ص 241-243.

(91) Kably, *Société, pouvoir et religion*, op. cit. p.114.
(92) Ibid.

(93) شارل أندري جوليان، **تاريخ إفريقيا الشمالية**، 226/2؛ عيسى الحريري، ص 91.

(94) إبراهيم حركات، **تاريخ المغرب**، 32/1-33.

(95) محمد عيسى الحريري، **تاريخ المغرب الإسلامي**، ص 92.

(96) محمد ياسر الهلالي، "اغتيال السلطان يوسف بن يعقوب المريني : قراءة في نصوص تاريخية ومناقبية لحادثة المنصورة"، ضمن كتاب : **التاريخ والفقه. أعمال مهداة إلى المرحوم محمد المنوني**، تنسيق محمد حجي، منشورات كلية الآداب الرباط، 2002، ص 229-259.

(97) Ibid.

ومن المعلوم أن أي حصار لم يكن يتجاوز أبدا مدة سنتين في العالم الأوربي من حوض للبحر المتوسط الغربي،

Philipe contamine, *La guerre au Moyen Age*, Paris, 1980, p. 207-8 cité par Kably, *Société*, op. cit. p. 115.

فحصار تلمسان الذي لا نجد له مثيلا في تاريخ المغرب، كان قد أصبح طويلا جدا عند نهاية 705 هـ/ 1306م. فيما بعد، سيتم الكلام عن حصار دام مائة شهر، أو ألف شهر، لإصباغ طابع فريد على هذا الحدث. ويذهب بعض المؤرخين (98) إلى أن المدة الطويلة التي استغرقها الحصار كانت راجعة إلى خيانة بعض الشخصيات المرموقة في البلاط. فقد كانت هناك تجارة منظمة ولكن سرية، تقوم بها شبكة التهريب، كانت تعمل خصوصا بالليل، وكانت لها علاقات مع بعض "رجال البطانة"، وبالتالي كانت محمية من طرف سلطات عليا داخل الحاشية السلطانية وداخل البلاط المريني. ولا يستبعد أن يكون لاكتشاف هذه العملية عواقب تجلت في تنحية بعض الشخصيات المستفيدة من العملية. فابن خلدون يوضح كيف "استراب السلطان بكثير من حاشيته الملابسين لداره" عند أخريات أيامه. ولا يستبعد أن يكون هؤلاء المستفيدون هم الذين استبقوا الأحداث في شهر ذي القعدة 706 هـ/ ماي 1307م باستعمال أحد الخصيان لاغتيال السلطان، والتخلي عن حصار تلمسان. والثابت هو أن حصار تلمسان لم يصبح واقعيا إلا عند السنة الأخيرة من الحصار، حيث ظهر أثره على المحاصَرين الذين كانوا، عند نهاية سنة 706هـ/1307م، على حافة ذبح نسائهم، بطلب منهن، لتجنب الشروط المهينة للهزيمة(99).

وكيف ما كان الأمر، فإن اغتيال السلطان يوسف بن يعقوب كان حادثا مدبرا ومخططا له، ولم يكن أبدا مجرد حادث عرضي.

بعد اغتيال السلطان أبي يعقوب، انفجرت السياسة المرينية وأفصحت جليا عن عوامل اغتيال هذا السلطان. ذلك أن بني مرين انقسموا بين مساندي السياسة المغاربية لهذا السلطان، وبين الداعين للصلح مع تلمسان. وحسب الرواية القريبة من الأحداث (رحلة التجاني) أُعدِم أبو سالم بن يعقوب "بعد أيام يسيرة" من اغتيال السلطان، كما أُعدم أبو يحيى، أخ السلطان، وقد كانا يساندان بقوة سياسة متابعة الحصار. "وانتقل أبو ثابت إلى مدينة فاس بعد أن سلم مدينة تلمسان الجديدة لأبي زيان محمد بن عثمان"(100)، كأن الأمر يتعلق بتركة ثقيلة كان يجب التخلص منها بسرعة.

---

(98) Ibid, 114-115 ; Dufourcq, *L'Espagne catalane*... op. cit. p. 384.

(99) ابن خلدون، **العبر**/ 7 ص، 114-115 ؛ — Kably, *Société*... op. cit. 116

(100) عبد الله التجاني، **رحلة التجاني**، تحقيق حسن حسني عبد الوهاب، ليبيا– تونس، 1981، ص 197-198.

واستطاع **أبو ثابت عامر** (706 هـ– 708هـ)، وهو حفيد السلطان المغتال، الوصول إلى الحكم بمساعدة شيوخ بني مرين [101] ودعم زناتي.

وتنازل المرينيون عن جميع ممتلكاتهم بالمغرب الأوسط، بما في ذلك مدينة المنصورة. أما ما يذهب إليه ابن أبي زرع من كون الصلح اشترط أن تبقى المدينة في قبضة المرينيين[102]، فإنه لا يدخل في منطق الأشياء، لأن الزعيمين قد أبرما اتفاقية في نهاية هذا العام 706 هـ/1307م، وأن هذه الاتفاقية قد جددت في أقل من سنتين. كما إن احتلال المنصورة، ولو شكليا من طرف المرينيين، لم يكن من شأنه أن يشجع هذا الانفراج في العلاقات الزيانية المرينية.

والواقع إن وجود السلالة المرينية نفسها كان مهددا عقب وفاة أبي يعقوب. فأبو ثابت كان ما يزال شابا، وواجه أول أزمة عميقة متعلقة بالنزاع على العرش. فقد استقل ابن عمه يوسف بن محمد بن أبي عياد، بمراكش في جمادى الأولى 707 هـ/ نوفمبر 1307م. ثم إن الوضعية بالمغرب كانت متأزمة بسبب تمردات القبائل شمال وجنوب ووسط البلاد[103]. ومن هذه الزاوية، كان قرار التفاوض مع تلمسان إجباريا وضروريا بقوة الأشياء. فقد كان من الصعب الاستمرار في تطبيق سياسة أبي يعقوب العدائية ضد بني عبد الواد والبلاد تتخبط في مشاكلها الداخلية. ونجح أبو ثابت في إبرام اتفاقية صداقة مع أبو حمو الزياني في شوال من سنة 707 هـ/ أبريل 1308م[104].

والواقع أن المغرب المريني كان قد دخل "فترة ضعف ملحوظ" أرغمته إلى غاية سنة 731 هـ/1331م، على الاهتمام بشؤونه الداخلية، فقد اشتغل كل من أبي ثابت عامر وأبي الربيع سليمان من بعده (708 هـ – 710 هـ) بقضية سبتة، إلى أن استُرجعت في 10 صفر 709 هـ/ 12 يوليوز 1309م)[105].

توفي السلطان **أبو الربيع** في 29 جمادى الثانية 710 هـ/ 23 نوفمبر 1310م، وخلفه **أبو سعيد عثمان** (710 – 731 هـ الذي تعتبر مرحلة حكمه من أهم مراحل التاريخ المريني، وأكثرها دلالة. ففي هذه المرحلة وخاصة بين سنة 714 و 725 هـ/ 1314 – 1325م دخلت

---

(101) ابن خلدون، **العبر**، 276/7.

(102) القرطاس، 309.

(103) ابن خلدون، **العبر**، 277/7 ؛ الإحاطة، 550/1.

(104) ابن خلدون، **العبر**، 277/7.

(105) ابن خلدون، **العبر**، 282/7.

إفريقية مرحلة انهيار، بينما نلاحظ تقوية الجانب التلمساني، وتوطيد بطيء للسلطة المرينية. وطوال مرحلة التقوقع المريني، حاولت مملكة تلمسان -التي أصبحت أكثر ازدهارا على المستوى التجاري من باقي أجزاء المغرب[106] – التوسع على حساب الممتلكات الحفصية، ونجحت في الاستيلاء على عاصمة الحفصيين مرتين (1325 و1329). ولم يكن أمام الحفصيين سوى الاستنجاد بالمرينيين. وابتداء من سنة 730هـ/ 1331، توجه أبو سعيد نحو تلمسان مرغما الزيانيين على التخلي عن سياستهم التوسعية على حساب إفريقية. بموازاة ذلك، ارتبط عائليا بالأسرة الحفصية عبر زواج ابنه وولي عهده، أبي الحسن، بإحدى بنات أبي يحيى الحفصي [107]. وهو ارتباط مماثل لذلك الذي كان قد عقده أبو يعقوب مع زعيم مغراوة سنة 696 هـ/1297م.

ولقد حاصر السلطان أبو سعيد تلمسان سنة 714 هـ، ولم تكن محاولته ناجحة، إذ اقتصر على تخريب العمران ونهب وتحطيم الزرع [108]. وانصبت جهود السلطان بعد ذلك على حل مشاكله الداخلية، كثورة ابنه أبي علي عمر، وانتفاضة بني العزفي بسبتة[109]. وانتهى الأمر إلى الإحجام عن الدخول في صراع مع منافسه الزياني. وهذه السياسة الوفاقية مع الجار الشرقي سمحت بظهور ذلك الثراء بالمغرب على عهد السلطان أبي سعيد عثمان. كما أن التوازن المريني الزياني، هو الذي يفسر الطابع السلمي لمرحلة حكم أبي سعيد[110]، والذي تشير إليه كل المصادر، وهيأ ظروفا مواتية لأبي الحسن لبسط نفوذه شرقا.

يمثل عهد **أبي الحسن المريني** – الذي وصل إلى الحكم في ذي الحجة 731 هـ/ شتنبر 1331م – بداية مرحلة جديدة من حياة الدولة المرينية، ذلك لأنه منذ توليته مقاليد الحكم بدأ يخطط لسياسة قوامها التوسع والقضاء على أي خطر يهدد الدولة، وبالتالي كانت له رغبة – كسابقيه- في تحقيق وحدة بلاد المغرب، وإعادة تكوين إمبراطورية الموحدين، تحت لواء العصبية الزناتية؛ سواء من حيث اتساع نفوذها أو من حيث عظمة خلفائها، وكذلك من حيث قوتها العسكرية والاقتصادية[111]. من هذه الزاوية

---

(106) Dufourcq, *L'Espagne catalane*... op. cit. p. 471-473.

(107) ابن خلدون، **العبر**، 7/297-299.

(108) **القرطاس**، 399 ؛ **العبر**، 7/287-288.

(109) ابن خلدون، **العبر**، 7/292.

(110) Kably, *Société*... op. cit, p. 126.

(111) الحريري، **تاريخ المغرب الإسلامي**، م. س.، 108.

يمكن اعتبار تجربة أبي الحسن الوحدوية تجربة فريدة من نوعها في التاريخ المغربي. فقد وصلت عسكريا إلى الحدود الشرقية لإفريقية، ونجحت دبلوماسيا في كسب الرأي العام للأمة الإسلامية، والظهور بمظهر حامي الإسلام بمنطقة الغرب الإسلامي[112].

ومن المعلوم أن وصول السلطان الجديد إلى الحكم قد احتفل به في نفس الوقت الذي تزوج فيه بالأميرة التونسية، فاطمة بنت أبي يحيى الحفصي[113]، وأنه في السنة التالية أتى محمد الرابع، سلطان غرناطة، بنفسه إلى المغرب ليطلب من أبي الحسن التدخل في الأندلس[114] مما يؤكد الوضعية الحرجة بالنسبة للأندلس وللحفصيين. هذه الظرفية تتمثل في تقدم قشتالة نحو مياه الزقاق، وتدخل الزيانيين في موانىء بجاية وتونس. لذلك، فرغم مراقبتهم المتحسنة لعنق التجارة الصحراوية، فإن المرينيين كانوا يرون أنفسهم، على المدى البعيد، مبعدين عن بلاد الساحل. وإذا كانت هناك طريقة للتحكم في التجارة المغاربية، فإنها، في نظر السلطان أبي الحسن، لم تكن لتجرب عند المنبع، أي في بلاد توات أو درعة، وإنما عند المنافذ الساحلية المتوسطية[115].

لهذه الأسباب كلها، سيغدو الصراع مع الزناتيين محتما على المستوى الاقتصادي. بعبارات أخرى، سوف يجد أبو الحسن نفسه – كأبي يعقوب ولو بدرجة قل– يهتم بالساحل الإفريقي[116]. والواقع أنه منذ شعبان 732 هـ/ ماي 1332م أصبحت سواحل الإمارة التلمسانية تحت رحمته، بفضل أسطوله البحري الذي كان أقوى قوة بحرية في شمال إفريقيا آنئذ[117] ؛ وبعد ذلك، سيتخذ من الهجمات المتكررة لأبي تاشفين على مجال الحفصيين ذريعة ليطالب بإعادة ميناء دليس للتونسيين. وأمام رفض السلطان الزياني، سيحتل أبو الحسن ندرومة أواخر 735 هـ، ووجدة في بداية 736/1335م، وأقام حصارا على تلمسان، وبسط سيطرته على الساحل في نفس السنة، من هنين حتى الجزائر، مجددا بذلك تجربة أبي يعقوب.

(112) Kably, *Société*... op. cit, p. 129.

(113) ابن خلدون، **العبر**، 7/525-526.

(114) نفسه، 531.

(115) Kably, *Société*... op. cit, p. 129.

(116) Ibid, p. 131.

(117) **نفح الطيب**، 6/216 ؛ المنوني، **ورقات**، 77، لقد اعتبر السلطان أبو الحسن المهندس الحقيقي لتطور القوى البحرية بالمغرب والمؤسس الدؤوب للأسطول، إذ شجع إنشاء الأساطيل في دور الإنشاء المغربية حتى إنه "لا تمر سنة إلا وله فيها تجهيز أسطول وتجهيز غزاة"، حسب ابن مرزوق (**المسند**، 388، وكذلك ص 393).

نجح أبو الحسن في السيطرة على عاصمة الزيانيين في 27 رمضان 737 هـ/ أبريل 1337م بعد سنتين من الحصار، انطلاقا من مدينة المنصورة المجدد بناؤها. وبعد توقيف أميرها، أُعدِم بسرعة، ولم يعد هناك معارضة تلمسانية البتة. وأدى هذا الحادث إلى انقطاع الدولة الزيانية، إلى أن تم بعثها سنة 749 هـ على يد الأخوين أبي سعيد عثمان الثاني وأبي ثابت.

أصبحت الطريق مفتوحة بعدئذ نحو تونس. وحسب ملاحظة هامة أوردها العمري، وربما تعكس الرأي العام الذي ساد هذه الفترة، أي عقب فتح تلمسان، لم يكن الحفصيون متحمسين كثيرا لانتصارات أبي الحسن، واقترابه من دولتهم : "كان صاحب افريقية مع انقياده إلى المريني، وعداوته لسلطان بني عبد الواد، وقيام المريني على عدوه في هواه، **لا يؤثر في الباطن أن المريني يظفر بصاحب تلمسان عدوه ليكون له به شغل عن قصده، وانتزاع افريقية منه**"، ويضيف العمري بخصوص أبي يحيى هذا أنه كان يعلم "**أن تلمسان حجاب بينهما**، وإنه لا طاقة له بالمريني ولا قبل له به، ويحق له الخوف فإنه في قبضته متى أراد"(118).

وبذلك أصبح السلطان المريني يعتبر منذ استيلائه على تلمسان، سلطانا على المغرب الكبير، تمتد مملكته من البحر المحيط إلى برقة، "وإفريقية هي داخلة في هذا الحد"، حسب ملاحظة العمري(119) ذلك أن الفتح شمل عمليا جميع المنطقة حتى تونس، بفعل سقوط تلمسان وحدها، مع السيطرة على بلاد الساحل الوسطى. وعندما توفي أبو يحيى في رجب 747 هـ/ أكتوبر 1346م أصبح التدخل المريني العسكري تدخلا صوريا، ومن أجل الأبهة فقط. والأمر الذي سهل، مع ذلك، هذا التدخل العسكري هو ذلك التفتت الحفصي، وضرورة الانتقام لأبي العباس الذي ذهب ضحية أخيه أبي حفص. وتحت ذريعة إعادة الأوضاع إلى نصابها بتونس، نظم أبو الحسن حملة في بداية 748 هـ/1347م، انطلاقا من تلمسان، وعند الوصول إلى وهران استقبل السلطان من قبل الوفود التي أتت من بعيد، من بلاد الجريد. ومن جهة أخرى، لم تبد لا بجاية ولا قسنطينة، أية مقاومة.

واقترب المرينيون من العاصمة الحفصية، وحاولوا اقتحامها. وحوصرت المدينة براً وبحراً، ولم تتأخر في الاستسلام، ونظم استعراض عسكري توج المسيرة الطويلة

(118) العمري، **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**، تحقيق د مصطفى أبو ضيف أحمد، 1988، ص 122.
(119) نفسه، ص 123.

لأبي الحسن في 8 جمادى الثانية 748 هـ/ 51 شتنبر 1347م حتى "صاحت الأرض بالجيوش، وهو يوما لم ير مثله فيما عقلناه"[120]، حسب الشهادة المتأخرة لابن خلدون، الذي عاين هذا الاستعراض المدهش للجيش المريني.

وتعد التجربة الوجدوية التي رأت النور على عهد هذا السلطان المريني تجربة فريدة من نوعها، بالمقارنة مع سابقاتها، ومختلفة على كل حال، عن تلك التي طبقها الموحدون. فهي تجسد "هيمنة أكثر انفتاحا نحو الانصهار، ليست عسكرية بتاتا، ولا عصبوية ضيقة"[121]. ذلك أن حملة السلطان المريني ضد بلاد الزيانيين وبلاد الحفصيين "لم تكن مجرد حملة عسكرية، وإنما كانت حملة دينية فقهية شارك فيها أشهر علماء المالكية بالمغربين الأوسط والأقصى في نفس الوقت"[122]، بل نجح السلطان المريني في استقطاب جزء من الرأي العام المغاربي لصالحه، بما في ذلك قسم هام من المتصوفة[123]، قبل أن يبدأ حملته نحو المناطق الشرقية. فكان حدث جلاء المسيحيين عن جبل طارق سنة 733 هـ/ 1333م بعد انتصار أبي الحسن البحري حدثا مدويا، "صار خبره في الآفاق، وسارت بهذه البشرى الرفاق"[124].

---

(120) ابن خلدون، العبر، 7/320.

(121) Kably, op. cit, 137.

(122) محمد القبلي، مراجعات...، م.س.، ص 61.

(123) المسند، 265، 152-268، 163 إلا أن قسما آخر من المتصوفة كان معارضا للسياسة التوسعية نحو الشرق، مثل الشيخ بوهادي، الوالي بتونس الذي طلب من أبي الحسن المريني الرحيل عن إفريقية، فلم يسعفه، مما حدا بهذا المتصوف إلى الرحيل عنه إلى قسنطينة حيث اختلى بنفسه... وقيل إنه لازم خلوته من أجل التوجه إلى الله تعالى في السلطان المذكور (أنس الفقير، ص 51).
ولعل مثل هذه المواقف المعارضة هي التي جعلت بعض الباحثين يعممون ويرون "بشيء من الاستغراب أن متصوفة المغرب عارضوا المحاولات التوسعية لملوكه، لا سيما في العهد المريني". انظر مثلا : محمد فتحة، "المؤسسة السلطانية والمجال : أمثلة من العصر الوسيط"، مجلة البحث التاريخي، العدد 2، 2004، ص 19.

(124) ترك لنا ابن مرزوق وصفا دقيقا لهذه الظاهرة إذ يقول : "كنت يوما في مجلس الإمام العلامة القدوة أبي زيد ابن الإمام بتلمسان، والمجلس بالمسجد الذي كان يقرأ فيه من مدرسته، قد غص بمن عوائده الحضور، ونحن ننتظره، وإذا به قد جاء على عادته، رضي الله عنه، فلما استوى جالسا، حمد الله وأثنى عليه، ثم قال : "أبشروا معشر المسلمين، هذا جبل الفتح قد أعاده الله للمسلمين وجبر صدعهم وعاد الفتح الأول كيف كان". فارتفعت الأصوات بالحمد والشكر وجرت العبارات، عبرات السرور. ثم قال للشيخ الفقيه الصالح العالم الولي المجاب أبي محمد عبد الله بن عبد الواحد المجاصي، وكان من أولياء الله الصادقين... " يا فقيه أبا محمد، ادع الله لنؤمن على دعائك لمن فتحه الله على يديه"، فارتفعت الأصوات بالدعاء، وانطلقت الألسنة بالثناء". المسند، 390-391.

والحقيقة أنه بالإضافة إلى ارتباط "رجال الدين" بشخص أبي الحسن، فإن السلطان المريني الفاتح كان يهدف – حسب تصريحه– "استجلاب" أهل تلمسان، و"تأنيسهم"[125]، ذلك لأنه كانت بينه وبينهم "رحمى سابقة"[126]، ولكنه كان كذلك يعمل – بوعي تام– على خلق "الوحدة الزناتية" عبر إشراك العبدلواديين في مشروعه المغاربي [127]. ولتحقيق هذا الهدف تم إدماج بعض العناصر الزيانية على مستوى القيادة العسكرية[128]، والإدارة العامة للولايات المغربية ذاتها[129].

ومع ذلك، فإن نشوة الانتصار لم تدم طويلا، وكان فشل الحملة المرينية بإفريقية أكثر ذهولا من تقدّمها السريع، وسيخسر أبو الحسن في هذه الحملة سمعته وعرشه والساحل المغاربي، حينما تعرض لخيانة أهله، ولهزيمة منكرة على يد عدوه : عرب إفريقية، قرب القيروان سنة 749 هـ / 1348م. ونجا هذا السلطان، وهو "سيد المنطقة الساحلية"، من الغرق على سواحل الجزائر إثر رجوعه الهروبي عبر البحر "في قلب فصل الشتاء"، في بداية شوال 750 هـ/ منتصف دجمبر 1349م، ليموت في شهر ربيع الأول 752 هـ/ 1531م موتة بؤس وشقاء في جبال الأطلس، عند هنتاتة، متابعا ومطاردا من طرف ابنه وخلفه أبي عنان[130].

جرت العادة على تفسير هزيمة أبي الحسن بعدم تماسك عسكره، وفساد رجال بلاطه، وزوال محبة العناصر الحضرية الإفريقية تجاهه، وإلى "الفوضى الزناتية"، وتمرد العرب الذين مسوا في امتيازاتهم التقليدية، والمحرومين من "الرواتب التقليدية المعتادين على جبايتها من المستقرين"[131]. ومن الباحثين من يعتقدون أن وباء الطاعون

(125) **المسند**، 314.

(126) نفسه، 202.

(127) القبلي، 136 ؛ **بغية الرواد**، 234 لما استولى أبو الحسن على تلمسان "استخدم قبيل بني عبد الواد، فلم شعثهم، وحفظ عليهم رتبتهم، وأبقى شعوبهم وقبائلهم المراسم التي ألفوها بأيامهم، **تفاخرا بملك القبيلتين وتشرفا بإمرة زناتة أجمعين**".

(128) تم إدماج أميرين تلمسانيين وهما : أبو سعيد والأمير أبو ثابت، حفيدي يغمراسن (بغية الرواد، 234-235).

(129) نجد أن بعض الولاة الزيانيين عُينوا على رأس ولايات صعبة الحكم بالمغرب الأقصى، مثل السوس وغمارة، كما نجد أن بعض الزناتيين غير المرينيين أصبحوا من بين حاشية السلطان أبي الحسن. (**المسند**، 184).

(130) العرض المفصل حول هذه الحملة هو الذي نجده في **العبر** 7/575-598 وينقله الناصري في الاستقصا، 3/162-174.

(131) برونشفيك، **تاريخ إفريقية الحفصية**، م. س. 1/ 198–199 ؛ شارل أندري جوليان، **تاريخ إفريقية الشمالية**، 2/232.

-- الذي اندلع في بداية 749 / أبريل –ماي 1348م، كان قد بلغ ذروته في ربيع الأول من نفس العام (يونيو 1348م) في العاصمة تونس، إن لم يكن في باقي الولايات– قد ساهم في الفتك بجيش السلطان، وعزل السلطان عن باقي أطراف مملكته، وأن تأثيره قد انضاف، على الأقل إلى تأثير الهزيمة العسكرية[132].

حاول السلطان أبو عنان فارس أن يتم ما بدأه والده، فاستعاد تلمسان سنة 756هـ/1352 واستولى على كامل المغرب الأوسط، حتى بلغ بجاية. وبعد أربع سنوات شرع في تحقيق مشروعه الأكبر بالسيطرة على افريقية، فدخل قسنطينة (758 هـ/ صيف 1357). وجاءته بيعة كل المناطق الجنوبية، ودخل الجيش المريني تونس (شتنبر 1357) لكن الحملة المرينية سرعان ما انكسرت، بسبب التناقضات الحاصلة على مستوى السلطة العليا المرينية، وخذلان الجيوش الذي رفضت مواصلة القتال بعيدا عن أهلها وبلادها[133]، وقفل أبو عنان راجعا إلى المغرب الأقصى، وحينما استعد مرة ثانية للتوجه إلى إفريقية لم يتجاوز مدينة تلمسان، واضطر مرة أخرى على الرجوع إلى المغرب، وما أن وصل إلى فاس حتى اغتيل خنقا على يد أحد وزرائه أواخر سنة 759 هـ/ 1359م، وبموته ستدخل الإمبراطورية المرينية طور الانحلال التدريجي، ويتلاشى الحلم الذي طالما راوده وراود والده السلطان أبا الحسن، والمتمثل في إعادة تجسيد فكرة الإمبراطورية الإسلامية بالغرب الإسلامي، كما حققتها الإمبراطورية الموحدية.

ج) دخول الأندلس في مسار الانحلال والتفكك

وكما دخل المغرب المريني طور الاحتضار، دخلت الأندلس كذلك في مسار الانحلال والتفكك والهزائم المتتالية أمام هجمات الممالك المسيحية، والذي سيكون من آخر محطاته سقوط غرناطة سنة 898 هـ/ 1492م ونهاية الوجود العربي الإسلامي في شبه الجزيرة الإيبيرية، وما خلفته هذه الهزائم من صدى عميق في نفوس المسلمين – نخبا وعامة– في المغرب الإسلامي.

ولقد تزامنت هذه السياسة الهجومية للمماليك المسيحية الغربية في شبه الجزيرة الإيبيرية مع ما يجب اعتباره الامتداد الغربي للحروب الصليبية، والمتمثلة في الاعتداءات المتكررة على سواحل وموانىء المغرب الإسلامي، والتي عكست تغيرا

(132) Kably, *Société*... op. cit. p. 142-144.

(133) برونشفيك، **تاريخ إفريقية الحفصية**، 1/207-209.

على مستوى سياسة هذه المماليك في البحر الأبيض المتوسط، وعزوفا عن سياسة التوازن التي كانت تطبع الوضع في تلك المنطقة في بداية القرن الثالث عشر للميلاد[134].

وكان السلطان أبو يوسف المريني من أنشط السلاطين المرينيين وأكثرهم اهتماما بشؤون الأندلس، إذ سير أربع حملات جهادية، كانت آخرها سنة 1285م. ويمكن القول أن النتائج المترتبة عن تلك الحملات تظهر غير حاسمة، إن نحن اعتبرنا أن الأندلس كانت حتما في طريقها إلى الضياع. فقد استنفذ جل طاقاته العسكرية والبشرية في بلاد الأندلس، ويظهر أن حصيلة الحملات كانت دون المجهودات والطاقات التي استلزمتها. فالمدن القليلة التي حصل عليها المرينيون كانت أشبه بعبء، كما أن الحدود المسيحية الإسلامية بأرض الأندلس لم تعرف تغييرا حاسما[135]. وإذا كان أبو يوسف قد ساهم في تقوية مملكة غرناطة، التي "لولا جهود الأمير المريني لما استطاعت أن تحافظ على أراضيها وعلى استقلالها"[136]، فإن المغرب قد دخل الصراع الأندلسي ليخرج منه خاوي الوفاض. ولعل الجانب الإيجابي لهذه الحملات العسكرية يكمن في تلك الارتباطات التي توطدت بين فاس وغرناطة على المستوى الحضاري، واستفادت منها الحضارة في المدن المغربية. ويمكن أن نضيف ربحا معنويا آخر. ذلك أن المغرب المريني حاز على ذلك التفوق المعنوي بالغرب الإسلامي، لأنه كان الوحيد القادر على مساعدة مسلمي الأندلس، والظهور بمظهر الحامي لدار الإسلام بعد وفاة كل من أبي زكرياء الحفصي ويغمراسن الزياني.

واضطر المرينيون للتخلي شيئا فشيئا عن المسألة الأندلسية، لاستحالة الحرب على الواجهتين، الأندلسية والإفريقية، في آن واحد. ولئن كانت أنشطة السلطان أبي الحسن المريني البحرية قد توجت بانتصار كبير بمياه جبل طارق، الذي استرده أبو مالك –أحد أبناء السلطان– سنة 733 هـ/1333م، وذلك بعد أكثر من عشرين سنة من الاحتلال القشتالي، فإن ذلك الانتصار تبعته انتكاسة كبرى، وقعت يوم سابع جمادى الثانية 741هـ/ 28 نوفمبر 1340م، ليس بعيدا عن طريفة، عند ريو سالادو *Rio de Salado*،

---

(134) عبد الله العروي، **مجمل تاريخ المغرب**، 2، 193؛ نللي، **الولاية والمجتمع**، ص 57-58.

(135) M.J. Viguera, *"La intervención de los Benimerines en Al Andalus*, in **Relaciones de la peninsula Ibérica con el Magreb (siglox XIII-XVI)**, Madrid, 1988, p. 241.

(136) العروي، **مجمل**...م.س.، 2/199.

أسفرت عن مذبحة للمسلمين، وأسر عدد من الجنود، ومن بينهم أحد أبناء أبي الحسن، ووفاة زوجة السلطان الحفصية التي قتلت مع زوجة أخرى، وهروب السلطان بنفسه نحو سبتة، وميله للتخلي، منذ هذه الفترة، عن الشؤون الأندلسية، أو على الأقل، جعلها ثانوية بالنسبة إليه.

والواقع أنه سيكتفي بمساعدة الأندلسيين من بعيد. فعندما حوصرت الجزيرة الخضراء في بداية سنة 743 هـ/ يوليوز 1342م اكتفى أبو الحسن بمساعدة المحاصرين من مدينة سبتة، وإرسال المؤونة لهم بحرا، بانتظار استسلام المدينة للعدو. ومع السقوط النهائي لهذه المدينة في بداية شوال 743 هـ/ مارس 1343م استدعي السكان للمجيء إلى المغرب، الشيء الذي تم بالفعل، وأدى ذلك إلى ارتياح الجميع، بمن فيهم أبي الحسن نفسه [137]. وبسقوط الجزيرة الخضراء فقد المغرب المريني نقطة هامة للعمليات العسكرية ولانتقال الجيوش، وأصبح ألفونسو الحادي عشر سيد مياه الزقاق بدون منازع.

منذ هذه لفترة لا نجد اهتماما كبيراً بالنقطتين اللتين كانتا ما تزالان تحت الإدارة المرينية، باستثناء استقبال السلطان لوفد من رندة في بداية سنة 745 هـ/ ماي 1344م، ومساعدته الخاطفة سنة 749 هـ/1350م لفك حصار جبل طارق، وهو حصار لم يرفع إلا بسبب تهديد الوباء المندلع في صفوف القشتاليين، والذي كان من ضحاياه الملك القشتالي نفسه[138]. وما لبث المرينيون أن تنازلوا عن رندة للنصريين سنة 1361م وفي سنة 1374 تنازلوا لهم عن جبل طارق، وبذلك لم يعد هناك وجود مريني بأرض الأندلس. بل أصبح المغرب نفسه، وقد دخل مرحلة الانحلال والضعف، ميدان تدخل ودسائس نصرية لا تنتهي.

وبصفة عامة يمكن القول إن المرينيين كانوا أقرب إلى تحقيق الحلم الوحدوي بالمغرب الكبير، إلا إنهم لم يستطيعوا تحقيق ذلك الهدف في شقه الأندلسي. لقد حدت مجموعة من العوامل المعقدة من جدوى التدخل المريني بالأندلس، وعلى رأسها : الانشغال في الحروب مع الجار الزياني، والفتن الداخلية بالمغرب، والصراع على السلطة، والتناقض المريني النصري، وعدم توفر المرينيين على أسطول كبير، واختلال التوازن بين ضفي البحر الأبيض المتوسط بصفة عامة[139]. ومع ذلك فإننا لا ننفي أن المغرب المريني "استطاع أن يؤخر كارثة الأندلس بنحو قرنين من الزمن، لما

(137) 130 Kably, *Société*, op. cit,
(138) Idem.
(139) M. J. Viguera, *Le Maghreb mérinide*... op. cit. p. 310-311.

بذله من دفاع مجيد عن الفردوس المفقود"[140]، لكن انقطع العبور المغربي إلى الأندلس ترك الأندلسيين يواجهون لوحدهم زحف حركة الاسترداد الجارف الذي توج بسقوط غرناطة، عاصمة النصريين، سنة 1492م.

ثانيا - الأوضاع الأمنية والاقتصادية

أ) الأوضاع الأمنية

نستنتج مما سبق عرضه عن العلاقة بين ورثة دولة الموحدين (بني مرين، بني زيان)، أن التوتر والصراع كان سمتها العامة. هذا الصراع ترك حالة من عدم الاستقرار السياسي والأمني والذي كاد أن يكون مُطبقا، خاصة بالمغرب الأوسط وعاصمته تلمسان. كما أن آثار هذا الصراع لم يقتصر على الأسر والعروش السلطوية فقط، بل أثر في الشعب بمختلف شرائحه[141].

ومن الواضح أن الصراع الحربي لم يكن يقتصر على المعارك بين الجيوش، بل كان يتعداه إلى حصار المدن لفترات زمنية، قد تطول أحيانا. وكان السكان يتأذون من جراء ذلك، لأن اقتحام تلك المدن غالبا ما تتبعه أعمال النهب والتخريب عدة أيام، وحتى البوادي لم تسلم من ذلك التخريب حيث كانت تنسف المزروعات وتحرق، وتتلف الآبار وعيون المياه، بالإضافة إلى تعطيل الإنتاج بسبب حالة الحرب أو الخوف من نشوبها.

ولقد أثرت هذه الظروف التي كادت أن تصبح جزءا من الحياة اليومية لإنسان المغرب الأوسط في نفسيته وجعلته أكثر ميلا إلى العزلة، وقليل الركون إلى الدنيا[142].

وبالإضافة إلى التدخل الحفصي والمريني، فإن الصراعات الداخلية على السلطة بين فروع الأسرة الحاكمة بتلمسان، بل وحتى داخل الفرع الواحد[143] زادت من عدم الاستقرار السياسي والأمني بالمغرب الأوسط، موطن المرازقة. من ذلك الصراع الطويل بين أبي حمو موسى الثاني وابن عمه أبي زيان بن سعيد، والذي عرفته الفترة

---

(140) المنوني، ورقات، 19.

(141) بوداود عبيد، ظاهرة التصوف في المغرب الأوسط، م. س.، ص 162.

(142) نفسه، ص 158.

(143) بوزيان الدراجي، نظم الحكم في دولة بني عبد الواد الزيانية، الجزائر، 1993، ص 32-36.

الممتدة ما بين سنتي 762 و 783 هـ[144]. ونشير في هذا الصدد إلى أن أغلب سلاطين بني عبد الواد إما قتلوا في المعارك والحروب التي قامت ضدهم، أو بتدبير من المتآمرين من أبناء عمومتهم. فمن بين سبعة عشر سلطانا حكموا ما بين سنة 633 و 833 هـ قتل منهم ثمانية سلاطين، وهذا ما يعكس عدم الاستقرار السياسي وكثرة الفتن الداخلية والصراعات على الحكم[145].

إن كتب الرحلات تتفق في أغلبها على وصف الأوضاع بالاضطراب وانعدام الأمن، وإذا كنا نتعامل مع المعلومات التي شخّص بها العبدري، مثلاً، الوضع السياسي والأمني بنوع من التحفظ، لِما يسِمُ وصفه من مبالغة وتحامل على بلاد المغرب الأوسط[146]، خاصة في حياتها الثقافية، فإنّ ترديد هذه الأوصاف والأحكام من قبل الرحالة الذين جاءوا من بعده يجعلنا نسلِّم بأن ظاهرة الفوضى وعدم الاستقرار كانت طابعا طاغيا ببلاد المغرب الأوسط، بل وكل منطقة المغرب الإسلامي. من ذلك ما أورده خالد بن عيسى البلَوي، في أكثر من مناسبة، من تعرض القافلة التي كان من بين أعضائها، إلى هجمات قطاع الطرق، وفي نقط متفرقة من بلاد المغرب الأوسط، سواء أثناء مروره ذهابا إلى بلاد المشرق أو في أثناء عودته[147].

وإذا كان الصراع بين الدول المغاربية الثلاث العامل الأكثر أهمية وراء ضعف السلطة المركزية عن مباشرة مسؤوليتها وفرض هيبتها على حدودها ورعاياها، فإن عاملا آخر لا يقل أهمية كان وراء إشاعة ظاهرة الفوضى، ألا وهو دور القبائل العربية.

(144) عبد الحميد حاجيات، "**السلطان أبو حمو موسى الثاني، سياسته وأدبه**"، مجلة تاريخ وحضارة المغرب، العدد الخامس، يوليو 1968، ص 25.

(145) بوداود عبيد، **ظاهرة التصوف في المغرب الأوسط**، م .س. ص، 164-165.

(146) ومما جاء في وصف العبدري للمرحلة المؤدية إلى تلمسان انطلاقا من المغرب الأقصى قوله : ولما انتهينا إلى المفازة التي في طريق تلمسان، وجدنا طريقا منقطعا مخوفا لا تسلكه الجموع الوافرة إلا على حذر واستعداد. وتلك المفازة مع قربها من أضر بقاع الأرض على المسافرين لأن المجاورين لها من أوضع خلق الله وأشدهم إذاية، لا يسلم منهم صالح ولا طالح، ولا يمكن أن يجوز عليهم إلا مستعد يتفادون من شره. وطلائعهم أبدا على مرقب لا يخلو منها البتة (**رحلة العبدري**، 9).

(147) البلوي، **تاج المفرق في تحلية علماء المشرق**، ج 1، ص 164 (حيث يذكر مثلا أنه نجا بأعجوبة من قطاع الطرق وهو يغادر بلد العناب في رجب 736 هـ) وكذلك أثناء عودته، وفي المرحلة الفاصلة بين مدينة بجاية والجزائر، في شوال 740 هـ تعرضوا للهجوم مرة أخرى : "وعندما ملنا للنزول، وعطفنا من تلك الحزون إلى السهول، تصارخت العرب، واجتمع الابن منهم والأب، ثم حملوا علينا حملة ظننا أن الجبال إلينا راجفة، وأن الأرض بنا واجفة، فصبرنا لحر طعانهم، وتجرعنا مرارة مرانهم وأقبلناهم أوجها تتهلل إذا عبس الحمام..." (نفسه، ص 147-148).

وإن كتب النوازل لطافحة بأحداث العنف التي كانت تتسبب فيها هذه القبائل، والآثار التي كانت تتركها هجماتها المتكررة، وهذا ما حمل على التساؤل حول مشروعية جهاد تلك القبائل، بعدما عجزت السلطة القائمة عن ردعها(148). وكان جواب الفقهاء يقضي بتجويز جهاد أولئك الأعراب، بل اعتبره أولى من جهاد الكفار غير المبتدئين بقتال المسلمين، وأباح أخذ أموالهم، والإجهاز عليهم وهم مدبرون(149). وإن التشدد الذي يستشف من هذا الجواب، خاصة ما يتعلق منه باتباع أولئك الأعراب وهم يفرون من ساحات القتال، والإجهاز على جرحاهم، وهو ما لا يُعامل به عادة المخالفون من المسلمين، لدليل على تكرر مظاهر الاضطرابات التي كان يثيرها أولئك الأعراب.

ب) الأوضاع الاقتصادية

أصابت الحياة الاقتصادية والاجتماعية لبلاد المغرب الأوسط خلال القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي الكثير من مظاهر التدهور والانهيار مقارنة مع القرون السابقة، وكانت عوامل عديدة وراء هذه الوضعية، لعل أبرزها يتمثل في عدم الاستقرار السياسي والأمني بسبب الحروب الطويلة التي ظلت قائمة بين الدول المغاربية الثلاث، وكذا الفتن الداخلية. ولم يقتصر هذا الصراع على الحروب بين الجيوش، بل تعداه إلى تحطيم مختلف مظاهر الحياة الاقتصادية؛ كردم الآبار وعيون المياه، ونسف الزروع وحرقها، وتقويض مختلف دعائم الحضارة. ونكتفي في هذا المقام بإيراد مثال واحد، لأن الظاهرة كانت عامة. فعلى إثر حملة السلطان المريني أبي يعقوب سنة 670 هـ وحصاره لمدينة تلمسان، استغلت قبائل توجين –التي كانت مناوئة للسلطة المركزية– الفرصة وراحت تعمل التخريب بجهات تلمسان : "فقطعوا الثمار، ونسفوا الآبار، وخربوا الربوع، وأفسدوا الزروع، ولم يدعوا بتلك الجهات قوت يوم حاشا السدرة والدوم(150)".

(148) الونشريسي، المعيار، 2/435-436.

(149) الونشريسي، المعيار، 2/437، 403؛ وانظر كذلك : سعد غراب، **مواقف الفقهاء المغاربة من المجموعات الريفية من خلال نوازل البرزلي.**

Actes du III Congrès d'histoire et de la Civilisation du Maghreb, *Le monde rural maghrébin, communautés et stratification sociale,* Oran, 26-28 novembre 1983, Alger, tome 1, p. 85

(150) **روض القرطاس**، 131-132.

وإذا علمنا أن هذه الحروب لم تكد تنقطع إلا في فترات محدودة، أدركنا مدى الآثار السيئة التي كانت تتركها على الحياة الاقتصادية بسبب تحطيم الإنتاج ووسائله.

وكان يتبع هذه الحروب أو يصاحبها حصار المدن، وأثر ذلك على حياة المحصورين، بانتشار الرعب والجوع وغلاء الأسعار، ونذكر من جملة ذلك الحصار الطويل الذي تعرضت له مدينة تلمسان، والذي بدأ سنة 698 هـ : "فكانت مدة هذا الحصار الأكبر والخطب الشديد ثماني سنوات وثلاثة أشهر وخمسة أيام، بلغ فيها عدد موتى أهل تلمسان قتلا وجوعا زهاء مائة ألف وعشرين ألف، وثمن صاع قمحهم إلى دينارين وربع الدينار، وصاع شعيرهم إلى نصف ذلك[151]".

وكان عبد الرحمان ابن خلدون أكثر تفصيلا فيما يخص آثار هذا الحصار على أسعار مختلف السلع، حيث يذكر : "فكان ثمن مكيال القمح الذي يسمونه البرشالة ويتبايعون به مقداره اثني عشر رطلا، نصف مثقالين ونصف من الذهب العين، وثمن الشخص الواحد من البقر ستين مثقالا، ومن الضأن سبعة مثاقيل ونصف"[152]، وهذا ما يؤكد على مدى إحكام الحصار على مدينة تلمسان، بل أشار إلى إقبال الناس على شراء لحم الجيفة من البغال والحمير وغيرهما[153]. ونال أهل تلمسان المحصورين الكرب العظيم "واضطروا إلى أكل الجيف والقطط والفئران، حتى لزعموا أنهم أكلوا فيها أشلاء الموتى من الأناسي، وخربوا السقف للوقود، وغلت أسعار الأقوات والحبوب وسائر المرافق، بما تجاوز حدود العوائد، وعجز وُجْدهم عنه... واستهلك الناس أموالهم وموجودهم، وضاقت أحوالهم"[154].

ونعتقد أن التجارة الداخلية – ما بين المناطق داخل الدولة الواحدة، وما بين مختلف المدن المغاربية– تقلص حجمها هي الأخرى، بسبب حالة عدم الاستقرار التي كانت تعرفها البلاد المغاربية، وكذا بسبب اللصوصية والتي يظهر، من خلال الأحداث المتكررة عنها، أنها كانت شائعة، ولم تتمكن الدول المغاربية من وضع حد لها[155]. وبهذا الصدد نورد نصا معبرا لابن مرزوق حول تدهور التجارة الداخلية حينما يقول :

(151) **بغية الرواد**، 211.

(152) ابن خلدون، **العبر**، 7/197-198.

(153) نفسه، 198.

(154) ابن خلدون، **العبر**، 7، ص 113.

(155) بوداود عبيد، **ظاهرة التصوف في المغرب الأوسط**، م. س. ص، 180.

"إن الموضع المعروف بمسجد إيلان، وهو اليوم داخل الربض، كان يطلع منه كل يوم حمل للبضع، من عمل الصوف، وهذا موضع من آحاد المواضع، فانظر هل تجد اليوم في ذلك الموضع، أو ما يجاورهم، عماراً، أو في البلد كلها ما يشترى به بأقل عدد"(156).

أما التجارة الخارجية، فلعل أبرز مظاهر أزمتها تلك التي مست التجارة الصحراوية.

*** أزمة التجارة الصحراوية في القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي**

لعبت تجارة الذهب دوراً مهما في تاريخ إفريقية الشمالية في العصر الوسيط. فهي تعتبر – في نظر بعض الباحثين المحدثين– بمثابة الخيط الموجه بالنسبة لتاريخ هذه الدول، والمحرك الأساسي للتطورات التي شهدها المغرب الذي ظل مدة طويلة من تاريخه القرسطوي يراقب طريق ذهب السودان. وقد اعتبرت المدن التجارية التي تصلها القوافل التجارية الصحراوية ويتوافد عليها التجار الشرقيون والمسيحيون بمثابة قلب "قطب" لكل دولة(157). واعتبرت السيطرة على طرق القوافل بالنسبة لهذه الدولة، مثلها في ذلك مثل الدول السابقة، العمود الفقري لسياستها الاقتصادية، وهذا ما يفسر الصراع العنيف والحروب المستمرة بين دول المغرب على المدن التجارية: سجلماسة، تاهرت، سبتة، تلمسان، القيروان(158).

لكن الظرفية التي ورثها المرينيون مع مطلع القرن الرابع عشر الميلادي تختلف عما كانت عليه على عهد سابقيهم الموحدين؛ إذ عرفت شبكة الطرق الصحراوية تغييرات كبيرة في القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي. نلاحظ أن هناك تحولا في المحاور التجارية يتم شيئا فشيئا نحو الجانب الشرقي من بلاد المغرب. فالطريق الغربي الذي كان يخترق دائما المغرب الأقصى من سوس حتى الريف، أصبح مضطربا خلال النصف الثاني من القرن السابع الهجري/ الثالث عشر. أما المحاور التي كانت تنتهي عند هنين–الميناء الذي أصبح قاعدة تصريف سلع تلمسان فيما بعد– وبجاية وبونة وتونس وطرابلس أو الإسكندرية، فقد بدأت تدب فيهم الحياة كنتيجة لانحطاط المحاور الغربية بالمغرب الأقصى(159). وبذلك تعددت التيارات التجارية بالنظر إلى

(156) المناقب المرزوقية، ص 190.

(157) إيف لاكوست، **العلامة ابن خلدون**، ترجمة ميشال سليمان، ط 2، بيروت، 1978 ص 21-24.

(158) القبلي، **مراجعات**، ص 59.

(159) د. محمد الشريف، "**ابن بطوطة وأزمة التجارة الصحراوية**"، ضمن كتاب: **الغرب الإسلامي، نصوص دفينة ودراسات**، ط. 2، 1999، ص 115-116.

تعدد القوى السياسية التي كانت تتجاذبها وتتنافس من أجل السيطرة عليها. فقد فتح ضعف الموحدين الطريق أمام منافسة شرسة بين ورثتهم المرينيين والعبدلواديين والحفصيين لتوزيع رقعة إمبراطوريتهم، وكذلك للاستيلاء على التجارة مع الصحراء. ومن هذه الزاوية يُفهم الصراع المرير الذي دار بين المرينيين والزيانيين حول سجلماسة، وتفهم محاولات المرينيين الهادفة إلى ضم المغرب الأوسط، وعاصمتها التجارية، وكذلك محاولات السيطرة على إفريقية(160).

ولا شك في أن مصر المملوكية كانت أكبر المستفيدين من انحراف الطرق التجارية الصحراوية نحو الشرق. بل إن المصريين قد وجهوا منذ منتصف القرن الثالث عشر العناية الكبرى لمنطقة أعالي النيل التي كانت تحت مراقبة الدول المسيحية، وتمكنوا سنة 1316م من الاستيلاء على هذه المنطقة نتيجة لتلك الضربات التي كانوا يوجهونها لمملكة النوبة المسيحية، والتي أدت إلى انهيارها. وبذلك تمكن المصريون من فتح طريق الجنوب لإقامة علاقة تجارية مع بلاد السودان الغربي، فأصبح الطريق مفتوحة أمامهم، والتي كانت تمتد من ضفاف النيل إلى شواطىء المحيط الأطلسي. وتوثقت العلاقات التجارية بين مالي ومصر أكثر مع نهاية النصف الأول من القرن الرابع عشرم/ 8 هـ بعد الرحلة الشهيرة التي قام بها سلطان مالي، منسى موسى، إلى مكة عن طريق مصر.

وقد كان لانحراف الطرق القافلية باتجاه مصر، وللاتصال المباشر بين المصريين والسودانيين عواقب وخيمة على الدول المغاربية، وآثار سلبية على التجارة المغربية السودانية. وسجل ابن الخطيب هذه الآثار من خلال ما آلت إليه شركة الإخوة المقري التي كانت تحقق أرباحا طائلة، لأن بلاد السودان والصحراء "قبل أن يدخلها أهل مصر، كانت تجلب لها من المغرب ما لا بال له من السلع"(161). فبانعزال المغرب وانقطاع طرق الذهب، ظهر التصدع والانهيار الذي عرفته هذه الدولة في القرن الرابع عشر الميلادي(162).

ولقد اعتبر البعض مسألة انحراف الطرق التجارية نحو الشرق من العوامل الأساسية التي ساهمت في تراجع الدور الاقتصادي للمغرب، وفي تعميق أزمته منذ هذه الفترة. بل هناك من الباحثين – مثل إيف لاكوست– من يختزل مفتاح تاريخ المغرب الوسيط

(160) M.J.Viguira, *Le Maghreb mérinide : un processus de transfèrement* p. 311-312, Kably, *Société*, op. cit. p. 97-98.

(161) **الإحاطة**، 193/2.

(162) إيف لاكوست، **العلامة ابن خلدون**، م.س.، ص 101.

في مدى نجاح السلطة القائمة في التحكم في طرق القوافل، ويرى أن الصراعات والحروب بين دول المغرب لم يكن سببها الأساسي مع نهاية العصر الوسيط سوى الرغبة في مراقبة طرق الذهب والسيطرة عليها[163]. وعلى الرغم مما يعترض هذه التفسيرات من انتقادات من قبل المؤرخين المختصين [164]، فإنه لا يجب إهمالها أو التقليل من شأنها في فهم أزمة مغرب القرن الثامن الهجري، وما استتبعها من أزمات أخرى، وعلى رأسها "الأزمة النقدية"، التي عانى منها العالم الأوربي بسبب أزمة التجارة الصحراوية ذاتها.

ثالثا : الانهيار الديموغرافي ببلاد المغرب

لقد اعتبر بعضهم القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي من أسوء العصور التي عرفها الحوض المتوسطي، نظرا لكثرة الأزمات التي ميزته، حتى وصف بأنه قرن مطبوع بالكوارث (Siècle calamiteux). ويأتي الطاعون الأسود على رأس الظواهر المميزة لهذا القرن. وقد اجتاح هذا الوباء البلاد المغاربية وأوربا الغربية ابتداء من سنة 749 هـ/ 1348م[165]. وتقدر بعض الدراسات عدد الخسائر البشرية التي خلفها الطاعون الأسود ما بين ثلث أو نصف سكان المغرب الإسلامي[166]، وذلك ما دفع أحد الباحثين إلى القول بأن "المغرب عرف نزيفا ديموغرافيا من جراء الطاعون الأسود"[167] ويذكر المؤرخون العرب عند حديثهم عن تأثير الوباء في بلاد المغرب أن الجثث كانت متناثرة

---

(163) نفسه، 24.

L'Etat du Maghreb, sous la direction de Camille et Yves Lacoste, La Découverte, 1991, p. 45-46.

(164) يمكن مراجعة الانتقادات الموجهة لأطروحة إيف لاكوست هذه، في مقال ذ. مصطفى نشاط، **"المغرب المريني وأزمة القرن 14م/8 هـ النقدية"**، مجلة أمل، العدد الثالث، 1993، ص 9-12. وكذلك في مقال :

Maria F. Vidiasov, *Le Maghreb médiéval : "mercantilsme parasitaire" ou société productrice*, **Anaquel de Estudios Arabes**, III, 1992, p. 241- 246

(165) E. Carpentier, "Autour de la peste noire, Famines et épidémies dans l'histoire du XIVe siècle", *Annales*. E.S. C. , 1962, pp. 1062.

(166) أحمد بوشرب، **"أزمات القرن الرابع عشر ودورها في تغير ميزان القوى لصالح الدول المسيحية المشرفة على الحوض الغربي للأبيض المتوسط"**، أعمال الملتقى الدولي الثاني عن ابن خلدون، الجزائر، 1992، 213-214.

(167) مصطفى نشاط، **إطلالات على تاريخ المغرب خلال العصر المريني**، منشورات كلية الآداب وجدة، 2003، ص 123، وانظر كذلك، نللي، الولاية، م. س. ص 60-61.

في الجبال والسهول والمدن، وأن الوباء قضى على المواشي[168]، بل من المفترض أن المغرب قد "احتاج إلى عدة عقود لسد الثغرة السكانية التي أحدثها هذا الوباء"[169].

ولقد أبدع ابن خلدون في وصف طاعون منتصف القرن الثامن الهجري في نصه الشهير التالي : " هذا إلى ما نزل بالعمران شرقا وغربا في منتصف هذه المائة الثامنة من الطاعون الجارف، الذي تحيّف الأمم، وذهب بأهل الجيل، وطوى كثيرا من محاسن العمران ومحاها، وجاء للدول على حين هرمها وبلوغ الغاية من مداها، فقلّص من ظلها وفلّ من حدّها، وأوهن من سلطانها، وتداعت إلى التلاشي والاضمحلال أحوالها، وانتقص عمران الأرض بانتقاص البشر، فخربت الأمصار والمصانع، ودُرست السبل والمعالم، وخلت الديار والمنازل، وضعفت الدول والقبائل، وتبدّل الساكن، وكأني بالمشرق قد نزل به مثل ما نزل بالمغرب، لكن على نسبته ومقدار عمرانه، وكأنما نادى لسكان الكون في العالم بالخمول والانقباض فبادر بالإجابة"[170].

وقد ذهب ضحية وباء سنة 748 – 947 هـ العديد من أفراد النخبة المغاربية. يقول ابن خلدون وهو يعدد من توفي في هذا الطاعون : "ثم درجوا كلهم في الطاعون الجارف"[171]. ولقد لاحظ أحد الباحثين المحدثين "أن معظم العلماء الذين توفوا أواخر العقد الخامس من القرن الثامن الهجري ممن ترد أسماؤهم بكتب التراجم والطبقات، هلكوا بفعل الطاعون"[172]، وترد في المناقب المرزوقية أسماء علماء مغاربة قضوا بهذا الوباء[173].

ولم تكن انعكاسات هذا الطاعون تقتصر على الجانب الديموغرافي والاقتصادي فحسب، وإنما طالت حتى الجوانب الدينية والنفسية ؛ وعلى رأسها تقوية الشعور الديني، وإقبال الناس على المتصوفة، واعتقادهم في الصلحاء والأولياء[174].

---

(168) G. Wiett, «La grande peste noire en Syrie et en Egypte» dans, *Etudes d'orientalisme dédiées à la mémoire de Lévi-Provençal*, Paris, 1962, T.1, p. 372

(169) مصطفى نشاط، **إطلالات**... م.س. ، ص 123.

(170) ابن خلدون، **المقدمة**، ص 406. 604

(171) ابن خلدون، **التعريف**، ص 19.

(172) مصطفى نشاط، **إطلالات** ...م.س. ص 140 وكذلك : محمد الأمين البزاز، **الطاعون الأسود بالمغرب في القرن 14م**، مجلة كلية الآداب الرباط،العدد 1991، 16، ص 116-117.

(173) **المناقب المرزوقية**، 187 - 192 - 292.

(174) نشاط، **إطلالات**، م.س.، 136.

رابعاً : الأوضاع الثقافية

أما على المستوى الثقافي، فتميز الوضع بنوع من الازدواجية، حيث نعثر في آن واحد على ما يشير إلى التقهقر والتراجع العلمي خلال القرن الثامن الهجري، بما في ذلك شيوع التقليد والتحجر ورفض التجديد، وانتشار الذيول والشروح ؛ ومن ناحية أخرى نعثر على مقومات التجديد الذي يبقى دون شك فكر ابن خلدون ونظريته التاريخية والاجتماعية أبرز عناوينه؛ مما يجعلنا نتحرز من الحكم على هذه الفترة برمتها وبشكل مطلق بأنها اتسمت بالانحدار الثقافي كجزء من حكم أشمل ومن رؤية تُسحب على العالم الإسلامي ككل، الذي اعتبر التيار الاستشراقي أنه دخل ابتداء من القرن الرابع الهجري/منتصف العاشر الميلادي، وحتى القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي في حقبة انحطاط(175).

أما عبد الله العروي فيتحدث عن "ذروة" الازدهار الثقافي بالمغرب الإسلامي في القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، ويقول : "يجمع الدارسون [هكذا] على أن العهد المريني- الحفصي- الزياني يمثل ذروة الثقافة العربية الإسلامية في بلاد المغرب، لأنها لم تعد كما كانت من قبل محصورة في منطقة معرّبة دون سواها، بل شاركت كل المناطق بنصيبها في حفظها ونشرها"(176). ويعود في مكان آخر ليقول : "تبدو ثقافة القرن الثامن /14 في بلاد المغرب غنية متنوعة، فننسى أنها لا تعبر عن تجربة المغرب التاريخية، بل تمثل، شكلا ومحتوى، آخر بريق سطعت به الأندلس قبل أن تغيب من الأفق وإن بقيت ماثلة في الوجدان"(177).

والواقع أن هذه الأقوال لا تنسجم مع ما قرره ابن خلدون، باعتباره شاهد على عصره. إذ يؤكد تراجع العلم بالمغرب آنئذ، وازدهاره بالمشرق، وذلك بقوله : "وقد كسدت لهذا العهد أسواق العلم بالمغرب لتناقص العمران فيه، وانقطاع سند العلم والتعليم [...] وما أدري ما فعل الله بالمشرق، والظن به نفوق العلم فيه واتصال التعليم في العلوم وفي سائر الصنائع الضرورية والكمالية لكثرة عمرانه والحضارة ووجود الإعانة لطالب العلم بالجراية من الأوقاف التي اتسعت بها أرزاقهم"(178).

---

(175) نللي سلامة العامري، **الولاية والمجتمع**، م س. ص 60-61.

(176) عبد الله العروي، **مجمل تاريخ المغرب**، ج 2، الدار البيضاء، 1994، ص 217.

(177) نفسه، 219.

(178) ابن خلدون، **المقدمة**، تحقيق علي عبد الواحد وافي، القاهرة، ط 3، د.ت،ج 3، ص 1028.

بل لقد ترك لنا ابن خلدون وصفا دقيقا وشاملا لحال العلم وأهله في عصره، وقدم لنا صورة حية يكشف فيها عن وقوف الفكر الإسلامي وجموده واقتصاره على اجترار ما قرره السلف في ميدان العلوم الدينية، وانصرافه كلية عن العلوم العقلية(179). ومن المعلوم أن المغرب رجع في العصر المريني إلى المذهب المالكي الذي كان قد مر بفترة خفوت على عهد الموحدين، وأصبح هذا المذهب هو المسيطر في ميداني التشريع والعبادات(180)، ومع ذلك، "وعلى كثرة الفقهاء في العصر المريني، فإنهم لم يدونوا كتبا في الفقه، وكان عمدتهم فيه كتابا ابن الحاجب : الأصلي والفرعي، وقد أشبعوا الثاني شرحا وتعليقا، وظلوا منكبين عليه إلى أن طلع عليهم مختصر الشيخ خليل، فتعلقوا به وتركوا ما سواه"(181).

لكن يجب الإقرار بأن القرن الثامن الهجري هو القرن الذي ازدهرت فيه المدارس العلمية وعدة مراكز ثقافية(182)، وبرز فيه نوابغ وقادة فكر مغاربيين، أمثال ابن خلدون، وابن الخطيب، والشاطبي، وابن عبد الملك المراكشي، وابن الحاج الفاسي، وأبي القاسم الشريف الحسني، وابن البناء المراكشي، وابن الشاط السبتي، وابن أبي الربيع، وأبي الحسن الصغير، وابن رشيد السبتي، وابن آجروم، والتجيبي، وعبد المهيمن الحضرمي، وابن الأحمر، وسعيد العقباني، وابن عذاري المراكشي... وغيرهم كثير من النماذج الفكرية الذين نبغوا في مختلف العلوم ولا زالت أسماؤهم تتردد بيننا إلى اليوم. ولعل ابن مرزوق الخطيب نفسه يُعد من أبرز هذه النوابغ الفكرية وأشهرها، كما سنبينه في الفصل الموالي.

---

(179) محمد عبد الجابري، **فكر ابن خلدون : العصبية والدولة. معالم نظرية خلدونية في التاريخ الإسلامي**، ط 2، د.ت. ص 38-40 (محيلا على المقدمة، (ج 3/996 فيما يتعلق بعلوم القرآن، من تفسير وقراءات، (ص 1006) بخصوص علم الحديث، (ص 1016) بخصوص الفقه (ص 1026) بخصوص علم الفرائض (ص 1032) بخصوص أصول الفقه، (ص 1032) بخصوص هجر أهل المغرب الخلافيات، أي المناظرات بين الفقهاء، (ص 1049) بخصوص علم الكلام... وانظر كذلك : عبد المجيد الصغيّر، "تقويم ابن خلدون للحالة العلمية في الغرب الإسلامي"، ضمن كتاب : **العلم والفكر العلمي بالغرب الإسلامي في العصر الوسيط**، تنسيق بناصر البعزاتي، منشورات كلية الآداب بالرباط، 2001، ص 163-175.

(180) محمد المنوني، **ورقات عن حضارة المرينيين**، م. س. ص 153-432.

(181) د. عبد السلام شقور، **الشعر المغربي في العصر المريني : قضاياه وظواهره**، منشورات كلية الآداب بتطوان، 1996، ص 44.

(182) محمد المنوني، **ورقات عن حضارة المرينيين**، م، س، ص 239-249 ، 250 وما بعدها.

القسم الأول

المؤلِّف والكتاب

الفصل الأول

ابن مرزوق : حياته وآثاره العلمية

1) مصادر ترجمة ابن مرزوق ومراجعها

لعل أهم معين لترجمة ابن مرزوق هو ما كتبه الرجل بنفسه عن حياته وحياة أسرته، مما نجده في مختلف مؤلفاته التي وصلتنا، وعلى رأسها "المناقب المرزوقية"، وكتاب "**المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن**". فهاذان الكتابان يمدانا بسيل من المعلومات المتنوعة عن مختلف مناحي حياته الشخصية، وتكوينه العلمي، وانخراطه في الحياة السياسية لعصره. واللافت للانتباه أن "المناقب المرزوقية" تتحول في فصولها الأخيرة إلى سيرة ذاتية لابن مرزوق، مثلها في ذلك مثل "المسند الصحيح الحسن"(183). ثم إننا لا نعدم إشارات عن ابن مرزوق في مؤلفاته المخطوطة التي وصلتنا، ومنها : فهرسة شيوخه الموسومة بـ "**عجالة المستوفز المستجاز...**"، و"**جني الجنتين في فضل الليلتين ليلة القدر وليلة المولد النبوي**"، وشرحه لكتاب الشفاء للقاضي عياض، وكتابه "**تيسير المرام في** شرح عمدة الأحكام" ؛ فضلا عن "**خطبه الكثيرة**"(184). ولو وصلتنا مؤلفاته الأخرى لأمدتنا بدورها بمعلومات إضافية عن سيرته العلمية، ولَعكَستْ لنا ثقافته ومناحيَ من شخصيته الفكرية والخلقية.

ولئن كانت كتب التراجم المغربية الأندلسية غير شحيحة بالمعلومات عن ابن مرزوق الخطيب وأفراد أسرته، وتلقي الضوء على سيرته وشيوخه، فإنها غالبا ما تكرر بعضها البعض، وتتداول مادتها مختلف الدراسات الحديثة، العربية والأوربية على حد سواء. ومن بين الدراسات الحديثة المتميزة بجدتها، يجب أن نذكر بصفة خاصة تلك التي خصصتها له المستعربة الإسبانية، الدكتورة ماريا خيسوس بيغيرا، في مقدمتها لكتاب "المسند الصحيح الحسن..."، فقد أحاطت إحاطة شاملة بحياة الرجل وبآثاره،

(183) انظر بصفة خاصة الفصول الثمانية من خاتمة الكتاب ص 479-500.

(184) انظر أرقام هذه التآليف المخطوطة وأماكن وجودها في الفقرة المخصصة لآثار ابن مرزوق.

ولم يفتها أن تستوعب في دراستها أسلافه وخلفه [185]. إلا أن تلك الدراسة تحتاج إلى تدقيق بعض جوانبها، وتصحيحها على ضوء ما توفره "المناقب المرزوقية" من أخبار ومعطيات جديدة، وعلى ضوء ما استجد من دراسات، وظهر من مخطوطات كانت مجهولة في الثمانينات من القرن الماضي. ذلك ما سنعمل على إبرازه في هذه الدراسة. لكن قبل ذلك، لا بأس من إيراد أهم مصادر ترجمة ابن مرزوق ومراجعها، كما وردت في دراسة كل من الحاج صدوق، ودراسة ماريا خيسوس بيغيرا، مع تطعيمها ببيبليوغرافية إضافية، لم تكن في متناول الباحثيْن :

أولا : المصادر

– ابن الخطيب : **الإحاطة في أخبار غرناطة**، ج 3، 104 ؛
– ابن الخطيب : **نفاضة الجراب في علالة الاغتراب**، 269-270 ؛
– ابن الخطيب : **ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب**، ج 1، 109-111 ؛
– يحيى ابن خلدون، **بغية الرواد**، 115 ؛
– عبد الرحمان بن خلدون، **العبر**، 7/370-372،
– عبد الرحمان بن خلدون، **رحلة ابن خلدون**، 93-98 ؛
– ابن الأحمر، **روضة النسرين في دولة بني مرين**، 22 ؛
– ابن فرحون، **الديباج المذهب**، ج 2/290، 296 ؛
– ابن قنفذ، **الوفيات**، ص 60، سنة 780 ؛
– ابن حجر، **الدرر الكامنة**، 3/360-362 رقم 957 ؛
– ابن ثغري بردي، **النجوم الزاهرة**، 11/196 ؛
– السيوطي، **حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة**، 2/104 ؛
– السيوطي، **بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة**، ج 1/18-19 ؛
– ابن القاضي، **جذوة الاقتباس**، 1/225-227 ؛
– ابن القاضي، **درة الحجال**، 2/275، رقم 782 ؛
– أحمد بابا، **نيل الابتهاج**، 450-455 ؛

(185) ابن مرزوق، **المسند الصحيح الحسن**، م. س. ، ص 12-58. وقد نوقشت مؤخرا (15 مارس 2004) بجامعة وهران بالجزائر رسالة ماجستير في التاريخ بعنوان : "**دور أسرة المرازقة في الحركة الثقافية في المغرب الأوسط**"، أعدها الباحث بن داود نصر الله، تحت إشراف د. عبد الحميد حاجيات ؛ لم أتمكن من الاطلاع عليها.

– المقري، **نفح الطيب**، 5/390-419 (وفي مواضع مختلفة)
– ابن مريم، **البستان**، 184-190 ؛
– الزركشي، **تاريخ الدولتين**، ص 193، 198، 204، 201 ؛
– الرصاع، **فهرست الرصاع**، ص 36-41 ؛
– ابن العماد، **شذرات**، 6/271-272.

ثانيا : المراجع

– مخلوف، **شجرة النور الزكية**، 236، رقم 849 ؛
– ابن إبراهيم المراكشي، **الإعلام**، ج 4/ ص 26-37 ؛
– ابن عمار، **نحلة اللبيب بأخبار الرحلة إلى الحبيب**، ص 110-111 ؛
– الحفناوي، **تعريف الخلف**، 136، 144 ؛
– الوزير السراج، **الحلل السندسية**، 657، 623، 614، 598، 670، 682، 835 ؛
– الناصري، **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، ج 4، 37-39 ؛
– الكتاني، **فهرس الفهارس**، 1/394، 181-396 ؛
– حاجي خليفة، **كشف الظنون**، 1333، 1170، 1164، 550، 306، 154، 104، 1628 ؛
– البغدادي، **إيضاح المكنون**، ج 1/344، 155 ؛ ج 1/521، 510، 482، 93، 650 ؛
– البغدادي، **هدية العارفين**، 2/170 ؛
– الزركلي، **الأعلام**، ط 2، دمشق، 1954، ج 6/226 ؛
– كحالة، **معجم المؤلفين**، ج 9/16-17 ؛
– عبد السلام ابن سودة، **دليل مؤرخ المغرب**، ص، 161، 195، 305 ؛
– البستاني، **دائرة المعارف**، 4/32 ؛
– الجلالي، **تاريخ الجزائر العام، الجزائر**، ج 2/104 ؛
– محمد المنوني، **المصادر العربية لتاريخ المغرب**، ج 1، 96، 102 ؛
– محمد بن رمضان شاوش، **باقة السوسان في التعريف بحاضرة تلمسان عاصمة دولة بني زيان**، ص 494-496 ؛
– عادل نويهض، **معجم أعلام الجزائر**، ص 140-141 ؛
– **موسوعة أعلام المغرب العربي**، ج 2 ص 691-692 ؛
– سعيدوني، **من التراث التاريخي والجغرافي للغرب الإسلامي**، ص 190-197 ؛

– عبد الكبير الكتاني، **زهرة الآس في بيوتات أهل فاس**، ج 2، ص 167-169 ؛
– بوعياد محمد، من مآثرنا المغمورة : "**المسند الصحيح الحسن في مآثر مولانا أبي الحسن لمحمد بن مرزوق الخطيب**"، ص 19-28 ؛
– ابن شقرون محمد، "**من مظاهر وحدة الثقافة في دول المغرب العربي : الخطيب ابن مرزوق**"، ص 128-144 ؛
– ماريا خيسوس فيغيرا، "**أخبار إفريقية في "المسند" لابن مرزوق**"، ص 61-87.

- M. Hadj-Sadok, Ibn Marzouk EI, 2e éd, 3, 890-2.
- Arié R. L'Espagne musulmane, pp. 190, 195, 425, 440, 459.
- Ben Cheneb, Idjaza, 212.
- Bargès, Complément de l'histoire des Beni Zeiyan, pp. 99-114.
- Ben Chaneb, M. «Etude sur les personnages mentionnés dans l'Igaza de Cheikh Abd Al Kader Al Fasi», p. 212.
- Bel A., Inscriptions arabes de Fâs, pp. 47-50.
- Levi-Provençal, Un nouveau texte d'histoire mérinide : Le musnad d'Ibn Marzuk, pp. 1-82.
- Blachère, Quelques détails sur la vie privée du sultan mérinides Abu l Hasan, pp. 83-89.
- Benchekroun, La vie Intellectuelle marocaine, pp. 283-293.
- Shatzmeller, Maya, Les circonstances de la composition du Musnad d'Ibn Marzuq, pp. 292-299.
- Shatzmeller, M., L'historiographie mérinide, pp. 36-44, 72-75.
- Talbi M. Les contacts culturels entre l'ifriquiya hafside (1230-1569) et le sultanat nasride d'Espagne (1232-1492), pp. 75-76.
- Viguera M. J., El Musnad : Hechos memorables de Abu l -Hasan, Sultan de los Benimerines, 11-38.
- Viguera M. J., "Ibn Marsuq segûn Ibn Al Jatîb : Anâlisis de una biografîa, pp. 33-41.
- Viguera M. J., "Au sujet du Musnad d'ibn Marzuq", pp. 266-274.

2) سلف ابن مرزوق الخطيب

ينحدر ابن مرزوق، مؤلف "المناقب المرزوقية"، من أسرة عريقة في العلم، قيروانية الأصل، استقرت بتلمسان أواخر القرن الخامس الهجري/الحادي عشر للميلاد، وأنجبت ثلة من الأعلام الذين لعبوا دورا مهما في الحياة الدينية والعلمية، وحتى السياسية لبلاد المغرب، وارتبط سلفه بخدمة الولي الشهير أبي مدين شعيب.

والملاحظ أن صاحبنا ابن مرزوق كثيراً ما يكون موضوع التباس وغموض في كثير من التراجم والنصوص، ذلك أن المرازقة كثيرون، وأسرتهم وافرة العدد، متشعبة العناصر، أنجبت عددا مهما من الأدباء والفقهاء والعلماء الفطاحل. فهناك على سبيل المثال ابن مرزوق الكفيف وابن مرزوق الحفيد وابن مرزوق حفيد الحفيد، وغيرهم ممن اختلط اسمه بمؤلفنا، ونسب إليه مما هو بحق لمترجمنا.

فابن مرزوق الذي يعنينا هو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن محمد بن أبي بكر ابن مرزوق ابن الحاج القيرواني، العجيسي، التلمساني، المعروف بالخطيب، وبالجد، وبالرئيس ؛ والذي اتخذ من الألقاب المشرقية لقب شمس الدين.

وكان أهل وادي تلمسان من زناتة، وغيرهم ينطقون كلمة "مرزوق"، بالقاف أو بالجيم، "لغة العرب آنذاك في القاف". وقد رأى ابن مرزوق "هذا الحرف بخط بعض عدول أهل بلده القدماء بالكاف"، ويؤكد أن "هذا هو الجاري على لسان الشيوخ من أهل بلدنا"[186]، إلا أن هناك من كان ينطقه بالقاف.

وليست لدينا معلومات موثوقة عن ما بعد مرزوق. وقد وقف ابن مرزوق بنفسه على شيء منها بظهر كتاب، لم ينقله في مناقبه، "لعدم الوثوق به". والذي تحققه من والده، ومن عمّه، وغيرهما، أنهم لم يتلقوا من جده الأقرب إلا مرزوق ابن الحاج، هذا هو المحقق عندهم[187].

أما تلقبه بالعجيسي، فنسبة إلى قبيلة عجيسة الزناتية البربرية التي استقر أفرادها في "بلاد المغرب، من أقصى بلاد افريقية إلى أقصى بلاد المغرب، وبالأندلس".

– مرزوق وأخويه : خُلُوف ومعافى

لقد ورد مرزوق هذا على تلمسان مع أخويه شقيقيه، خُلوف ومعافى، من مدينة القيروان. وكانت مواطنهم وأملاكهم بجبل بظاهر القيروان، يسمى بـ"ويسلات". وكان ورودهم على تلمسان أيام حصار لمتونة لها، حوالي منتصف القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي هـ[188]، خرجوا من القيروان لمزعج أزعجهم، لعله الزحف الهلالي على القيروان، كما يُعتقد، فاستوطنوا تلمسان، وبنوا بها حين بنا الناس بالبلد العليا، محاصرين لتلمسان القدمى، وكانوا حجاجاً يعرفون بأولاد الحاج.

(186) المناقب المرزوقية، 145.

(187) نفسه، 146.

(188) نفسه.

فأما معافى فلم يعقب، وأما خلوف فآخر عقبه الفقيه الكاتب أبو محمد التلمساني، أحد الكتاب الكبار بمدينة تونس، والمتوفى في حدود 722هـ/ 1322م. ومن المحتمل أن يكون لبني الصبان الذين استوطنوا برباط أسفي علاقة نسبية مع ابن مرزوق من جهة أبناء خلوف.

أما مرزوق العجيسي التلمساني، فكان مشتغلا بالبادية بفلاحته وحراثته، وابتنى داراً بتلمسان، بالموضع المسمى بمرسى الطلبة. وكان بدوياً مقبلاً على شأنه[189].

- أبو بكر محمد بن مرزوق :

وأما ولده محمد، المكنى بأبي بكر، والذي غلبت كنيته على اسمه، فكان متردداً إلى بيت الله الحرام، وبهاذا كان مشتهراً ومحترفاً، فلم يزل على ذلك إلى أن توفي. وكان مشهوراً بالخير، مقصوداً بالدعاء[190].

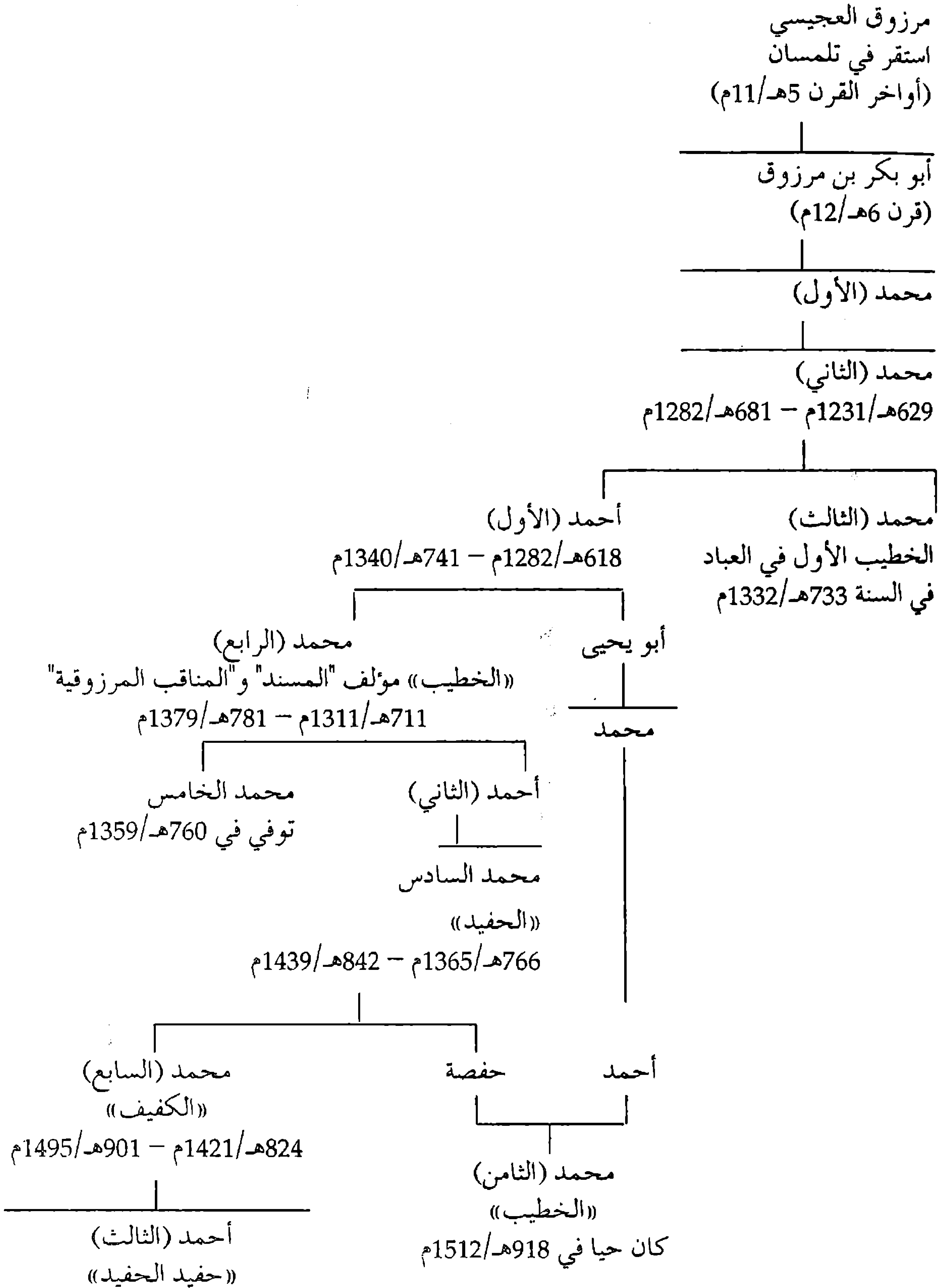
- أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن مرزوق :

وأما ولده أبو عبد الله الأكبر (محمد الأول)، فكان قد اشتغل بالقراءة، وغلب عليه علوم القرآن. وكان مصحفيا، يكتب المصاحف التي كان الناس يتنافسون فيها على طريقة أهل الأندلس، وكان مع ذلك تاجراً، وبها يتمعَّش. وكانت له في حداثته حانوت بالقيسارية ينسخ فيها القرآن، ويبيع السلع. وقد وصف في رسوم قديمةٍ بـ"الفقيه الأمين" ؛ وفي بعضها، بـ"الأمين الصالح"[191]، ولا شيء يثبت لنا أنه رحل إلى المشرق لأداء فريضة الحج. وتوفي بتلمسان في تاريخ يصعب تحديده، وقبره بالمقبرة المعروفة بمسند صالح، تحت الباب المعروفة بباب زيري، عن يمين المار بتلمسان القدمى، حيث قبر أبيه وجده.

(189) المناقب المرزوقية، ص 147.

(190) نفسه.

(191) المناقب المرزوقية، ص 148.



شجرة نسب المرازقة

(المصدر : المسند ، ص 16 من مقدمة التحقيق)

- أبو عبد الله، محمد بن محمد بن أبي بكر بن مرزوق (جد المؤلف)

وأما أبو عبد الله، محمد بن محمد بن أبي بكر بن مرزوق، الجد الأقرب لمؤلفنا، والذي يعتبره "بركة هذا البيت، ووسيلتهم، وإمام أهل وقته وقدوتهم"[192]، فمولده بتلمسان سنة 629 هـ/1321. وأمّه هي زينب بنت الشيخ الصالح، أبي إسحاق إبراهيم بن محمد الدلايلي، أحد الصلحاء. لقد اشتغل بقراءة الفقه والحديث، ثم اشتغل آخراً بكتب التصوف والحديث، وانقطع للعبادة، وتخلى وتجرّد. وكان والده موسوعا عليه، وكذلك جده لأمه. فنشأ في خير وعبادة. وكان وسيما يضرب به المثل، فأسرع الناس للمصاهرة إليه. فصاهر خاصة أهل بلده [193]. وكان السلطان يغمراسن بن زيان يعظمه ويكثر زيارته والتماس الدعاء الصالح منه، وأوصى بنيه أن يدفنوه بجواره [194]. وقد خصه ابن مرزوق في هذا الكتاب بترجمة ضافية لا نجد مثيلها فيما وصلنا من المصادر، إذ فصّل القول تفصيلا في سيرته الحياتية وعلاقته بملوك عصره، وعدّد شيوخه وأصحابه ومعاشريه، وسطّر سيرته اليومية تسطيرا، وأورد كراماته، وذكر ظروف وفاته ودفنه سنة 681 هـ/1282م بجوار السلطان الزياني يغمراسن. ويمكن القول إن الصورة التي يرسمها ابن مرزوق لهذا الجد هي صورة لا تختلف في عناصرها الأساسية عن سيرة الأولياء والمتصوفة الذين كثيرا ما احتفت بترجمتهم كتب المناقب المغربية في العصر الوسيط.

وقد ترك محمد الثاني هذا ولدين شقيقين من أمهما فاطمة بنت الشيخ أبي زيد عبد الرحمان بن النجار، وهما :

- الحاج أبو عبد الله محمد بن محمد بن محمد بن أبي بكر بن مرزوق

عمّ مؤلفنا، وأحد رواته الأساسيين في هذا الكتاب. وقد تزوج ست الملوك بنت الهواري، التي كانت قبله تحت السلطان أبي حمو موسى بن عثمان[195]. ونعلم أنه كان على قيد الحياة سنة 747 هـ/ 1346 م، وأنه كان مقربا من البلاط المريني، وكلفه السلطان أبو الحسن بإصلاح ضريح أبي مدين، وعينه سنة 733 هـ/ 1332 م خطيبا بجامع العباد الجديد بتلمسان.

(192) نفسه، 149.

(193) نفسه.

(194) نفسه، 167.

(195) المناقب المرزوقية، ص 236-245.

– **أبو العباس أحمد بن محمد بن أبي بكر بن مرزوق (والد المؤلف)**

– أما الولد الثاني فهو أبو العباس أحمد بن محمد بن أبي بكر بن مرزوق، المزداد بتلمسان في شهر محرم سنة 681 هـ/ أبريل 1282م، وربي تحت حجر جدته، ثم كفلته شقيقته زينب. وقد تزوج بخديجة بنت أبي إسحاق إبراهيم[196] بن يخلف التنسي، المنتسب لإحدى أكبر الأسر التلمسانية جاها وعلما. وقد رحل حاجا إلى المشرق حيث مكث ربع قرن إلى حين وفاته بمكة سنة 741 هـ/1431م. وقد خصص له ابن مرزوق حيزا هاما من تأليفه، موضوع هذا الكتاب، فتحدث عن مولده وشيوخه وبسط "سيرته بطول نهاره"، وتطرق لقوته وطعامه، وخصص فصولا كاملة للكلام عن ورعه في الأكل، وعن لباسه، وعن مركبه، وعن صفاته، وأورد كراماته وبركاته وإجابة الدعاء، ونفوره من الخطط، ومن طلب الجاه والشهرة، وتواضعه، وغيرها من الفصول التي تلقي الضوء على جزئيات حياته الشخصية والروحية منذ ولادته إلى وفاته، كما تفصح عن مكانته ببلاد المغرب، وببلاد المشرق على حد سواء.

3) ابن مرزوق الخطيب : "مؤلف المناقب المرزوقية"

– **مولده ونشأته ودراسته**

أما ابن مرزوق الخطيب، مؤلف "المناقب المرزوقية"، فحياته معروفة نسبيا، وشهرته ذائعة. إلا أن هذه الحياة وتلك الشهرة لا تتجاوزان المستوى العام وحدود المعرفة المبنية على تناقل الأقوال والأحكام من مصدر إلى آخر، حدود المعرفة الخارجية الظاهرة التي تكفي بما يرد في الروايات وما يستخلص من المنقولات[197]. لدى نرى من الضروري الرجوع إلى الشخص نفسه لنتعرف عليه وعلى بيئته، وفي تجاوبه مع أصدقائه ورؤسائه، ومن خلال الظروف والملابسات التي أحاطت به، لندرك هويته النفسية والثقافية. ولا شيء يمكنا من ذلك أحسن من "المناقب المرزوقية" ذاتها.

ولد ابن مرزوق بتلمسان في أوائل ذي قعدة 711 هـ/فبراير 1312م – على الأرجح–[198] في دارهم بمرسى الطلبة. وحملت به أمه خديجة بنت إبراهيم بن يخلف

(196) وليس بنت أبي الحسن التنسي، كما تورد الدكتورة مارية خيسوس بيغيرا في المسند، ص 19.

(197) ابن شقرون محمد، "من مظاهر وحدة الثقافة في دول المغرب العربي : الخطيب ابن مرزوق" المناهل، العدد الأول، (د.ت.) ص 128.

(198) يقول ابن خلدون أن ابن مرزوق أخبره أن ولادته كانت سنة 710 (رحلة ابن خلدون، ص 94)، وقيده بعضهم سنة 712 (المناقب المرزوقية، 298).

التنسي، بفاس، بدارهم التي كانت بزنقة حجامة. وتوفيت أمه وخلفته إثر الفطام، فربته أم خاله، أم الفتح المعروفة بفتحون، والدة أبي إسحاق إبراهيم. ويقول عنها ابن مرزوق : "لا أعرف غيرها في التربية"[199]. تلقى دراسته الأولى تحت رعاية والده العالم، المحقق الذائع الصيت والقوي الذكر، الشهير بين أقرانه بغزارة علمه، وبصلابة رأيه، وبورعه ووقاره. وقرأ كتاب الله على الشيخ الفقيه الصالح الولي أبي زيد، عبد الرحمان ابن يعقوب بن علي، بمكتبه بسويقة إسماعيل. ولقد ذكره ابن مرزوق في برنامجه وأثنى عليه، وأورد بعض كراماته وتنبؤاته.

وقرأ على الخطيب أبي عبد الله المجاصي، وعلى الفقيه الحاج الصالح أبي عمر ميمون بن سعيد السرغيني.

ومن الأولياء الذين التقاهم في صغره بمسقط رأسه وأخذ عنهم، يذكر ابن مرزوق كل من الفقيه العلامة الولي المحدث أبي عبد الله محمد بن علي بن قطرال، والإمام أبي عبد الله بن حريث العبدري، وأبي عبد الله القصري المقرىء، والحاج أبي عبد الله المصمودي، المتوفى بصحراء خليص منصرفه من الحج، سنة 724 هـ/1324 م، وغيرهم ممن ذكرهم في برنامج شيوخه وفي ترجمة حياته.

- رحلاته المشرقية ومحَنه :

وتذهب بعض المصادر، وثلة من الدارسين المحدثين، إلى أن ابن مرزوق رافق أباه في سفره إلى المشرق لأداء فريضة الحج، في سن مبكرة جدا، وترجع هذه السفرة إلى سنة 717 هـ/ 1317 م. إلا أن هذه التاريخ لا يمكن الاطمئنان إليه كثيراً. فابن مرزوق كان ما يزال صبيا، لم يصل سن المراهقة بعد ليتمكن من السفر مسافات طويلة في ظروف ذلكم الزمن الذي كان السفر فيه مغامرة كبرى. **ولنا أن نتساءل إن كان ابن مرزوق قد صاحب والده فعلا في رحلته الأولى.** إن مشروعية هذا السؤال تستند على مجموعة من القرائن التي تولدت لدينا من قراءة "المناقب المرزوقية" ذاتها.

- أولا : يؤكد ابن مرزوق أن رحلة أبيه الأولى كانت سنة 717 هـ/ 1317-1318 م، مفندا بذلك مجموعة من المصادر التي تورد تواريخ مختلفة لهذه الرحلة الأولى[200].

---

(199) المناقب المرزوقية، 292.

(200) يؤرخ ابن خلدون هذه الرحلة بسنة 718 هـ، وكذلك ابن مريم (**نيل الابتهاج**، ص 451، **البستان**، ص 184 ؛ **شجرة النور**، 236).

ويبدو أن ابن مرزوق لم يصاحب أباه في هذه الرحلة الأولى إلى الشرق. فهو يقول : "أخبرني [أي والده] رضي الله عنه، أنه في رحلته الأولى سنة سبع عشر وسبعمائة كان قد تردد في الرحلة أو الإقامة..."[201]. فلو كان ابن مرزوق قد صحب والده لما أسند إليه مثل هذا الخبر.

– ثانيا : يصرح ابن مرزوق بكثير من الوضوح أن الرحلة الأولى له "كانت سنة أربع وعشرين، في شهر ربيع الأول"[202] (يناير–فبراير 1324م)، وليس سنة 717 هـ، ويقدم لائحة بالمصاحبين له في الركب. وهذا التاريخ يمكن الأخذ به لأن سن ابن مرزوق آنذاك كان يؤهله للرحلة.

– ثالثا : حينما يتطرق ابن مرزوق لسيرة أبيه أيام مجاورته بمكة فإنه يتحدث مرارا وتكرارا عن رحلتيْ أبيه، الثانية والثالثة[203]، ولا يتطرق بتاتا لرحلته الأولى، المفترضة معه.

وكيف ما كان الحال، فإن هذه الرحلة الأولى التي استغرقت خمس سنوات، تعتبر مرحلة حاسمة من مراحل حياته، إذ أتاحت له زيارة أكبر حواضر الشرق الإسلامي (المدينة، مكة، القدس، دمنشق، الإسكندرية، القاهرة، إلخ)[204]، وتتلمذ عل أشهر علمائها، ممن ذكرهم في فهرسة شيوخه، حتى إن عدد شيوخه بها بلغ على حد قوله، مائة وخمسين شيخا[205]، وهو عدد له ما له من أثر في تكوين شاب متعطش للعلم والمعرفة، حريص على تقوية مداركه، وتنويع مناهله، وتكثير مصادر تنمية عقله وروحه. والواقع أن هذه الرحلة كانت مناسبة وقف فيها ابن مرزوق على أوجه الاختلاف بين الحياة الاجتماعية والفكرية بين الشرق والغرب الإسلامي، والمقارنة بينهما في كتابه الشهير "المسند".

وقد ظهرت مواهب ابن مرزوق الخطابية عندما خطب في جامع الإسكندرية سنة 729 هـ / 1328 م، واشتهر أمره، وعُدَّ من خطباء الإسلام منذئذ، وقد قيل عنه لاحقا "خطب على ثمانية وأربعين منبرا في الإسلام، شرقا وغربا وأندلسا".

---

(201) المناقب المرزوقية، 226.

(202) نفسه، 301.

(203) نفسه، 212-216-219.

(204) يذهب الدكتور ابن شقرون إلى أن ابن مرزوق لم يزر دمشق (من مظاهر...م. س).

(205) ابن مرزوق، **عجالة المستوفز المستجاز**... مخطوط الخزانة الحسنية، 7579، ورقة 2.

رجع سنة 729 هـ إلى المغرب على بلاد الجريد، وتتلمذ في طريق عودته على أشهر علماء طرابلس وتونس وبجاية، وأقام بتلمسان إلى حدود سنة 734 هـ/1333، عاد بعدها إلى الحجاز أيضا على بلاد الجريد، فأقام بالقاهرة إلى آخر سنة 736 هـ/ صيف 1336م (وهذه هي رحلته الثانية). وفي سنة 737 هـ/1337م عاد إلى المغرب. ولقي السلطان أبا الحسن المريني محاصرا لتلمسان، ولما فتحت المدينة سهل عليه التقرب إلى البلاط المريني بمساعدة عمه، محمد بن مرزوق، الذي كان خطيبا بجامع العباد الذي شيده السلطان على ضريح الولي أبي مدين، وبعد وفاة عمه ولاه السلطان خطابة ذلك المسجد مكان عمه، وسمعه يخطب على المنبر ويشيد بذكره في خطبته، ويثني عليه، فقربه وأدخله إلى حاشيته، "وجعله مفضي سره، وإمام جمعته، وخطيب منبره، وأمين رسالته"[206]. وهذا لا يعني أن ابن مرزوق خطب بالعباد فقط، بل خطب كذلك ببعض مساجد داخل تلمسان منها: مسجد مرسى الطلبة، ومسجد ابن النعمة، ومسجد سويقة إسماعيل[207].

وفي سنة 740 هـ / 1339 م رحل إلى فاس مرتين، ورحل كذلك لمدينة سلا صحبة السلطان أبي الحسن، كما حضر معه وقعة طريف في صيف 741 هـ / 1340 م التي انهزم فيها المرينيون شر هزيمة. ثم عاد إلى تلمسان فأقام بها أشهرا، إلى أن استدعاه السلطان لخدمته، فأقام في خدمته يتولى "الخطابة والنظر في الشكايات"[208]. ثم رحل صحبة السلطان إلى مراكش عن طريق السواحل. ثم عاد صحبته إلى تلمسان، ولازمه هناك في خدمته، إلى أن استعمله في سفارة إلى الأندلس، ثم إلى ملك قشتالة ألفونسو الحادي عشر، في تقرير الصلح، واستنقاذ ولده أبي عمر تاشفين، المأسور يوم طريف. ونجح في مهمته، وعاد إلى تونس مصحوبا بعدد من الشخصيات القشتالية لتهنئة السلطان بفتح تونس في خريف عام 748 هـ / 1347 م. وهنا كشف ابن مرزوق للسلطان عن رغبته في الذهاب إلى الحج، إلا أن السلطان المريني منعه من القيام بذلك[209]. ورجع ابن مرزوق بعد وقعة القيروان (محرم 749 هـ/أبريل 1348 م) – التي لم يشارك فيها، إذ ورده خبر وقوعها وهو بمدينة قسنطينة – إلى المغرب مع زعماء النصارى وزوجة أبي

(206) الديباج، 2/294.

(207) المناقب المرزوقية، 304.

(208) نفسه، 305.

(209) انظر الحوار العنيف الذي دار بين السلطان أبي الحسن وابن مرزوق بخصوص هذا الأمر (المسند 494-495).

الحسن، شمس الضحى، أم أبي عنان الذي كان قد أعلن تمرده على أبيه، وتولى السلطة في مدينة فاس (ربيع الثاني 749 هـ/ يونيو – يوليوز 1348م).

وارتحل ابن مرزوق إلى تونس للاجتماع ثانية بالسلطان أبي الحسن بعد خروج أبي عنان على والده. وفي تلك الأثناء اقتحمت دار ابن مرزوق في تلمسان ونهبت كتبه(210) وثيابه(211). وتبع ذلك تكليف السلطان له للقيام بمحاولات لتهدئة ثورات أولاده في كل من قسنطينة وبسكرة وغيرها من الجهات، وأن يحاول ثنْيَ أبي عنان عن ثورته، وإقناعه بالعودة إلى طاعة أبيه. وبالفعل توجه ابن مرزوق إلى المغرب صحبة "جماعة من الأعيان، والعمال، والسفراء عن الملوك"، فضلا عن والدة السلطان أبي عنان، شمس الضحى، التي أصابتها المنية بتلمسان (أو بقسنطينة، حسب ابن خلدون) في طريقها إلى فاس.

وورد ابن مرزوق على أبي عنان، وفشل في مسعاه، ولم يجد سببا لإقناعه بالعدول عن ثورته والرجوع إلى طاعة أبيه. فعاد إلى تلمسان التي كان قد استردها بنو زيان على يد أبي سعيد عثمان وأخيه أبي ثابت. ونزل السلطان أبو الحسن بمدينة الجزائر يستعد لمهاجمة تلمسان، فأرسل السلطان الزياني، أبو سعيد، ابن مرزوق إليه سرا في الصلح، بغير مشورة أخيه. فلما اطلع أبو ثابت على الخبر، أنكره على أخيه، فبعثوا من حبس ابن مرزوق، فأقام في السجن تسعة أشهر(212) "وكابرتُ – يقول ابن مرزوق – ما يعظم الله أجره .. وبقي أهلي يعتقدون وفاتي"(213)، وخلال حبسه كتب قصيدته التي مطلعها :

رفعت أموري لباري النسم ومَوجدنا بعد سبق العدم

ثم أطلقوا سراحه ونفوْهُ إلى الأندلس سنة 752 هـ / 1351 م، فنزل على السلطان أبي الحجاج يوسف، سلطانها بغرناطة، فقربّه وعينه مدرسا في المدرسة البلاطية (صفر 753 هـ/ مارس 1352م). ونجد التصوف على رأس المواد التي عكف على تدريسها هناك، وقد حضر ابن زمرك دروسه. واستعمله أبو الحجاج على الخطبة بجامع الحمراء وبجامع غرناطة، وهناك ربط صداقة مع لسان الدين ابن الخطيب، ومع الأمير أبي سالم، ابن السلطان أبي الحسن، وكان أبو عنان قد أبعده عن المغرب.

(210) المسند، 226 ؛ **المناقب المرزوقية** (ص 185) : "وهذه النسخة بخط وليّيْن عارفيْن، ولا أدري ما كان منها في هذا الوقت الذي أوتي به علي الكتب، وغيرها، والحمد لله، على كل حال".

(211) المسند، 328.

(212) يقول ابن خلدون أنهم "حبسوه أياما" فقط (**رحلة ابن خلدون**، 95).

(213) ابن مريم، **البستان** ص 781

ولم يزل ابن مرزوق خطيب السلطان الغرناطي إلى أن استدعاه السلطان أبو عنان عام 754 هـ / 1353 م[214]، وألحقه بحاشيته، وأصبح من خاصيته، و"كان يقرأ الكتاب بين يديه في مجلسه العلمي، ويدرس في نوبته مع من يدرِّس في مجلسه منهم".

ولما استولى النصارى على مدينة طرابلس، وعزم السلطان أبو عنان على افتكاكها بماله، بعثه سنة 754 هـ/1353 م إلى مدينة قابس لتسليم خمسة وأربعين ألفا من الذهب إلى الفقيه مروان بن مكي، متولي افتكاكها. وأقام بقابس وبلاد الجريد شهرا، ثم رحل صحبة السلطان أبي عنان إلى قسنطينة، ومنها أرسله سنة 758 هـ / 1357 م، سفيرا إلى تونس ليخطب له إحدى بنات السلطان أبي يحيى الحفصي، ولم يفلح ابن مرزوق في مهمته، "فوجد الحسدة سببا لما كانوا عاملين عليه من الطعن" جهته، فأدركه خدام السلطان بتاسالة، على مرحلة من تلمسان، فثقفوه فأوصلوه إلى فاس، حيث اتهم بالتماهي مع الرفض التونسي، وأودع السجن للمرة الثانية في حياته، ولم يطلق سراحه إلا قبيل وفاة السلطان أبي عنان (28 ذو الحجة 759 هـ /5 ديسمبر 1358 م).

وبعثه الوزير ابن عمر الفدودي، المستبد على السلطان الطفل أبي بكر السعيد، لمراكش لتوطين أمرها عقب ثورة منصور بن سليمان، ابن أخ السلطان أبي الحسن بها.

وعرف ابن مرزوق أوج تألقه السياسي زمن السلطان أبي سالم، ابن السلطان أبي الحسن، الذي تولى الحكم في (15 شعبان 760 هـ / 12 يوليوز 1359 م)، "وكان ابن مرزوق يداخله وهو بالأندلس"[215]. فلما تولى أبو سالم السلطة، آثره وجعل زمام الأمور بيده. ويقول ابن خلدون عن هذه المرحلة من حياة ابن مرزوق :

"رفعه [السلطان] على الناس، وألقى عليه محبته، وجعل زمام الأمور بيده، فوطيء الناس عقبه، وغشي أشراف الدولة بابه، وصرفوا الوجوه إليه"[216]. إلا أن ذلك التقرب من الرجل لم يكن سوى مداراة له، ولم يكن ابن مرزوق غافلا عما يجري حوله، فهو يقول : "كان الناس يظهرون لي جميل الود، ويبطن أكثرهم خلافه"[217]. ومما يدل على

(214) انظر رسالة شفاعة كتبها ابن الخطيب على لسان سلطان غرناطة يوسف بن أبي الوليد إسماعيل، يلتمس فيها السماح لابن مرزوق بالعودة إلى المغرب، بعدما فشل هذا الأخير في استقدام أبنائه إلى الأندلس، واشتد "شوقه ووجده" لهم. (**ريحانة الكتاب**، ج 1، ص 241-244).

(215) **رحلة ابن خلدون**، 97.

(216) **رحلة ابن خلدون**، ص 97، **نفح الطيب**، 404/5.

(217) المناقب المرزوقية، 310.

المكانة الرفيعة التي تبوأها ابن مرزوق في حضرة السلطان أبي سالم المريني، هو دفن أحد أبناء ابن مرزوق في الضريح الملكي، في الجامع الكبير بفاس، وكان ابنه هذا قد اخترمته المنية بُعيد تنصيب أبي سالم[218] ؛ وكذلك إصدار أبي سالم أمره بأن يكون صداق أحد أبناء ابن مرزوق المنعقد على بنت "سيد الشرفاء" بفاس من إملاء لسان الدين ابن الخطيب[219].

إلا أن تلك المكانة الرفيعة التي تبوأها ابن مرزوق في بلاط السلطان أبي سالم جعلت "قلوب أهل الدولة" وخصومه يتربصون به الدوائر، فنقموا على السلطان تفضيله لابن مرزوق. والجدير بالذكر أن ابن خلدون وابن مرزوق قد اشتغلا معا في بلاط السلطان أبي سالم، مع ما يعنيه ذلك من منافسة وتحاسد. فابن خلدون الذي يصف ابن مرزوق بـ "صاحبنا" يوجه انتقادات صريحة له، ويفصح عن انخراطه في الدسائس والحسابات السياسية الضيقة. يقول ابن خلدون عن هذه المرحلة من حياتيْهما : -

"ثم غلب ابن مرزوق على هواه [= السلطان أبي سالم] وانفرد بمخالطته، وكبح الشكائم عن قربه، فانقبضتُ، وقصرت الخطو... ثم ولاني آخر الدولة خطة المظالم، فوفيتها حقها... ولم يزل ابن مرزوق آخذا في سعايته بي وبأمثالي من أهل الدولة، غيرةً ومنافسةً، إلى أن انتقض الأمر على السلطان بسببه"[220].

وبعد اغتيال السلطان أبي سالم (21 ذي القعدة 762 هـ/ 23 شتنبر 1361م) بقي ابن مرزوق "عرضة لجميع من نالته مضرته"[221]، **فنُكّب نكبته الثالثة**، وألقي القبض عليه، واستخرج من بيت "سيد الشرفاء صهره"، بعد اختبائه فيها[222]، فصودرت أملاكه، وانتهبت أمواله [223]، واغتصبت داره التي كانت توجد بزنقة حجامة من

(218) A. Bel , Inscriptions arabes de Fès, *Journal Asiatique*, série 11. t. 9, 1917, p. 47.

(219) انظر نص الصداق في **ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب**، تحقيق محمد عبد الله عنان، ج 1، القاهرة، 1980، ص 101-115.

(220) **رحلة ابن خلدون**، 120-121.

(221) المناقب المرزوقية، 310.

(222) **نفاضة الجراب**، ص 277، وعن مصاهرة لسيد شرفاء فاس، انظر عقد صداق ولده على بنت شريف فاس، في **ريحانة الكتاب**، ج، ص 101 وما بعدها

(223) لا عبرة لما تدعيه الباحثة مايا شاتزميلر من كون ابن مرزوق "دفع قدرا كبيرا من المال ثمنا لنجاته"، محيلة على نفاضة الجراب (ص 279) لأن المقدار المشار إليه في نص نفاضة الجراب، وهو إثنتي عشر ألفا من الذهب العين، كان من جملة ما صودر من ممتلكات ابن مرزوق الذي أودع السجن بعد ذلك.
.Maya Shatzmeller, *L'Historiographie mérinide*, op. cit. p. 37, note 2

فاس[224]، وأودعه الوزير عمر بن عبد الله بن علي السجن للمرة الثالثة، حيث مكث فيه أكثر من ثلاثة شهور. ورام كثير من أهل الدولة قتله، فمنعه منهم عمر، وأطلق سراحه. وإلى شيء من ذلك يشير ابن مرزوق حينما يقول : "فتقبضت النفوس بعد كمال الهشاشة، وتبهشرت الوجوه بعد طلاقة البشاشة، وحضر هلاكي، لولا منّ الله مولاي بلطفه الجميل"[225].

ولقد اعتبر ابن مرزوق خلاصه هذا من الألطاف الربانية حينما يقول بصدده : "وحصلت العناية الربانية ففُكّ على حين غفلة العقال، وخلصت حين عُدّ الخلاص من المحال"[226].

ويبدو أن إيداع ابن مرزوق السجن في هذه الفترة المتأخرة من حياته كان وقعه مأساويا على حالته النفسية، كما يستدل من شهادة له. إذ لما ثقفه عمر بن عبد الله، على يد الشيخ أبي يعقوب، كتب ابن مرزوق عقب ذلك – بعد أن أورد حديثا شريفا يتعلق بالغرباء ممن يدفن بالثنية التي بأعلى مكة، وبقبول شفاعتهم في المسلمين، وكان والده قد دفن هناك– قائلا : "أفتراه لا يشفع فيمن أقال عثرة ولده ؟ أفما يشتري هذا بأموال الأرض ؟ أفلا يراعى لي ثمانية وأربعين منبرا في الإسلام شرقا وغربا وأندلسا ؟ أفلا يراعى لي أنه ليس اليوم يوجد من يسند الأحاديث الصحاح سماعا من باب الإسكندرية إلى البرين والأندلس غيري ؟ وقراءة عن نحو مائتين وخمسين شيخا ؟ والله ما أعلمه، لكن حرمني الله منه فنبذت الاشتغال به وآثرت اتباع الهوى والدنيا فهويت. اللهم غفرانك. أفلا يراعى لي مجاورة نحو إثني عشر عاما وختم القرآن في داخل الكعبة والاحياء في محراب النبي ﷺ بمكة ؟ ولا أعلم من له هذه الوسيلة غيري ؟ أفلا يراعي لي الصلاة بمكة ستا وعشرين سنة، وغربتي بينكم ومحنتي في بلادي على محبتكم وخدمتكم ؟ من ذا الذي خدمكم من الناس يخرج على هذا الوجه ؟ أستغفر الله، أستغفر الله، أستغفر الله من ذنوبي، ذنوبي أعظم، وربي أعلم، وربي أحلم، والسلام"[227].

وبعد سجن ابن مرزوق لا نعدم من معاصريه من سلاه في محنته، كما نجد ذلك في نظم أبي المكارم منديل بن آجروم الذي أنشد قائلا :

(224) المناقب المرزوقية، 199.

(225) نفسه، 138.

(226) ابن مرزوق، جنى الجنتين في فضل الليلتين، ليلة القدر وليلة المولد، مخطوط الخزانة العامة الرباط، رقم : 1228، ص 2.

(227) البستان، 187 ؛ نيل الابتهاج، 453-454.

يا شمسَ علمٍ أفَلَتْ بعدما أضاءت المشرق والمغربا
حُجبت قسرا عن عيون الورى والشمسُ لا يُنكر أن تحجبا[228]

ولقد ظل ابن مرزوق يعتبر نفسه مظلوما وضحية افتراء، حتى بعد أن أطلق سراحا وهاجر إلى تونس. فهناك ألف كتابه "جنى الجنتين في فضل الليلتين" الذي ضمنه مقدما تحدث فيها عن نكبته وما كان لها من وقع عليه، يقول : "فإني لما دهتني الفتن، وتغير في نظري الوطن، وفارقت الأقران، وعدمت الإخوان، وتجلى نهار المشيب، فبدت لي معايب الاغترار، ورأيت في مرآة الزمان صور الأغيار، وحالت علي معهودات الأحوال، وكمّلتُ من الهموم الدنيوية أثقالا وأنى أثقال، وكابدت نكبات وعثرات من الدهر لمثلها أن يقال، وحصلت العناية الربانية ففكّ على حين غفلة العقال، وخلصت حين عُدّ الخلاص من المحال. هذا ولم أجن، عَلِم الله، على من جنا، ولا كنت فيه والله يشهد إلا محسنا، ولكن نفس الخبيث أخبر عما يُكنّه صريح الحديث، ولم احلتُ المسيء على المحسن حقا، وعوّلت على أنه المجازي يقينا وصدقا، لم يبق سبحانه ممن افترى واجترى بشرا، وأرى فيمن ظلم وبغى آثارا عجيبة وعبرا"[229].

ولما أفرج عنه، وتجلت عنه سحب النكبة والامتحان، "جزم بالرحلة، وعزم على النقلة، ونفر عن خدمة السلطان، وملازمة الأوطان"[230]، فغادر المغرب باتجاه الأندلس -لا باتجاه تونس كما نجد بكثير من الدراسات- حيث شارك في احتفالات المولد النبوي لسنة 763 هـ/ يناير 1362م التي شهدها البلاط الغرناطي، وأنشد بين يدي السلطان النصري قصيدة مولدية كاملة[231].

ثم غادر الأندلس – لأسباب نجهلها – متوجها إلى تونس بحرا، فوصلها في شهر رمضان من سنة 765 هـ/يونيو 1364م، وهناك استقبله بحفاوة السلطان أبو إسحاق إبراهيم، ووزيره أبي محمد بن تافراجين، وعين خطيبا بجامع القصر، ومدرسا في مدرسة الشماعين. وقد تمتع ابن مرزوق بمكانة معتبرة في تونس، حتى أنه عقد زواج السلطان أبي إسحاق ببنت الوزير ابن تافراجين، يوم الثلاثاء 25 صفر 766هـ/12 نوفمبر

(228) **نفح الطيب**، 418/5.

(229) ابن مرزوق، **جنى الجنتين في فضل الليلتين**، ص 2.

(230) **نفح الطيب**، 1525.

(131) انظر القصيدة في: **نفح الطيب**، 397/5-402، وقد حضر إنشاءها وإنشادها ليلة الميلاد الشريف في التاريخ المذكور، ابن لسان الدين ابن الخطيب (**نفح الطيب**، 402/5).

1364، حسبما يرويه ابن الشماع[232] وابن أبي دينار القيرواني233. وأقام هناك إلى أن هلك السلطان الحفصي أبو يحيى في 20 رجب من عام 770 هـ / 1369 م، وكان يرعى ابن مرزوق ويرفع من شأنه، ويكرمه إكراما عظيما. وبهذا الصدد نورد شهادة ابن مرزوق نفسه إذ يقول :

"أقول وأنا ابن مرزوق المسمى فيه : إني قد وصلت إلى تونس المحروسة في شهر رمضان من سنة خمس وستين، فلقيت بها من المبرة والكرامة والوجاهة فوق ما يعهده أمثالي، ووليتُ خطابة جامع ملكها، وتدريس أم المدارس فيها، وهي المعروفة بمدرسة الشماعين. كل ذلك تحت رعاية وعناية وملازمة لمجلس ملكها، إلى أن توفي سنة إحدى وسبعين"[234]. وفي مكان آخر يؤكد ابن مرزوق هذه الشهادة بقوله : "حللت بهذه الحضرة الكريمة الطاهرة الأعراق، والوسيمة الخلائق والأخلاق، الوارث لمنصبها العلي بالاستحقاق مولانا أمير المؤمنين المستنصر بالله المؤيد بنصر الله، أبو إسحاق... وقد أولى، رضي الله عنه، من جميل إحسانه ما أولى وأنسى، فأجرى فضائله وألطافه ما أسلف سلفه الكريم في الأولى، وقلّد الخطط الشريفة والمنن، وجرى في إحسانه وامتنانه على أفضل سنن، وندب إلى إطالة المقام وقيّد بالإحسان..."[235].

وبعد وفاة السلطان أبي إسحاق، ولي ابنه أبو البقاء خالد. لكن سرعان ما نحاه ابن عمه، أبو العباس، عن السلطة (18 ربيع الثاني 772 هـ/ نوفمبر 1370م)[236]. وعمد السلطان أبو العباس إلى عزل ابن مرزوق من وظائفه بتونس [237]، فقد كان "ابن مرزوق يستريب منه، لما كان يميل، وهو بفاس، مع ابن عمه أبي عبد الله محمد، صاحب بجاية، ويؤثره عند السلطان أبي سالم عليه"[238]، واعتقد ابن مرزوق أن تربع السلطان أبي فارس عرش المرينيين بفاس سنة 767 هـ/1366 م فرصة سانحة للعودة للمغرب، واسترجاع مكانته القديمة، وكتب ملتمسات له لكي يسمح له بمرافقة ركب الحج

---

(232) ابن الشماع، **الأدلة البينة النورانية في مفاخر الدولة الحفصية**، تحقيق د. الطاهر بن محمد المعموري، تونس، 1984، ص 105.

(233) ابن أبي دينار القيرواني، **المؤنس في أخبار إفريقية وتونس**، تحقيق محمد شمام، تونس، 1967، ص 150.

(234) **نفح الطيب**، 5/408.

(235) ابن مرزوق، **جنى الجنتين في فضل الليلتين، ليلة القدر وليلة المولد**، م.س. ورقة 4 ظ.

(236) انظر : برونشفيك، ج 185/1.

(237) ابن خلدون، **رحلة ابن خلدون**، ص 98.

(238) **رحلة ابن خلدون**، 98.

المغربي إلى مكة[239] بل إنه أفرد مقدمة كتابه "المسند الصحيح الحسن"، للإفصاح عن ذلك حينما يقول :

"وعرضت بين وفاته رضوان الله عليه [أبو الحسن] وزمني الآن عوارض الامتحان وتقلبات أزمان، واختلاف أحوال وظعن وترحال، وكابدت فقد الأقران، وقلة الإخوان، وجفوة الأوطان، وهجر السلطان وكان من الأمر ما كان. فحصلت في بلاد الاغتراب وذقت ألم البعد بعد الاقتراب، وأثقلني العيال وآداني الإقلال. وبلغني الآن ما امتن الله به على الخلائق وما شرفت به المغارب على المشارق في إحياء الحسن الذي عهدته، وعود اللطف الذي تعودته، والمعهود الذي بالوطن المحبوب حوجته وقيام مولاي [أبي فارس] ابن مولاي [أبي الحسن] نجله الذي أعز الله به الإسلام ونصره، وأجرى على يديه العدل والفضل، ما له ذخره، وفتح له الفتح الذي بعد العهد بمثاله. وعلى يده أظهر مولانا أمير المسلمين المجاهد في سبيل رب العالمين أبو فارس عبد العزيز، فلما تعرفت أنه جار على سننه، وأحيى ما نسي من سننه، هاجت لواعج الأشواق وتجدد ألم البعد والفراق"[240]، ويرجوه أن يعيد إليه ممتلكاته التي فقدها بفاس :

"والمرجو من الله، والمؤمل من فضل مولانا أبي فارس، أن يمضي فيه عدله ويوسعني فيه فضله ويتصدق به على أصاغر رمتهم يد الاغتراب إلى أقاصي البلاد وذاقوا طعم الإقلال بعد التوسع في نعم مقامهم الرفيع العماد"[241].

إلا أن محاولته لم يحالفها النجاح، وحينما فشل في العودة إلى فاس واسترجاع مكانه في البلاط المرين[242]، يشد الرحال إلى البلاد المشرقية "بأهله

(239) Shatzmeller, Maya,"Les circonstances de la composition du *Musnad* d'Ibn Marzuq", *Arabica*, XXII, 1975, pp. 296-297.

(240) **المسند،** ص 92-93.

(241) **المسند،** ص 480.

(242) هناك مؤشرات تفيد أن ابن مرزوق كان قد عزم على الهجرة إلى المشرق بعد أن أطلق سراحه، ولم يكن مقامه بتونس إلا مؤقتا. يقول : "وهاجرت من وطن [- المغرب] جرت فيه مطاوعة الهوى ومكابدة الهوان ومساعدة النفس والشيطان، والظهور بالدنيا بعد التعرف بالانتماء إلى العلماء والأعيان والصلحاء الذين سارت بأحاديث كراماتهم ومقاماتهم الركبان، ممن وجب علي حق تربيته من أصاغر الولدان وضعفاء القوارير، مفارقا للأوطان، منابذا لمن اقتحم علي في المقام من أمير وكبير وسلطان، عاملا على اللحاق بالحرمين، راجيا الثواء في أحد المحلين، وجوار الأب المرحوم في ملحده والجري على سننه المعروف بالحرمين الشريفين معهده، حللتُ بهذه الحضرة الكريمة الطاهرة الأعراف [- تونس] **مجتازا بحضرتها** مجددا شكر ما سبق من نعمتها مقيما بأرجائها المحوطة، ريثما تتجدد أسباب السفر البعيد الشقة وتحصل بعض الراحة من مكابدة المشقة" (ابن مرزوق، **جنى الجنتين**، ص 3).

وولده"[243] بحرا، ونزل بالإسكندرية (ربيع الأول 773 هـ/ أكتوبر 1371م)، واستقر بالقاهرة، "ولقي أهل العلم وأمراء الدولة ونفقت بضائعه عندهم، وأوصلوه إلى السلطان" المملوكي، الأشرف ناصر الدين شعبان بنت قلاوون، فأكرمه وولاه القضاء والخطبة والتدريس في مساجد صلاح الدين الثلاثة : الشخنية والصرغتمشية والقمحية، فلم يزل بها على حسن حال "موقر الرتبة معروف الفضيلة"، إلى أن هلك في ربيع النبوي 781 هـ/ يونيو أو يوليوز 1379م. ودفن في القاهرة بين الشيخين ابن القاسم والأشهب.

* * *

إن مسيرة ابن مرزوق الحياتية والسياسية لا بد وأن تذكرنا -- من خلال ما طبعها من تقلبات متسارعة– بمسيرة حياة معاصريْه وصديقيْه : عبد الرحمان ابن خلدون ولسان الدين ابن الخطيب، فقد جمعتهما ظروف القرن الثامن الهجري المضطربة، وانغمسوا في شجون السياسة ودسائس البلاط، وعضهم الدهر بمحنه، ونكبوا وعرفوا غياهب السجن بعد تنعمهم بالمجد واكتسابهم الحظوة وقوة النفوذ، كما نبغوا في الميدان الثقافي والعلمي، وجسدوا ما يُنعَتُ أحيانا ببارقة الثقافة العربية الإسلامية بالغرب الإسلامي. لقد "برز الثلاثة معا كمثال ثقافي وسياسي في المغرب العربي في القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي"[244].

لقد وصف بعض الباحثين المعاصرين ابن مرزوق بكونه "حاد الطبع" و"عصبي المزاج"[245]، أما ترجمته في كتب التراجم القديمة فقد جاءت حافلة بتبجيله، وبالإعجاب بغزارة علمه، وبمكانته المرموقة بين معاصريه، ومنوهة بحلقاته العلمية ومجالسه الأدبية. وللتدليل على ذلك نورد ما يقوله، على سبيل المثال، تلميذه لسان الدين ابن الخطيب عنه، إذ نعته بالمشاركة والتخصص في كثير من العلوم، وشدة الإقبال على تدريس العلم ونشره، مع الأناقة والبراعة في الخط، والعذوبة والطلاقة في التلاوة، والانبساط والفكاهة. يقول : "هذا الرجل من طرف دهره ظرفا وخصوصية ولطافة، مليح التوسل، حسن اللقاء، مبذول البشر، كثير التودد، نظيف البزة، لطيف التأتي، خير البيت، طلق الوجه، خلوب اللسان، طيب الحديث، مقدر الألفاظ، عارف بالأبواب، دِربٌ على صحبة الملوك والأشراف، متقاض لإيثار السلاطين والأمراء، يسحرهم

(243) الديباج المذهب، 295/2.

(244) المسند، ص 31 من مقدمة التحقيق، وكذلك ص 8 من تقديم د. محمود بوعياد.

(245) د. محمد ابن شقرون، **زمن مظاهر وحدة الثقافة**...س م. س. ، ص 136.

بخلابة لفظه، ويفتلهم في الذروة والغارب بتنزله، ويهتدي إلى أغراضهم الكمينة بحذقه، ويصنع غاشيتهم بتلطفه، ممزوج الدعابة بالوقار، والفكاهة بالنسك، والحشمة بالبسط، عظيم المشاركة لأهل ودّه، والتعصب لإخوانه، إلف مألوف، كثير الأتباع والعِلق، مسخر الرقاع في سبيل الوساطة، مجدي الجاه، غاص المنزل بالطلبة، منقاد الدعوة، بارع الخط أنيقه، عذب التلاوة، متسع الرواية، مشارك في فنون، من أصول وفروع وتفسير، يكتب ويشعر ويقيد ويؤلف، فلا يعدو السداد في ذلك، فارس منبر غير جزوع ولا هياب"[246].

لقد عاش ابن مرزوق حياة حافلة بالنشاط السياسي، وتقلب في الوظائف السامية من خطبة وكتابة وتدريس في مختلف بلاطات الغرب الإسلامي في القرن الثامن الهجري (إذ خدم سلاطين فاس، وملوك تلمسان وملوك غرناطة، وملوك تونس)، وتنعم فيها بالثروة والجاه وعلو المكانة، كما عانى من السجن والمهانة. وإلى ذلك يشير ابن مرزوق نفسه في مقدمة هذا التأليف حينما يقول :

"فإني لما ابتليتُ، والحمد لله على كل حال، بهذا الظهور الدنيوي الذي لم يصل إلى نوعه من عاصرني من صنفي من الرجال، حتى لقد ارتقيتُ خمسين منبراً من حواضر الإسلام، على ما هو معلوم عند أهل العصر من الخاص والعام، ثم انتقلتُ إلى ما لا بد منه بحسب العادة المظهرة في صدق الخبر الصحيح من الاستفال بعد العلو، والهبوط بعد الطلوع، والبُعد بعد الدنو،... فتقبضت النفوس بعد كمال الهشاشة، وتبهشرت الوجوه بعد طلاقة البشاشة". إنه عنصر من بين العناصر الأخرى التي حدت بالمؤلف إلى الانكباب على "المناقب المرزوقية" كما سنبينه في موضعه.

– شيوخ ابن مرزوق

كتب ابن مرزوق فهرسة أو برنامج شيوخه "عجالة المستوفز المستجاز، في ذكر من سمع من المشائخ دون من أجاز، من أئمة المغرب والشام والحجاز". ولقد وصلتنا هذه الفهرسة، لكن يصعب الاستفادة منها، لحالتها الرديئة جدا، بحيث إن خطها غير مقروء تقريبا. إلا أنه قد وصلتنا نقولات عنها في "الإحاطة" لابن الخطيب، وفي "نفح الطيب"، و"أزهار الرياض" لأحمد المقري، وفي "الديباج المذهب" لابن فرحون، وفي "نيل الابتهاج" لأحمد بابا، وفي "الدرر الكامنة" لابن حجر، وفي "نحلة اللبيب" لابن عمار،

(246) ابن الخطيب، **الإحاطة في أخبار غرناطة**، 104/3 وانظر كذلك الأوصاف التي خصها به في ريحانة الكتاب **ونجعة المنتاب**، 1، ص 109-110 بمناسبة عقد صداق ولد ابن مرزوق على إحدى بنات سيد الشرفاء بفاس.

وفي "شذرات" لابن العماد، وفي غيرها من المصادر. ومن خلال ما تتيحه هذه المصادر يمكن تقديم لائحة، معبرة، ولو أنها غير كاملة، عن شيوخ ابن مرزوق. لقد أحصت الباحثة الإسبانية مارية خيسوس بيغيرا، المتخصصة في ابن مرزوق، ووثّقتْ خمسة وتسعين شيخا من شيوخ ابن مرزوق، تتلمذ عليهم في مختلف بقاع العالم الإسلامي آنذاك (المدينة، مكة، القاهرة، بلبيس، بيت المقدس، دمشق، الإسكندرية، طرابلس، تونس، الجريد، الزاب، بجاية، تلمسان، فاس). ومن المؤكد أن تلك اللائحة غير تامة، لأن شيوخ ابن مرزوق لا يمكن عدهم وحصرهم بسهولة، فالمصادر التاريخية طافحة بأسماء مشايخه الذين يزيد عددهم على الألفين [247]، ومنها يتجلى لنا مبلغ عناية الرجل بالأخذ على أقطاب الحركة العلمية والأدبية في ذلك العصر. ونجد بالمناقب المرزوقية أسماء أخرى لا تتضمنها لائحة ماريا خيسوس بيغيرا، وأغلبهم لا ترد أسماؤهم في مصادرنا الأخرى، نذكر منها شيوخه ومعلميه بكل من :

* تلمسان :

- أبو زيد عبد الرحمان بن يعقوب بن علي الصنهاجي[248] ؛
- أبو عمر ميمون بن سعيد السرغيني ؛
- أبو عبد الله محمد بن علي بن قطرال [249] ؛
- أبو عبد الله بن حريث العبدري[250] ؛
- أبو عبد الله القصري[251] ؛
- أبو عبد الله المصمودي[252] ؛

(247) **الديباج المذهب**، 293/2.

(248) ترجمته في **نفح الطيب**، ج 5، ص 242.

(249) أبو عبد الله محمد بن علي بن قطرال الأنصاري. من أهل مراكش. كان عالما فاضلا فقيها محدثا زاهدا ورعا. جاور بمكة وبها توفي سنة 710 هـ/ 1310م إثر سقوطه من سطح رباط الخوزي. (**الدرر الكامنة**، 202/4 ؛ ابن القاضي، **درة الحجال في أسماء الرجال**، ج 2 ص 207 العباس بن إبراهيم، **الإعلام**، 338/4-340).

(250) **درة الحجال**، 248/2 ؛ ورد ذكره عرضا في؛ **أزهار الرياض**، 59/5.

(251) ورد ذكره كذلك عرضا في ؛ **أزهار الرياض**، 59/5 وفي **عنوان الدراية** ترجمة للفقيه العالم العارف العابد الزاهد الولي أبو عبد الله بن علي القصري. لم أتمكن من تحديد تاريخ حياته. الغبريني، **عنوان الدراية**، ص 186.

(252) توفي في صحراء خليص، منصرفه من الحج، سنة 724 هـ.

* وببجاية، وهم :

– أبو عبد الله بن غيريون[253] ؛
– أبو إسحاق الأليسي ؛
– أبو زكريا الصفوني ؛
– أبو عبد الله المسفر[254] ؛
– أبو محمد عبد الواحد الكاتب[255] ؛
– أبو عبد الله بن ميدمان ؛
– أبو عزيز بن فرقان[256] ؛
– أبو موسى بن فرقان ؛
– أبو علي بن حسين[257] ؛
– أبو العباس ابن عمران[258] ؛
– أبو موسى عمران المشذالي[259] ؛

(253) محمد بن محمد بن محمد بن عبد الله بن إبراهيم بن غريون، أبو عبد الله الأنصاري البجائي. عالمها وخطيبها في وقته. وصفه تلميذه الحضرمي بـ"شيخنا الخطيب الصالح". وقال عنه ابن قنفذ القسنطيني في وفياته : "خطيب قصبة بجاية، المتمتع بالرواية، السالك مسلك الدراية" (**نيل الابتهاج**، 386 ؛ **ألف سنة من الوفيات**، 77، 185؛ **تعريف الخلف**، 512/2).

(254) أبو عبد الله محمد بن يحيى الباهلي البجائي، عرف بالمسفر. عالمها وفقيهها وقاضيها. توفي سنة 743 هـ/1342 م (**نيل الابتهاج**، 401-402 ؛ **الديباج**، 332 ؛ **البستان**، 227 ؛ **أزهار الرياض**، 69/5 ؛ **شجرة النور**، 219).

(255) عبد الواحد الكاتب المعروف بأبي دينار، نال مع الأمير المستنصر الحفصي فوق ما ينال (عنوان الدراية، 152).

(256) ورد ذكره في **نفح الطيب** (ج 250/5) بصيغة "ابن فرجان"، هو والشيخ أبو عزيز ضمن شيوخ المقري الجد. (وانظر كذلك : **أزهار الرياض**، 70/5).

(257) أبو علي حسين بن حسين، إمام المعقولات بعد ناصر الدين (**نفح الطيب**، 250/2 ؛ **أزهار الرياض**، 69/5).

(258) أبو العباس أحمد بن عمران، خطيب بجاية (**نفح الطيب**، 250/5 ؛ **أزهار الرياض** 69/5).

(259) أبو موسى عمران بن موسى بن يوسف المشذالي. الحافظ المدرس المفتي بتلمسان.ت 745 هـ/ 1344م/ أخذ عنه صهره الناصر المشذالي والإمام المقري. له رسالة في اتخاذ الركاب من خالص الفضة، وفتاوى كثيرة، نقل الكثير منها الونشريسي في معياره. (ابن مرزوق، المسند، ص 131، 268 (المشذالي، بالذال)، **بغية الرواد**، 162، 130 ؛ **البستان**، 294 ؛ **نيل الابتهاج**، 350 ؛ **نفح الطيب**، 223/5، 218-224 ؛ **توشيح الديباج**، 160-161 ؛ **شجرة النور**، 220 ؛ **تعريف الخلف برجال السلف**، 78-80 ؛ **ألف سنة من الوفيات**، 196. وانظر : رابح بونار : "**عبقرية المشذاليين العلمية في بجاية على عهدها الإسلامي الزاهر**" مجلة الأصالة، (الجزائر) العدد، 19، 1949، ص 304-316).

* وبتونس :

– أبو الحسن الخطاب
– أبو عبد الله بن الغماد
– أبو علي بن قداح

* وبالإسكندرية وهم :

– سيدي داود[260] ؛
– ياقوت بن عبد الله الحبشي[261] ؛
– سيدي أبو عبد الله الفاسي ؛
– سيدي أبو الحسن العربي ؛
– سيدي أبو عبد الله المرسي ؛
– سيدي أبو زكرياء الزواوي ؛
– العماد الكندي ؛
– الفاكهاني[262].

* وبالقاهرة وهم :

– سعد الدين الحزاري
– أبو الحسن الواني
– بدر الدين بن جماعة

– تلامذة ابن مرزوق

ولقد تتلمذ على ابن مرزوق عدد كبير من العلماء الكبار، أمثال لسان الدين ابن الخطيب الذي كانت تجمعهما صداقة ومراسلات علمية[263]، ومحمد بن يوسف بن

(260) لعله داود الشاذلي الإسكندراني تلميذ الشيخ أبي العباس المرسي (**الدرر الكامنة**، 2/100-101).

(261) ياقوت بن عبد الله الحبشي تلميذ المرسي المشهور. توفي سنة 732 (**الدرر المكنونة**، 4/408).

(262) هو عمر بن أبي اليمن، علي بن سالم بن صدقة اللخمي المالكي، الشهير بتاج الدين الفاكهاني. يكنى أبا حفص الإسكندري. فقيه متفنن في الحديث والفقه والأصول والعربية والأدب. له "شرح العمدة" في الحديث و"شرح الأربعين للنووي" سماه المنهج المبين في شرح الأربعين" وله "الإشارات" في العربية وغيرها. توفي في الإسكندرية سنة 734 هـ (**الديباج المذهب**، 2/81-82 ؛ **الدرر الكامنة**، 3/254-255 ؛ **بغية الوعاة**، 2/221 ؛ **شجرة النور**، 204).

(263) **الإحاطة**، 3/104؛ **ريحانة الكتاب**، 1/241 ؛ **نفح الطيب**، 5/145.

زمرك، الذي كان يحضر دروس ابن مرزوق في التصوف بغرناطة[264]، وابن قنفذ القسنطيني الذي يصف ابن مرزوق بـ"شيخنا الجليل الخطيب"، وأبو القاسم البرزلي[265]، وعبد الله بن محمد الشريف التلمساني، ومحمد بن أحمد بن علوان المصري التونسي، وإبراهيم بن محمد بن علي التازي[266] والحافظ أبو عبد الله محمد ابن علاق الغرناطي[267] والإمام أبو عبد الله محمد ابن علوان الشهير بالمصري التونسي[268].

4) آثار ابن مرزوق العلمية

لقد عاش ابن مرزوق في عصر كثرت فيه المجالس الدينية والأدبية، وتعددت فيه الإنتاجات الأدبية والعلمية. والحال أن تأثر ابن مرزوق بالحياة الدينية والفكرية والسياسية من شأنه أن يبرر أصالة فكره وجزالة أسلوبه وغزارة إنتاجه، وكذا بروزه في علوم مختلفة "مشاركا في فنون من أصول وفروع وتفسير، يكتب ويشعر ويقيد ويؤلف"، كما يصفه ابن الخطيب[269]، فقد تفرغ للبحث والتأليف، فجاءت تآليفه صورة واضحة عكست بجلاء تفرده ونبوغه. ولعل اختلاف مضامين آثار الجد الرئيس خير دليل على موسوعية ثقافته : فهو فقيه حجة في الأصول والفروع، وعمدة في الأحكام، ومحدث ذو سند قوي، متخصص في علم الروايات والآثار، ومؤرخ مطلع على أخبار الأمم وتجاربها، ثم هو إلى ذلك خطيب بليغ مشهور بخطبه في المغرب والمشرق. لقد كان ابن مرزوق بغزارة علمه، ووفرة مؤلفاته، من أعظم ما أنتجه الغرب الإسلامي خلال القرن الثامن الهجري.

وتتوزع آثاره بين الأدب والفقه والشعر والتاريخ والتراجم. غير أن معظم هذه الآثار لم تصلنا، وما وصلنا منها لا زال مخطوطا، باستثناء "المسند الصحيح الحسن". ويمكن استعراض مؤلفات ابن مرزوق حسب الحروف الهجائية، ويمكن أن يكون حسب

(264) **المسند**، ص 27 من مقدمة التحقيق.

(265) **شجرة النور**، ص 245.

(266) انظر : **المسند**، ص 45-47 من مقدمة التحقيق.

(267) **البستان**، 164 ؛ ابن القاضي، **درة الحجال**، 2/283 ؛ المقري، **نفح الطيب**، 5/513 ؛ الونشريسي، **المعيار**، 5/217-219 ؛ ج 8/40-42 ؛ **شجرة النور**، 274.

(268) **شجرة النور**، ص 243.

(269) **الإحاطة**، ج 3 ص 108.

تواريخ كتابتها، ويجوز أن يقع تصنيفها حسب موضوعاتها. إلا أننا اخترنا تصنيفها حسب ما وصلنا منها وما لم يصلنا، أو ضاع، لأن دراستنا لا تَتَغيَّى تحليل مضامين مؤلفات ابن مرزوق، بل إن أقصى ما نطمح له هو إعطاء جرد بمؤلفات هذا العالم، لا ندعي بتاتا أنه جرد مستوفي ولا شامل.

المؤلفات التي وصلتنا :

1- "**المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن**"، وهو من أهم تآليف ابن مرزوق، وبه اشتهر، حتى عدّ من المؤرخين الأساسيين الثلاثة للغرب الإسلامي في نهاية العصر الوسيط، إلى جانب كل من لسان الدين ابن الخطيب، وعبد الرحمان ابن خلدون. وقد كتب ابن مرزوق مسنده وفق نظرة أخلاقية، وبهدف تقريضي، حيث يتبين ذلك بغاية الوضوح من العنوان، إذ خصص أبواب الكتاب الخمسة والخمسين لذكر مآثر السلطان أبي الحسن المريني في شتى الميادين : الإدارية والاجتماعية والدينية والاقتصادية والعمرانية والجهادية، مقدما بذلك مادة تاريخية خصبة عن البلاط المريني وعن مختلف النواحي الحضرية لبلاد المغرب الكبير في القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، فضلا عن معلومات دقيقة عن حياة ابن مرزوق نفسه، وعن أسلافه ووظائفه العلمية والسياسية وشيوخه وتلامذته، ولذلك يكتسي المسند صبغة "الترجمة الشخصية"، خاصة في الفصل الأخير من الكتاب. وقد حققته الدكتورة ماريا خيسوس بيغيرا، وصدر ضمن إصدارات المكتبة الوطنية بالجزائر، سنة 1981 بعدما أن أصدرتْ ترجمته الإسبانية بمدريد، سنة 1977.

2- "**المناقب المرزوقية**" : موضوع هذا الكتاب.

3- "**جنى الجنتين في فضل الليلتين ليلة القدر وليلة المولد النبوي**"، يوجد مخطوطا في المكتبة العامة بالرباط تحت رقم (ك 1228)[270] وفيه يعقد ابن مرزوق مقارنة بين ليلة القدر وليلة المولد النبوي للمفاضلة بينهما. وقد ألف ابن مرزوق هذا الكتاب بإيعاز من السلطان الحفصي أبي إسحاق، خلال إقامته الأخيرة بتونس. ومن المفيد أن نسوق هنا ظروف هذا التأليف كما سطرها ابن مرزوق في مقدمته، لما فيها من دلالات وفوائد تاريخية. فبعد أن يشير إلى الحفاوة التي استقبله بها السلطان الحفصي، يشير إلى

(270) هذه النسخة مبتورة الأول والآخر بترا خفيفا (الصفحة الأولى، والصفحة الأخيرة) وتقع في 116 صفحة، بخط كبير. ولحسن الحظ هناك نسخة أخرى كاملة من هذا الكتاب تحمل رقم ك 1380 تقع في 92 صفحة، خطها دقيق.

اللقاءات العلمية التي كانوا، "يعمرون[271] مجالسهم الكريمة ببث الفوائد العلمية، والمباحث في الأدلة النظرية، وفرض الأسئلة عن الأحكام الفرعية، والنكت الأصلية، جريا على سنن سلفهم الكريم، وتحريضا على التعلم والتعليم، فتقع المناظرة بين علماء حضرتهم، وفقهاء دولتهم. فأنالتني أثناء هذه المعارضة حظا من الاختصاص والإحظاء، والإكبار تفضلاً منهم والاعتناء، وإن كنت معترفا بعدم الأهلية، والقصور عن مرتبة من بحضرتهم الكريمة، من العليّة وأئمة الأعلام وأعلام الأمة. وكان ما وقع بحثهم رضي الله عنهم، من الأبحاث والأسئلة المستصعبة المخترعة : أيّ الليلتين أعلا وأشرف، هل ليلة القدر أو ليلة مولده صلى الله عليه وسلم ؟ سؤال يعظم قدرُه المنصف، ويعذر فيه المتوقف؛ إذ لم يتعرض له السلف، ولا نهج سبيله الخلف. وأمروا رضي الله عنهم، بالبحث عن مظان وجود النص فيه واستقصاء استخراجه من مظانيه ونواحي مناحيه، فلم يقف أحد منّا في جواب المسألة على نص جلي، ولا اقتدى في اختياره بمتقدم سالف أو عصري. وعند انتهاء الجميع لمقامهم العلي عدم وجود هذا المطلب المسمى، أمروا، رضي الله عنهم، ببسط المسألة وتقريرها، وبيان محل النزاع فيها وتحريرها، وتمهيد موجبات شرف الليلتين الكريمتين وتسطيرها، وإقامة البراهين على أشرفهما قدراً، وإن اشتركتا في الشرف، وحازتا على بقية الليالي فخراً وذكراً.

وشافهوني، رضي الله عنهم، في ذلك بالأمر المؤكد، والتأكيد المردد عناية منهم، رضي الله عنهم، واختصاصا، فجعلت جوابي دعاء وضراعة وإخلاصا، وأحجمت ولا لوم في موضع الإحجام. فقالوا : يسر فمن تقدم، وليكن مقصدك الإمام. فقلت : وأنّى لي بمجاراة من اشتمل عليه مقامهم العلي من الأعلام، وأين أنا من شيخ الفقهاء وصاحب الإفتاء، ومن عالم القضاء وقاضي العلماء، ومن إمام سابق في ميدان المشاركة وأي إمام. فلما لم يوسعوا المعتذر المقصر عذرا، ونظروا بعين الاعتناء تفضلا منهم وبرّا، وعلموا أن البضاعة مزجاة، وأن الإجابة مرجاة، وأوضحوا لي النهج في التأليف، وعرّفوا طريق الجمع والتصنيف، ومهدوا إليّ سبيل اقتحام هذه المفاوز، ودلوني على ما يلجأ إليه المقصّر والعاجز، ونهجوا لي ما اعتمده من الاستدلال، واعوَلّ عليه في حل ما يعرضُ من الإشكال، وعيّنوا الأفضل فاخترته، وما تقوم به الحجة على الدعوى فسلكته، وكشفوا عن بصري فلمحت باب الإرشاد منفتحان ومحل إجالة الفكر منفسحا، ووجه الدليل لما ذهبوا إليه ودلّوا عليه متضحا، فقلت غير نكير إمام هدى،

(271) يستعمل ابن مرزوق في هذا الكتاب صيغة واو الجمع في حديثه عن السلطان الحفصي.

ومؤلف بخليفة اقتدى [...] فسارعت للأمر العلي ممتثلا، وبادرت لوضع هذا المجموع عجلا، وأقدمت علم الله خجلا، ومن مخالفة الأمر الجزم وجلا، فجمعت من شرف الليلتين ما تراه"[272].

لقد برهن المؤلف في هذا الكتاب عن ثقافته الواسعة وقدرته على المناظرة والغوص في علميْ الأصول والفروع، ويكثر من استعمال عبارات الجدل من قبيل : "فإن قال :... قلتُ..."، وهي الصيغة التي استعملها ابن مرزوق كذلك في الفصول الأخيرة من كتابه "المسند"[273]، ولقد وصف الدكتور محمد ابن شقرون موضوع "جنى الجنتين" بكونه "أصيل في بابه، فريد في نوعه، لم يسبق لأحد...أن عالجه بمثل هذا الأسلوب، فكان موضوعا من مواضيع الاجتهاد لا من مواضيع النقل"، ويتطلب البحث عن "الحجج والأدلة لتدعيم موقفه وتعزيز رأيه".

ثم إن هذا كتاب "**جنى الجنتين**" يصطبغ بصبغة موسوعية بما يشتمل عليه علوم وفنون، ويدل على ثقافة ابن مرزوق الواسعة والمتنوعة. فالمؤلف يقول بخصوص هذا الكتاب : "فجمعت من شرف الليلتين ما تراه وأودعت هذا المجموع المختصر ما اقتضاه، فجاء ابن ليلتين مستهلا، وبالغرض المقصود من شرف الليلتين مستقلا. وأودعت فيه من الأخبار والآثار، ومذاهب علماء الأمصار، وغرر الفوائد، ودرر الفرائد، وتواريخ الأمم، وذكر بعض ما أثر عن العرب والعجم، والنكت العجيبة، والنوادر الغريبة، والظرف الأدبية، والإشارات الصوفية، والأدلة النظرية، والمباحث الجدلية، ما يعترف المنصف لمصنفه في هذا القدر من الزمن ببلوغ الغاية في الإجادة والإحسان"[274].

لقد قسم ابن مرزوق هذا الكتاب إلى ثلاثة أبواب رئيسية هي :

– الباب الأول : فيما يختص بليلة القدر . وجاء في ستة فصول

– الباب الثاني : فيما يختص بليلة المولد الشريف. ويقع في فصلين إثنين، وقد اعتمد فيه بالأساس على كتاب أبي العباس أحمد العزفي وولده أبي القاسم محمد : "الدر المنظم في مولد النبي المعظم".

(272) ابن مرزوق، **جنى الجنتين**، م. س. ، ورقة، 8-9.

(273) **المسند**، 472-473، 498.

(274) ابن مرزوق، **جنى الجنتين**، م. س. ورقة 9.

– الباب الثالث : "الغرض المقصود من جواب السؤال الواقع"، وفيه خمسة فصول، وفيه يبحث المؤلف عن حل للمشكل القائم ويضح حدا للجدل والمناقشة. إلا أن ابن مرزوق لم يستطع الإدلاء برأي قاطع رغم شروحه الطويلة وتحليلاته العميقة، وترك القارىء في حيرة من أمره ليسلك ما يراه مناسبا إزاء هذه القضية الشائكة.

4- **"عجالة المستوفز (أو المستوفي) المستجاز، في ذكر من سمع من المشايخ دون من أجاز، من أئمة المغرب والشام والحجاز"**، وهو معجم أو فهرس في ذكر شيوخه بالجهات التي يشير إليها العنوان، ومن بينهم ست نساء. توجد نسخة مبتورة من هذه الفهرسة بالمكتبة الحسنية (بالرباط) ضمن مجموع رقمه 7579. وهي نسخة "عتيقة ومبتورة ومتلاشية لا تكاد تقرأ"، إلا أنه وصلتنا نقولات عنها في أكثر من مصدر. وابن مرزوق يحيل مرارا على فهرسته هذه في "المناقب المرزوقية" في معرض ذكر شيوخه المغاربة والمشارقة على حد سواء. ويشير ابن مريم إلى أن أحد حفدة ابن مرزوق، وهو محمد بن أحمد ابن مرزوق (ت. 918 هـ) كان يدرس هذه الفهرسة بتلمسان[275].

5- **"تيسير المرام في شرح عمدة الأحكام"**[276] وهو شرح "لعمدة الأحكام عن سيد الأنام" لتقي الدين الجمائلي. وهو مخطوط ضخم يقع في خمسة أجزاء، ويصف الحاج صدوق هذا العمل لابن مرزوق بأنه تلخيص لشرحي العمدة لمحمد بن دقيق العيد (ت 702 هـ/1302 م) وعمر الفاكهاني (ت 734 هـ/1333 م). بينما يقول ابن مرزوق في مقدمة هذا الكتاب : **"زدتُ على ذلك ما أمكنني من تنبيهات، وإفادات، وفروع ملحقات، ونكت مستحسنات، وتذكيرات من أئمة التحقيق..."**[277].

6- **"الأحاديث الأربعون النبوية من مرويات الخلافة العلوية"** : مخطوط بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم (د 3582) من 54 ورقة. على الورقة الأولى **"اقتناه الإمام ابن عرفة التونسي، وكتب سنة 988 هـ"**، وهي نسخة ملوكية.

7- **"خطب مرتبة على حروف المعجم"** : مخطوط بالخزانة العامة بالرباط، جائزة الحسن الثاني للمخطوطات والوثائق، رقم (930 / 5 مراكش 1979)، وهي عبارة عما اخْتَطَب

(275) **البستان**، 258.

(276) **تيسير المرام في شرح عمدة الأحكام**، مخطوط الخزانة العامة بالرباط، رقم 83 ق. وتوجد نسخ أخرى منه في مكتبات مصر (خزانة القاهرة رقم 292). وتركيا (خزانة آيا صوفيا 1331)، حسب الحاج صدوق (الموسوعة الإسلامية، ط 2، ج 3، ص 891).

(277) **تيسير المرام في شرح عمدة الأحكام**، مخطوط الخزانة العامة بالرباط رقم 38 ق، ص 4. (وهذه النسخة تقع في 448) صفحة من الحجم الكبير).

به بحضرة غرناطة وبالحمراء، وقد أملاها على بعض طلبته واحتوت على **"متفرقات الحكم ودرر الكلام"**، كما اشتملت على **"اللفظ الموحش والكلام المستعجم"**، حسب ابن مرزوق نفسه.

8- **"خطب كثيرة من غير التزام حروف المعجم"** : يوجد مخطوطا في نسخة رديئة بالمكتبة الحسنية بالرباط رقم (4070) (278) وهي نصوص خطب ألقاها ابن مرزوق في أربعين مدينة من مدن الإسلام، "كمدينة فاس وطنجة وسلا ومراكش وآزمور وآسفي وأغمات والمنصورة والعباد من ظاهر تلمسان، وهو أول موضع تقلد فيه هذه الخطبة".

9- **قصيدة مولدية** من سبعة عشر ومائة بيت ألفها بمناسبة احتفالات المولد النبوي لعام 763 هـ/ 1361 م التي شهدها في البلاط الغرناطي(279).

10- القصيدة مطلعها :

رفعت أموري لباري النسم ... وموجدنا بعد سبق العدم

ألفها ابن مرزوق وهو في سجنه بتلمسان(280)، يقول عنها صاحب "باقة السوسان" أنها مؤلفة من 59 بيت، ولا تزال موجودة في مخطوط بتلمسان في ملك الحاج محمد النبية، وهي منشورة في كتاب "مجموع القصائد والأدعية" المطبوع بالجزائر عام 1380هـ/ 1960، بزيادة بضعة أبيات وتقديم وتأخير في بعضها(281).

---

(278) مخطوط الخزانة الحسنية رقمه : 4070 وانظر :

Maria J. Viguera, «al Jutab al- diniyya li Ibn Marzuq», in, *Festschift for Ihsan Abbas*, Beirut, American University, 1981, 81-84.

وهذه الخطب كانت موضوع أطروحة تقدم بها م. النعاس ؟ بجامعة مدريد (إشراف دة. مارية خيسوس بيغيرا) سنة 2002. لم أتمكن من الاطلاع عليها.

Ibn Marzuq, *Al Jutab, edición y estudio de la colección de sermones de Ibn Marzuq*, Tesis doctoral, dir. Ma J. Viguira, Universidad de Complutense de Madrid, 2002.

(279) أوردها المقري في : **نفح الطيب**، ج 5/397-402.

(280) ماريا خيسوس بيغيرا، **المسند**، 52.

(281) محمد بن رمضان شاوش، **باقة السوسان في التعريف بحاضرة تلمسان...**، م.س.، ص 494.

11- "بوح الخفاء في شرح الشفاء". وهو عبارة عن شرح لكتاب الشفاء للقاضي عياض. وقد أهداه ابن مرزوق للسلطان أبي الحسن المريني[282]، وتوجد نسخة مخطوطة من هذا العمل محفوظة في مكتبة غوطة Gotha وتقع في خمس مجلدات[283].

أما ما لم يصلنا من مؤلفاته فمنها :

- جزء أفرده في لباس الخرقة[284] ؛
- مجموع في ذكر فضائل الشيخ محمد المرشدي[285] ؛
- "إيضاح المراشد في أجوبة أبي راشد"[286] ؛
- "تعليق على صحيح البخاري"[287] ؛
- "كتاب الإمامة". يقول عنه ابن مرزوق : "أودعته ما تشتمل عليه الخلافة من الحكم والفوائد"[288] ؛
- "شرح البردة"[289] ؛

(282) **المسند**، 277.

(283) كان ابن حجر العسقلاني يتوفر على نسخة منه أهداها له ابن مرزوق الحفيد حين وروده عليها في طريقه إلى الحج وقد "سر به سرورا كثيرا". **الدرر الكامنة**، 362/3 (وتوجد نسخة مخطوطة من هذا العمل محفوظة في مكتبة غوطة Gotha وتقع في خمس مجلدات حسب الحاج صدوق (الموسوعة الإسلامية، ط 2، ج 3، ص 891).

(284) المناقب المرزوقية، 88.

(285) نفسه، 168.

(286) ذكره في **المسند**، 97، وفي **جنى الجنتين**، ص 117 حيث يقول أنه خرج في حديث "إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن" أربعين حديثا مسندة، وأودعت جلها كتاب "إيضاح المراشد" وكتاب "الإمامة".

(287) **المسند**، 276.

(288) ورد في مخطوط **عجالة المستوفز**، الخزانة الحسنية، 1228 ص 118 (وفي ص 91 من شرح الشفا للمؤلف، وفي **جنى الجنتين**، ص 117).

(289) وصف الدكتور سعيد بن الأحرش هذا الشرح – وهو الآن في حكم المفقود – بأنه يقع في ثلاثة مستويات : رفيع ومتوسط وشرح "موجه للمبتدئين من الطلبة وعامة القراء من ذوي الثقافات المحدودة والاطلاع الضيق" (د. سعيد ابن الحرش، **بردة البوصيري بالمغرب والأندلس خلال القرنين الثامن والتاسع الهجريين**، 1998، ص 175-176).

- "كتاب عارض به كتاب "العفو الاعتذار"[290] وهو كتاب لأبي الحسن الرقام[291] ؛
- "أربعون حديثا خرجها من مرويات السلطان أبي الحسن"[292] ولعلها هي التي يسميها ابن مرزوق بـ "الأربعين الاحكامية"[193] ؛
- "مقالة في الصبر"[294]، وقد صرح ابن مرزوق في المسند قائلا : "وقد كنت جمعت ما قيل في الصبر، نثرا ونظما، جزءا على طريقة أهل التصوف وأهل الأدب"[295].

ولعله من المفيد أن أثبت هنا **ملحقا ورد بالنسخة "ب" من "المناقب المرزوقية"**، هو عبارة عن جرد بمؤلفات ابن مرزوق الخطيب وقصائده الشعرية، لا نعرف عنها الشيء الكثير، لعل قادم الأيام تتيح لنا، أو لغيرنا، ضبط محتويات هذه العناوين، وتيسر الطريق للقيام بأبحاث علمية سليمة مستقبلا.

يقول ناسخ المخطوط، أحمد بن عبد الرحمن، التجاني "وجدت معلقا بآخر هذا الديوان المبارك، ما نصه، بعد الحمد لله، والسلام على محمد وآله، وسلم :

مؤلف هذا المجموع المبارك، خطيب الخطباء، محدث وقته، الإمام الحافظ، شمس الدين، أبو عبد الله محمد بن أحمد، ابن مرزوق، الخطيب، رضي الله عنه، له تصانيف عديدة، منها :

- "شرح الأحكام"، لعبد الحق [296].ما رأيت مثله في التحصيل والنقل والفائدة، نفع الله بذلك. ومنها :
- "التعليق على صحيح البخاري"، لم أره، وذكره هو في بعض تواليفه [297] ومنها :
- "شرح الشفا"، المسمى بـ "برح الخفا"[298]. رأيت السفر الأول منه، وما أبدعه، والله يجمع باقيه ![299] ومنها :

---

(290) **المسند**، 98، 197.

(291) طبع هذا الكتاب بالعربية السعودية عام 1981.

(292) **المسند**، 277.

(293) نفسه، 272.

(294) نفسه، 216.

(295) **المسند**، ص 221.

(296) شرح الأحكام الصغرى، لعبد الحق بن عبد الرحمان الإشبيلي (ت. 582 هـ)

(297) "في ذكر مناقب الإمام البخاري" ورد ذكره في مخطوط تيسير المرام، الخزانة العامة بالرباط رقم 38 ق ص 74.

(298) ورد عنوانه في المسند "**برح الخفاء في شرح الشفاء**" وقد أهداه لأبي الحسن، **المسند**، 277.

(299) انظر أعلاه.

- "شرح العمدة"[300]، وهو مشهور. ومنها :
- "الأربعين في فضل الصلاة على سيدنا محمد"، و"الأربعين في فضل العلم"، و"الأربعين عن الصحاح"، أملاها بعد صلاة الجمعة، وقبل العصر منها، وغير ذلك. ومنها :
- "رسالة البدر في ليلة القدر".
- و"جنى الجنتين في فضل الليلتين ليلة القدر وليلة المولد النبوي"[301].
- و"المعجم في ذكر شيوخه".
- و"فهارس" مطولة، ومختصرة[302].
- و"العجالة"[303].
- وخطب مرتبة على حروف المعجم[304].
- وخطب كثيرة من غير التزام حروف المعجم.
- وقصائد في مدح النبي، صلى الله عليه وسلم،
- وقصائد في التوسل.
- ونظم كثير، منه :

*القصيدة **المسماة بالمنفرجة**، وأولها :

اشـتـدي أزمـة تـنـفـرج — لابـد لضـيـقـك مـن فـرج
إن عـم الـعسـر مـع الـحـرج — أبشـر بـالـيسـر وبـالـفـرج

إلى آخرها، وهي مائة وثلاثون بيتا،

* **والقصيدة اللامية**، وأولها :

إليك شكوت يا موالي الموالي — ويـا رب الـمـعـادي والـمـوالـي

وهي نحو من ثمانين بيتا،

(300) انظر أعلاه.
(301) مخطوط الخزانة العامة رقمه : ك 1228.
(302) في "المناقب المرزوقية" يتحدث ابن مرزوق عن برنامجه الأصغر والأكبر (المناقب المرزوقية، ص 212).
(303) لعل المقصود بها فهرسته عجالة المستوفز، مخطوط الخزانة الحسنية رقم 7579.
(304) انظر أعلاه :
Maria J. Viguera, «al Jutab al- diniyya li Ibn Marzuq», in, *Festschift for Ihsan Abbas*, Beirut, American University, 1981, 81-84.

* **والقصيدة النونية الحجازية**، وأولها :

هات الحديث عن قبا والمنحنا وعلل النفس بما قد أمكنا

وهي خمس وسبعون بيتا.

* **والقصيدة النونية أيضا الحجازية**، وأولها :

رفقا بها يا حادي الركبان روح لطيف في جسيم فان

* **والقصيدة الحجازية أيضا**، الدالية، وهي نحو من ثمانين بيتا،

* والقصائد المولديات.

* **والحجازيات**، نفعه الله، ونفعنا به.

* والقصيدة التي مطلعها :

رفعت أموري لباري النسم وموجدنا بعد سبق العدم

نحو أربعين بيتا مشهورة البركة.

* ومنها في الفقه :

– "شرح ابن الحاجب الفرعي"، ولم أره.

– وكلامه في الوصية مع الغبريني، والرد عليه، والإنتصار لصاحبه، العلامة الشريف، والقاضي المقري، رحم الله الجميع، مما يكتب بماء الذهب، وهو مشهور".

5) محمد ابن مرزوق الحفيد : منشأ خطبة الكتاب

ولا نرى موجبا للوقوف عند باقي أفراد سلالة المرازقة المتأخرين، فقد تتبعت حياتهم وأبرزت مكانتهم العلمية والاجتماعية الباحثة ماريا خيسوس بيغيرا في دراستها المركزة عن أسرة ابن مرزوق. إلا أنه من الضروري الإشارة إلى أن مؤلف "المناقب المرزوقية" قد ترك ولديْن هما : محمد المتوفى سنة 760 هـ 1359م ولا نعرف عنه شيئا يذكر. أما الإبن الثاني فهو أحمد، وكان فقيها عالما. وقد ترك هذا الأخير ولدا هو محمد، وهو الذي أنشأ خطبة "المناقب المرزوقية"، وبذلك يستحسن أن نقف عند ترجمته :

– محمد بن أحمد بن محمد (الخطيب) بن أحمد بن محمد (الثاني) بن محمد (الأول) بن أبي بكر بن مرزوق. وهو الذي تنعته المصادر بابن مرزوق الحفيد. فقيه أصولي مفسر مجود لغوي عروضي.

ولد بتلمسان يوم الإثنين 14 ربيع الأول 766 هـ/ 9 دجمبر 1365م وتوفي أيضا في تلمسان يوم الخميس 14 شعبان 842 هـ/30 يناير 1439م.

أدى فريضة الحج في عام 1388/790. رفيقا لابن عرفة، وحج ثانية سنة 819هـ/1416م، احتل مكانة هامة في الحياة الثقافية والدينية في المغرب، وبلغ المكانة القصوى في علوم الشريعة، كما كان أيضا من المتصوفين، حسبما تؤكد ذلك مختلف المصادر الذي ترجمت له بكثير من المدح [305]. ويحلو للمقري أن يصفه بـ "عالم الدنيا" في مختلف صفحات "نفح الطيب" وغيره. أما أحمد بابا التمبكتي فقد حلاه بأوصاف تنم عن مدى تبحره في مختلف مناحي العلوم العربية الإسلامية، كما لم يفته أن يمزج تلك الأوصاف ببعض مميزات شخصيته وأخلاقه قائلا : "الإمام المشهور العلامة الحجة الحافظ المطلع المحقق الكبير الثقة الثبت الفقيه النظار المجتهد المصنف المنصف التقي الصالح الزاهد الورع البركة الخاشي الخاشع الأواه المفسر المحدث الحافظ المسند الرواية الأصولي الفروعي الأستاذ المقرىء المجود النحوي اللغوي البياني العروضي المتفنن المتخلق، ولي الله تعالى العارف به، الآخذ من كل فن بأوفر نصيب... المفتي الشهير السني الرحلة الحاج...سليل أكابر الفاضل، الآخذ من المعقول والمنقول والحقيقة والشريعة بأوفر نصيب، شيخ الشيوخ وخاتمة النظار، ذو التحقيقات البديعة...شيخ الإسلام ... حامل لواء السنة ومدحض البدعة..." قبل أن يختم بقوله : "وبالجملة فالوصف يقصر عن مزاياه، فهو شيخ علماء وقته، بل قاطبة الأئمة في جميع العصار"[306].

وطد علاقات مع أهم علماء عصره حسبما يستخلص من قوائم أساتذته وتلامذته. ومن أشهر شيوخه نذكر : سعيد العقباني وعبد الله بن الشريف التلمساني، وأبي إسحاق إبراهيم المصمودي، وأبي الحسن الأشهب.

وأخذ بتونس عن البلاوي القيرواني وابن عرفة وأبي العباس القصار

(305) **البستان**، 201-214.

(306) **كفاية المحتاج**، ج 2 ص 136-138 ؛ ولا تخرج الأوصاف التي يطلقها عليه ابن مريم، وغيره، عن هذا الإطار (**البستان**، 201-202).

وأخذ بفاس عن ابن حياتي وأبي زيد المكودي والحافظ محمد بن مسعود الفيلالي وابن قنفذ وغيرهم.

وأخذ بمصر عن السراج البلقيني، والزين العراقي، والشمس الغماري، وابن خلدون وغيرهم. وله إجازات من علماء الأندلس.

أما أشهر تلامذته فنذكر منهم : القاضي عمر القلشاني والثعالبي والعلامة نصر الزواوي ومحمد بن أبركان وأبي البركات الغماري، وأبي الفضل المشذالي وولده محمد بن مرزوق الكفيف، وعلي القلصادي، وإبراهيم التازي، وأبي الفرج بن أبي يحيى الشريف التلمساني، وأبي زيد الثعالبي، والمازوني، ومحمد الحافظ التنسي، وابن زكري، وخلق كثيرون.

- آثاره العلمية :

تعددت مؤلفات ابن مرزوق الحفيد، إذ "جمع وصنف وأفاد وأبدا، في كل فن من الفنون وأعاد". ولقد عدد المؤرخون تآليفه في مختلف صنوف المعرفة، نذكر منها على سبيل الإختصار[307] :

- شروحه الثلاثة على البردة، أكبرها : صدق المودة[308].
- الروضة، واختصارها الحديقة (في الحديث).
- وأرجوزة في الميقات سماها المقنع الشافي، في ألف وسبعمائة بيت
- اغتنام الفرصة في محادثة عالم قفصة[309]، وهو أجوبة عن أسئلة أبي يحيى بن عقيبة في التفسير والفقه وغيرهما.
- والمعراج إلى استمطار فوائد الأستاذ ابن السراج، جزء في المسائل نحوية ومنطقية أجاب بها أسئلة قاضي الجماعة ابن السراج الغرناطي.
- و"النور اليقين في شرح حديث أولياء الله المتقين"، الحديث المشهور، المشكل، الذي أخرجه أبو نعيم الحافظ، في الحلية. "جاء الشيخ في شرحه بما يبهر العقول".

(307) انظر **كفاية المحتاج** 2، 142-143؛ وانظر كذلك **توشيح الديباج**، ص 171-172 ؛السخاوي، **الضوء اللامع**، 50/7 ؛ الملحق.

(308) مخطوط الخزانة العامة، ك 1365.

(309) مخطوط الخزانة العامة بالرباط، رقم ك 4295،نسخة أخرى رقم ك 2983.

- النصح الخالص في الرد على مدعي رتبة الكمال للناقص، رد فيه على عصريه الإمام قاسم العقباني في فتواه في شأن فقراء الوقت.
- شرحه للجامع الصحيح، المسمى بالمتجر الربيح والمسعى الرجيح والمرحب الفسيح، والوجه الصحيح، والخلق السميح، ما رأى الراؤون مثله، لو كمل، أربعة أسفار إلى أثناء الصلاة. وله عليه كلام كامل، في مناسبة تراجمه.
- أنوار الدراري، في مكررات البخاري.
- "روضة الأريب في شرح التهذيب"، ومنها "المنزع النبيل، شرح مختصر الشيخ خليل[310]، وهو مشهور، كتب من أوله إلى أثناء الصلاة ؛ ومن الأقضية إلى الختم، "ولو كمل لما نظر في غيره".
- "اغتنام الفرصة في محادثة عالم قفصة"[311].
- وفتاوى كثيرة في فنون منوعة انتشرت شرقا وغربا، ذكر جملة منها في المازونية والمعيار.

كما ألف في بعض المواضيع التي طرحت نفسها في مجتمعات المغرب آنذاك مثل :

- "إسماع الصم في إثبات الشرف من قبل الأم"[312].
- "الذيل المومي في جواز النسخ في الكاغط الرومي". (وهناك من سماه – "الدليل الواضح المعلوم في طهارة كاغد الروم").

ومن المعلوم أن قضية الشرف، أو ادعائه، واستعمال الورق المستورد من البلدان المسيحية، كانت من القضايا التي أثارت نقاشا بين علماء المغرب آنئذ.

(310) مخطوط الخزانة العامة بالرباط رقم ق 265.

(311) مخطوط الخزانة العامة بالرباط رقمه : ك 429 ؛ نسخة أخرى رقمها : ك 2983.

(312) مخطوط الخزانة العامة بالرباط، رقم د. 1783 (طُبع مؤخرا).

الفصل الثاني

«المناقب المرزوقية»

- قضاياها المنهجية
- مصادرها

«المناقب المرزوقية» قضاياها المنهجية ومصادرها

1) عنوان الكتاب

من المسلم به أن عنوان الكتاب هو أول عنصر يجب أن يُعتنى بتحقيقه وضبطه، كما يؤكد المختصون في علم تحقيق المخطوطات العربية[313]. على أن ضبط عنوان كتاب ابن مرزوق هذا يطرح أكثر من مشكلة، لأن مخطوط الكتاب وصلنا من دون عنوان، لا في مقدمته ولا في خاتمته، وليس في متنه ما يدل على عنوانه الصحيح والدقيق.

لذلك نبادر إلى القول بأن "المناقب المرزوقية"، الذي آثرنا إطلاقه عنوانا على هذا التأليف، هو ليس من وضع ابن مرزوق، وإنما هو من اختيارنا، وهو اختيار لا يستند على قرائن مصدرية، أو يقوم على انتقاء صيغة عنوان من بين صيغ أخرى قد تكون وردت في المصادر التاريخية، وإنما هو اختيار اجتهادي، يستند على طبيعة مادة التأليف ذاتها[314].

والجدير بالذكر أن ابن مرزوق لم يشر إلى هذا "التعليق" في مؤلفاته الأخرى المخطوطة التي وصلتنا، ولا في كتابه الشهير : "المسند الصحيح الحسن"، الذي ألفه بعد تأليفه "المناقب المرزوقية" بعشر سنوات على الأقل[315]، مع العلم أنه يورد به، أي

(313) هلال ناجي، "**توثيق عنوان المخطوط العربي وتحقيق اسم مؤلفه**"، دراسات ووثائق الحلة، 1، بابل، جامعة بابل، 2002، ص 1-23 ؛ عبد السلام هارون، **تحقيق النصوص ونشرها**، ط 2 ، القاهرة، ص 39-40.

(314) لئن كنا نجاري د. أحمد شوقي بنبين في قوله : "من المشاكل التي تعترض الباحث في السيرة البيبليوغرافية أن المؤلفين يسكتون بعض الأحيان عن تسمية مؤلفاتهم، مما يفتح الباب على مصراعيه للعلماء والمؤرخين والنساخ، **فيقترحون العناوين، فيحدث اضطراب** لدى الباحثين والمحققين حول العنوان الحقيقي للكتاب" ؛ فإننا لا نتصور أن يُحقق كتاب تراثي من دون عنوان. ("**السيرة البيبليوغرافية أو البيوببليوغرافيا في التراث العربي. جلال الدين السيوطي نموذجا**"، مجلة التاريخ العربي، الرباط، العدد 29، شتاء 2004، ص 348 هامش 47).

(315) عن ظروف تأليف المسند انظر: ماريا - بسوس بيغيرا، **المسند**، 29، 65.

بـ"المسند"، مجموعة مهمة من المعطيات والأخبار التي نجدها مبثوثة في "المناقب المرزوقية"[316]. ثم إن الكتاب وصل إلى يد حفيد المؤلف "وقد نقصت منه الخطبة"[317]، التي من المحتمل أنها كانت تحتوي على عنوان التأليف. ويبدو أن ابن مرزوق تركه خاليا من العنوان، إذ فضل تسميته "تعليقا"، وعنْوَنَ الفصل الذي ضمّنه سيرته الذاتية من هذا الكتاب بـ "**خاتمة لهذا التعليق**"[318].

ويصف ابن مرزوق كتابه هذا أحيانا بـ "**المجموع**". يقول : "أردت أن أثبت في هذا المجموع سيرة من سلف لي من الصالحين". ويؤكد ذلك في آخر الكتاب حينما يستحضر "بركة الأولياء، ومن اشتمل عليه هذا **المجموع** منهم..."، وهو نفس النعت الذي يطلقه حفيد المؤلف الذي وضع خطبة الكتاب[319].

أما ناسخ المخطوط، فيطلق عليه تارة نعت "**المجموع**"، وتارة أخرى نعت "**الديوان**"[320]، فيقول : "انتهى، بحمد الله، جميع هذا **الديوان** المبارك، من أوله إلى آخره". و"مؤلف هذا **المجموع** المبارك، خطيب الخطباء..."[321].

ولم تُسمّ المصادر التي نقلت عن "المناقب المرزوقية" هذا المؤلف أو أفصحت عن طبيعة محتواه، واكتفت بإطلاق صفة "**التعليق**"، أو "**المجموع**" عليه، تمشيا مع مؤلفه[322]. ولعل ابن مريم، صاحب "البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان"، هو الوحيد من القدماء الذي أورد ما يشبه عنوانا لهذا الكتاب، حينما نقل عنه في ترجمة أبي العباس أحمد (الأول) ابن مرزوق المتوفى سنة 741 هـ، وأنهى ترجمته بقوله : "**صحّ من مناقب حفيد الحفيد ابن مرزوق**"[323]. إلا أن هذا العنوان لا ينطبق على محتوى الكتاب كما وصلنا اليوم. فهو ليس موضوعا في مناقب شخص واحد (حفيد الحفيد)، كما سنوضح ذلك في حينه، وليس مؤلفه هو "حفيد الحفيد" قطعا إن كان ابن مريم يقصد بعبارته السالفة الذكر : "صح من كتاب حفيد الحفيد ابن مرزوق".

(316) المناقب المرزوقية، ص 137-240-264-305.

(317) نفسه، ص 137.

(318) نفسه، ص 298.

(319) نفسه، ص 311.

(320) نفسه، ص 313.

(321) نفسه.

(322) **نفح الطيب**، ج 5/416-417. وانظر كذلك ابن مريم، **البستان**، ص 68، 188 ؛ **نيل الابتهاج**، ص 454 ؛ **تعريف الخلف**، ص 144.

(323) ابن مريم، **البستان**، ص 30.

2) منهجية ابن مرزوق

يحدد ابن مرزوق موضوع كتابه والنهج الذي سار عليه في تدوينه قائلا : "ورأيت، بحول الله، أن أصل بذكر الجدّ، رحمه الله، من عاصره وعاشره من صلحاء وقته، وعلماء زمانه، على سبيل الاختصار، وكذلك لمولاي الوالد، رحمه الله، ذكراً جُملياً"[(324)].

فالتأليف، حسب تصريح ابن مرزوق، يدور حول ترجمة جده ووالده، فهما بيت القصيد والهدف الأساس من الكتاب، لذلك نجده يطنب في ترجمتيْهما إطنابا. أما ما ورد من تراجم تخص معاصريْهما أو شيوخَيْهما، فقد ذكر "ذكرا جُمليا"، أي باعتبارهما مجرد "ذيل" و"تكملة" أو "صلة"، وصل بها موضوع تأليفه الأساس.

إلا أن "المناقب المرزوقية" سرعان ما تتحول إلى كتاب تراجم، حينما يبدأ مؤلفها في إيراد أسماء وترجمة شيوخ والده وجدّيْه. ومن الجلي أن ابن مرزوق كان يدرك جيدا أنه يمزج في تأليفه بين أسلوبين في الكتابة التاريخية، أو بعبارة أصح، كان يدرك أنه يخلط بين أجناس مختلفة من الفنون. لذلك يقول بعد أن أورد تراجم عدد من شيوخ والده : "لنقتصر على هذا القدر من ذكر من لقيه من الكبار، أو أخذ عنه، فموضع هذا الفهارس والرحلات"[(325)].

ولم يكن في مستطاع ابن مرزوق أن يؤلف في التراجم كتابا، أو أن يطنب في إيراد جميع شيوخ سلفه ووالده ومعاصريهم، لا لعجزه أو لقصور باعه المعرفي في هذا الميدان، وإنما لابتعاده عن مكتبته، ولفقدانه لمدوناته، فضلا عن ما كان يعانيه من ظروف نفسية بالغة السوء. فهو يصرح، بكثير من الأسى، أن "معرفة المواليد والوفيات، وتعيين الأشياخ وغير ذلك مما يجب ذكره، لم أجد لمعرفة ذلك سبيلاً، لما أنا عليه من الثقاف، ومفارقة ما كسبته من الكتب وكتبته، ومفارقة جميع الأهل وذهاب سائر ما ملكته"[(326)].

ولذلك فإن ابن مرزوق اعتمد على ذاكرته، واضطر إلى تلخيص أخباره وشهاداته. ونجده يذكرنا في كثير من المواضع بأن يختصر كثيراً من الموضوعات، ويقتصر على المهم من الأخبار. يقول مثلا :

---

(324) المناقب المرزوقية، ص 141.

(325) نفسه، ص 212.

(326) نفسه، ص 141.

- "فلنذكر بعضهم وطرفا من أخبارهم على سبيل الاختصار"[327] ؛
- "وله مرائي كثيرة... اقتصرت فيها على ما ذكرته، قصدا للاختصار"[328] ؛
- "ولهذه الحكايات آخرات، اقتصرت منها على ما ذكرته"[329].

ومن البديهي أن كل عملية اختصار تقتضي انتقاء بعض الأخبار وإقصاء أخرى. وذلك ما يستشف مثلا من قول ابن مرزوق : "ومن الناس من زاد في هذه الحكاية ما كرهت ذكره"[330].

على أن ابن مرزوق أطلق العنان لقلمه، واستفاض في أخبار بعض الشخصيات، مثل أخبار الشيخ محمد المرشدي. ويبرر ابن مرزوق ذلك برجائه نيل بركة الشيخ، يقول : "وإنما طوّلت بأخبار هذا الشيخ، رضي الله عنه، رجاء أن يريني الله بركة ذكره، والتوسل إليه، جل وعلا، بعظيم قدرته"[331].

واللافت للانتباه في كتاب "المناقب المرزوقية" هو الاستعمال النادر جداً للنصوص القرآنية وللأحاديث النبوية[332]، وهي النصوص التي نجدها على رأس مصادر كتابه "المسند الصحيح"، كما لاحظت ذلك محققة هذا الكتاب الأخير[333]، كما يسترعي انتباهنا الغياب المطلق للمكوّن الشعري في النص، مع العلم أن قريحة ابن مرزوق الشعرية لم تكن جافة، بل إن "باعه في النظم والنثر مديد"[334]، كما تدل على ذلك المقتطفات التي وصلتنا من نظمه.

3) تبويب الكتاب

يبدو أن ابن مرزوق لم يولّ أهمية كبيرة لتنظيم كتابه في فصول مرتبة ترتيبا واضحا. ويبدو أن العمل كتب على عجل، ولم يكن ثمرة اختمار فكري ناضج ؛ أو لنقل إن ابن مرزوق لم ينظمه تنظيما محكما، كما كان صنيعه في كتابه المسند مثلا. ولئن صرح

(327) نفسه، ص 216.
(328) نفسه، ص 228.
(329) نفسه، ص 244.
(330) نفسه، ص 175.
(331) نفسه، ص 271.
(332) انظر فهرس الآيات القرآنية وفهرس الأحاديث النبوية.
(333) El Musnad : *Hechos memorables,* ... op. cit. p. 45.
(334) نفح الطيب، 402/5.

في مقدمته بأنه قد "رتبه على فصول"، فإننا لا نعثر، بعد المقدمة و"الفصل الأول"، الذي خصصه للحديث عن "النسبة والقبيل الذي يرجع إليه"، على فصل ثاني وفصل ثالث، وهلم جرا. فهو لا يثبت عناوين الفصول الأخرى، وإنْ أثبتها فمن غير ترتيب لها. ويكتفي في كثير من الأحيان بإطلاق نعت "فصل" مجردا من كل بيان لمحتواه، أو يكتفي بتسميته : "فصل غريب". بل إنه لم يعنون حتى الباب الذي خصصه لوالده أبي العباس أحمد ابن مرزوق، وهو أطول باب في الكتاب. وأحيانا كان يقسم تلك الفصول إلى "أنواع". ولقد اختلف طول الفصول داخل الكتاب، فهناك من الفصول من لم تتجاوز الفقرة الواحدة، في حين أن هناك من الفصول من زاد على عشر صفحات. بل إن هناك مؤشرات تدل على أنه استعجل تدوين مؤلفه دون مراجعته ؛ فهو يصرح في ترجمة أبي الحسن التكروري أنه "سيورد ذكره وذكر كراماته"[335]، لكننا لا نعثر على شيء من ذلك في "المناقب المرزوقية". ونفس الشيء بالنسبة للصالحة ستم بنت أبي علي حسين بن الجلاب[336]. كما أن ابن مرزوق يعترف في خاتمة هذا الكتاب أنه لم يستوف هذا التأليف حقه من العناية والضبط، فقد شغله "عن استيفاء الغرض ما دهيت به – يقول المؤلف– من الكرب المتصل"[337].

وكيفما كان الحال، واستنادا على ما وصلنا من التأليف، يمكن القول أنه يتمحور على أربعة أبواب رئيسية، تندرج تحتها فصول و"أنواع" متعددة، وهذه الأبواب هي :

– الباب الأول : " في النسبة والقبيل الذي يرجع إليه"، وهو باب يضم فصلين، يؤرخ ابن مرزوق فيهما لسلفه، على وجه الاختصار.

– الباب الثاني : خصصه لترجمة جده لأبيه (محمد بن محمد بن أبي بكر بن مرزوق المتوفى سنة 691 هـ/ 1282 م)، ويقع هذا الباب في عشرين فصلا متفاوتة الطول.

– الباب الثالث : خصصه للحديث عن أبيه (أحمد بن محمد بن محمد بن أبي بكر ابن مرزوق المتوفى سنة 741 هـ/ 1340 م)، وهو أكبر أبواب الكتاب وأطولها من ناحية المادة التاريخية، ويضم ثمانية عشر فصلا).

(335) المناقب المرزوقية، ص 219.

(336) نفسه، ص 162.

(337) نفسه، ص 311.

– الباب الرابع : خصصه للحديث عن جده لأمه (إبراهيم، بن يخلف بن عبد السلام، ابن عيشون المطماطي التنسي، المتوفى في حدود 680 هـ). ويحتوي على إثني عشر فصلا.

– أما الخاتمة، فقد خصصها ابن مرزوق، كما يدل على ذلك عنوانها، لترجمته الذاتية، متطرقا لمولده، وتاريخ رحلته، واستيطانه، وبعض من لقيه من الأولياء. وقد جاءت هذه الخاتمة مركزة جدا، ومعلوماتها مكثفة إلى حد الغموض أحيانا.

4) أسلوب «المناقب المرزوقية»

جاءت لغة "المناقب المرزوقية" لغة نثرية مرسلة ومبسطة، من دون تكلف مشحون بالمحسنات البديعية أو غيرها، خالية من التعابير المسجوعة تقريبا (خلا بعض الجمل في مقدمة الكتاب)، ومن الحذلقات الأسلوبية. ومن الجلي أن ذلك لم يكن مرتبطا بضعف الرصيد اللغوي لابن مرزوق قطعا. فالرجل كان خطيبا مفوها، وشاعرا وأديبا مرموقا، وتشهد آثاره على مواهبه الأدبية والنثرية الراقية؛ وإنما نعتقد أن الأمر مرتبط بطبيعة موضوع التأليف الذي يدخل ضمن الأدب "المناقبي"، وهو أدب يتوخى أسلوب البساطة عموما. كما جاء الكتاب خاليا من الأبيات الشعرية، ويكاد يخلو من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية. إلا أننا نجد نفَساً قرآنيا في بعض المقاطع، وخاصة في تلك الأدعية والابتهالات والاستغفارات التي كان ابن مرزوق يعبر من خلالها عن محنته، وعن تبرمه من الابتلاء الذي امتحن به.

5) مصادر ابن مرزوق

لم يتسنَّ لابن مرزوق الاعتماد على المصادر الكتابية في تأليفه هذا. فإذا استحضرنا ظروف تأليف "المناقب المرزوقية"، سنجد أنها مطبوعة بابتعاد المؤلف عن خزانة كتبه. فهو يشير إلى ما كان "عليه من الثقاف"، و"مفارقة ما كسبه من الكتب وكتبه، ومفارقة جميع الأهل، وذهاب سائر ما ملكه"[338]. ومع ذلك يبدو أنه كان يستحضر، ولو عن طريق الذاكرة، بعض الوثائق التي اطلع عليها مكتوبة، وخاصة في الفصل المخصص لذكر نسبه وقبيلته : يقول مثلا بخصوص ضبط اسم مرزوق وكيفية نطقه : "رأيت هذا الحرف بخط بعض عدول بلدنا القدماء بالكاف"[339]. وبخصوص نسبة : العجيسي،

(338) المناقب المرزوقية، ص 141.

(339) نفسه، ص 145.

يقول ابن مرزوق : "أما النسب، **فرأيت بخط جدي الأقرب**، نفع الله به : العجيسي. وكذلك في **رسوم قديمة**"(340). كما وقف ابن مرزوق على بعض المدونات في تاريخ أسرته ومنها ما يتعلق بجذور سلالته، لكنه لم ينقل منها لعدم وثوقيتها عنده. يقول : "وأما ما بعد مرزوق، فلم أتلقه من والدي، ولا من عمّي، رحمه الله تعالى، وإنما وقفت **على شيء منه بظهر كتاب**، لم أنقله، لعدم الوثوق به"(341).

كما يصرح أنه وقف على "رسوم قديمةٍ" تصف أبو عبد الله الأكبر (أي محمد الأول) "بالفقيه الأمين ؛ وفي بعضها، بالأمين الصالح"(342).

كما نجده يوظف كذلك نصوص الرسائل التي كانت ترد عليه من بعض شيوخه وتلامذته من المشرق، تخبره ببعض المستجدات والوقائع. من ذلك مثلا الرسالة التي بعثها له الشيخ الإمام، مدرس المالكية، ونائب الحكم الشرعي بالحرم الشريف، النبوي أبو محمد، عبد الله بن محمد، بْن فرحون يعرفه فيها بوفاة والده، وما حفظ من كراماته. وفي موضع آخر يقول ابن مرزوق : "فكتبت لوالدي بذلك كتاباً، لحقني جوابه بتلمسان، وهو يقول فيه..."(343) ويورد فصولا من هذه الرسالة الأبوية التي تحمل أخبارا ونبوءات بفتح أبي الحسن المريني لمدينة تلمسان، وتاريخ ذلك.

أما كيفية وفاة والده وتاريخها، فقد كتب له بها شيخه الفقيه الإمام، أبو محمد بن فرحون، وكذلك الشيخ الصالح، أبو العباس، أحمد الغماري، ورفيقه، أبو الحجاج، يوسف"(344).

إلا أن الاعتماد على المصادر الكتابية يظل اعتمادا هامشيا وجزئيا، لأن مصادر ابن مرزوق في هذا الكتاب هي مصادر شفهية بالدرجة الأولى، نظرا لطبيعة موضوع "المناقب المرزوقية". فأغلب ما دوّنه هو رواية لأحداث عايشها، أو سمعها، أو شارك فيها مشاركة مباشرة. ولعل هذا ما يبرر توظيفه لضمير المتكلم (أخبرني، حدثني، قال لي، اجتمعت به، شاهدت، عاينت...)، أو غيرها من الألفاظ والعبارات الدالة على المعايشة الحية، وهو الأمر الذي يجنب الباحث، بصفة تكاد تكون تلقائية، مشكلة البحث في

(340) المناقب المرزوقية، ص 145.
(341) نفسه، ص 146.
(342) نفسه، ص 148.
(343) نفسه، ص 269.
(344) نفسه، ص 272.

أصالة ومصداقية المعلومات التي يقدمها، ويسم الكتاب بصبغة "الأصل الذي لا مصدر له" سوى شهادة المؤلف. وهو في هذا يشبه بعض كتب المناقب الأخرى[345].

ولعل أكثر الرواة ذكراً في هذا الكتاب هم من أفراد عائلة ابن مرزوق، وعلى رأسهم : والده، وعمه[346]، والشيخ أبو العباس أحمد ابن القطان. وهذا الأخير يصفه ابن مرزوق بـ"الشيخ الصالح، الثقة، الصدوق، الصوفي، المؤرخ، المتبتل"[347] ولم نقف على ترجمته فيما اطلعنا عليه من مصادر. فقد أكثر من النقل من شهاداته (أكثر من أربعين مرة). ولا غرو في ذلك، فابن القطان هذا كان من أقرب المقربين إلى عائلة ابن مرزوق، كما يستشف من "المناقب المرزوقية"[348]. فقد كان يسكن في دار متصلة بدار ابن مرزوق، وهو الذي ربى والده، واختص بخدمة جده لأبيه وجده لأمه ؛ الأمر الذي يضفي أهمية خاصة على شهادته ومروياته.

والجدير بالإشارة أن أغلب الروايات الشفوية عند ابن مرزوق هي روايات سندها مباشر، ونجدها مسبوقة بقوله : "أخبر ي فلان، قال". وقليل منها ذات السند القريب، أي تلك التي استمد ابن مرزوق أخباره بشأنها من أفراد عائلته الذين سمعوها بدورهم من طبقة أخرى من الرواة، وتكون مسبوقة بقوله : "أخبرني فلان، عن فلان قال". وحتى في هذه الحالة نجد للرواة علاقة عائلية ما مع ابن مرزوق. من قبيل : "حكى لي والدي، رحمه الله، عن أمي عن أبيها"[349].

هذا وإن بعض رواة ابن مرزوق كانوا من المعمّرين، يقول مثلا : "أدركت الشيخ الصالح أبا الحسن علي بن ميمون، وكان **شيخا كبيرا، قد عُمّر، وسمعته**..."[350] وفي مكان آخر يقول : "قال لي الشيخ عبد الله الشريشي : أهلا وسهلا بابن الجدّيْن : **دعا لي جدك لأبيك وجدك لأمك**"[351].

---

(345) انظر مثلا : **المستفاد**، ج 1 ص 147.

(346) المناقب المرزوقية، ص 146-147-150-156-163-165-167...

(347) نفسه، ص 146.

(348) نفسه، ص 146 هامش (20).

(349) نفسه، ص 238.

(350) نفسه، ص 165.

(351) نفسه، ص 165.

وقد أسند ابن مرزوق كثيرا من أخباره للنساء من أفراد عائلته[352]. وهو يصفهن بالصلاح والبركة والزهد... ومن النساء اللائي يذكرهم ابن مرزوق كمصادر لأخباره، نذكر :

- خالة والده (أسند إليها ثلاث مرات)[353].
- ستم بنت الشيخ أبي علي حسين بن الجلاب. ويصفها بـ" المرأة الصالحة"[354].
- خالة والده وعمه[355].
- الزهراء أخت أبي عبد الله محمد بن عبد الواحد[356].
- والدة عمه وجدته[357].
- فاطمة بنت الشيخ العالم أبي عبد الله بن عبد العزيز. ويصفها بـ"الصالحة المباركة"[358].
- حفيدة فاطمة بنت الشيخ العالم أبي عبد الله بن عبد العزيزي[359].
- ست الملوك بنت يعقوب الهواري، زوجة عمه. ويصفها بـ"الحاجة المباركة"[360].
- عائشة بنت بنت الأكحل، ويصفها بـ"الشيخة الصالحة"، وبأنها"كانت من خيار الصالحات"[361].
- أم الفتح المدعوة بفتحون، أم سيدي أبي إسحاق، ونعتها بـ "الصالحة المعظمة المجابة"، وبكونها "كانت من الزاهدات الصالحات"[362].

وفي كثير من الأحيان نجد أن ابن مرزوق لا يسند أخباره لأحد، أو يوردها بصيغة المبني للمجهول، فنجد عبارات من قبيل :

(352) حول دور المرأة في نقل أخبار وكرامات الأولياء، ومساهمتها في "الحفاظ على الذاكرة الصوفية"، انظر : محمد المغراوي، **"تصوف المرأة في العصر الموحدي"**، البحث التاريخي (مجلة)، العدد الثاني، 2004، ص 7-17 وخاصة ص 9-10.

(353) المناقب المرزوقية، ص 160-188-212.

(354) نفسه، ص 2162.

(355) نفسه، ص 163، 188.

(356) نفسه، ص 164.

(357) نفسه، ص 165.

(358) نفسه، ص 175، 4176.

(359) نفسه، ص 175.

(360) نفسه، ص 236.

(361) نفسه، ص 235.

- "هذا مستفيض عند أهل الوطن القدماء منهم"[363].
- "سمعت هذا تواترا"[364].
- "حدثني غير واحد"[365].
- "ذكر لي غير واحد"[366].
- "حدثني غير واحد من الشيوخ"[367].
- "أخبرني جماعة لا أحصيهم كثرة"[368].
- "أخبرني جماعة من أهل العباد"[369].
- "حدثني غير واحد من أهل تلمسان وأهل العباد"[370].
- "أخبرني جماعة من أهل تونس"[371].
- "حدثني جماعة من الفقهاء والحجاج"[372].
- "حدثني جماعة من أصحابنا"[373].
- "وهي من القضايا المتواترة المعروفة عند قدماء أهل تلمسان"[374].
- "هذا مما تطابقت عليه الأخبار، فلا حاجة إلى ذكر الجزئيات"[375].

أما رواته فيصفهم بالثقة، والتحقق، والنزاهة، والتجرد : مثل وصفه للشيخ المؤرخ أبي محمد عبد الله الشريشي بـ"الثقة"[376]، مثله مثل العدل أبو عبد الله السني [377]،كلما

(362) المناقب المرزوقية، ص 278.
(363) نفسه، ص 165، 288.
(364) نفسه، ص 199.
(365) نفسه، ص 56، 199، 182، 286.
(366) نفسه، ص 152.
(367) نفسه، ص 175، 288.
(368) نفسه، ص 151، 165.
(369) نفسه، ص 160.
(370) نفسه، ص 163.
(371) نفسه،ص 274.
(372) نفسه، ص 263.
(373) نفسه، ص 263.
(374) نفسه،ص 151.
(375) نفسه، ص 155.
(376) نفسه، ص 22، 33، 199، 157، 165، 286.
(377) نفسه، ص 157.

أسند إليهما خبرا من أخباره. أو نجده يستعمل عبارات تفيد التحقق، من قبيل : "تحققته من والدي"[378].

ثم إن ابن مرزوق لم يعتمد الشهادة الشفهية، ومرويات شيوخه ووالده فحسب، بل إن كثيرا من رواته كانوا من علية القوم وخاصتهم، كالأمراء وشيوخ الدولة وحتى السلاطين، نذكر منهم على سبيل المثال إسناده إلى :

- "ملك المغرب وخاتمة الملوك وإمامهم السلطان أبو الحسن"[379].
- "الشيخ المعظم، أبو محمد، عبد الله بن عثمان بن يغمراسن بن زيان، المعروف بابن أبي حفص، حفيد السلطان"[380].
- "الشيخ المعظم، كبير بني عبد الوادي، وشيخ دولتهم، أبا سليمان، داود بن علي"[381].
- "الشيخ المعظم أبو عبد الله محمد بن السلطان أبي يحيى يغمراسن بن زيان"[382].
- "الفقيه الفاضل الحسيب صاحب العلامة أيضا وصاحب الأشغال الشهير أبو الفضل بن أبي محمد عبد الله بن أبي مدين"[383].
- "شيخنا الكاتب صاحب العلامة وكاتب الخلافة...أبو محمد عبد المهيمن الحضرمي"[384].

ومن الطبيعي أن كل رواية شفهية لها حدودها، وقد وقع ابن مرزوق في أخطاء أحيانا[385]، خصوصا وأنه يعود بذاكرته إلى طفولته المبكرة جدا :

(378) المناقب المرزوقية، ص 146.
(379) نفسه، ص 165.
(380) نفسه، ص 153.
(381) نفسه، ص 16، 131، 153، 237.
(382) نفسه، ص 165.
(383) نفسه، ص 293.
(384) نفسه، ص 292.
(385) انظر : مثالا لذلك " أقام [والد ابن مروزق] في فاس إلى سنة إحدى وعشرين ورحل بزوجته والدتي وأنا حامل إلى تلمسان" **المناقب المرزوقية** (ص 28)، وهذا خطأ بيّن.

- "وكنت ليلة في زمن صغري، وأنا من نحو خمسة أعوام"[386].
- "فإذا رآني وأنا صغير جدا، من نحو ستة أعوام أو سبعة أو دونها"[387].
- "كنتُ أجد لكلامه، مع صغري وقلّة فهمي، فعلا في نفسي"[388].

ثم إن هذه الذاكرة لم تسعف ابن مرزوق في بعض الأحيان. فقد نسي أسماء رجال، وحوادث وأخبار، وداخله الشك في بعض التواريخ، كما يستشف من هذه العبارات الدالة على ذلك :

- "حدثني ابن القطان أن شيخه كان فلان، أنسيتُ إسمه"[389].
- "أخبرني بأمور، منها ما أذكر، ومنها ما نسيت"[390].
- "وقد غاب عني الآن كثير مما كان يخبرني به من ذلك"[391].
- "وأخبرني بأمور، منها ما أذكره، ومنها ما نسيته"[392].
- "وهذا الباب كثير، ذكرت منه ما حضرني"[393].
- "ولقيت بقسنطينة، مع والدي رجلا، لا أعرف الآن اسمه، من الصلحاء. ومن الفقهاء قاضيها، وأشك في أبي عزيز، هل كان في قدمتي الأولى بقسنطينة، أو ببجاية"[394].

وكان ابن مرزوق مدركا لذلك كما يستخلص من قوله، وهو يتحدث عن فصل عن كرامات والده، إذ يشير فيه إلى ما "حفظه من كرامته، وباشره من بركاته"، قبل أن يستطرد ويقول : "وهذا الباب لا أحيط به، ولا أحصره، لكثرته وطول الزمان، وبعد العهد"[395].

(386) المناقب المرزوقية، ص 240.
(387) نفسه، ص 165.
(388) نفسه، ص 182.
(389) نفسه، ص 287.
(390) نفسه، ص 269.
(391) نفسه، ص 180، 196، 272، 284.
(392) نفسه، ص 269.
(393) نفسه، ص 163.
(394) نفسه، ص 302.
(395) نفسه، ص 225.

على أن الأمر يقتضي منا وقفة تأمل عند مصادر ابن مرزوق بخصوص تراجم علماء وصلحاء متقدمين، لم يزامنهم، وبالتالي لم يسمع منهم، وخاصة أولئك الذين كانوا شيوخا لجديْه ولأبيه. فمن أين استقى أخبارهم وحصل على عناصر ترجماتهم ؟ الملاحظ أن ابن مرزوق لم يشر إلى أنه رجع إلى أي مصدر من مصادر تاريخ الغرب الإسلامي في كتابه، باستثناء كتاب "الذيل والتكملة" لابن عبد المالك المراكشي، الذي أشار إليه ثلاث مرات(396). وليس هناك أية بينة ترشدنا إلى المصادر الكتابية الأخرى التي قد يكون اعتمدها. إن ابن مرزوق يقر في مقدمه كتابه أن بعض أصحابه قد صنفوا في مناقب أسلافه(397)، كالفقيه الصالح، أبي الحسن علي بن عبد الواحد المسيلي، والفقيه القاضي، أبي عبد الله محمد بن حسن بن هنيّة، والفقيه يعقوب البرشَكي، ويعترف بأن القاضي الخطيب، أبو علي منصور، بن الفقيه القاضي أبي عبد الله، بن هديّة القرشي "ذكر أنه جمع شيئاً من ذلك"(398). إلا أن ابن مرزوق يؤكد جازما أنه لم يقف على تلك المؤلفات، قبل أن يردف منبّها : "ولو حصل بيدي شيء من هذا لكفاني عن التعرض لذلك"(399).

وتزداد حيرتنا حينما نقارن محتوى تلك التراجم مع مثيلتها التي أوردها معاصره وبلديه : يحيى ابن خلدون (ت. 780 هـ/1378 م) في كتابه "بغية الرواد". ونسوق بعض الأمثلة الدلة على ذلك في هذا الجدول :

الترجمة	بغية الرواد	«المناقب المرزوقية»
أبو زكريا يحي ابن الصَّيْقل	1- فقيه زاهد ورع متبتل في العبادة. 2- لا يكاد يفارق القبور والمساجد توحشا من الخلق. 3- وكان محدثا حافظا. له كرامات واطلاعات صوفية. 4- قبره رحمه الله خارج باب العقبة. 5- وله الآن بتلمسان ولد على غير هديه. نجباء فيما ولوه من أمر السلطنة (ص 115-116).	1- إمام وقته زهداً وورعاً، صاحب كرامات وأحوال. 2- كان أكثر ملازمته للمقابر والمساجد الخربة، خارج البلد. 3- وكان محدثا، انتفع به كثير من صلحاء تلمسان وعلمائها. 4- دفن بتلمسان، خارج باب العقبة، وقبره معروف. 5- وله عقب موجود الآن بتلمسان، لكن فيهم من خالف، مثلي، طريق سلفه وتخلف، فدخل في نمط العمالة والولاية.

(396) المناقب المرزوقية، ص 171، 181، 184.
(397) نفسه، ص 140.
(398) نفسه.
(399) نفسه.

أبو يعقوب التفريسي	استبعد أحد طلبته أن يكون الشيخ يرى صور الجان، فبينما مجلسه ذات يوم غاص بالطلبة لقراءة العلم إذ دخل من بابه حنش عظيم فر الحاضرون منه، فقال الشيخ : دعوه دعوه، فقرب منه، وناوله من فيه براءة، فاستدعى الشيخ القلم والدواة وكتب بأسفل البراءة، وردّها إليه والناس ينظرون، فانصرف خارجا، فقال الشيخ: إن هذا من إخوانكم الجان بعثه إلينا أصحابنا من العراق بهذا السؤال فأجبناه. فكان خطابه بذلك للمستبعد رؤيتهم وقبره رحمه الله بباب وهب معروف بإجابة الدعاء عنده. (ص 107).	أن بعض الطلبة كان يحدث في نفسه أنه لا يراهم، وكأنه استبعد هذا، وتحدث في ذلك مع الطلبة، قال : فبينما هم مجتمعون في الحلقة، والجامع عامر، إذ أقبل حنشٌ عظيمُ الخلقة داخلا من باب الجامع، فنفر الناس، فقال لهم : دعوه. فلما قرب من الشيخ، تمسح بأثوابه، وناوله من فيه براءة. فطلب الشيخ الدواية والقلم، وكتب في البراءة، ودفعها له، والناس جميعا ينظرون، فولى خارجا، فقال لهم : هذا من إخوانكم الجان، بعثه أصحابه من العراق بهذا السؤال ليوسف، يعني نفسه، فأجابهم وكان خطابه للمتحدثين في طلب رؤيتهم، وهو عظيم القدر، والدعاء عند قبره مرجو الإجابة وقبره بالموضع المعروف بباب وهب، مشهور، ظاهر متبرك به.
أبو عبد الله ابن هدية	1- من ولد عقبة بن نافع الفهري القرشي، 2- عالم خير من أئمة اللسان والأدب، ذو بصر بالوثائق، مشهور الفضل والدين (ص 116).	1- وهو من ولد عقبة بن نافع القريشي الفهري، قديم الاستطان بتلمسان 2- أحد قضاة العدل، وأئمة اللسان والآداب، ونفوذ الأحكام، والبصر بالوثائق، غاية في ذلك كله، عفيفا طاهراً، دينا
القاضي أبو عمرو، عثمان ابن صاحب الصلاة	قتله عبد المؤمن بن علي بوصاة المهدي إذ قال له : "اقتله فإن صفير الصاد من قوله لي : "اشتغل بخويصة نفسك" في أذني حتى الآن. (ص 116).	أوصى به المهدي عبد المؤمن شراً، وقال إن صفير الصاد من قوله لي : "عليك بخويصة نفسك" في أذني فكان من شأنه ما ذكره المؤرخون

أبو عبد الله، محمد بن عيسى	1- من قدماء التلمسانيين أحد العارفين المتصرفين المتطورين، تارة تراه في زي الملوك، ومرة في زي الرهبان، 2- مات فاحتفل الناس في جنازته. فلما وضع على شفير القبر تساقط الطير عليه كالذباب على الشهد، أكثرها الخطاطيف، تختلف بين أرجل الناس حتى لكادت تمنع الحافرين من العمل (ص 117).	1- من أهل تلمسان القدماء، أحد العارفين المتصرفين المنظرين يصبح أياما وقد لبس أفخر الثياب مما يحاكي بلبسه الملوك، ثم يصبح أياما في مرقعة لا شيء دونها. ثم يصبح أياما مستحلا في كساء. 2- ورأيت خلائق ما شهده جميع من حضر جنازته. وكانت جنازة حفيلة لم يتخلف عن حضورها أحد، وأنه لما وضع على شفير قبره تساقط الطير عليه كما تساقط الذباب على الطعام، وأكثره الخطاطيف. ثم لما أدخل قبره تساقطوا عليه في القبر حتى منع الحافرين من أن يهيلوا عليه التراب، إلا بعد مدة. قال لي غير واحد ممن حضر : رأيت الحفارين يرفعون المساحة دون أن يصيبوا الطير،والطير مع ذلك تتوافى بين أقدام الناس.
أبو عثمان، سعيد، بن إبراهيم بن علي الخياط	متصوف تربى وربى وجلس على سجادة الإرشاد وألبس الخرقة على طريق أبي العباس الرفاعي وطريق السيد أبي مدين (ص 117).	من كبار المتصوفة، تربى وربى، وجلس على سجادة الإرشاد، ولبس الخرقة من طريق أبي العباس الرفاعي، ومن طريق سيدي أبي مدين.
أبو العباس أحمد بن الخياط	1- من الصلحاء الأعلام، تال لكتاب الله على علم به. 2- ثقفه السلطان أبو يعقوب المريني، فلما كبل تكسرت عنه القيود، والفي بالسجن أزيد	1- كان من الصلحاء الخيار، ومن العارفين بكتاب الله، التالين له، المتطورين. وله كرامات ظاهرة، 2- كان السلطان أبو يعقوب، لما حاصر تلمسان سجنه في القيود، فلما

	من سبعمئة رجل فأخذهم بالقراءة والصلاة، وكان الناس يقصدونه بالسجن لتجويد القرآن (ص 117-118).	سمرت عليه القيود انحلت، فأعيدت، فتكسرت فأمر بسراحه، فامتنع؛ فإنه لما دخل إلى السجن وجد فيه خلائق لا تحصى كثرة، فأرشدهم إلى الصلاة، وأمرهم بالقراءة، فتعلقوا به فسمعت من مشايخ أنه قرأ عليه نحو من سبعمائة نفس، وكان الناس يدخلون إليه من البلد للتجويد عليه.
أبو إسحاق إبراهيم بن علي الخياط	1- رجل صالح يعيش من الخياطة 2- كان يكثر الدخول على أمير المسلمين أبي يحيى يغمراسن بن زيان لقضاء حوائج الناس، فربما دخل عليه في اليوم الواحد سبعين مرة. فقيل لأمير المسلمين في ذلك، فقال : دعوه فهو رحمة للناس، وما قضى الله تعالى يقضيه. والله لا أبرمته 3- وقبره معروف بتلمسان (ص 118).	1- كان يتعيش بالخياطة، وكانت له حانوت يجلس فيها للخياطة، بموضعهم المعروف بهم الآن بالقبابين، من تلمسان. 2- حدثني شيخنا، أبو العباس، أحمد القطان، في آخرين، أنه كان لما يقصده أحد للتوسل به في قضاء حاجة، إلا قام معه. فربما دخل على السلطان المرحوم أبي يحيى في يوم سبعين مرة، مع نحوله ومرضه، وسلس كان به. فربما قيل للسلطان في ذلك، فقال : دعوه! هذا رحمة للناس. فما قضى الله يقضى، والله لا أبرمته ولا رددته. 3- وقبره معروف بتلمسان.
أبو الحسن، علي بن محمد الحمّال	1- من الصالحين المتبتلين، عالم مفت كبير القدر 2- كثيرا ما يقيم حال الضعفاء والواردين من حيث لا يعلم. (ص 118).	1- كان من الصالحين المتبتلين، ومن أهل الفتوة. 2- كان يجمع الضعفاء والواردين، فيقيم حالهم بداره.

أبو إسحاق، إبراهيم بن علي، ابن اللجام	1- من قضاة العدل والصرامة في الحق، وله خط بارع. 2- ذكر أن رجلا من خدام المملكة استنقصه بنسبته إلى لجام، فقال : 3- اللهم أره عزة الشرع. فبعد ثلاث جيء به سكران إليه، فأقام عليه الحد فكانت هذه من كراماته (ص 118).	1- كان من قضاة العدل، وأهل الصرامة والصلابة في الحق. وكان أشد الناس بصراً بالشروط والوثائق، وأبرعهم خطا 2- وحدثني غير واحد، أن السلطان، رحمه الله، ذكره في مجلسه، فقال كبير من كبراء حضرته يحقره، أليس هو ابن أناظ ؟، وهذه اللفظة، عند زناتة عبارة عن الحدّاد، أليس هو ابن حداد؟ يعني لشهرته بابن اللجام. فبلغه الخبر، فقال : 3- اللهم أدعوه للشرع. فما كان إلا نحو ثلاثة، وإذا به قد أوتي به سكراناً، فقال لهم السلطان : يحمل للشرع. فلما قام عليه الحد، قال له : ترى ابن أناظ أقام عليك الحد كتاب الله ؟ وكان ذا فراسة وخبرة.
أبو زيد عبد الرحيم بن أبي العيش	1- عالم متفنن ذو علم بالوثائق وخط بارع، 2- خطيب الجامع الأعظم بتلمسان وإمامه (ص 104).	2- خطيب الجامع الأعظم وإمامه، من كبار العلماء والبلغاء الفصحاء، وصدور الشهراء. كان يخط خطا بارعا، 1- وله نفوذ في علم الوثائق والشروط.
أبو عبد الله ابن البلد	1- الفقيه الصالح العاكف أبو عبد الله ابن البلد. 2- من كبار الأولياء المتقشفين. لم يعد لباس الصوف الخشن، وأكل الشعير من فضل صدقته بثمن ما ينتسخه بيده (ص 119).	1- الفقيه الصالح، أبو عبد الله ابن البلد. 2- كان من كبار الأولياء المتعبدين، يتعيّش بالنسخ، فإذا حصل له القدر الذي ينسخ به، تمسك منه بما يقوت به. وكان قوته الشعير والشحم، ويتصدق بالباقي.

أبو الحسن علي، ابن أحمد المعروف بابن الفحام	أعرف أهل زماننا بفنون التعاليم... (119).	فهو أعلم وقته الآن، والواحد في عصره في التعاليم،
أبي يوسف، يعقوب بن علي، الصنهاجي	1- من بني علا الناس بن حماد، صاحب القلعة، قانت ورع زاهد، صاحب كرامات. 2- شيخ أهل تلمسان في القراءات، 3- مستجاب الدعاء قبره ما بين الأسوار بالمرج، خارج باب الجياد، قرب الحفير، مزار مقصود (ص 119).	1- وكان رجلا قانتا، ورعا، زاهداً، صاحب كرامات. وكان من بني علا الناس، أصحاب قلعة ابن حماد الصنهاجيين. 2- وكان مبرزاً في القراءة والتعليم. قرأ عليه أكثر أهل تلمسان، وما قرأ عليه أحد إلا ونفعه الله به. 3- وكان مجاب الدعوة. وقبره بالمرج، ما بين الأسوار، خارج باب الجياد، وبمقربة من الحفير، بقصد التبرك به، والدعاء عنده.
أبو عبد الله، محمد بن أحمد، بن علي، بن أبي عمرو التميمي	1- أحد قضاة العدل والورع من بيت علم ورياسة من بيوتات افريقية المشهورين 2- أخذ ببلده عن الإمام أبي الطاهر بن سرور وغيره 3- نزل تلمسان بعد حصارها الأول، فولي قضاء وجدة ثم قضاء تلمسان فبرع وعدل وله تواليف أجلها ترتيب كتاب اللخمي على المدونة وتوفي في تلمسان حدود خمس وأربعين وسبعمائة (ص 131).	1- أحد قضاء العدل المشهورين بالعفة والطهارة والورع، على سنن من مضى من قضاة العدل، ...، من بيتات أهل إفريقية. 2- وكان قد تفقه في بلدة تونس، المحروسة، على الفقيه الإمام أبي الطاهر، بن سرورة تلميذ الفقيه أبي القاسم ابن زيتون، وقرأ على صدور من علماء بلده. 3- ورد على تلمسان بعد أعوام الحصار، وتقضى بوجدة، ثم نقل إلى تلمسان فوليها في مدة، وتأخر في مدة، فلم تزل حالة الولاية على حالة العزلة عنده في أحواله زيادة. صنف ودون، فظهر من تصانيفه "ترتيب كتاب اللخمي على المدونة"، وهو من

أبو الحسن علي، ابن أحمد المعروف بابن الفحام	أعرف أهل زماننا بفنون التعاليم... (119).	أحسن المصنفات. توفي عن سن تزيد على الستين، ودفن بمقربة من العباد، خارج تلمسان، المحروسة. وقبره هنالك مشهور معروف، في حدود خمس وأربعين وسبعمائة.
أبو القاسم بن أبي علي السبتي	1- مستوطن فاس اليوم، صدر من صدور العلماء، ومجالسي الملوك المتصرفين في رسائلهم. 2- أشد الناس حمية، وأكثرهم فضلا وإقداما ورجولة (ص 131).	1- سفير الملوك ولسان حضرتهم، وترجمان مساءلاتهم وأجوبتهم للواردين على مقاماتهم، وإمام المتصدرين بمشورته 2- كان أشد الناس حمية وإقداما ورجلة، إذا سخروا لم يتقلب، وهو مستوطن فاس المحروسة الآن.
أبو عبد الله المستاري، وابن أخيه، أبو محمد عبد الواحد	معلمان لكتاب الله عز وجل حسبة لله تعالى، وإمامان في الفرائض من الصلحاء الورعين (ص 118).	كانا من الصلحاء الأتقياء. شُهراً بالديانة والخير، وكانا يعلمان القرآن، ولا يأخذان عليه أجراً.

من خلال هذا الجدول يتبين جليا مدى التطابق بين المصدرين في المعلومات، وحتى في الصيغة والأسلوب. قد ترجم صاحب زبغية الروادس لتسعة ومائة (109) عالم من علماء تلمسان، قبل أن يضيف قائلا : "هذا ما أمكن الإلمام به من أسماء القوم سوى من أنجبته من الطلبة العراف والأمناء الثقات والصناع الحذاق في كل صنف"[(400)]. ومن المناسب أن نذكّر أن يحيى ابن خلدون قد انتهى من تأليفه سنة 777 هـ، أي بعد أربع عشرة سنة من تأليف "المناقب المرزوقية"[(401)]. إلا أنه لا يذكر ابن مرزوق ضمن مصادره. كما أن ابن مرزوق لا يحيل عليه في "المناقب المرزوقية". ومن المستبعد، على ما نعتقد، أن يحصل هذا التوافق والتوارد في بناء تراجم الكتابيْن وعرض موادها بهذه الصفة المتشابهة إلى حد التطابق في فقرات بعض التراجم. فمَنْ مِنَ الكتابيْن يمكن اعتباره أصل الآخر ؟ أم إن ابن مرزوق ويحيى ابن خلدون ينقلان عن مصدر

(400) بغية الرواد، 132، وانظر كذلك : د. مزاحم علاوي الشاهري، يحيى بن خلدون : حياته وكتابه، مجلة التاريخ العربي، العدد 18، الرباط، 2001، ص 331-346.
(401) المناقب المرزوقية، ص 311.

ثالث مجهول لدينا ؟ إن كان الأمر كذلك، فهل وقفا على كتابيْ ابن الأصفر وابن هدية، وعنوان كليْهما "تاريخ تلمسان" ؛ أو على كتاب "زهر البستان" ؟[402] نكتفي بطرح هذه التساؤلات، لأننا لا نستطيع في الوقت الحالي المجازفة بتقديم إجابة عنها، ولو على سبيل الفرضيات.

كيفما كان الحال، فقد حمل إلينا ابن مرزوق في هذا التأليف مادة خصبة قيمة، تمتاز عموما بدقتها، وعمق نظرتها؛ بل إنه في كثير من الأحيان يأتي بمعلومات جديدة أصيلة وطريفة، لا نجد أثراً لها في المصادر التاريخية الأخرى. وهذا ما سنوضحه في الفقرة المخصصة لقيمة "المناقب المرزوقية".

(402) انظر بغية الرواد، 56 (من مقدمة التحقيق).

الفصل الثالث

«المناقب المرزوقية»
ظروف تأليفها وقيمتها التاريخية

1) «المناقب المرزوقية» : تاريخ تأليفها

يرتبط تأليف "المناقب المرزوقية" بالمرحلة الأخيرة من حياة ابن مرزوق بالمغرب. فقد انتهى من تأليفه في أوائل سنة 763 هـ/ أواخر 1361م، حسب ما ورد في نهاية الكتاب[403]. ومن المعلوم أن اغتيال السلطان أبي سالم المريني قد تم يوم الخميس 21 ذي القعدة 762 هـ / 23 شتنبر 1361م، حسب الشهادة العيانيّة لأبي الوليد إسماعيل ابن الأحمر[404]. ومباشرة بعد ذلك تم حبس ابن مرزوق. وهذا يعني أن ابن مرزوق قد يكون شرع في تأليف "المناقب المرزوقية" مباشرة بعد إيداعه السجن، أو على أكثر تقدير خلال الأشهر الثلاثة التي تلت حبسه. ولا تشير المصادر إلى المدة التي قضاها ابن مرزوق مسجونا آنذاك. إلا أن بعض الدراسات الحديثة المختصة تشير إلى أنه لم يطلق سراحه إلا "بعد عامين"[405]، ليرحل بعد ذلك إلى تونس سنة 765 هـ /1363 م. والواقع أن مدة مكوثه في السجن تبدو لنا أقصر، ولم تتجاوز ثلاثة أشهر، وذلك إذا ما أخذنا بعين الاعتبار أن ابن مرزوق كان حراً طليقا قبل شهر ربيع الأول من سنة 763 هـ/ دجمبر 1361 يناير 1362م. إذ نجده قد غادر المغرب، لا باتجاه تونس -كما يُعتقد-، وإنما باتجاه الأندلس، حيث شارك في احتفالات المولد النبوي لسنة 763 هـ/ 13 دجمبر 1361م التي شهدها البلاط الغرناطي، وأنشد بين يدي السلطان النصري قصيدة مولدية كاملة تتكون من مائة وسبعة عشر بيتا، يؤكد أبو الحسن علي، نجل لسان الدين

(403) المناقب المرزوقية، ص 311.

(404) ابن الأحمر، روضة النسرين، 41 (يقول : "قتل رحمه الله وأنا أنظر إليه وأتوجع وأبكي يوم الخميس الحادي والعشرين لذي القعدة سنة 762 وله 28 سنة".

(405) ماريا خيسوس بيغيرا، المسند، 28.

ابن الخطيب، أنه حضر إنشاءها وإنشادها ليلة الميلاد الشريف في التاريخ المذكور[406]، ومطلع هذه القصيدة :

قُلْ لنسيم السَّحَرِ — لله بلِّغْ خَبري
إنْ أنت يوماً بالحمى — جررتَ فضلَ المئزر
ثم حثثتَ الخطوَ من — فوق الكثيب الأعفر
مستقرياً في عُشْبِه — مخفي وطء المطر
تروي عن الضحك في الـ — ـروض حديث الزهر

وبناء على ما سبق، يمكن القول أن تأليف "المناقب المرزوقية" قد تم ما بين شهر محرم وشهر ربيع الأول من سنة 763هـ/ نوفمبر 1361 – يناير 1362 م، أو بعده بقليل. ومن المؤكد أن ابن مرزوق قد سطرها وهو يجتاز مرحلة دقيقة "لا يعلمها إلا من قضاها، ولا يكشفها إلا خالق الخليقة ومولاها"، كما يقول بتأثر بالغ [407].إنها مرحلة مطبوعة بابتعاده عن أهله وكتبه. بل ثمة مؤشرات قد تدل على أنه سطر كتابه وهو بالسجن، إذ إنه يشير إلى معاناته، "لما كان عليه من الثقاف"[408]، ويستغيث بمولاه ويسأله أن "يخلصه من الامتحان، وتقلبات الزمان"[409]، وأن "ينقذ وحلته"[410]. بل إن كلمة زالخلاصس ترد بكثرة في كثير من أدعيته واستغفاراته التي بثها في مختلف فصول هذا الكتاب، نذكر منها على سبيل المثال :

"اللهم... خلّصني مما أنا فيه، وأنقذ وحلتي وذريتي، إنك على كل شيء قدير"[411]. أو : "اللهم... وخلصني خلاصاً جميلاً، وأنقذ وحلتي، واسترني وذريتي، يا رحيم، يا حليم"[412].

(406) نفح الطيب، 397/5 (في ص 402 يؤكد أبو الحسن علي، بن لسان الدين ابن الخطيب أنه حضر إنشاء هذه القصيدة وإنشادها ليلة الميلاد الشريف في التاريخ المذكور).
(407) المناقب المرزوقية، ص 141.
(408) نفسه، ص 141.
(409) نفسه، ص 173.
(410) نفسه، ص 221، 270.
(411) نفسه، ص 221.
(412) نفسه، ص 270.

إلا أن بعض القرائن تدل على أنه ألف كتابه بعد الإفراج عنه من السجن، وبعد أن تحقق له الخلاص. ومن هذه القرائن قوله : "وكان لي سلف صالح متجرد لطريق الآخرة ومُرتفع بهمته الكبيرة عن زينة الدنيا الفانية، كما أنه كان لي قبل التوغل في هذا المقام، الذي سبق القضاء الذي لا محيد عنه ولا انفصام، الانقطاع لخدمة الكتاب وسنته وكثير من العلوم الشرعية، ولله جلّ ثناؤه المنة، **ولا شك أن بركة هاذين الأمرين اللذيْن هما من فضل الله علي، كان الخلاص**، وبهما أرجو أن يكون لي في باقي عمري، بفضل الله، إلى خدمة المناص"[413].

وكيفما كان الأمر، فمن المؤكد أن المحن والنكبات التي كان يمر بها ابن مرزوق حينما عكف على تأليفه، قد أثرت في نظرته للعالم من حوله ولمصيره، كما أثرت في مضمون نص تأليفه الذي نحى به في اتجاه أخلاقي، حيث اتجه بالدرجة الأولى إلى إظهار مكانة سلفه داخل المجتمع الإسلامي عامة، وداخل المجتمع التلمساني خاصة، من خلال إبرازه للمنحى الزهدي في شخصيتهم، وإقحام عنصر الكرامة في ترجمتهم، وتثبيت ذالك كتابة.

والجدير بالذكر أن "المناقب المرزوقية" لم تكن آخر ما ألفه ابن مرزوق، وليست الكتاب الوحيد الذي أودعه شعوره بخيبة الأمل ومعاناته. بل إننا نجد أن ابن مرزوق يعيد الحديث في كتابه "جنى الجنتين في شرف الليلتين" عن نشأته وحياته، وعن المحن التي قاساها والغربة التي يشعر بها، وهجره الأهل والأحباب والأصحاب وكيف أصبح بئيسا، "يتحمل من الهموم الدنيوية أثقالا وأي أثقال، وكابد نكبات وعثرات من الدهر والطهور بالدنيا"[414]، قبل أن ينتقل إلى مدح مخدومه السلطان الحفصي، أبي إسحاق إبراهيم. كما نجد نفس نبرة التبرم من المحن التي انهالت عليه تتكرر في مؤلف آخر هو "تيسير المرام في شرح عمدة الأحكام"، حينما يقول في مقدمته : "أما بعد، فإني لما ابتليت بالمحن التي قطعتني عن ما كنتُ بصدده من الاشتغال بالعلم وخدمته، وملازمة من انقطع لجناب الله تعالى وجهته والتمسك بجاهه..."[415].

---

(413) المناقب المرزوقية، ص 138.

(414) ابن مرزوق، **جنى الجنتين في فضل الليلتين**، مخطوط الخزانة العامة بالرباط، ك 1228.

(415) ابن مرزوق، **تيسير المرام...**، مخطوط الخزانة العامة بالرباط، رقم 38 ق، ورقة 2.

2) «المناقب المرزوقية» : ظروف تأليفها

من البديهي أن يكون كل عمل وليد ظروفه، وأن تحدد تلك الظروف طبيعة معلومات التأليف ومحتوياته. ولئن كان ليس لدينا دلائل لمعرفة دواعي تأليف "المناقب المرزوقية" بصفة يقينية، إلا أن ذلك لا يمنع من البحث عن القرائن التي قد توضح لنا تلك الدواعي والظروف. ومن الجلي أن فلسفة الكتاب ليست قائمة على ذكر "مفاخر" الملوك، إذ إنه ليس من التآليف التي تهدى للسلاطين مداراة لهم وإظهارا لعهدهم في أجمل حلة، ولا من تلك التي كتبت للدلالة على ولائه لهم، أو ليبرهن من خلاله على سعة اطلاعه وبلاغته ؛ ولا من تلك التي يهدف المؤلف من ورائها نيل حظوة أو رضا أو عفو سلطان، أو استرجاع مجد أو منصب ضائع (نموذج "المسند الصحيح الحسن" لابن مرزوق نفسه).

وإذا رجعنا إلى مقدمة ابن مرزوق نفسه، وهي مصدرنا الوحيد المباشر لمحاولة بيان ما دفعه إلى تصنيف كتابه، نجد أنه أشار في مستهل الكتاب إلى مجموعة من الدوافع المتداخلة التي حدت به إلى الإقدام على ذلك، وهي دوافع تنتظم حول عنصر أساسي -في تقديرنا- هو عنصر "الاعتبار"[416] و"الاستبصار" بصروف الزمان وتقلباته ومصائبه. ذلك أن "الدنيا وأهلها وشأنها أبدا التغير والتحول والتبدل"، حسبما جرّب ابن مرزوق ذاته[417].

ولا تنفرد "المناقب المرزوقية" بهذا العنصر المحوري، وإنما نجده يتكرر في مؤلفات أخرى لابن مرزوق، كتبها بعد خروجه من المحنة، وهجرته إلى تونس. فهو يصرح مثلا في كتاب "جنى الجنتين" بأن ما أورده في ثنايا هذا الكتاب "من تقلبات الزمان وتغير الأحوال، والنكبات العارضة في دار المحن والانتقال، وموجب الهجرة والارتحال، فموعظة للواقف عليه وتذكرة"[418].

فهل تكفينا المقدمة كي نتوصل لمعرفة السبب الذي دفع ابن مرزوق في الحقيقة إلى تصنيف كتابه؟

---

(416) "رأيت أن أثبت في هذا المجموع سيرة من سلف لي من الصالحين، على الاختصار، لينزاح الاحتقار، بالاعتبار". المناقب المرزوقية، ص 138.

- "أوردت هذه الحكاية، والتي قبلها، مورد الاستبصار". المناقب المرزوقية، ص 190.

(417) ابن مرزوق، جنى الجنتين، م. س.، ص 2.

(418) نفسه، ورقة، 141.

لا نملك دليلا أكيدا يبين تاريخ شروع ابن مرزوق في تسويد كتابه هذا، إلا أنه يؤكد أنه انتهى منه في أوائل 763 هـ/ نوفمبر– دجمبر سنة 1361م، وهو يعاني من "الكرب المنصل"[419] بسبب ما يتعرض له من محن، ويشرح ابن مرزوق في مقدمة الأهداف والدواعي التي دفعته لكتابة تأليفه، وهي دواعي لها دلالة كبيرة في فهم محتوى الكتاب وبنيته وأهدافه، فيقول :

"وبعد، فإني لما ابتليتُ، والحمد لله على كل حال، بهذا الظهور الدنيوي الذي لم يصل إلى نوعه من عاصرني من صنفي من الرجال، حتى لقد ارتقيتُ خمسين منبراً من حواضر الإسلام، على ما هو معلوم عند أهل العصر من الخاص والعام، ثم انتقلتُ إلى ما لا بد منه بحسب العادة المظهرة في صدق الخبر الصحيح من الاستفال بعد العلو، والهبوط بعد الطلوع، والبُعد بعد الدنُو، فحلّت النكبة، والشكر لذي الجلال، ولو لا تأخير الأجل بسابق المقدور لخلت مني الخلال، فتقبضت النفوس بعد كمال الهشاشة، وتبهشرت الوجوه بعد طلاقة البشاشة، يرزقني باقي عمري الانقطاع إليه في كل سبيل"[420].

ويستحضر ابن مرزوق سيرة سلفه الصالحين المنقطعين للعبادة، والمبتعدين عن السلطة ورموزها، والنابذين للدنيا وزينتها، كما يستحضر سيرته وانكبابه على التحصيل العلمي قبل الارتماء في أحضان السلطة، قائلا :

"وكان لي سلف صالح متجرد لطريق الآخرة ومُرتفع بهمته الكبيرة عن زينة الدنيا الفانية، كما أنه كان لي قبل التوغل في هذا المقام، الذي سبق القضاء الذي لا محيد عنه ولا انفصام، الانقطاع لخدمة الكتاب وسنته وكثير من العلوم الشرعية، ولله جلّ ثناؤه المنة"[421].

وثمة دواعي تربوية دفعت ابن مرزوق لتأليف هذا الكتاب الذي أراده أن يكون مرشدا لأبنائه الصغار، ونبراسا لمعرفة مكانة أجدادهم، يقول : "ورزقت أبناء صغاراً، لا يعرفون ولا يُعرفون، ولا يألفون ولا يُولفون، ورأيتهم أنهم إنما عرفوا بما عرفت به من الظهور الدنيوي، وفي الذي تنقطع المعرفة بانقطاعه، تأكد عندي أن أثبت لهم من ذلك ما يعرفون به من سلف لهم"[422].

(419) المناقب المرزوقية، ص 311.

(420) نفسه، ص 138.

(421) نفسه.

(422) نفسه.

ويضيف في مكان آخر قائلا : "وخفت أن أنظر من حاشيتي إلى موتي لما تلوثت من الدنيا بعين الاحتقار، رأيت أن أثبت في هذا المجموع سيرة من سلف لي من الصالحين، على الاختصار لينزاح الاحتقار بالاعتبار، وليحتموا له نظراً إلى أصل هذا المنبع، وينظر إليهم بذلك المهيع، لما جاء أن الصالح يحفظ في ولده إلى سبعٍ"(423).

ولذلك فإنه يتوجه بهذا الكتاب لصغار أولاده بصفة خاصة لأن :

"ما أذكره من سيرة هذا السلف المبارك، وما تقرر لهم من السنن معروف عند الأكابر من أهل الوطن، العارفون بأخبار الناس، الباحثون عن مناقب أهل الفضل، المغضّون عن حفظ عثرات أهل الزلل"(424).

وقد نسج ابن مرزوق في تأليفه هذا على منوال بعض العلماء السابقين والمعاصرين له، يذكر منهم : "ابن خليل، والقاضي أبي عبد الله، ابن القاضي أبي الفضل عياض؛ وابن عبد البر، وشيخنا القاضي أبي البركات، ابن الحاج، وأمثالهم؛ وإن كنت لست في طبقتهم، ولا من سلف لي كمن سلف لهم"(425). ولم يكن ابن مرزوق أول من فكر في تدوين مناقب آل مرزوق، بل سبقه إلى ذلك بعض معاصريه، يقول : "وذكر القاضي الخطيب، أبو علي منصور، بن الفقيه القاضي أبي عبد الله، بن هديّة القرشي أنه جمع شيئاً من ذلك، ولو حصل بيدي شيء من هذا لكفاني عن التعرض لذلك"(426).

والمؤكد أن ابن مرزوق كان يمر بظروف عصيبة من حياته حين تأليفه لهذا الكتاب. فهو لم يجد ما ينهي به تأليفه سوى التبرم مما كان يعانيه من "الكرب المتصل". يقول : "وليكن هذا آخره [أي آخر التأليف] فقد اشتغلنا عن استيفاء الغرض ما دهيتُ به من الكرب المتصل، دفعه الله"(427) ثم إنه لا يتوقف، في مختلف فصول التأليف، عن التعبير عن ضيقه ومعاناته، ودعوة مولاه لإسدال رحمته عليه، وتخليصه من محنته، وكشف كربته : يقول مثلا : "ومن الله أسأل، بنور وجهه الكريم، وحرمة مولانا محمد، الرؤوف الرحيم، ذي الخلق العظيم، أن يمنّ عليّ من بركاتهم، ويشفعهم في، ويخلصني من الامتحان وتقلبات الزمان"(428).

(423) المناقب المرزوقية، ص 138.

(424) نفسه.

(425) نفسه.

(426) نفسه، ص 140.

(427) نفسه، ص 311.

(428) نفسه، ص 140.

بل يتمنى أن يكون باقي عمره مكرسا لخدمة مولاه... ويرجو أن ييسر عليه الانتقال إلى حرمه، وحرم رسول الله لقضاء ما تبقى من عمره.

ويتحسر على الزمن الذي كان يقضيه في الرباطات حيث "لا يسمع إلا كدوي النحل ذكراً وتلاوة"، ويندم على مفارقته لتلك المواضع، وتبديل "الحالات الشريفة" التي كان عليها بما أصبح "عليه من الحالات الخسيسة، والارتباط في وحل العصيان، والاختلاط بأهل سوق الخسران"(429).

ويستخلص ابن مرزوق أن تركه لتلك الأماكن هو سبب المحن الّتي انكبت عليه من كل صوب وحدب : يقول "وتركت الجميع، فكيف لا أعاقب بمثل هذه الشدائد"(430).

إلا أن الابتعاد عن الأماكن المقدسة لم يكن سببا وحيدا في معاناته ومحنته، وإنما هناك أسباب أخرى لا تقل أهمية فيما لحقه من محن وابتلاءات، وعلى رأسها تقربه من المخزن، والاشتغال في دواليب السلطة وهياكلها. ويكشف ابن مرزوق، في أكثر من موضع من مؤلفه، عن ندمه من خدمة الدولة ونزوعه إلى الدنيا. ومن جانب آخر يصور لنا مكاره الحياة السياسية ومكائدها، ورغبته في الراحة والذهاب إلى مكة وإيثاره للآخرة على الدنيا. وكان أبوه قد حذره من ذلك مرارا. يقول ابن مرزوق إن أباه كان يقول له : "يا بني ! ما لك وللسلطان ؟ أخوف ما أخاف عليك مخالطة السلطان. يكاد يكرر هذا الكلام كل يوم، وأنا أعجب من هذا، لصغر سني، وبعدي من هذا، [...] فها أنا في بحر الوحلة مرتبط، وفي خصرها مشتبك، وبسببها ممتحن، ومن أجلها، بعد العزة بجانب الله، ممتهن"(431).

وفي ترجمته للولي الصالح أحمد بن منصور ابن صاحب الصلاة يشير إلى أبنائه الذين تولوا الخطط والمناصب المخزنية، ويختم كلامه قائلا : "لكن فيهم من خالف، مثلي، طريق سلفه وتخلف، فدخل في نمط العمالة والولاية، لطف الله بنا أجمعين، وردنا إليه بفضله"(432).

ولم يكن ابن مرزوق الوحيد من بين أقرانه ومعاصريه الذين قلبت لهم دنيا السياسة ظهر مجنها. وإنما كان على شاكلته أحد تلامذته وأصدقائه المشهورين ؛ وهو لسان

(429) المناقب المرزوقية، ص 221.

(430) نفسه، ص 252.

(431) نفسه، ص 240.

(432) نفسه، ص 174.

الدين ابن الخطيب. فقد كتب هذا الأخير "رسالة في أحوال خدَمة الدولة ومصائرهم، وتنبيههم على النظر في عواقب الرياسة بعيون بصائرهم،... وخاطب بها الإمام الخطيب... سيدي أبا عبد الله ابن مرزوق"[433]. ولعل ابن مرزوق قد اتعظ بما جاء فيها من تحذيرات من ركوب قطار الدنيا، أو اتعظ، على الأقل، بمآل ابن الخطيب حينما علق على رسالته قائلا : "والعجب كل العجب أن جميع ما خطبني به -أبقاه الله تعالى- تحلّى به أجمع، وابتلى منه حذّر، فكأنه خاطب نفسه وأنذرها بما وقع له"[434].

ولقد وصلتنا مقتطفات من قصيدة شعرية يشرح فيها ابن مرزوق حاله بعد تكالب المحن عليه، ويصور لنا فيها تقلب الظروف، وتلون الدنيا وأهلها، مطلعها :

أرى من ساد بالدنيا عظيما ... يحف به الأقارب والأباعد
فإن دارت دوائرها تولى ... إذايته المساعفُ والمساعد[435]

وكان الامتحان شديدا كما يستدل من كثرة الأدعية وصيغ الاستغفار التي يوردها المؤلف في خاتمة عدد من الفصول. ونورد مثالين معبرين منها. يقول ابن مرزوق :

"اللهم إني رفعتُ أمري إليك، وعولتُ في إصلاح حالي عليك، يا منْ لا يعجزه شيء، فأنتَ موجد كل شيء، القادر على كل شيء، المتصرف في كل شيء، بإيجادك لكل شيء، وقدرتك على كل شيء، وتصرفك في كل شيء، خلّصني مما أنا فيه، وانقذ وحلتي وذريتي، إنك على كل شيء قدير، يالله، يالله، يالله. يا عماد من لا عماد له، ويا سند من لا سند له، ويا ناصر من لا ناصر له، ويا راحم من لا راحم له"[436].

"اللهم ردني إليك، ودلني عليك، وارحمني يوم وقوفي بين يديك، وخلصني خلاصاً جميلاً، وانقذ وحلتي، واسترني وذريتي، يا رحيم، يا حليم"[437].

(433) نفح الطيب، 145/5.
(434) نفح الطيب، نفسه، 153.
(435) ابن مرزوق، جنى الجنتين، مخطوط، م. س. ص 3.
(436) المناقب المرزوقية، ص 221.
(437) نفسه، ص 270.

3) مضمون المخطوط وقيمته التاريخية

لقد جرت العادة أن يقرظ كل محقق ما يقوم بتحقيقه، ويبرز أهميته ويوضحها بالنسبة للمصادر السابقة عليه أو المعاصرة له، أو اعتماد اللاحقين على ما أورده من معطيات وأخبار وشهادات. وحتى لا نبخس حق ابن مرزوق، أو ننزله منزلة غير منزلته، لا بدّ من الإشارة إلى أن المهتمين بتراثه قد وصفوه بكونه كان "شاهدا استثنائيا على عصره"[438]، وأن مؤلفاته – إلى جانب مؤلفات معاصريْه، ابن خلدون وابن الخطيب– هي "أصدق مرآة للمجتمع الذي عاشوا فيه"[439]. وهذا الحكم – الذي لا نجادل فيه، أو نشكك في صحته وانطباقه على الواقع التاريخي للمغرب في تلك العصور– استند على ما يوفره كتاب "المسند الصحيح الحسن" من معطيات تاريخية، ويمنحه من شهادات ثمينة لواقع الغرب الإسلامي في القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي عموما، ولواقع المغرب المريني خصوصا. ويأتي كتاب "المناقب المرزوقية"، ليؤكد هذا الحكم ويعضده بما يقدمه من جانبه للباحث من معطيات ثمينة وأصيلة التقطها ابن مرزوق وسجلها في معرض تأريخه لسلفه، أو لمن عاصرهم من العلماء، والأولياء، والسلاطين أرباب الدولة بالمغرب في العصر الوسيط، سواء تعلق الأمر بالدولة الزيانية أم بغريمتها المرينية. ذلك أن الحفر في ثنايا المتن المشكل لمجموع ابن مرزوق لتلمس المادة التاريخية التي انبنى عليها، يكشف لنا مدى ثرائه وغنى محتواه.

وإذا كان ابن مرزوق يصرح في "المسند" حينما تعرض لذكر جده لأمه، الشيخ الفقيه، والصوفي، أبي إسحاق التنسي، أنه : "لولا ما يجر ذكره من التزكية للنفس، لأوردت نبذا من أحواله وكراماته"[440]، فإن هدف "المناقب المرزوقية" وغايتها المعلنة هي، بالذات، التعرض لحياة سلفه والوقوف على أحوالهم وكراماتهم، العاكسة لزهدهم ولتدينهم ولصلاحهم، والمبرزة لمكانتهم ومرتبتهم الاجتماعية والدينية. إلا أن ابن مرزوق يتجاوز كثيرا هذا الإطار، عن طريق الاستطرادات، ليعالج مسائل ذات أهمية خاصة بالنسبة للمؤرخين. ومن هنا يصبح هذا المجموع مصدرا فريدا من نوعه، إذ يكتنز معلومات جديدة ومفصلة عن حياة ابن مرزوق وسلفه. بل إنه يقدم سيلا من الأخبار الدقيقة التي لم يحتفظ بها مؤرخو عصره، رغم اشتهار البعض بمراعاة الدقة في التسجيل. فنحن ندين لابن مرزوق بزخم من التفاصيل والدقائق عن أسرته وشخصه ومغامراته، في إطارها الاجتماعي العام.

(438) ماريا خيسوس بيغيرا، أخبار افريقية في المسند، ص 86.

(439) د. محمود بوعياد، تقديم للطبعة العربية لكتاب المسند، ص 8.

(440) المسند، ص 479.

لقد تناول الجد الرئيس في مجموعه، إضافة إلى ترجمة آل ابن مرزوق التي عززه بقسم كبير من الكرامات، تراجم ومناقب مجموعة من صلحاء تلمسان وبجاية وفاس وغيرها من الحواضر، وكذا الشيوخ الذين صادفهم في رحلته إلى الشرق، وقد تميزت هذه التراجم بالاختصار إلا فيما يخص بعض التراجم التي اتسمت بنوع من الطول، كترجمته للشيخ أبي عبد الله المرشدي، على سبيل المثال.

ولم ينحصر مجموع الجد الخطيب في التعريف بآل ابن مرزوق فحسب، بل امتد إلى عكس صورة المجتمع المغربي ككل، ذلك ن المؤلف يمزج بصفة تكاد تكون تلقائية بين الأحداث العامة والترجمة الشخصية، مقحما ضمنها طبيعة الثقافة، والعادات التي كانت سائدة قبل وخلال العصر الذي عاش فيه. فإذا ما حاولنا الوقوف عند الملامح الكبرى لهذا المجموع وجدناه ينفتح على آفاق رحبة وعميقة، فهو في سياق التعريف بسلف ابن مرزوق، يعكس كذلك البعد السياسي والثقافي والاجتماعي، وكذا الديني لبلاد المغرب، في هذه الفترة من حكم بني مرين، وما وقبلها.

ولعل قيمة المعطيات الجديدة التي يقدمها ابن مرزوق عن تاريخ الغرب الإسلامي في القرن الثامن الهجري نابعة من المصادر التي اعتمدها في هذا التعليق، وهي مصادر شفهية بالدرجة الأولى. فإذا كان الجد الخطيب قد اعتمد على ما يربو عن الخمسين مصدرا كتابيا في مسنده الصحيح [441]، فإن أغلب ما دونه في "المناقب المرزوقية" هو رواية لأحداث عايشها بنفسه، أو استقاها مما كان يدور على ألسنة معاصريه، ومما كان يحكيه بعض شيوخه وأقاربه.

ولعلنا لا نبالغ إن اعتبرنا "المناقب المرزوقية" من أغنى مصادر القرن الثامن الهجري المغربية وأصدقها من حيث مضمونها التاريخي، وبما تلقيه من إضاءات على زوايا ظلت معتمة من التاريخ الاجتماعي والروحي لبلدان الغرب الإسلامي. فهو يفيد، مثله في ذلك مثل كتاب "المسند الصحيح الحسن"، وإن بدرجة أقل، "مؤرخ الدولة الزيانية، ومؤرخ الدولة الحفصية ومؤرخ الشعور الديني عند الشعوب المغربية والأندلسية، والاختصاصي في التطورات الاجتماعية وغيرهم من الباحثين على اختلاف مقاصدهم" [442]. ولئن كنا نجاري الرأي القائل بأن دراسة تاريخ الغرب الإسلامي في القرن الثامن الهجري /الرابع عشر الميلادي "لا يمكنها أن تتم بدون معرفة المسند لابن

(441) Maria J. Viguera, *El Musnad : Hechos memorables de Abu l Hasan*, op. cit. p. 45.

(442) ابن مرزوق، المسند الصحيح... ص 6 (من تقديم د. محمود بوعياد).

مرزوق"[443]، فإن دراسة سلالة المرازقة وما أنجبته من أعلام، لا يمكن أن تكون شاملة ودقيقة دون الاطلاع على "المناقب المرزوقية". ولعل هذا المخطوط، الذي نكشف عنه، ونقدمه محققا لأول مرة، يسمح بتدقيق تاريخ المرازقة تدقيقا جيداً، ويملأ فجوات، ويصحح معطيات مغلوطة تكونت لدينا سابقا عن أسلاف ابن مرزوق الجد.

ويمكننا إبراز أهمية هذا التأليف في الفقرات التالية :

* على المستوى الذاتي : يقدم ابن مرزوق ترجمة ذاتية له ولأجداده، لعلها أوثق ما نتوفر الآن عليه، وأصحّها، وأصدقها. وبذلك فإن التعليق هو في الوقت الحالي المصدر الأول والأساس لدراسة سيرة المؤلف، ومعرفة جذور سلالته وأعلامها. ولولا هذا المصدر لبقي الغموض يلف الكثير من أعلام هذه الأسرة، ودورها في تاريخ الغرب الإسلامي.

* يسلط المؤلف أضواء على إقامة ابن رزوق ووالده بالمشرق، وعلى مناحي الحياة الروحية والاجتماعية والعلمية في كل من الحجاز ومصر.

* على مستوى الأحداث السياسية، يضم التعليق إشارات تاريخية ذات قيمة كبيرة لما تضمنته من معلومات جديدة عن العلاقة المرينية العبدلوادية، والمرينية الحفصية، وتلقي الضوء على بعض الوقائع، كحصار تلمسان والتدخل المريني بإفريقية، وواقعة طريف، وافتداء مدينة طرابلس، كما يذكر مجموعة من الوقائع الأخرى التي تفصح عما كانت عليه الأحوال في تلمسان وغيرها.

* وعلى المستوى الديني والثقافي، يقدم المخطوط لوحات رائعة عن الأنشطة الدينية والثقافية لفقهاء تلمسان وفاس، كما يطلعنا على انتشار الفكر الصوفي عبر تعدد رجالاته، ومختلف الأدوار التي أنيطت بهم داخل مجتمعاتهم، وعلاقاتهم بالسلطة المركزية مجسدة في السلاطين، أو بأعوانها (ولاة، جباة ضرائب...)، وسيادة بعض التقاليد والعادات المغرب، كزيارة الأضرحة للتبرك بالصالحين.

* أما من الناحية الاجتماعية فالكتاب وثيقة حية ترصد لنا من الداخل ما كان يعتمل داخل مجتمعات الغرب الإسلامي من صراعات ومخاضات، وما كان يسوده من قيم دينية وأخلاقية، وما تعرضت له من محن وجوائح، وما كان سائدا على مستوى أنماط

(443) المسند، ص 14 من مقدمة المحققة.

الغذاء والأطعمة[444]، وأشكال اللباس، وهي معلومات قلما نجدها مجتمعة في مصدر واحد من المصادر التاريخية التي وصلتنا عن بلدان الغرب الإسلامي. وتبعا لذلك يقدم لنا الكتاب باقة من المعلومات الطريفة حول الحياة اليومية للناس ببلاد المغرب في العصر الوسيط، وظروفهم المعيشية، وما يهجس في نفوسهم من مخاوف، وما يصيبهم من هول المجاعات والمحن...

* يقدم التأليف معطيات ثمينة حول الجغرافية التاريخية والاقتصادية لبلاد المغرب عامة ولبلاد المغرب الأوسط خاصة، بما يضمه من أسماء المنشآت العمرانية من أبواب ومساجد وأزقة وأرباض... تفيد في رسم الخريطة المجالية لمدينة تلمسان. كما يقدم لمحات عن الحياة الاقتصادية لتلمسان (حرف تقليدية، تجارة، صناعة...) وما أصابها من تدهور.

* يقدم التأليف شهادة عن تدهور الأوضاع الأمنية بالمغرب الأوسط، وانعكاس ذلك على الحياة العامة للسكان[445].

* إنه من النصوص التاريخية التي تكتسي راهنية بما تمده من جسور بين المغرب والأندلس وبين المغرب والمشرق، وبما قد تبلوره من تاريخ مشترك بين بلدان المغرب العربي. فالمؤلف، كما سبق وأن بينا، تونسي جزائري مغربي أندلسي (إن جاز لنا اقتباس التسميات الحالية)، ويمثل مسار حياته مظهرا "من مظاهر وحدة الثقافة بين دول المغرب العربي"[446].

* كما يعد الكتاب وثيقة تؤرخ للتواصل الحضاري والعلمي بين بلدان الغرب الإسلامي والمشرق الإسلامي عامة، وبين حواضر الغرب الإسلامي خاصة، وبين فاس وتلمسان على الأخص، من خلال ما يورده من تراجم أعلام فكر (شيوخ وتلامذة) كانوا مشاعل الثقافة على ذلك العهد، ومن عناوين مؤلفات أو مقررات دراسية. ويكفي للدلالة على ذلك أن نورد أسماء المترجم لهم من شيوخ جده أبي عبد الله محمد بن محمد بن أبي بكر ابن مرزوق، وأصحابه ومعاشريه، وهم

(444) انظر على سبيل المثال : المناقب المرزوقية، ص 159، 190، 197، 198، 222، 236، 246، 262... (بالنسبة للغذاء والأطعمة)، 158، 173، 185، 189، 224، 242، 276... (بالنسبة لأشكال اللباس).

(445) انظر على سبيل المثال : المناقب المرزوقية، ص 190.

(446) هذا عنوان لمقال د. محمد ابن شقرون، "**من مظاهر وحدة الثقافة بين دول المغرب العربي : الخطيب ابن مرزوق**"، مجلة المناهل، عدد 1، (د.ت.)، ص 128.

1) أبو زكرياء يحيى بن الصيقل، 2) أبو العباس أحمد بن منصور ابن صاحب الصلاة، 3) أبو عبد الله بن هدية، 4) أبو عمرو عثمان بن صاحب الصلاة، 5) الإمام أبو الحسن علي بن هنية، 6) أبو عبد الله محمد بن عيسى، 7) أبو عثمان سعيد بن إبراهيم بن علي الخياط، 8) أبو العباس أحمد ابن الخياط، 9) أبو إسحاق إبراهيم بن علي الخياط، 10) أبو الحسن علي بن محمد الحمال، 11) أبو إسحاق إبراهيم بن علي اللجام، 12) أبو عبد الله المستاري، 13) أبو محمد عبد الواحد المستاري، 14) محمد بن أبي زيد عبد الرحيم أبو العيش الخزرجي، 15) أبو زيد عبد الرحمان أبو العيش، 16) أبو عبد الله بن البلد، 17) أبو عبد الله المعروف بالحاج فرج، 18) أبو يعقوب يوسف التفريسي.

وفي ترجمة أبيه أحمد ابن مرزوق، يورد ترجمة 23 عَلَماً، هم :

1) أبو يوسف يعقوب بن علي الصنهاجي 2) أبو محمد عبد الواحد المستاري، 3) ابن آجروم 4) عبد الرحمان بن يحيى الأبدي 5) أبو الحسن على الصغيّر 6) أبو زيد عبد الرحمان بن زاغو 7) أبو محمد خلف الله 8) أبو إسحاق إبراهيم القاري 9) أبو محمد عبد المهيمن الحضرمي 10) أبو عمران الزريهي 11) أبو عبد الله المليلي 12) أبو عبد الله بن عبد الرزاق 13) أبو العباس المكناسي 14) ابنا الإمام أبو زيد وأبو موسى أبي شكيان 15) أبو محمد عبد الله بن عبد الواحد المجاصي 16) أبو عبد الله بن هدية القرشي 17) أبو عبد الله محمد بن أحمد التميمي 18) أبو علي حسن بن يوسف بن يحيى الحسيني السبتي 19) أبو عبد الحق المستاري 20) أبو يعقوب يوسف بن الغماز البادسي 21) سليمان السائح 22) أبو زيد عبد الرحمان للهزميري 23) أبو محمد عبد الهادي.

أما في ترجمة جده لأمه، أبي إسحاق إبراهيم بن يخلف التنسي، فنعثر على تراجم شيوخه وأصحابه، وهم :

1) الشيخ أبو مظهر وضاح بن عاصم، 2) بلال الحبشي، 3) أبو عبد الله بن يعقوب، 4) أبو الحسن الشاذلي، 5) أبو فارس عبد العزيز بن كحيلة، 6) أبو علي ناصر الدين المشدالي، 7) شمس الدين الأصبهاني، 8) شهاب الدين القرافي، 9) سيف الدين حنفي.

هذا فضلا عن عدد كبير من التراجم التي وردت بصفة عرضية، ولا تخلو بدورها من أهمية بالنسبة للمؤرخين ولغيرهم من الباحثين.

إن هذه الاعتبارات لا تستنفذ أهمية مضمون الكتاب، **فهو يظل زاخراً بالمعلومات الأخرى** التي قد يستفيد منها مختلف الباحثين في شتى التخصصات العلمية الإنسانية، لما يحتوي عليه من معطيات حول الواقع الاجتماعي، والديني، والسياسي، والاقتصادي، والروحي، والثقافي، لمجتمعات الغرب الإسلامي إلى حدود القرن الثامن الهجري.

4) «المناقب المرزوقية» في الدراسات الحديثة وفي المصادر القديمة

من نافلة القول أنه لم يرد ذكر للمناقب المرزوقية، أو حتى الإشارة إليها، في أية دراسة من الدراسات الكثيرة عن ابن مرزوق الخطيب، باستثناء إشارة يتيمة وردت في إحدى هوامش الباحثة المختصة، الدكتورة ماريا خيسوس بيغيرا، تقول فيها أن هناك كتابا خاصا في ترجمة حياة أبي العباس أحمد ابن مرزوق (أي والد مؤلفنا) عنوانه "**مناقب أحمد بن مرزوق**" (هكذا)، قبل أن تضيف قائلة : "لا نعرف كاتبه"[447]. فلم يشر إليه أصحاب فهارس المؤلفات والكتب العربية ولا نبهوا عليه. فلم يذكره حاجي خليفة في كشف ظنونه، ولا إسماعيل باشا في ذيله على كشف الظنون، ولا ابن سودة في دليله، ولا كحالة في معجمه، ولا بروكلمان في تاريخه، ولا الكتاني في فهرس فهارسه، ولا غير هؤلاء من المستشرقين والباحثين في التراث العربي الإسلامي عامة، والتراث المغربي خاصة.

أما المصادر التي اعتنت بترجمة ابن مرزوق وبتعداد مؤلفاته، فإنها لا تشير إلى هذا التأليف بتاتا. في حين أن بعض المصادر التي نقلت عنه، تلميحا أو تصريحا، لا تورد عنوانا له. فأحمد المقري ينقل في كتابه "نفح الطيب" عن ابن مرزوق في ترجمة الشيخ المرشدي، ويصدّر نقله بعبارة : "قال الخطيب المذكور، رحمه الله، في بعض تعاليقه، ما صورته..."[448]. في حين ينقل أحمد بابا التمبكتي في "نيل الابتهاج" عن "المناقب المرزوقية" ويقول : "ورأيت له [– ابن مرزوق] في بعض المجامع ما ملخصه..."[449]، وهي نفس العبارة التي نجدها على لسان أبي القاسم محمد الحفناوي، صاحب كتاب "تعريف الخلف برجال السلف"[450].

(447) **المسند**، ص 18 هامش 19 من مقدمة التحقيق.

(448) **نفح الطيب**، ج 5/416-417. وانظر كذلك ابن مريم، البستان، ص 188.

(449) **نيل الابتهاج**، ص 454.

(450) **تعريف الخلف**، ص 144.

أما الحافظ محمد بن عبد الله التنسي، فيقول في القسم المطبوع من كتابه "نظم الدر والعقيان..."، في ترجمته لأبي إسحاق التنسي : "له كرامات عديدة، عرّف بها ابن الخطيب بن مرزوق"[451]، دون أن يذكر في أي كتاب، في حين نقل ابن صعد، صاحب كتاب "النجم الصاعد..." عن "المناقب المرزوقية" دون أن يفصح عن عنوانها، إذ يقول في ترجمة أبي يعقوب يوسف التفريسي : "قال السيد الخطيب ابن مرزوق...". وبعد أن يورد إحدى كراماته يقول : "قد اتفق على نقل هذه الكرامة عنه الشيخان الخطيب ابن مرزوق والقاضي المقري : قال ابن مرزوق ..."[452].

أما ابن مريم صاحب كتاب "البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان"، فمن الثابت أنه ينقل عنه في أكثر من موضع، لكن دون أن يسميه ؛ وأحيانا ينبيه للمجهول، مثلما هو الحال حينما نقل مقاطع من ترجمة أبي إسحاق إبراهيم بن يخلف التنسي، وختمها بقوله : "هكذا نقلتُ هذه الترجمة من بعض المجاميع"[453]. وفي ترجمة ابن مرزوق يقول صاحب "البستان" : "قال هو، أعني صاحب الترجمة، في بعض تعاليقه : ومن أشياخ والدي سيدي المرشدي..."[454].

5) المخطوطتان المعتمدتان في التحقيق

يقوم تحقيق هذا المجموع على نسختين مخطوطتين من المخطوطات التي نالت جائزة الحسن الثاني للمخطوطات والوثائق. ولئن كنت لم أستطع الوصول إلى نسخة ثالثة، على الرغم مما قمت به من بحث في الخزائن المغربية، وفي فهارس المخطوطات، واستشارة نخبة من العلماء والباحثين الملمّين بالمخطوطات المغربية وبالكتب التراثية العربية عن ذلك؛ فإنني لا أستبعد أن تكون هناك نسخة أو نسخ قابعة بالخزائن المغربية أو الجزائرية أو غيرها.

النسخة الأولى : توجد ضمن مجموع رقمه 919، مركز فاس، سنة 1979، الرقم المسلسل 2، الرقم الخاص 20 وتقع في خمسين ورقة (مائة صفحة)، خطها مجوهر جميل في منتهى الجودة والأناقة، وهو لم يتغير من بداية النسخة إلى نهايتها، تحتوي

---

(451) **التنسي، نظم الدر والعقيان**، ص 127.

(452) ابن صعد، **النجم الثاقب**، الجزء الثامن، مخطوط الخزانة الداودية رقم 53 صح ن، ورقة 112.

(453) **البستان**، 68.

(454) **نفسه**، 188.

كل صفحة على أربعة وعشرين سطرا، في كل سطر 18 كلمة تقريبا[455]. كتبت عناوين فصولها بخط مغلط، كما كتبت بعض كلماتها، أو الحرف الأول من الكلمات، بخط بارز وكبير وأكثر سواداً. والنسخة قليلة الأخطاء، سواء الأخطاء النحوية أو الأخطاء الإملائية، فقد نالت من عناية الناسخ الشيء الكثير، ويبدو أنه كان من العلماء المعتنين. فقد راجع ما كتب بإمعان ودقة، فقلما نجد صفحة من الصفحات خالية من الطرر، أو التصحيحات، وحتى من بعض التعليقات، التي نرجح أنها من عمل الناسخ لتشابه الخط بين كتابة النسخة وكتابة التصحيحات. فنحن إذا بصدد نسخة توفرت لها أسباب الجودة وحسن الضبط، بل إن ناسخها يختم عمله مؤكدا : "انتهى ما وجدته مقيدا، حرفا حرفا"، إلا أنها نسخة غير كاملة، إذ سقطت منها الورقات الأولى المتضمنة لخطبة الكتاب (وهذا ما جعل مفهرسي المخطوط يعنْوِنُوه– خطئا– بـ "فهرسة ابن مرزوق "عجالة المستوفز المستجاز..")، كما سقطت من وسطها بعض الورقات، كما يدل على ذلك اختلال الرقاص. ولقد اعترى ترتيب ترقيمها خلط كبير، نتيجة اختلاط أوراقها بأوراق مكتوبة بنفس الخط، تبين من خلال قراءتها، عدم ارتباطهما بهذا المجموع، وإنما هي من كتاب "أنس الفقير وعز الحقير" لابن قنفذ القسنطيني. وقد أتت الرطوبة على أعلى صفحات هذا المخطوط، أما البلل فقد ظهر أثره في عدد كبير من الورقات، وجعل بعض السطور، وأحيانا بعض الكلمات، صعبة القراءة. كما أن الأرضة أكلت بعض أطرافها وخرمتها، وخاصة الصفحات 35-36-37-38-39. وتنفرد هذه النسخة بملحق بعناوين مؤلفات ابن مرزوق الجد، ومؤلفات ابن مرزوق الحفيد، لا تتضمنهما النسخة الثانية.

وقد رمزنا إلى هذه النسخة في التحقيق بحرف "ب"

النسخة الثانية : تقع ضمن مجموع يحمل رقم 3 تازة، سنة 1996 (وأصلها بخزانة الأستاذ محمد النجاري بتازة). وتقع في إحدى وستين ورقة (مائة وإثنا عشرة صفحة). خطها زمامي سريع ورقيق، يتسع حجمه في بعض الصفحات (ص 32، 52، 55 مثلا) أو يتغير نسبيا (مثلا ص 49، 60...) دون أن يعني ذلك أنها كتبت بأكثر من قلم واحد. في كل صفحة 23 سطر، معدل السطر 13 كلمة، وهي نسخة كاملة، بها خروم كثيرة

(455) لم يُسمح لي بالاطلاع على النسختين الأصليتين من المخطوط، وإنما تصفحت شريطهما (microfilm) فقط بالمكتبة العامة بالرباط، ولذلك لم أستطع التعرف على مسطرة ورقات المخطوطتين، ومسطرة المكتوب داخلها.

أصابت بعض الكلمات منها أو بعض الحروف أحيانا، وتآكلت في مواطن متعددة بفعل الأرضة، وخاصة في أعلى صفحاتها. وقليلة هي طررها، وبها ما يشهد على سهو ناسخها، إذ سقطت أسطر بكاملها من نسخه، وتُركت فراغات في بعض الأماكن، وشُطبت بعض الكلمات. وقد كتبت عناوين بعض الفصول بخط بارز وكبير، كما غلظت بعض الكلمات والحروف الأولى لبعض الكلمات أو الكلمات الافتتاحية (مثل : ورأيت، وأخبرني، قلت، نوع، ومن معاصريه، وكان...إلخ). ونجد في أسفل الصفحات رقاصا يهدينا إلى أول كلمة في الصفحة الموالية. أما ترقيمها فهو حديث وليس من عمل الناسخ. ولقد أفادتنا هذه النسخة كثيرا في تجاوز ما اعتور النسخة الأولى من اضطراب في ترتيب صفحاتها. وحينما توصلنا بهذه النسخة، تبين لنا أن أكثر الكلمات التي بذلنا جهدا طويلا من أجل قراءتها في الصفحات المخرومة في النسخة الأولى، مكتوبة بكل وضوح في هذه النسخة، وأن أكثر الكلمات التي لم نتوصل إلى كشف فحواها مسطورة في ثنايا هذا المخطوط بكل جلاء ووضوح.

ورمزنا إليها في التحقيق بحرف "أ"

ويبدو من النسختين أنهما نقلتا من أصل واحد. فكلاهما تنتهيان بالفقرة التالية :

"وجدت بهذا المحل من الأصل المنتسخ منه : كمل بحمد الله، وحسن عونه، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، وسلم تسليما، على يد العبد الفقير إلى مولاه، يوسف، بن عبد الرحمان، بن يوسف الهبري، لطف الله به. نسخه عن عجل، شبه تبييضا، للأخ الأجل الماجد، الأفضل الأحب، سيدي أبي عبد الله، بن أحمد، بن بوغالب، ابن مرزوق، لطف الله به، بتاريخ عشية الخميس، بعد صلاة العصر، متم عشرين من جمادى الثانية، عام سبعين وثمانمائة [870 هـ]، عرفنا الله خيره، بمنه وكرمه. آمين، وغفر لنا ولجميع المسلمين. انتهى بحمد الله تعالى وحسن عونه، وصلى الله على مولانا محمد النبي الكريم، وعلى آله وصحبه وسلم تسليما".

ولم أقف على ترجمة للناسخ (يوسف بن عبد الرحمان بن يوسف الهبري) ولا للمنسوخ إليه (أبو عبد الله، بن أحمد بن بوغالب ابن مرزوق) في المصادر التي عدت إليها.

إلا أن النسخة "ب" تحمل، إضافة إلى هذه الفقرة، فقرة أخرى نجد بها اسم ناسخها وتاريخ النسخ ومكانه، وهي التالية :

"يقول كاتبه لنفسه، ثم لمن شاء المولى سبحانه، من بعده، عبيد الله، أحمد، بن عبد الرحمان، بن عثمان، التجاني :

قد انتهى، بحمد الله، جميع هذا الديوان المبارك، من أوله إلى آخره، وصلى الله على سيدنا محمد، وصحبه، وسلم تسليما، وذلك يوم الأربعاء، ثامن شعبان المبارك، سنة ثلاث وألف سنة، كل ذلك بالثغر الأصيلي، عمره الله عز وجل، بمنه وكرمه ويمنه، آمين، آمين، آمين، آمين".

ولا ندري إن كانت عبارة "الأصل المنتسخ منه" تحيل على نسخة المؤلف الأصلية، أم أنها تحيل على غيرها. إلا أننا لم نقف في كلتا النسختين على عبارة الترحم على المؤلف.

6) عملنا في التحقيق

إن صيانة النص والحفاظ على سلامته وإخراجه على الصورة التي تسهل الرجوع إليه والاستفادة منه فيما بعد، أمر تفرضه الأمانة العلمية. ولتحقيق هذا الغرض شرعت في البحث في مختلف الفهارس المعروفة وذلك للحصول على نسخ أخرى للمقابلة والضبط. إلا أنني لم أهتد إلا إلى النسختين المعتمدتين في هذا التحقيق، فقمت بتركيب نسخة ملفقة منهما، قائمة على ملاحظة الفروق من زيادة أو نقص بين النسختين، دون اعتماد إحداهما أصلا، لتكاملهما. وقد استفرغت جهدي في العناية بالنص وضبطه ومقابلته وإخراجه بصورة مقبولة عموما، شكلا ومضمونا، متبعة الخطوات التالية :

* أشرت إلى ما يوجد في كل واحدة من النسختين من سقط أو تحريف أو تصحيف أو غلط أو اختلاف أو زيادة.
* حافظت على النص الأصلي كما هو، إلا في بعض الحالات التي عملت فيها على تصويب تحريف أو تصحيف، أو إضافة كلمة يقتضيها المعنى، قدّرنا أنها سقطت من النص، مع الإشارة لذلك في الحاشية.
* وعملت في بعض الأحيان (القليلة) على مقابلة نص النسختين مع ما جاء في بعض المصادر الأخرى، وتخريجها وإثبات الاختلافات بينهما وتصويب بعض الكلمات أحيانا.
* أدخلت في النص علامات الوقف، وجزأته فقرات بحسب ما يقتضي ذلك، تسهيلا لقراءة فصوله، ولتمييز ما جاء فيه من معطيات.

* التزمت بقواعد الرسم الإملائي الحديث، مثل : مونة– مؤنة، ونلقا، نلقى، وليلا، لئلا، وعثمن، عثمان...إلخ، دون أن أشير إلى ذلك في هامش التحقيق.
* وثقت الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، على قلتها.
* أضفت إلى هوامش تحقيق النص هوامش وحواشي أخرى وتعليقات تتضمن معلومات حول أعلام الأشخاص والأمكنة والأحداث التاريخية، والكتب الواردة في الكتاب، وكل ما يتطلب مزيدا من الإيضاح أو التدقيق، معتمدة في ذلك في أكثر الأحيان على المطبوع من كتب التراجم والتاريخ.
* كما عملت على تتبع الإشارات التاريخية والدينية، وعملت على وتوضيح سياقها التاريخي.
* وضعت طائفة من الفهارس لتيسير الاستفادة من النص المحقق.

* * *

بعد هذه المسيرة الطويلة مع "المناقب المرزوقية"، في دراستها وتحقيقها، التي لم تخل من مشقة ومصاعب، لا ندعي أننا استوفيناها حقها من الدراسة والتمحيص، ولا نزعم أن الخلاصات التي توصلنا إليها في دراستنا هي خلاصات "مطلقة"، وإنما هو منتهى ما أوصلنا إليه مقدار جهدنا القاصر واجتهادنا المتواضع، وكان مدار الأمر فيها على الاجتهاد في قراءة النص وتلمس بعض "مضمراته". وما نطمح إليه هو أن يكون هذا النص المحقق، الآن، ودراسته التمهيدية حافزيْن للدارسين والمهتمين بالتراث المغربي للقيام بتوضيح جوانب أخرى، أغفلتها دراستنا أو قصرت في معالجتها. والله الموفق للصواب.

القسم الثاني

التحقيق

باسم الله الرحمان الرحيم، وصلى الله على سيدنا محمد...

يقول عبد الله، محمد بن أحمد، [بن محمد(1)]، ابن مؤلف هذا المجموع، محمد بن أحمد، بن محمد بن محمد بن أبي بكر بن مرزوق العجيسي، غفر الله له ولأسلافه :

وقع إلينا هذا المجموع وقد نقصتْ منه الخطبة، ويشبه أن يكون ما نقص منه حتى يصل بما وجد :

"الحمد لله الذي لا يزلّ من لاذَ بعزِّه المنيع، ولا يضلّ مدى الأبد من اتبع هداه ولا يضيع، ولا يُهان من أمَّ باب كرمه بلا حاجب دونه ولا شفيع، أحمدهُ وهو سبحانه لمن حمده سميع، وأشكرهُ ولست لشكر أدنى نعمه بمستطيع، وأشهد أنّ لا إله إلا الله وحده لا شريك له، بديع السموات والأرض، تعالى الله من بديع، رفيع الدرجات، ذو العرش سبحانه ما أجلّه من رفيع، وأشهد أن محمداً، صلى الله عليه وسلّم، عبده ورسوله الرحمة للأبِيّ والمطيع، صاحب المقام الأسنى، والمنصب الأسمى، والجناب الفسيح، والفناء الوسيع، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وأكرم به وبهم من هاد وتبيع، صلاة وسلاماً دائمين ما تدب في الآذان بالترجيع، وأبان لسان التبيين عن حر أبي وقلب سجيع".

وبعد، فإني لما ابتليتُ، والحمد لله على كل حال، بهذا الظهور الدنيوي الذي لم يصل إلى نوعه من عاصرني من صنفي من الرجال، حتى لقد ارتقيتُ خمسين

(1) كذا في النسختين. ويبدو أن [بن محمد] الموضوعة بين معقوفتين، زائدة. لأن المقصود هو ابن مرزوق الحفيد، المتوفى سنة 842 هـ/1439م. وهو : أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد ابن مرزوق الخطيب. (انظر : أبو الحسن على القلصادي الأندلسي، **رحلة القلصادي**، دراسة وتحقيق محمد أبو الأجفان، تونس، 1985، ص 96 ؛ ابن مريم التلمسان، **البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان**، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، 1986، 200 ؛ **نيل الابتهاج**، 499 ؛ **الضوء اللامع**، 50/7 ؛ **ثبت الوادي آشي**، 293 ؛ برنامج المجاري، تحقيق محمد أبو الأجفان، بيروت، 1982، 134، ابن مرزوق، "**المسند الصحيح الحسن في مآثر مولانا أبي الحسن**"، تحقيق د. مارية خيسوس بيغيرا، الجزائر، 1982، 54، والمصادر المثبتة في الهامش 2).

منبراً من حواضر الإسلام[2]، على ما هو معلوم عند أهل العصر من الخاص والعام، ثم انتقلتُ إلى ما لا بُدّ منه بحسب العادة المظهرة في صدق الخبر الصحيح من الاستفال بعد العلوّ، والهبوط بعد الطلوع، والبُعد بعد الدنُوّ، فحلّت النكبة، والشكر لذي الجلال، ولولا تأخير الأجل بسابق المقدور لخلت مني الخلال، فتقبضت النفوس بعد كمال الهشاشة، وتبهشرت الوجوه بعد طلاقة البشاشة، وحضر هلاكي لولا منّ الله مولاي بلطفه الجميل، وإياه أسأل أن يرزقني باقي عمري الانقطاع إليه في كل سبيل، وكان لي سلف صالح متجرد لطريق الآخرة، ومُرتفع بهمته الكبيرة عن زينة الدنيا الدنيّة الفانية، كما أنه كان لي قبل التوغل في هذا المقام، الذي سبق القضاء الذي لا محيد عنه ولا انفصام، الانقطاع لخدمة الكتاب والسنة، وكثير من العلوم الشرعية، ولله جلّ ثناؤه المنة، ولا شك أن ببركة هاذين الأمرين اللذيْن هما من فضل الله عليّ، كان الخلاص، وبهما أرجو أن يكون لي في باقي عمري، بفضل الله، إلى خدمة المناص، وخفتُ أن أنظر إلى حاشيتي إلى موتي لما تلوثت به من الدنيا بعين الاحتقار، رأيت أن أثبت في هذا المجموع سيرة من سلف لي من الصالحين، على الاختصار، لينزاح[3] الاحتقار بالاعتبار، ويحتموا له نظراً إلى أصل هذا المنبع، وينظر إليهم بذلك المهْيع، لما جاء أن الصالحَ يحفظ في ولده إلى سبعٍ، وما أذكره من سيرة هذا السلف المبارك، وما تقرر لهم من السنن معروف عند الأكابر من أهل الوطن، العارفون بأخبار الناس، الباحثون عن مناقب أهل الفضل، المغضّون عن حفظ عثرات أهل الزلل، ورزقتُ أبناء صغاراً، لا يعرفون ولا يُعرفون، ولا يألفون ولا يُولفون، ورأيتهم أنهم إنما عرفوا بما عرفتُ به من الظهور الدنيوي، وفي الذي تنقطع المعرفة بانقطاعه، تأكد عندي أن أثبتَ لهم من ذلك ما يعرفون به من سلف لهم. واقتديتُ في ذلك بفعل جماعةٍ من

---

(2) نفس المعطيات يوردها ابن مرزوق بتفصيل في **المسند** (ص 487) مع تدقيق أنه ارتقى "أحدا وخمسين منبرا في بلاد شتى من أقصى المغرب ووسطه وعدوة الأندلس والزاب وإفريقية، فما من قاعدة وحضرة ملك في هذه البلاد إلا وعلوت على منبرها". ولما ثقفه الوزير عمر بن عبد الله بفاس كتب ابن مرزوق كلاما من جملته : "أفلا يُراعي لي ثمانية وأربعين منبرا في الإسلام شرقا وغربا وأندلسا ؟" (**البستان**، ص 187، وورد كذلك في **كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج**، م. س.، ج 91/2، وفي **نيل الابتهاج**، ص 453).

(3) أ : ليُزاح

أئمتنا، رضي الله عنهم، كابن خليل[4]، والقاضي أبي عبد الله[5]، ابن القاضي أبي الفضل عياض[6] ؛ وابن عبد البر[7]، وشيخنا القاضي أبي البركات، ابن الْحاج[8]، وأمثالهم ؛ وإن كنتُ لست في طبقتهم، ولا من سلف لي كمن سلف لهم.

---

(4) لعله محمد بن عبد الرحمان بن محمد بن عمر المالقي ثم المكّي المشهور **بخليل المالكي**. إمام المالكية بالحرم الشريف. اتخذ مكة دار إقامته وقلّ ما ترد على المدينة قافلة إلا وهو معهم، كان يواسي الفقراء ويتداين لأجلهم. توفي سنة 760 هـ/ 1359م. يصفه ابن مرزوق بالإمام العلامة، ويضعه في مرتبة والده. (سيرد ذكره لاحقا). وانظر كذلك : **المسند**، ص 483-484 ؛ ابن بطوطة، **الرحلة**، 388/1 ؛ **أزهار الرياض**، 74/5 ؛ **نفح الطيب**، 534/2 ؛ **شجرة النور**، 222).

(5) أبو عبد الله بن أبي الفضل **عياض** : محمد بن عياض بن موسى اليحصبي السبتي أبو عبد الله، قاضي كأبيه من أهل سبتة دخل الأندلس، وتوفي بغرناطة سنة 575 هـ/ 1179 م. وقد خصص كتابا لسيرة والده، وقد حققه الدكتور محمد بن شريفة وأصدره بعنوان "**التعريف بالقاضي عياض لولده أبي عبد الله محمد**"، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، مطبعة فضالة (د. ت).

(6) عياض بن موسى اليحصبي السبتي. (ت. 544 هـ)، عالم المغرب. ترجمته مفصله تجدها في : **التعريف بالقاضي عياض**، م. س،.. وانظر كذلك : **قلائد العقيان**، 2555-258 ؛ **بغية الملتمس**، رقم 1269 ؛ ابن الأبار، **التكملة**، ج 694/2 ؛ **وفيات الأعيان**، 483/3-485 ؛ **الإحاطة**، 230/222/4 ؛ **أزهار الرياض** (بجميع أجزائه)؛ **جذوة الاقتباس**، 498/2-499 ؛ حسن الوراكلي، **أبو الفضل القاضي عياض السبتي (ثبت ببليوغرافي)**، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1994.

(7) أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النمري القرطبي. فقيه حافظ عالم بالقراءات والخلاف الفقهي وعالم بالحديث ورجاله. كثير الشيوخ. أخذ عنه جلة. تآليفه كثيرة منها : **التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، والاستذكار لمذاهب علماء الأمصار فيما تضمنه الموطأ من معاني الرأي والآثار، والاستيعاب، والكافي، والدرر في اختصار المغازي والسير، والعقل والعقلاء** وغيره. توفي سنة 463 هـ/1070م انظر ترجمته في : **جذوة المقتبس**، 586/2 ؛ **المدارك**، 808/3 - 27/8 ؛ **الصلة** لابن بشكوال، 641/2 ؛ **وفيات الأعيان**، 348/2 ؛ المغرب في حلى المغرب، 407/2).

ولا نعرف الكتاب المشار إليه في المتن. ولعله "تأليف في أصول أنساب الأمم من العرب والعجم" المشهور بالقصد الأمم. وتوجد نسخة منه بخزانة الإمام عبد الجبار الفكيكي، (ذ : بنعلي محمد بن بوزيان، "**من نوادر المخطوطات بخزانة الإمام عبد الجبار الفكيكي**"، دعوة الحق، عدد 260، نونبر 1986،ص 66).

(8) **أبو البركات**، محمد بن محمد بن إبراهيم، بن محمد بن أبي إسحاق ابن الحاج السلمي، البلفيقي الأصل. ألمَري النشأة والولادة والسلف: الإمام العلامة قاضي الجماعة بحضرة غرناطة، الصالح الزاهد. رحل إلى بجاية ثم عاد فقعد بمجلس الإقراء من مالقة ثم رحل إلى فاس ثم عاد إلى الأندلس واستقر ببلده **ألمرية** فقعد بمسجدها الجامع، حتى وفاته سنة 771 هـ/1369م. له "**الإفصاح فيمن عرف بالأندلس بالصلاح**" و"**ما اتفق لأبي البركات، فيما يشبه الكرامات**" وغيرها من المؤلفات.(انظر : الإحاطة 148/2 ؛ **رياض الورد**...، تحقيق د. جعفر ابن الحاج السلمي، ج 1، دمشق، 1993، ص 137-174 والمصادر المذكورة هناك).

وكان بعض أصحابنا قد تعرض لهذا الغرض، فصنّف فيه، لكنه لم يحصل بيدي منه شئ، كالفقيه الصالح، أبي الحسن علي بن عبد الواحد المسيلي، والفقيه القاضي أبي عبد الله محمد بن حسن بن هنيّة، والفقيه يعقوب البرشَكي(9). وذكر القاضي الخطيب أبو علي منصور(10)، بن الفقيه القاضي أبي عبد الله، بن هديّة القرشي(11) أنه جمع شيئاً من ذلك، ولو حصل بيدي شيء من هذا لكفاني عن التعرض لذلك.

ومن الله أسأل، بنور وجهه الكريم، وحرمة مولانا محمد، الرؤوف الرحيم، ذي الخلق العظيم، أن يمنّ(12) عليّ من بركاتهم، ويشفعهم فيّ، ويخلّصني من الامتحان وتقلبات الزّمان، وأن يردّني إليه ردّاً جميلاً، وأن يستعملني فيما بقي من عمري في خدمته، وأن يشملني حياً وميتاً برحمته، وأن ييسّر عليّ الانتقال إلى حَرَمه، وحرم رسول الله، صلى الله عليه وسلم، بفضله ومنِّه(13)، إنه جواد كريم.

---

(9) لم نقف على ترجمته. ويبدو أنه ينتسب إلى مدينة برشك التي كانت تقع على شاطىء البحر بين شرشل وتنس ولم يبق لها أي أثر الآن، وهي مسقط رأس الفقيهين العالميــن أبي زيد عبد الرحان وأبي موسى ابني الإمام.

(10) أبو عبد الله محمد بن منصور بن علي بن هدية القرشي، يقول عنه ابن مرزوق في ترجمته الآتية أنه "أحد قضاة العدل وأئمة اللسان والأدب ونفوذ الأحكام ونفوذ بالوثائق"، ونفس الأوصاف، بنفس العبارات يطلقها عليه معاصره يحيى ابن خلدون، الذي يضيف قائلا : "وله تواليف جمة في فنون شتى". ولكن هذه التواليف تعد في عداد المفقود، ومنها كتاب بعنوان **"تاريخ تلمسان"** لا نعرف عنه شيئاً. ورد منسوبا إليه في "كاتالوغ" مخطوطات مكتبة برلين. ويقول عنه أحد المهتمين بتاريخ الجزائر الثقافي: " عندما راسلناهم في شأنه أجابنا أصحاب المكتبة بأن واضع الكاتالوغ قد يكون فقط اطلع عليه، ولكنهم الآن لا يملكون شيئا من ذلك" (د. أبو القاسم سعد الله، **أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر**، ج 3، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1990، ص 283-284. وقد أفادني – مشكورا – الأستاذ المطلع، عبد العزيز الساوري، أنه عثر مؤخرا على كتابين له، الأول بعنوان **"مشرع الخاتم على مشروع الخاتم"** (مخطوط بالأسكوريال، بدأ تأليفه أبو عبد الله، ولما اخترمته المنية أكمله ابنه أبو علي)، والثاني بعنوان **"العِلق النفيس في شرح رسالة ابن خميس"**، يعكف على تحقيقه محمد علال سيناصر، عضو أكاديمية المملكة المغربية، وسيصدر عن دار الغرب الإسلامي) .ترجمة أبي عبد الله بن هدية، انظرها في : **بغية الرواد**، 116 ؛ **تعريف الخلف**، 561 ؛ **البستان**، 225 ؛ **نفح الطيب**، ج 234/5 ؛ **أزهار الرياض**، ج 48/5-49).

(11) أبو علي منصور بن محمد بن منصور بن علي بن هدية. ولي قضاء تلمسان بعد أبيه الفقيه أبو عبد الله بن هدية المتوفى أواسط سنة 735 هـ، وتولى الخطابة بالجامع الأعظم من أجدير: **بغية الرواد**، 116-117 ؛ **الإحاطة**، ج 289/1 ؛ **نفح الطيب**، 234/5 ؛ **أزهار الرياض**، ج 48/5-49).

(12) في ب : يمنن.

(13) ب : ومننه.

ورأيت، بحول الله، أن أصل بذكر الجدّ، رحمه الله، من عاصره وعاشره من صلحاء وقته، وعلماء زمانه، على سبيل الاختصار، وكذلك لمولاي الوالد، رحمه الله، ذكراً جُملياً، لأن معرفة المواليد والوفيات، وتعيين الأشياخ وغير ذلك مما يجب ذكره، لم أجد لمعرفة ذلك سبيلاً، لما أنا عليه من الثقاف، ومفارقة ما كسبته من الكتب وكتبته، ومفارقة جميع الأهل وذهاب سائر ما ملكته، وأنا في حالة لا يعلمها إلا من قضاها، ولا يكشفها إلا خالق الخليقة ومولاها، وهو على كل شيء قدير، لا إله إلا هو، ولا معبود سواه، ورتّبتهُ على فصول.

فصل
[في النسبة والقبيل الذي يرجع إليه]

أما النسبة : محمد بن أحمد بن محمد بن محمد بن أبي بكر، ابن مرزوق، بالقاف يكتبه والدي، رحمه الله تعالى. وجدّه محمد ووالده وأبو بكر، بالجيم، لأنهم ينطقون بهذا الحرف بين الجيم والقاف، لغة العرب الآن في القاف. ورأيت هذا الحرف بخط بعض عدول أهل بلدنا القدماء بالكاف[14]، وهذا هو الجاري على لسان الشيوخ من أهل بلدنا، وهكذا ينطقون بهذا الإسم بوادي أهل تلمسان من زناتة، وغيرهم في كل من تسمى بهذا الإسم.

وأما النسب، فرأيت بخط جدي الأقرب، نفع الله به : العجيسي. وكذلك في رسوم قديمة، لا شك عندنا في ذلك. وعجيسة قبيلةٌ من زناتة، معروف مكانها منها[15]. وهم متفرقون في بلاد المغرب، من أقصى بلاد افريقية إلى أقصى بلاد المغرب، وبالأندلس منهم جماعة. وقد ذكرهم ورفع نسبهم لقيس لجماعة[16] منهم. وهكذا كان يكتب ابن عمنا، الفقيه الكاتب، أبو محمد التلمساني[17]، وكان أحد الكتاب الكبار بمدينة تونس، حاطها الله تعالى ؛ كتب عن الدباغ[18]، ثم ناب عنه في الحجابة، فكان يكتب : القيسي. وكان والدي، رحمه الله، يعتبه على ذلك. وسيأتي ذكره، إن شاء الله، عز وجل.

---

(14) في ب : بالقاف.

(15) **عجيسة** : قبيلة بربرية استقرت أواخر القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) جنوب بجاية في ضواحي قلعة بني حماد. ويقوا ابن خلدون أن مدلول هذا الإسم : البطن، فإن البربر يسمون البطن بلغتهم "عدّس" فلما عربتها العرب قلبت دالها جيما مخففة، وكان لهم بين البربر كثرة وظهور، وكانوا مجاورين في بطونهم لصنهاجة وفي القبائل بالمغرب كثير من عجيسة، هؤلاء مفترقون فيهم (العبر، 145/6).

G. Marçais, *Les Arabes en Berbérie*, Paris, 1913, p. 285.

(16) كذا في النسختين.

(17) توفي بتونس في حدود سنة 722 هـ كما سيذكر ابن مرزوق لاحقا.

(18) أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن الدباغ : تقلد الحجابة سنة 697 هـ/1297م لدى السلطان الحفصي أبي عصيدة. (انظر : الزركشي، **تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية**، تحقيق الحسين اليعقوبي، المكتبة العيقة، تونس، 1998، ص، 121، 118).

فصل

وأما ما بعد مرزوق، فلم أتلقه من والدي، ولا من عمّي[19]، رحمه الله تعالى، وإنما وقفت على شئ منه بظهر كتابَ، لم أنقله لعدم الوثوق به. والذي تحققتُه من والدي، ومن عمّي، ومن خاصة والده، الشيخ الصالح، الثقة الصدوق، الصوفي المؤرخ المتبتل، أبي العباس، أحمد بن إبراهيم، المعروف بابن القطان[20]، رحمه الله تعالى، وغيرهم، أنهم لم يتلقوا من جدي الأقرب إلا مرزوق ابن الحاج، هذا هو المحقق عندنا. وتلقيتُ منهم أن مرزوقـ[ـاً] هذا ورد على تلمسان مع أخويْه شقيقيْه، خُلوف، بضم الخاء المعجمة واللام ؛ ومعافى، من مدينة القيروان[21]. وكانت مواطنهم وأملاكهم بجبل بظاهر القيروان، يسمى بـ"ويسلات[22]. وكان ورودهم على تلمسان أيام حصران لمتونة لها[23]، خرجوا

(19) هو الحاج أبو عبد الله محمد بن محمد بن مرزوق، الشيخ بالعباد، أمه فاطمة بنت الشيخ أبي زيد عبد الرحمان ابن النجار. وقد تزوج ست الملوك بنت الهواري، وكانت قبله تحت السلطان أبي حمو موسى بن عثمان حسبما يشير ابن مرزوق لاحقا. وقد ورد ذكره في "**المسند**"، ص 463.

(20) لم أقف على ترجمته. ومن خلال ما يورده ابن مرزوق في هذا التقييد يتضح أن ابن القطان كان في شبيبته ضعيفا محتاجا، لأنّ والده توفي وخلفه صغيراً، فنفذ ما ترك له، وبقي يتسبب بالخياطة، وبالسفر. وتزوج بنت أبي عامر. وكان أبو عامر هذا من الأولياء الصلحاء الخطباء. وكانت بينها وبين ابن القطان قرابة من جهة الأم. وقد تحرف بالتجارة عملا بنصيحة أبي عبد الله محمد بن محمد بن أبي بكر بن مرزوق. وقد سكن ابن القطان في دار متصلة بدار ابن مرزوق، وهو الذي ربى والده، واختص بخدمة جده لأبيه وجده لأمه، وقد حج بيت الله الحرام.

(21) هاجرت عائلة مرزوق من القيروان أواخر القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) على عهد المرابطين، عقب نزول عرب بني هلال بها. (ابن مرزوق، **المسند**، م.س.، ص 15 ؛ يحيى ابن خلدون، **بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد**، ج 1، تحقيق د. عبد الحميد حاجيات، الجزائر، 1980، ص 114).

(22) **جبل وسلات**. أسيلاطوم عند الرومان، وممطور عند العرب. (يسمى أسلات حاليا): جبل يوجد على بعد اثني عشر ميلا من مدينة القيروان فيه عدة عيون، منه كان يجلب ماء الشرب إلى القيروان (الحسن الوزان، **وصف إفريقيا**، تعريب محمد حجي ومحمد الأخضر، ط 2، ص 90 والهامش).

(23) زحف جيش الأمير يوسف بن تاشفين على تلمسان سنة 468 هـ، وكان تحت قيادة الأمير مزدلي اللمتوني (ابن عم السلطان). وكان أمير تلمسان يومئذ العباس بن يحيى المغراوي أمير زناتة. ويؤكد ابن عذاري أن القائد المرابطي دخل تلمسان "في مهلة وحال هدنة" (انظر : **البيان المغرب**، ج 4، ص 29).

من القيروان لمزعج أزعجهم[24]، فاستوطنوا تلمسان، وبنوا بها حين بنى الناس بالبلد العليا، محاصرين لتلمسان القدمى[25]، وكانوا حجاجاً يعرفون بأولاد الحاج.

فأما معافى فلم يعقب، وأما خلوف فآخر عقبه الفقيه الكاتب أبو محمد التلمساني المذكور قبل، وكانت وفاته بتونس، في حدود اثنين وعشرين وسبعمائة. فإنا لما وردنا تونس سنة أربع وعشرين صحبة والدي، رحمه الله، اجتمع إليه جماعة من أصحابه التونسيين المستوطنين بها، وأثبتوا له تعصيبة، وكان قد خلف داراً بسويقة الجرو[26]، ولها باب آخر لشارع لبرّ الروم، وجناناً كبيراً بالمنهلة، بجانب جنان الدباغ[27] وكتبا وناضاً[28] وجواري، وغير ذلك. فامتنع والدي، رحمه الله، منه، وتورع عن أخذه، والحديث فيه. ردّنا الله، فيما بقي من عمرنا إليه، ومع ذلك لم أحصل منه على طائل.

وأما بنو الصبان المستوطنين برباط أسفي، فلا أحقق لمن ينتمون من أبناء خلوف. إلا أن عمي، رحمه الله تعالى، أخبرني أنهم يجتمعون معنا في النسب، ويغلب ظني أنه قال لي، من جهة خلوف. وهم يذكرون أنهم يجتمعون معنا في مرزوق، والله أعلم. وهم ثقة[29] وديانة وأمانة، لا ينقلون إلا ما يثبت ويتحقق.

فصل

أما مرزوق، رحمه الله تعالى، فكان مشتغلا بالبادية بفلاحته وحراثته، وابتنى داراً بتلمسان، بالموضع المسمى بمرسى الطلبة، وسيأتي، إن شاء الله، ذكره. وكان بدوياً مقبلاً على شأنه، نفعه الله.

---

(24) لعل ذلك مرتبط بزحف قبائل بني هلال على القيروان (**المسند**، ص 15).

(25) بعد سيطرة المرابطين على تلمسان، بنى يوسف بن تاشفين مدينة جديدة في غربها، واتخذها مقرا لحاشيته، وأطلق عليها اسم "تاكرارت" أو "تاجرارت"ز، وتعني المحلة أو المعسكر بلسان صنهاجة (**بغية الرواد**، ص 91-170) وسميت أيضا بتلمسان **الحديثة**، أو العليا (**نظم الدر والعقيان**، ص 125).

(26) **سويقة الجرو** : سقاية أنشأها السلطان أبو الحسن في مدينة تلمسان.

(27) في أ : بجانب الدباغ.

(28) الناض : النقود العينية.

(29) كذا في النسختين. والأضبط أن يقال : وهم أهل ثقة.

وأما ولده محمد، المكنى بأبي بكر، الذي غلبت كنيته على اسمه، فكان متردداً إلى بيت الله الحرام، وبهذا كان مشتهراً ومحترفاً، فلم يزل على ذلك إلى أن توفي(30). وكان مشهوراً بالخير، مقصوداً بالدعاء، رحمة الله عليه.

وأما ولده أبو عبد الله الأكبر، فكان قد اشتغل بالقراءة، وغلب عليه علوم القرآن. وكان مصحفيا، يكتب المصاحف التي كان الناس يتنافسون فيها على طريقة أهل الأندلس . وأدركت منها ربعةً أربعة أرباع، غاية في الحسن، خطاً وضبطاً، لا تبعد من خط الغَطُّوسيّات(31)، قد كتب فيها اسمه، ضاعت في دخلة تلمسان، سنة سبْع وثلاثين وسبْعمائة(32). وكان مع ذلك تاجراً، وبها يتمعَّش. وكانت له في حداثته حانوت بالقيسارية ينسخ فيها القرآن، ويبيع السلع. ورأيت تخططه في رسوم قديمةٍ بالفقيه الأمين ؛ وفي بعضها، بالأمين الصالح، وأشك في حجّه. وتوفي بتلمسان، وقبره بالمقبرة المعروفة بمسند صالح، تحت الباب المعروفة بباب زيري، عن يمين المار بتلمسان القدمى، حيث قبر أبيه وجده، رحمة الله عليهم.

---

(30) من أعلام القرن السادس الهجري / الثاني عشر للميلاد، ولم أهتد إلى تاريخ وفاته بالضبط.

(31) **الخط الغطوسي** : خط اشتهرت به أسرة ابن غطوس الأندلسية، وإليها ينسب، واستعمل في كتابة المصاحيف خاصة، وقد اعتبره صاحب "**فرحة الأنفس**" من فضائل أهل الأندلس. ويقول عنه ابن سعيد الأندلسي، وقد رآه في مصاحف ابن غطوس الذي كان بشرق الأندلس أنه "حسن فائق، ورونق آخذ بالعقل، وترتيب يشهد لصاحبه بكثرة الصبر والتجويد" (**نفح الطيب**، ج 151/3) وممن اشتهر من أسرة ابن غطوس ببراعة الخط، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن علي بن مفرج بن سهل الأنصاري ابن غطوس (توفي في حدود 610 هـ)، الذي "شاع عنه أنه نسخ من كتاب الله عز وجل ألف نسخة.... وتنافس الناس على طبقاتهم : الملوك فمن دونهم فيما يوجد من خطه"، وخلف في ذلك أباه وأخاه... (**الذيل والتكملة**، السفر 6، تحقيق إحسان عباس، بيروت، 1973، ص 314-315). وقد رأى الصفدي لابن غطوس أكثر من مصحف، وقال إنها "شيء غريب في حسن الوضع ورعاية الرسوم، ولكلِ ضبط لون من الألوان لا يُخلّ به : فاللازورد للشدّات والجزمات، واللّكّ للضمات وللفتحات والكسرات، والأخضر للهمزات المكسورات، والأصفر للهمزات المفتوحات" (الصفدي، **الوافي بالوفيات**، 351/3-352) ؛ وانظر مقال الدكتور محمد بن شريفة، "**نظرة حول الخط الأندلسي**"، ضمن كتاب : المخطوط العربي وعلم المخطوطات، تنسيق أحمد شوقي بنبين، فضالة، المحمدية، 1994، ص 82-83.

(32) هي سنة اقتحام جيش السلطان أبي الحسن المريني لمدينة تلمسان، عاصمة الزيانيين. وكان ذلك يوم الأربعاء 28 رمضان 737 هـ/2 مايو 1337 (**بغية الرواد**، ص 146).

فصل

[أبو عبد الله محمد بن محمد بن أبي بكر بن مرزوق][33]

وأما الصالح، الولي العارف، الكبير القدر، أبو عبد الله[34]، جدي الأقرب، الذي هو بركة هذا البيت ووسيلتهم، وإمام أهل وقته وقدوتهم، فمولده بتلمسان العليا بدار أبيه، وهي التي كانت قد اغتصِبت قديما، وتورع والدي، رحمه الله، عن أخذها بعدُ، ثم أخذتها أنا في أيام خاتمة ملوك المغرب، السلطان أبي الحسن[35]، رحمة الله عليه. وسيأتي ذكره، إن شاء الله تعالى، ويعرف بدار ابن مرورة بالبيت الجوفي الكبير منها، في حدود تسع وعشرين وستمائة.

وأمّه : زينب بنت الشيخ الصالح، أبي إسحاق إبراهيم بن محمد الدلايلي، أحد الصلحاء، وهو الذي بنى الدار المعروفة إزاء دار أبيه المتقدم ذكرها. قرأ، رضي الله عنه، القرآن العظيم على جماعة من مشيخة عصره، وسنذكر، إن شاء الله، بعضهم عند ذكر مشايخه وأصحابه. واشتغل بقراءة الفقه والحديث، ثم اشتغل آخراً بكتب التصوف، وانقطع للعبادة، وتخلى وتجرّد، وكان من شأنه ما يذكر، بحول الله تعالى.

وكان والده موسوعا عليه، وكذلك جده لأمه. مات والده وخلفه صغيراً، ثم مات جده لأمه، وكان ذا مال، فورثته ابنته، وورثها هو، رضي الله عنه. ونشأ في خير وعبادة. وكان وسيما يضرب به المثل، فأسرع الناس للمصاهرة إليه. فصاهر إليه الفقيه أبو عبد الله الكتاني، وكان كبير بلده، وصاحب المشورة فيها، والمفوض إليه من قبل ملوك الموحدين بني عبد المؤمن بتلمسان؛ فأنكحه ابنته، وأقامت معه مدة، وولدت له ولديْن، كبرا وقرءا القرآن، ثم اخترما، وتوفيت أمهما، رحمة الله على الجميع، قبلهما، وخلفت أموالا طائلة، فلم يتماسك، رضي الله عنه، لولديه منها ولا لنفسه، من متروكها بخردلة. وكانت من الصالحات.

---

(33) العنوان الموضوع بين معقوفتين هو من وضع المحققة.

(34) عُرف بمحمد الثاني المتوفى سنة 681 هـ 1282م.

(35) أبو الحسن علي بن عثمان بن يعقوب بن عبد الحق (692 - 752هـ) أشهر سلاطين بني مرين. وأبعدهم أثرا في الحضارة والعمران. بويع في ذي القعدة سنة 731 هـ. عرف عند العامة بالسلطان الأكحل. ثار عليه ابنه أبو عنان فارس، ومات حزينا سنة 752 هـ عند بني عامر في جبل هنتاتة. ولهذا السلطان آثار معمارية كثيرة بالمغرب الأقصى والأوسط وبالأندلس خلدها ابن مرزوق في كتابه "**المسند الصحيح الحسن في مآثر مولانا أبي الحسن**" السابق الذكر.

أخبرني شيخنا، أبو العباس ابن القطان، وعمي، رحمه الله تعالى، أنها كانت ملازمة للعبادة مع زوجها، رحمه الله تعالى، مقتصرة على ما يقتصر عليه من القوت، متورعة عن أكل طعام أبيها، مباعدةً لأهلها.

وأخبراني أن خادماً من خدمها توجهت ليلة لدار أبيها، فسألها عن عشاء ابنته وزوجها، فقالت له الخادم : أما نحن، فتعشينا، وأما مولاتي وسيدي، فما أظنهما طُبخ لهما عشاء. فكانت بين يديْه مائدة بأطعمة، فوجهها للحين، وذلك قبل أن يعرف حالها. فلما دخل بالمائدة، سألت عن السبب لتوجيهها، فأخبرتها الخادم، وكانت الخادم موهوبة لها من أبيها. فلما كان من الغد، وجهتها لدار أبيها، وأعتقتها، وقالت : ما جزاء الخادم التي تتحدث بأخبار المرأة مع زوجها إلا الإخراج! فلما علم والدها حالها، خلى سبيلها.

وأخبراني أن والدها كان يخرج للموضع المعروف بالكهف الضحاك، ويسكنه بدار الموحدين منه، وهو من أعظم المواضع، وأحسن المتنزهات التي يضرب بها الأمثال، وذكرت شعراء تلمسان، ويستدعي ابنته للخروج، فتفرد بنفسها، نفعنا الله عز وجل.

فصل في حاله وابتداء أمره

كان، رضي الله عنه، يلازم في ابتداء أمره، علماء عصره، كشيخ المحدثين، الإمام الحافظ، أبي زكريا يحيى بن محمد بن عصفور العبدري[36]، صاحب الإمام أبي بكر بن العربي[37]، وأصحاب القاضي أبي عبد الله بن عبد الحق[38]، صاحب

(36) **بغية الرواد**، 114.

(37) محمد بن عبد الله بن **العربي** المعافري الإشبيلي، القاضي أبو بكر (توفي بفاس سنة 543 هـ) الحافظ المستبحر، وإمام من أئمة الفقه المالكي. رحل إلى المشرق مع أبيه سنة 485 هـ ولقي أبا بكر الطرطوشي وأبا حامد الغزالي. بلغ رتبة الاجتهاد في علوم الدين عامة. له مؤلفات منها : أحكام القرآن، وقانون التأويل، وسراج المريدين، وعارضة الأحوذي. (**الصلة** لابن بشكوال، ص 558 ؛ **بغية الملتمس**، 92 ؛ **المرقبة العليا**، 105؛ **جذوة الاقتباس**، 160. **شجرة النور**، 136 ؛ وانظر : سعيد أعراب، **مع القاضي أبي بكر ابن العربي**، دار الغرب الإسلامي، بيروت).

(38) هو الفقيه المحدث أبو عبد الله محمد بن **عبد الحق** بن سليمان اليعفري الكومي التلمساني. الفقيه المحدث المحقق القاضي. ولي قضاء تلمسان مرتين. توفي بتلمسان سنة 625 هـ (**بغية الرواد**، 112 ؛ ابن الأبار، **التكملة** ؛ **ألف سنة من الوفيات**، 70).

الكتاب "المختار"[39]، وبقي صاحب الصلاة، وسيأتي إن شاء الله ذكرهم ؛ وجدي للأم الإمام المصنف، الشهير القدوة، أبي إسحاق إبراهيم بن يخلف بن عبد السلام التنسي[40]، ونظرائهم[41] ؛ أول نهاره، ثم يرجع إلى منزله لمطالعةٍ ونسخٍ، يصوم نهاره، ويحيي ليله، ويقطع بقية اليوم وطول ليله في عبادةٍ. فاشتهر، فتخلى وانقطع.

فصل

في ابتداء ظهور حاله، واشتهار أمره، ومعرفة الملوك به

أخبرني جماعة لا أحصيهم كثرة، وهي من القضايا المتواترة المعروفة عند قدماء أهل تلمسان، أن سبب اشتهاره أن رجلا كان يتردد إليه بمرافق البادية، من جبل بني ورنيد[42]، فوق العُبّاد[43]، توفي وخلف ولده وزوجته، فكان يتردد إلى الشيخ بالحطب والفحم وما يحتاج إليه في البادية. فسعى قوم من قبيلهم في الولد لوزير السلطان أبي يحيى يغمراسن[44]، بما يوجب سفك دمه، وأخذ مالهم ظلما. فسجن الولد، فجاءت أمه وهي ملتهفة، قد ذهب عقلها، وعيا صبرها، فشكت إليه أمرها، فدعا لها، فقالت له : ما أريد منك دعاء، وإنما أريد منك أن تكلم لي السلطان. فقال : ما لي وللسلطان ؟ ومن أين أعرفه أو يعرفني؟ إنما أشفع فيه إلى

(39) هو كتاب "المختار في الجمع بين المنتقى والاستذكار" ويفهم من عنوانه أن مؤلفه اعتمد على كتاب المنتقى لأبي الوليد الباجي، وكتاب الاستذكار بمذهب علماء الأمصار لابن عبر البر. (**بغية الرواد، 145**).

(40) جد ابن مرزوق للأم وقد افرد له ترجمة ضافية في هذا التقييد. (وانظر : **المسند**، ص 479 ؛ **بغية الرواد**، 114 ؛ **نيل الابتهاج**، 38-39 ؛ **كفاية المحتاج**، 144/143/1 ؛ **نفح الطيب**، 370/5 ؛ **البستان**، 66-68 ؛ **تعريف الخلف**، 20-18/2).

(41) في أ : نظائرهم

(42) ما بين المعقوفتين مطموس في أ.

– **وجبل بني ورنيد** : يقع على بعد نحو ثلاثة أميال من تلمسان وصفه الحسن الوزان بكثافة السكان، وبكونه "ينتج كمية وافرة من الفواكه، لا سيما التين والكرز، وأهله فحامون وحطابون وفلاحون" (**وصف إفريقيا**، 44/2).

– و"**ورنيد**" اسم كذلك لبطن من بطون زناتة، وما زال بنو ورنيد قاطنين جنوب تلمسان في الجبل الذي كانوا نازلين به في تلك الأعصار (التنسي، **نظم الدر والعقيان**، ص 117 هامش 29).

(43) مدينة صغيرة شبه ربض تقع على بعد نحو ميل جنوب تلمسان، بها توفي أبو مدين الغوث وبها يوجد ضريحه.

(44) زعيم بنو عبد الواد بتلمسان، وأول ملوكهم (من سنة 633 هـ/1235م إلى سنة 1283/681) سنة وفاته. (**بغية الرواد**، 204207 ؛ التنسي، **نظم الدر والعقيان**، 115-128).

سلطان السلاطين، ومولى الكل، المتصرف في الجميع بما يشاء من قدرته. فلم يرضها ذلك، وكان ذلك آخر النهار، فباتت عنده في الدار. فلما انتصف الليل، سمعوا ضجّة بباب الدار، وقارعاً يقرع الباب وينادي : أين سيدنا أبو عبد الله ؟ فخرج، فوجد الوزراء وحجاب السلطان، وكبراء أهل دولته، ومعهم ولد المرأة. فقالوا له : السلطان يقبل بيدك، ويسلم عليك، ويقول لك : "ادْعُ لي، وإن أذنتَ لنا في الوصول إليك، وصلتُ إليك". ويقول لك : "اعذرنا في جهلنا بقدرك، وأن مثلك بين أظهرنا، ونحن لا نعرف قدره". فقال لهم : "ومن أنا حتى يُقال لي هذا؟ ولعلّ السلطان وهَمَّ". فقالوا له : يا سيدنا ! بينما هو نائم، إذا رجل قد وقف له، وقال : قمْ، واطلقْ الرجل الذي تكلم فيه أبو عبد الله بن مرزوق. قال : فاستيقظتُ وأنا مفكر فيما رأيته، ثم عدتُ للنوم، فوقف لي ذلك الواقف بعينه، وقال لي : ألم أقل لك : قمْ، فأطلقه؟ أعني الرجل الذي تكلم فيه أبو عبد الله، بن مرزوق ؟ قال : فاستيقظتُ متحيراً، وسألتُ من حضرني عن هذا الإسم، فلم أعرف به، فعدت لنومي، فوقف لي ثالثة بحربة في يده، وقال لي : إن لم تطلق الآن هذا الرجل الذي تكلم فيه هذا الولي، بهذه الحربة أضربك. فاستيقظت مذعوراً، وأمرتُ بالأبواب، ففُتحت، واستدعانا وسألنا، بعد أن عرّفه بعض الحرائر بمكانك، فعرفه منا من عرّفك، وسألنا في السجن عن من هو من جهتك، فعرفنا بهذا الصبي، فدعا به السلطان، ووجهه إليك، وقال لك : إن كان هو هذا، وإلا عرّفنا بمن هو. فقال لهم : نعم، هو. فصاح بوالدته، فاعتنقت ولدها، وذهب كربها.

وذكر لي غير واحد أن السلطان سرح من وجد في السجن تلك الليلة، فاعتذر لهم الشيخ، وقال لهم : هذا خاطر هذا العجوز، وأما أنا فلست هناك. وأما الاجتماع بالسلطان فهذا شيء لا أستطيعه ولا أعمله، ولا أقدر على التوجه إليه، ولا على وصوله هو إليّ، ولعل لهذا وقت غير هذا، إن شاء الله تعالى.

فعادوا للسلطان، رحمه الله تعالى، بالخبر، فقال لهم : قد ابتلي قلبي من هذا الرجل، ولا بدّ لي من الاجتماع به. فلما كانَ من الغدِ، وصله من خواص السلطان وقرابته من اجتمع به، وتلطف للان[45] في السلطان، رحمه الله، في أن يجتمع به، فتمادى على امتناعه.

---

(45) هكذا في النسختين. ولعلها : "وتلطف له ليلين".

وهذه الحكاية كانت سببا لمعرفة السلطان به، وكذلك سائر الناس. فإن السلطان أبا يحيى، رحمه الله، كان يعمر به المجالس، نفعه الله بذلك.

فصل في امتناعه من رؤيته، واحتجابه عنهم، وما وقع له في ذلك، رضي الله عنه.

أخبرني شيخنا ابن القطان، والشيخ المؤرخ الثقة، أبو محمد عبد الله الشريشي، والشيخ المعظم، أبو محمد عبد الله بن عثمان بن يغمراسن بن زيان، المعروف بابن أبي حفص[46]، حفيد السلطان، وسمعتُ الشيخ المعظم، كبير بني عبد الوادي، وشيخ دولتهم، أبا سليمان داود بن علي[47]، يذكر هذه القصة، وهي في الشهرة مثل التي قبلها ؛ أن السلطان أبا يحيى يغمراسن بن زيان، تغمده الله برحمته، اشتد حرصه على الاجتماع بالشيخ، فعمل على ذلك مرات متخفيا، وأنه دخل إلى مسجد مرسى الطلبة، فصلى معه المغرب ليالي، رجاء أن يسلم عليه إذا انصرف، فلم يقدر على رؤيته، تارة يتلبس بالنافلة حتى ييأس السلطان وينصرف، وتارة لا يشعر به إلا وقد خرج. قال : وكان السلطان يقصد إلى السارية التي عند باب المسجد، فلا يشعر به إلا وقد خرج. قالوا : ودخل السلطان ليلة من باب الجياد[48]، ومعه خواص أهل حضرته، فقالوا : يا مولانا ! ترى التي[49] أنت تبحث عنه، وتريد رؤيته والاجتماع به، وهو سيدي أبي عبد الله ابن مرزوق. وقال لهم : أين هو ؟ قالوا له : ها هو بين أيدينا. وهم دخولٌ من الباب، فقال لهم : ننزل. فقالوا له : حتى تقرب منه. فنظروا، فلم يجدوه. فأخبرنا شيخنا، أبو العباس القطان، أن بعض أصحابه سأله، فقال له : يا سيدي ! أين كنت حتى كانوا يبحثون عنك؟ قال لهم : والله ما زلت أمشي على حالي، حتى دخلت في المسجد الذي بجنب الساقية، عن يسار الداخل من باب الجياد، وجدته مفتوحاً فدخلت إليه وكلهم مزعمون أنهم لم يتركوا سبيلا في البحث عنه، لا في المسجد ولا في غيره،

(46) لم أقف له على ترجمة.

(47) **بغية الرواد**، ص 216

(48) أحد أبواب تلمسان، انظر الوصف الذي خصصه لها وليام وجورج مارسي.
Les monuments arabes de Tlemcen, Paris, 1903, Index.

(49) كذا في النسختين. وفوق الكلمة كتبت لفظة (كذا).

فلم يروه. فحينئذ قال لهم السلطان، رحمه الله : هذا رجل حجبنا الله عنه. وبكى، ولكن لعلّ الله لا يحجبني عنه في الآخرة، وأنس بقوله لحاشيته قبل هذا : "لعل لهذا وقتا[50] غير هذا". وأما حاشية السلطان، فكانوا يستأذنون عليه، فيعتذر لهم.

فصل في سيرته واشتغاله بنفسه، بعد شهرته، رحمه الله

كان، رضي الله عنه، بعد صلاة الصبح يجلس في مجلس جدي للأم، أبي إسحاق التنسي، المتقدم الذكر. وكان يقرأ عليه الحديث بعد صلاة الصبح. كان أولا يجلس قريبا من الشيخ، فلما عرف الناس موضعه، صاروا يزدحمون عليه. فكان يجلس حيث انتهى به المجلس، وكان أقرأ الناس بمسجد حارة الرماة، ويعرف في هذه الأعصار بمسجد ابن جحاف، وابن خرزوزة[51] الخطيب، فإنه كان يؤم فيه، وأمّ فيه مدة صاحبنا الخطيب الصالح، أبو القاسم بن أبي القاسم، الحكيم التلمساني[52]، المتوفى بفاس في خدمة السلطان المرحوم، أبي عنان[53]. قالوا : فربما كان يجلس في الصحن الذي في ظهر المحراب، بالدرج بحيث يسمع، هروبا من الناس. فإذا تعالى النهار، ركب بغلته، وكانت له بغلة عليها

(50) في النسختين : وقت.

(51) في ب : ابن خرزودة.

(52) هو محمد بن محمد المقري التلمساني : قاضي الجماعة بمدينة فاس وبتلمسان. حج ورجع لبلده وانقطع إلى خدمة العلم. فلما ولي أبو عنان السلطة اجتذبه وولاه قضاء الجماعة بفاس، واستعمل في الرسالة. توفي بفاس سنة 759 هـ. ودفن بتلمسان. ولابن مرزوق الحفيد كتاب في ترجمته سماه **"النور البدري في التعريف بالفقيه المقري"** انظر : **جذوة الاقتباس**، 299-300 ؛ **الديباج**، 264/2 ؛ **نيل الابتهاج** ؛ 420-427 ؛ **البستان**، 154 ؛ **رحلة ابن خلدون** 102-103 ؛ **الإحاطة**، 191/2-225 عادل أبو نهيض، **معجم أعلام الجزائر**، ص 180.

(53) هو أمير المؤمنين المتوكل على الله فارس بن علي بن عثمان بن يعقوب بن عبد الحق، المكنى بأبي عنان.. ثامن السلاطين المرينيين. ولد عام 729 هـ/1329م بفاس من جارية مسيحية سميت شمس الضحى. ثار على أبيه، أبي الحسن بتلمسان عام 749 هـ/1349م، واستولى على الملك بالمغرب الأقصى. كان مغرما بالعلوم والبناء توفي سنة 759 هـ وقيل مات مقتولا، خنقه وزيره الحسن بن عمر الفدودي وله 30 سنة. (ابن الأحمر، **روضة النسرين**،37-40 ؛ **نثير الجمان**، 69-70 **النفحة النسرينية**، 51-53 ؛ **العبر**، 378/7-398 ؛ **جذوة الاقتباس**، 314 ؛ ابن الخطيب، **رقم الحلل**، 112 ابن الخطيب، **اللمحة البدرية**، 93، 104-106 ؛ الناصري، **الاستقصا**، 181/3. وانظر، علي حامد الماحي، **المغرب في عصر السلطان أبي عنان المريني**، الدار البيضاء، 1986.

برذعة، واجتاز بجنانه الذي ورثه عن أبيه بالربض، من داخل تلمسان، فتارة ينقطع فيه بقية يومه إلى الليل، وتارة يخرج لمسجد بأعلى العباد، وبسفح الجبل، ويعرف بمسجد العزالة[54]، فينقطع فيه إلى الليل. فلما بنى موضعه بالعباد، في الجنان الذي غرس أكثره بيده، وهو الجنان المعروف بركاته حتى الآن، صار ينقطع فيه سائر نهاره، فإذا دخل من العشي، دخل بين يديه بمحفظة فيها الموجود من الفواكه في الوقت، أخضرها أو يابسها، فإذا لقي صبيا صغيراً، أو مريضاً، أو من يتفرّس فيه الحاجة إلى شيء مما عنده، فيعطيه إياه، وصرة فيها دراهم، فيتصدق فيها. فكان المساكين والصبيان يتعرضون له في طريقه. فكم من شخص يقول : اشتهى عندي مريض سفرجلة، ويقول أحملها، وآخر يقول رمانة حامضة، وآخر يقول وردة، وآخر يقول تفاحة. هذا مما تطابقت عليه الأخبار، فلا حاجة إلى ذكر الجزئيات من ذلك. فإذا دخل، أعطى دابته لمملوك كان معه، ودخل مسجده للصلاة في المغرب. فإذا صلى، انصرف إلى منزله، فأفطر. وسنذكر، إن شاء الله عزّ وجلّ، ما كان يفطر عليه، ويتنفل إلى صلاة العشاء الأخير. فإذا صلى العشاء الأخير، أتى منزله، كما سنذكره في أحواله، إن شاء الله عز وجل.

وكان يزور المقابر، في أيام مخصوصة، ويزور إخوانه في الله بعد صلاة الجمعة، فإنه كان لا يركب يوم الجمعة، بل يشتغل من أول النهار بوظائف الجمعة. فإذا صلى، تفقد إخوانه، وكانت غالب صلاته يوم الجمعة تلمسان القدمى[55] وإذا صلى بالجامع الأعظم صلى في الجانب الغربي، في الزاوية العليا، وفيها كان يصلي والدي، رحمه الله، وجدي للأم، العالم أبو إسحاق التنسي، وأهل الورع والتحري؛ فإنهم يذكرون أن ذلك الجانب الشرقي من الجانب في اغتصاب[56]، وأن العلماء كانوا ينحرفون عنه. وفيه أدركت أهل الخير يصلون، أعني في الجانب الغربي.

---

(54) العزالة : كتب فوقها في أ لفظة : "كذا".
(55) في أ : العليا.
(56) في أ : اعتصاب.

فصل في سيرته إذا آوى إلى منزله

كان، رحمه الله، حسن الخلق، ليّن الجانب، يبسط أهل منزله ويؤنسهم، ويسألهم عن أحوالهم، ويوسع عليهم في نفقاتهم. وكان يتولى خدمة نفسه فيما يحتاج إليه في أمور العبادة، وربما ربط دابته، ويستدعي الخادم، فتأكل معه. وكان قد آوى[57] إليه جماعة من عجز أهل مرسة، أسكنهم في دويرة ملاصقة لداره، وكنّ نساء صالحات، يدخل كل ليلة، فيسألهن عن حالهن، وكان يقوم بمأونتهن، وكان يجالسهن، ويتحدث معهن، ثم يعود لبيته الذي كان ينام ويقوم فيه، فيحيي ليله قائما بتلاوة القرآن.

وكان حسن التلاوة، طيب النغمة. وكان ينام أول الليل، نوما خفيفا. وكان له خشوع، وإذا زاد يسيراً على المعتاد من النوم، أيقظه رفيقه وصاحبه من مؤمني الجن.

أخبرني والدي، وعمي، وابن القطان، وغيرهم، أن هذا كان يقرع عليه باب البيت قرعاً خفيفاً، ويقول : يا أبا عبد الله! هذا وقتنا، فإذا توضأ وانتصب قائماً، صُلي معه، حتى يفرغ من صلاته.

قال لي والدي، رحمه الله : يا بني! وكذلك يفعل معي أحيانا، فاحذر، يا بني، أن تخاف إذا سمعت شيئا. قلت : فلما كان في ليلة، وكان، رحمه الله، قد خرج إلى العبّاد ليبيت به، فبتّ في الدار منفرداً، في البيت المذكور، وخادم في البيت الآخر، ثم إن الخادم دخلت إلى دار متصلة بالدار، وبقيت وحدي. فلما كان بعد هزيع من الليل، دخل حسّاً، فظننتُها الخادم، ثم إني استبنت[58]، فسمعت مشيا غيرَ مشيها، وحركةَ إعداد الطهور في سطل بعد استقائه من البئر، ثم أقبلَ الحس إلى باب البيت، فنقر نقراً خفيفا، وقال : يا أبا العباس ! نمت عن وقتك، قمْ. فكرر ذلك مراراً، وأنا قد ذهلتُ، وكاد عقلي يتلف. فلما لم يُسمع حساً، انقطع الحس للجن، فبقيت داهشاً لا أستطيع حركة، حتى طلع النهار، ودخل والدي، رحمه الله، فوجدني مذعوراً، فقال لي : لعلك سمعت شيئاً، ألمْ أقلْ لك : لا تخف ؟

(57) في أ : أتوا.
(58) في ب : استتبت.

وكان كل ليلة جمعة يجمع إخوانه في الله، من أهل الإرادة، وأرباب الحقائق، والتصرفات وبعض ليال من غير ليالي الجُمع، إذا ورد عليهم وارد، واقتضى ذلك مقتض.

فصل في وصف بعض الليالي التي كان يجتمع فيها إخوانه

أخبرني، سيدي الشيخ أبو العباس ابن القطان، وكان كثيراً ما يحضر الجمهور، قال : فيجمع فيها صلحاء البلد، وعلماء الوقت الظاهرين، فيجتمعون. قال : فإذا حضروا وَصلّوْا، تذاكروا، فتقع الأسئلة في الأحاديث والمسائل للعلماء، وتقع المذاكرات بين المتصوفة والصلحاء في المقامات والأحوال، بعد أن يصلّوا ما تعودوه[59]. من النوافل، ويحضر من الطعام ما يعمهم، وينشد من حضر ممن يحسن الإنشاد، ويعظ من يعظ، لا يزالون كذلك طول ليلهم، وربما يظهر لهم عند التواجد أحوالاً.

وأما الليالي الخاصة، فيجتمع بها بأصحابه وخواصه، المتجردين والمنقطعين الذين لا يعرفهم إلا من هو منهم، ففيها شاهدوا العجائب، وكان له نحو[60]من أربعين من خواص أصحابه.

أخبرني العدل، أبو عبد الله السُني[61]، والثقة، أبو محمد الشريشي[62]، وغيرهما، أن بعض أصحابه من أهل الظاهر، انتقد عدم استدعاء الشيخ له مع هؤلاء المتجردين[63]، وقال : لعله لا يطلعنا على أحوالهم وكراماتهم، وما هذا معناه، وكأنه خلط هذا المعنى باستبعاد ما يبدو عليهم من الأحوال. فحضر ليلة من الليالي بخاطر الشيخ استدعاءه. قال : فحضر، فما كان إلا أن فرغوا من الأوراد، وقال قائلهم، وقاموا متواجدين. فنظرت إلى شجرة النارنج التي في وسط الدار، وهم يدورون حولها، وهي تميل إلى هؤلاء، وإلى هؤلاء، وكلا يقتطف منها نوعا غريبا

(59) في أ : تعوذوه. وفي ب : تعاودوه.
(60) في النسختين : نحوا.
(61) لم أقف على ترجمته.
(62) في أ : الشريسي.
(63) في أ : المتحرين، وفوقها (كذا). في ب : المتجرين.

يبين منها، كالسفرجل والرمان، وأنواع الفواكه والرياحين. قال : فنظر إليّ الشيخ، فقمتُ مستغفراً.

أخبرني الشيخ، أبو العباس ابن القطان، رحمه الله تعالى، قال لي : إن أعجب ما رأيت في ليالي الاجتماع، وهي خاتمة الليالي، أن حضرها الأربعون، وفيهم رجل مصمودي، وكان يأوي بجامع تفرغنبو، موضع معروف بتلمسان، صار الآن ببعض دور القصر، والمسجد الآن محمول عليه بعض القصر المعروف بأبي قير، وبقي مهملاً، فإنا لله وإنا إليه راجعون. قال : فلما تواجد القوم على عوائدهم، وقف وقال : يا إخواني! أما اشتقتم إلى لقاء المحبوب ؟ أما تحبون لقاء الله، إن كنتم صادقين في المحبة؟ فاسئلوا الله أن لا يمر عليكم ستة أشهر، إلا وجميعكم قد لقوا به، وأكون أنا أولكم. قال : فما حضروا من الليلة المقبلة إلا وقد دفنوه، ومات جميعهم قبل تمام الأمر المذكور، نفعنا الله تعالى ببركاتهم، وأفاض علينا من خيرهم.

فصل في لباسه، رضي الله عنه

كان، رضي الله عنه، ووالده وأولاد، يتجاملون ويلبسون أحسن الثياب. في أيام المصيف، البياض، والملاحف[64] التونسية، والأحارم.

أخبرني العدل، أبو عبد الله، محمد بن علي السني، عن بعض الفضلاء، أنه كان يقول لأصحابه إذا انصرفوا من صلاة الجمعة : تعالوا بنا نجلس على طريق، يمرّ بنا رجل، نوّر الله ظاهره وباطنه، فليس في وقتنا أجمل منْه صورة، ولا أحسن هيئة، ولا أنور باطناً. قال : فيقول المقري[65]، وأبو عبد الله بن داود[66]،

(64) في النسختين : الملاحم.

(65) ستأتي ترجمته لاحقا.

(66) أبو عبد الله **محمد بن عبد الله بن داود** بن الخطاب القيسي الغافقي، نزيل تلمسان. من أهل مرسية. كتب بغرناطة عن ملوكها وقفل إلى مرسية وقد اختلت أمورها، فارتحل إلى تلمسان، وكتب بها عن السلطان يغمراسن بن زيان. توفي سنة 636 هـ. **البستان**، 227 ؛ **بغية الرواد**، 129 ؛ **نظم الدر والعقيان**، 127.

والخطيب أبو عبد الله بن الحمال[67]، إنهم ما رأوا أحسن منه صورة، ولا أجمل منه هيئة، ولا أطيب رائحة. وكان لا يَعتَمّ، وكانت له وَفْرَة[68].

فصل في صفته، رضي الله عنه

كان، رحمه الله، لما اجتمع لي من الأخبار في صفته، طوالا أبيض[69]، مشوباً بالحمرة، مستدير اللحية، كثها، شديد سواد الشعر، أكحل العينين، قويم الأنف، لا يزال مبتسماً، وإذا كلمه أحد احْمرّ خجلاً. وهكذا كان والدي، رحمه الله عز وجل، ونفعني به.

فصل في مأكله، رضي الله عنه

كان، رحمه الله، متجملا في ملبسه، متقشفا إلى الغاية في مأكله، مقتصراً على القوت التي لا يكاد يحفظ البنية. وكان يكثر الصوم، ويفطر أحياناً.

أخبرني والدي، رحمه الله تعالى، أن غالب فطره كان على قشرة من خبز، وثلاث بيضات مدفئات عل النار، يجعل فيها يسير ملح، ويأتدّم بها، ثم اقتصر على اثنتين مدة، ثم على واحدة. قال : وربما جعل له بعض أحيان بالقشرة التي كان يأكلها، ثريد يسير.

وكان يأكل اللحم أحيانا، وربما يجعل له، في أيام فطره، يسيراً من الطعام الذي يعرف بالبركوكش[70]، وهو المعروف بالمفتلة عند المشارقة، بيسير زبد أو سمن، فيأخذ منه ثلاث[71] لقم. ومع هذا، كان محفوظا لبنيته، شديد الحمرة، نفع الله به.

---

(67) أبو عبد الله محمد بن الصالح أبي الحسن **بن الحمال** (الجمال في نفح الطيب، وأزهار الرياض)، كان يتناوب على الخطابة بجامع تلمسان مع الشيخ أبي عثمان ابن الخطاب (**بغية الرواد**، 117 ؛ **نفح الطيب**، 242/5 ؛ **أزهار الرياض**، 57/5).

(68) **الوفرة** : الشعر المجتمع على الرأس، وقيل : ما سال على الأذنين من الشعر (لسان العرب، مادة : وفر).

(69) في النسختين : أبيضا.

(70) في ب : **البركوس** وقد أورد ابن رزين التجيبي في كتابه "**فضالة الخوان في طيبات الطعام والألوان**" تحقيق د. محمد ابن شقرون، ط 1، الرباط، 1981، ص 26 (وصفة لحسو يعرفه الأندلسيون بالزبزين وأهل العدوة بالبركوس). ويعلق محقق الكتاب على ذلك قائلا : "أما البركوس الذي أورده المؤلف فهو كثير الاستعمال في المغرب خصوصا في الجنوب، ولكن بوزن "بركوكش"، وهو من الأطعمة الشعبية والطلقة المتواضعة" (نفسه، ص 192).

(71) في النسختين : ثلاثة.

وكان يوسع على أهل منزله، نفع الله به، في النفقة، وعلى من يرِدُ عليه ممن يضيفه. وكان قد ترك أكل الفواكه. وسنذكر هذه القصة في أخبار ولده، والدي، رحمه الله تعالى، فإنه موضع ذكرها، رحمهم الله عز وجل، وأنالني بركاتهم.

فصل في مركبه، رضي الله عنه.

قد تقدم أنه كانت له بغلة، يركبها بالبرذعة. وسألت الشيخ ابن القطان، هل رأيته راكباً بسرج قط، أو على فرس قط فقال لي : ما علمته ركب إلا بغلة ببرذعة، أو حماراً في النهار. وكانت بغلته التي يركبها لا يفارقها.

أخبرني شيخنا ابن القطان، وغيره، بأنه كان إذا حُصد له زرع – وكان يحرث بفرد واحد في موضع صغير – وصُفي، ولم يبق إلا أن يُنقل ويُخرج، فيجلس بإزائه، ويأخذ حفنة منه، ثم يرميها فيه، فيكتال بين يديه للضعفاء والمحتاجين الذين يحضرون، والذين جرت عادته بإعطائهم، حتى إذا فرغوا، صرف الناس، وأمر بحمل ما بقي لداره من غير كيل، فيأكل منه عياله، ويتصدق منه الصدقة الكثيرة طول سنته.

أخبرني الشيخ عيسى المديوني، وكان خديمه بالجنان، قال : كنت إذا جمعت ماعوناً من الفاكهة، وجئت به إليه، ودعا لي، بعت طول نهاري منه، ويبقى منه فضلة. وإذا لم يره، وخرجت به، بعته في سعة واحدة، وما حصل لي عُشر ما كان يحصل لي، حيث أقف به إليه.

أخبرتني خالة مولاي الوالد، وجماعة من العجز اللائي أدركتُ، أنهن إذا بِتْنَ عنده، ويحضر الطعام، نقول : هذا لا يكفي واحدة منا. فيأكل جميعنا، ويبقى فضله. وهذا باب واسع في شهرة ما نقل من كثرة الطعام، وظهور بركته فيه.

فصل آخر من كراماته

أخبرني جماعة من أهل العباد، كالشيخ أبي عبد الله بن عبد السلام[72]، والصالح، أبي زيد عبد الرحمن، المدعو برحمون المعلم، وهما من ذرية الشيخ

---

(72) هو محمد بن عبد السلام بن يوسف الهواري التونسي، قاضي الجماعة. ت. 749 هـ بالطاعون (ترجمته في : **الديباج**، 329/2 ؛ **المرقبة العليا**، 161-163 ؛ **درة الحجال**، 133/2 ؛ **نيل الابتهاج**، 406 **فهرست الرصاع**، 86 ؛ **نفح الطيب**، 251/5 ؛ **أزهار الرياض**، 28/3).

الولي أبي محمد عبد السلام التونسي[73]، المدفون مع قبر الشيخ أبي مدين[74]، نفع الله بهم، وغيرهما، قالا : كنا نتحدث أن سيدي، نفع الله به، كانت الأبواب لا تغلق دونه. فغير واحد منا في غير مرة، شاهده هنا في وقت غلق الأبواب، ثم أنه يصبح بالبلد، وأحيانا كان يصلي المغرب بعين واترُوتة[75]، ولا شك في غلق الأبواب.

فصل آخر من كراماته، رضي الله عنه وأرضاه.

أخبرني الشيخ الصالح، سيدي أبي العباس بن القطان، رحمه الله تعالى، قال : كنتُ في شبيبتي ضعيفا محتاجا، لأنّ والدي توفي وخلفني صغيراً، فنفذ ما ترك لي، وبقيت أتسبب بالخياطة وبالسفر أحيانا. قال : فجئت إليه، وشكوت بحالي، فقال لي : لعلك تتزوج . فقلت له : يا سيدي أنا أشكو من إقامة حالي، فكيف بالزوجة، ولي والدة كبيرة، لا أستطيع القيام بمئونتها، فكيف بغيرها ؟ فقال لي : تتزوج ويصلح حالك، إن شاء الله، ويكثر مالك، وتكون زوجتك قريبتك، وهي قريبتي، وتجد، إن شاء الله، بركة سلفنا. فقلت له : ومن هي؟ فقال لي : بنت أبي عامر. وكان أبو عامر هذا من الأولياء الصلحاء الخطباء. وبنو عامر بيته معروفة بالدين والصلاح، قديما بتلمسان، وسيأتي، إن شاء الله، ذكر من امتحن منهم. وكانت بنت خالة الشيخ، أو حفيد خالته، وبينها وبين ابن القطان قرابة من جهة

(73) **سيدي عبد السلام التونسي**. عالم زاهد وولي كبير. دفن الشيخ سيدي أبو مدين بجواره في روضته. قرأ على عمه عبد العزيز بأغمات ونزل تلمسان في الرهبان. انظر (التشوف، 110-112 ؛ أنس الفقير، 107-108 ؛ ابن مريم، **البستان**، 122 ؛ **بغية الرواد**، 125).

(74) الولي الصالح سيدي شعيب بن حسين الأندلسي الملقب **بأبي مدين**. ولد بضواحي إشبيلية سنة 520 هـ/1126 م ثم انتقل إلى فاس حيث أخذ عن الشيخ أبي الحسن بن حرزهم وعن الشيخ أبي يعزى، واستوطن مدينة بجاية، وظهرت على يده كرامات. وشى به بعض علماء الظاهر عند الخليفة يعقوب المنصور الموحدي، وشبهوه بالمهدي ابن تومرت، فاستقدمه الخليفة المنصور إلى مراكش، فسار إليها، إلا أنه توفي في الطريق قرب تلمسان، ودفن هناك برابطة العُبّاد سنة 594 هـ/1197م (أما ضريحه فقد شيده الخليفة محمد الناصر بن المنصور الموحدي): ترجمته في **التشوف**، 319 ؛ **المستفاد في مناقب العباد**، 2/41-45 والمصادر المذكورة هناك ؛ **أنس الفقير** ؛ **سبك المقال**، 64-76 ؛ **البستان**، 115 ؛ **شجرة النور**، 164).

(75) في **البستان** (ص 12-31) : وانزوتة. من باب الجياد قرب العباد السفلى.

الأم، لا أحققها الآن. قال : فقلت له : أفعلُ. قال : فدعا بالشهود، رحمه الله، وأنكحني وأصدق عني، ودفع إلي دراهم، وقال : اجعل هذه في دراهمك، وتوجه لطلب الرزق، فسيفتح عليك. قال : فخرجت مسافراً إلى فاس، ثم إلى سبتة، فبعتُ واشتريتُ، ولم أغب إلا مدة، وجئت بأحمال البز بين يدي من المتاع السبتي، قال : فبعت حتى سئمت، ووسع الله علي من حيث لا أشعر، فتزوجت وأنفقت ووسعت، والخير باق. فغبت عنه مدة، ثم جئته، فقال لي : لعل الدريهمات نقصت . فقلت له : هو ما رأيت. فأمرني بالسفر إلى بجاية(76)، فحملت بعض المتاع، وبعت واشتريت متاعا، وجأت به، ففتح علي واتسع حالي، وكثر مالي. قال : فقال لي : الزم موضعك، وتسبب في وطنك بين أهلك. وكان قد دعا لي عندما شكوت له أولا بحالي، فقال لي : رزقك الله رزقا حلالاً طيباً، داراً مقيماً بأهله، فلم أسافر بعد.

أخبرني هو، والمرأة الصالحة، ستم بنت الشيخ أبي علي، حسين بن الجلاب، وسيأتي ذكرها، إن شاء الله تعالى، في ذكر قرابته، أن والدها حسيناً كان قد ذهب ماله الذي ورثه عن أبيه، ولم يبق له شيء. وكان والده يتجر بجلب الغنم من جهة قوم صالحين، ويبيعها، فيشتري منه أهل الورع. فشكا الولد للشيخ بحاله، فأعطاه شيئا، وقال له : اتبع سبيل أبيك، يفتح الله عليك. فما مر حول إلا وهو من المشهورين باتساع الحال(77).

وأخبرتني أيضاً عن أبيها، أن الشيخ، رحمه الله، أعطاه ربع دينار، وقال له : اشتر لي به كبشا مليحاً لأضحيتي. قال : فقلت : سبحان الله، هو يعرف ربع دينار لا يوجد به ما طلب، وعوايده يعطيني من غير تعين. فلم يمكني مراجعته، وقلت في نفسي : لعل هذا سببا. فتوجهت لمواضع الشاوية، وقضيت غرضي، ولم يبق بيدي إلا الربع دينار، وكنت بدوار بني منصور. قال : فمر بي رجل بقطعة غنم، يقدمها كبش لم أر مثله، فنظرت إليه، وقلت : مثل هذا ينبغي أن أشتري للشيخ. قال : فقال الرجل : يا حسين ! هات الربع دينار واحمل الكبش للشيخ، وأبلغه

(76) مدينة على ساحل البحر بين إفريقية والمغرب، كانت قديما ميناء فقط ثم بنيت المدينة، كان أول من اختطها الناصر بن علناس بن حماد بن زيري بن مناد بن بلكين في حدود سنة 457 هـ (ياقوت، معجم البلدان، 339/1).

(77) في ب : الحلال.

السلام. قال : فدهشت، فأعاد علي الكلام ثانية، فأخذت الكبش وقبّلت يده وانصرفت. فلما وصلت إلى الشيخ قال لي : يا حسين ! وعليه السلام، هات الكبش واسكت.

وحدثني والدي، وعمي، وخالتهما، أن سيدي أبا زيد عبد الرحمان بن النجار، وسيأتي ذكره، لما صاهر إليه بابنته، وهي جدتي، أم والدي، أخرج لها حلياً كثيراً وفرشاً، وغير ذلك. فلما عرض على الشيخ، قال : بارك الله له، ووسع عليه وعلى عياله الرزق. فأجرى على يديه الخير لأهله والمستحقين، فكان من يومئذ لا يحصى ماله كثرة.

أخبرتني خالة مولاي الوالد، أنه عمل لكل بنت من بناته، وكنّ جملة، حليا بألف دينار من الذهب، عدا ما جعل لهن من الفرش والثياب؛ وأعطى كل واحد من بنيه نحو ذلك. وكان يتصدق في كل جمعة على كل ضعيف ومستتر وسائل، بالقمح والدراهم، حتى لقي الله، عز وجل، على هذه الحالة. وكان يكسو جماعة من أهل الخير كل سنة، ويكسو عيالهم. ومن هذا الباب كثير، ذكرت منه ما حضرني.

فصل نوع آخر من كراماته،
رضي الله عنه، وأرضاه.

حدثني غير واحد من أهل تلمسان وأهل العباد، أن رجلا كان يسرق الفاكهة من جنان العباد، فقال له بعض أصحابه : هلا سرقت جنان فلان؟ فقال : أخاف. ثم إنه عزم على ذلك، فدخل من أسفل الجنان حتى انتهى إلى موضع الإجاصة، وهي الكمثرى، قال : فأردت أن أهزها، فلصقت يدي بالشجرة، فطمعتُ الخلاص، فلم أجده. فبقيتُ أدعو وأشهد لله بالتوبة، حتى ارتفع النهار، وإذا بالشيخ قد جاء، فقال : لا يدخل أحد الجنان قبلي. قال : فلما انتهى إليّ قال لي : تائب؟ فقلت : نعم، يا سيدي. فقال لي : انطلق. فجئت إليه، وقبلتُ يديه، وقلتُ : ادع لي . فدعا لي بصدق التوبة، فأدركت من أدركه، وهو من الصالحين.

فصل

وحدثني أبو عبد الله محمد بن عبد الواحد، وأخته الزهراء، أن جماعة من الشباب من أهل العبّاد، قالوا : ليس في العبّاد أطيب فاكهة من جنان سيدي فلان، فهل لنا في أن نجمع الليلة من رمانه ؟ وإذا كان بالغد، إن شاء الله تعالى، نعرفه. فنهى بعضهم بعضا، ثم عزموا على ذلك، فتوجه بعضهم، وقطعوا من الرمان ما استطاعوا، وجعلوه في كساء أحدهم، وأرادوا حمله، فلم يستطيعوا. فنقصوا حتى لم يبق شيء، فلم يقدروا على القيام. فلما كان من الغد، جاء الشيخ، وقال لهم : كفيتمونا مؤونة القطع. ثم قال لهم : خذوا أجرتكم. فأعطاهم منه، ودعا لهم، فانصرفوا تائبين.

وحدثني أيضاً، محمد بن عبد الواحد، أن بعض أهل العُباد قطع سفرجلة واحدة، وأراد الخروج، فلم يجد مسلكاً. فلم يزل كذلك حتى ألقاها، وخرج. فلقيه الشيخ بعد ذلك، وقال له : امض إلى سفرجلتك، فخذها. قال : فقبّلت يده، واستغفرت، وانصرفت، فأخذتها وجئت بها.

وهذا لم يزل في ذلك الجنان في حياته، وبعد مماته، في حياة مولاي الوالد والعم مدة، ثم فسدت الأحوال، وهذا شهير عند أهل العُباد حتى الآن، حتى إنهم يتحدثون بأن من اشتراه منهم، وسلك فيه سبيل الاستقامة، ربح ؛ ومن سلك فيه غير ذلك، خسر.

قلت : وحدثني ملك المغرب، وخاتمة الملوك وإمامهم، السلطان أبو الحسن، رضوان الله عليه، قال لي : اجتزتُ يوما بجنانكم بالعباد السفلي(78)، وكان من غرس الشيخ. قال : وأنا يومئذ صغير، فأخذت باكورة، أعجبتني، فأكلتها. فأصابني مغص شديد، أشرفت منه . فقيل لي : إنه لابن رجل صالح. فبعثت لعمك بالعُباد، فحلّله لنا، فشفيت. ومن يومئذ أعرف بركات بيتكم.

(78) يذكر محمد ابن تاويت أن موضعين عرفا بالعباد، وهما العباد الفوقي البعيد نوعا ما عن المدينة، والعباد السفلي، وهو باب الجياد من أبواب تلمسان (رحلة ابن خلدون، 80 هامش 130).

وحدثني الشيخ المعظم، أبو عبد الله محمد بن السلطان أبي يحيى، يغمراسن ابن زيان، وهو المعروف بابن شانشة[79]، بمثل هذه الحكاية، قال لي : أخذت حبة من تين، فأصابني بها مغص شديد، حتى حلله لي جدك.

وكان هذا الشيخ، رحمه الله تعالى، مشتغلا بالبطالة، فإذا رآني، وأنا صغير جداً، من نحو ستة أعوام أو سبعة، أو دونها، يسرع إلي، فيقبل يدي، ويقول : ادْع لي، ويركبني أحياناً بين يديه، ويتمشى بي في الزقاق، نفع الله به. وهذا مستفيض عند أهل الوطن القدماء منهم.

نوع آخر في إجابة دعائه
هذا باب يضيق عن تتبع الجزئيات فيه

أدركتُ الشيخ الصالح، أبا الحسن علي بن ميمون، وكان شيخنا كبيراً، قد عُمِّر، وسمعته يحدث ويقول : طالما كان سيدي محمد بالحياة بين أظهرنا، ما عدمنا خيراً، ولا رأينا ضراً، من شكا منا فقراً أو مرضاً، أو أصيب بمصيبة، سأله الدعاء، فتقضى حاجته. وقد دعا لي، وكنت ضعيفا فقيراً، كثير العائلة، فصحَّ جسمي، وأنا اليوم ذو مال. وكثيراً ما كنت ألقى الناس في صغري وهم يقولون لي مثل هذا.

ولقيني يوما الشيخ الثقة، الصدوق، أبو محمد عبد الله الشريشي، فقال لي : أهلاً وسهلاً بابن الجدَّيْن. دعا لي جدك لأبيك، وجدك لأمك، فأجيب في دعائهما. وسيأتي، إن شاء الله تعالى، ذلك في ترجمة جدي للأم، نفع الله تعالى به.

فصل في ذكر وفاته،
رحمه الله تعالى، ورضي عنه.

أخبرني عمي، رحمه الله تعالى، عن والدته وجدّته في آخرين لا أحصيهم كثرة، بأنه لما كان قبل ولادة ولده، والدي أحمد، رحمه الله تعالى، بأيام، قال لزوجته فاطمة : إنك ستلدين ولداً مباركاً، إن شاء الله تعالى، وأنه قد قيل لي : سيولد لك ولد، وهو خليفتك، وإنما تعيش بعده ستة أشهر خاصة، وتلقى ربك.

(79) لم أقف على ترجمته.

قال : فحزنَتْ وبكتْ، فسكّتها وأقبل على العبادة، فلم ينم في هذه الستة أشهر حتى قبض، رحمه الله تعالى. فلما كان يوم وفاته، وذلك في أوائل شهر رجب الفرد، من عام أحد وثمانين وستمائة، صلّى الصبح في مسجده، ثم دخل وهو مزْكوم. قالت زوجته : فناداني، وقال لي : يا فاطمة! إني اليوم مفطر، وأنا مزكوم. قالت : فعملت له يسيراً من حسو، وجئت به، فأخذ منه مغرفة، ثم تبسّم، وقال لي : يا فاطمة ! وعملت الحناء ؟ فقلت له : البارحة. قالت : وكنت خضبت يدي ورجلي بالحناء المنقوشة، فقال : يا فاطمة ! أتراك تعمليها بعد وفاتي؟ قالت : فقلتُ له : معاذ الله، وما هذا الكلام ؟ فقال لي : نعم، لا بدّ لك من هذا، ولَيتك لم تفعلي. ثم قال لي : ادع لي أمك، وابحث عن أبيك ليجيء إلي، فإني أحتاجه. قالت : فقمتُ وأنا أبكي، فدعوتُ أمي، وجاءت إليه، فقال لها : يا مُنى– وهذا كان إسمها– فقالت له : نعم، يا سيدي. فقال لها : أوصيك بهؤلاء الأولاد خيراً– وكانوا ثلاثة : وهم عمي، ووالدي، وعمتي. وكلهم أصاغر، والدي أصغرهم – فأنت الوصية عليهم، وعلى أمهم، وأراك تغلبين عليها. قالت له : فيم يا سيدي؟ فقال لها : فيمن يدخل موضعي بعدي، ولكني أوصيك بالأولاد خيراً، وأشار إلى القضية التي نذكرها بعد، إن شاء الله، عز وجل. ثم جاء والدها، أبو زيد بن النجار، فخلا به ساعة، وذلك من طلوع الشمس، وأوصاه بوصايا، واطلع[ـه] على أمانات كانت عنده، وقال له : ادع لي أصحابي الآن، وسماهم. فخرج ابن النجار يبكي، فسألته زوجته وابنته، زوجة الشيخ، فلم يخبرهما بشيء، فدخل عليه أصحابه وهو يصلي سُبْحة[80] الضحى، فلما فرغ جلس على سجادته مستقبل القبلة، فقال : يا إخواني! قد حضر الوقت، وأين أبو الحسن بن النجارية[81]، معاشري ؟ فقالوا له : لم نجده. فقال لهم : ابحثوا عنه، واقرأوا القرآن. قال لي عمي : فلما سمع النسوة القراءة أنْكرْنَ ذلك، مع ما سمعْن منه من الوصيّة. فحضر ابن النجارية، فقال له : أهلا بمعاشري! إلى هنا. فأجلسه عن يمينه، على السجادة، ثم استلقى واستقبل القبلة، وهو يقرأ معهم، فقضى، رحمة الله تعالى عليه.

---

(80) السُبْحة : الدعاء وصلاة التطوع والنافلة ؛ يقال : فرغ فلان من سُبحته أي من صلاته النافلة. ويقال لصلاة النافلة سبحة. والسبحة : التطوع من الذكر والصلاة (**لسان العرب** : مادة سبح).

(81) **أبو الحسن علي بن النجارية**. الولي الصالح قبره إزاء قبر السلطان أبي يحيى يغمراسن بن زيان. قصد التبرك له بجواره (**بغية الرواد**، 122).

قال عمي : فما شعرت، وأنا تارة أقف عليه، وتارة عند النساء، إلا والقراء قد سكتوا، وغطوه، وصاحوا بي، فقبلوا رأسي، وعزوني، وخرجوا. فعلمت حينئذ وعلمت النسوة بموته.

فصل في سبب دفنه بالموضع الذي دفن فيه، وكيفية الواقع في ذلك.

كان السلطان المعظّم المرحوم أبو يحيى يغمراسن بن زيان، من خيار الملوك بصفاء نيّة، وسلامة طويته، وحسن اعتقاده. ولما حضرته الوفاة، أوْصى بنيه السلطان أبا سعيد[82]، وإخوته، وقال لهم : ليس لي إليكم حاجة، إلا أن سيدي أبا عبد الله ابن مرزوق، إذا مات تدفنوه إلى جانبي، لعلّ الله أن يرحمني بجواره. ولعله أشار إلى هذا، لما طلبت رؤيته، فقال : "لعل لهذا وقتا[83] غير هذا". فكتم السلطان وإخوته ذلك، فلما توفي الشيخ، رضي الله عنه، وخرجوا يحفرون له الموضع الذي بين قبر سيدي أبي مدين، وبين أبي عبد الله ابن الشوانس[84]، وهو موضع لم يدفن فيه أحد إلى الآن، فإذا بالسلطان المرحوم، أبي سعيد[85]، قد ركب وجاء إلى الدار، فأخبرهم الخبر، واحتملوه، فوجدوا القبر محفوراً بالدويرة التي بالجامع الأعظم[86] التي هي مدفن ملوك بني عبد الوادي، رحمه الله عز وجل. وقبره الآن معروف، متبرك به، نفع الله به.

وأخبرني عمي، رحمه الله تعالى، أن أحد أصحابه رآه في النوم، فقال له : يا سيدي ! متى أردنا زيارتك وجدنا الموضع محجورا[87]. فقال : من أراد زيارتي منكم فليقف عند الشجرة الكائنة بالعبّاد، وهي شجرة العناب، التي هي مشتهرة بالزفيزفة، في أول قرية العبّاد، ويجعلها عن يساره، ويستقبلني ويزورني، فإني أراه

(82) أبو سعيد عثمان بن يغمراسن، تولى الحكم من أوائل ذي الحجة 633 هـ/1236م إلى سنة 703هـ/1303م (التنسي، **نظم الدر والعقيان**، ص 129-131 ؛ **بغية الرواد**، 208-210).

(83) في النسختين : وقت.

(84) لم أقف له على ترجمة.

(85) السلطان الزياني أبو سعيد عثمان الأول. بويع أوائل ذي الحجة 681 هـ وتوفي يوم السبت غرة ذي القعدة سنة 703 هـ (**بغية الرواد**، 208-210 ؛ **روضة النسرين**، 60-61 ؛ **نظم الدر والعقيان**، 129-130).

(86) تسمى دار الراحة من الجامع الأعظم. **بغية الرواد**، ص 115.

(87) كذا في النسختين: ولعلها : مهجورا.

وأسمعه. فكان عمي، رحمه الله، لا يكاد يتخلف عنها يوما واحداً، وينهى الناس عن الجلوس إليها، فإنها موضع مجتمع أهل العبّاد، ومحل سوقهم.

فصل في ذكر زوجته، والواقع الذي أشار إليه، رضي الله عنه.

كانت زوجته فاطمة، بنت أبي زيد بن النجار، وأمها منى بنت ابن حسين، من الصالحات. وكانت مدةُ مقامها مع الشيخ، رحمه الله، نحواً[88] من ثمانية أعوام. وكانت أمها تخدمه وتبره، وهي كذلك. فلما توفي الشيخ، توفي والدها بعده. وكان القاضي بتلمسان، الفقيه الحسيب، أبو[89] زكريا يحي بن محمد، ابن الفقيه المحدث الراوية، أبي زكريا ابن عصفور[90]، المتقدم الذكر، وكان أخو جدتي فاطمة، المسمى بأحمد، يوالي هذا القاضي ويصحبه، فأجرى معه الكلام في خطبة أخته، فقال له : هذا لا يتصور لي، لوجوه، منها : أنها لا تقبل هذا، ومنها أن والدتي تسخط علي، ومنها إنا نخاف من جهة السلطان، فإن السلطان يقول لي : أنا الوصيّ على أولئك الأولاد، ويتفقدهم بالزيارة والسؤال، فكيف يقع هذا ؟ فلم يزل به إلى أن ارتهن له في ذلك، فطلب له من أخته أن تفوض له ليقوم بأمورها، ففوضت له، هي، وأمه. فبعد مدة وإذا به قد جاء إليها، وهو يبكي ويتظلم، وقال لها ولأمه : حصلتُ في مصيبة عظيمة، وشُهد علي بشهادة توجب إتلاف نفسي. قال لي القاضي : أنا أخلصك منها إن قضيت حاجتي. فسألته عن حاجته، فقال : أن تزوجني أختك فلانة. فأعطيتكِ له، وقد جئتكِ بالشهود لتكملة العقد. فبكتْ أخته وأمه، وقالت له أمه : هذا لا يكون أبداً، لا ردّه الله. وطفق أخواته يبكين ويقبلن أقدام أخته. ورغبها، إلى أن قالت، نعم. وشهد عليها، وخرجت أمها للحين لدار أخرى، وأخرجت الأولاد، وحلفت ألا ترى ولدها، ولا بنتها. فقالت البنت : إنما عملت هذا لخلاص أخي، وأنا لا أخرج من داري. قال القاضي : وهذا مطلبي فلما كان قبل ليلة الدخول، قال لها : تختضبين بالحناء، فقالت : لا أفعل، فلم تزل [العجائز بها] حتى اختضبتها وقد ذهلت عن مقالة

---

(88) في النسختين : نحو.

(89) في النسختين : أبي.

(90) كان قاضيا في عهد أبي سعيد الأول ابن يغمراسن. (بغية الرواد، 121، 153).

الشيخ. فوجهت إليها أمها تذكرها بقول الشيخ، رضي الله عنه. فندمت وأزالتها، فدخل القاضي في بيت الشيخ بزوجته بعد أن نهي عنها، فلم ينته. فلما كان في اليوم الثالث، وكان يوما شديد البرد، كثير الثلج، ورد على السلطان كتاب يذكر فيه القاضي، وأنه ظهرت منه أشياء تقتضي خدمته لجهة المغرب، إلى ما رفع فيه من الأشياء . فقال السلطان : يحضر القاضي . فقيل له : هو عروس، تزوج فلانة، زوجة فلان. فصاح السلطان : أوَ فعل هذا يا محمد! ونادى بولده أبي زيان[91]، أنت عملتَ[92] هذا ؟ ألمْ أقل لك لا تغيّب عني خبرا من أخبار أولاد سيدي محمد، ولا تزل تتفقدهم، فغفلت حتى وقع هذا ؟ لا جزاك الله عني خيراً، وخرج عليه . فخرج الأمير أبو زيان يسأل عن القضية، فقيل له : أخوها أحمد عمل هذا. فقال : والله لئن وجدته لأضربنّ عنقه. فهرب. وأما القاضي فللحين أُخرج مجروراً على الثلج، ثم كُبل وسُجن. فأخبرني أبو عبد الله السني، أن السلطان، أو وزيره، رأى في النوم سيدي الشيخ أبا[93] زكريا يحي بن عصفور، فقال له : سرحوا حفيدي، ولا تؤذوه في نفسه. وهذا أخي أبو عبد الله ابن مرزوق، قد جعله في حل. فأخرج صبيحة ذلك اليوم منفيا إلى تونس، فأدركه بها، وهو متولي الحسبة فيها، ففرح بوالدي، وشدّ بمقدمه، وبكى بكاء شديداً. وكان من كبراء المحدثين والعلماء، فخرج قبل أن يفارقها، فعادت على نفسها باللوم، وأدركها الندم، فلم يرقى لها دمع، ولا هنأ لها عيش، إلى أن ماتت بعد ذلك بأشهر، رحمها الله عز وجل.

وأخبرني أبو عبد الله ابن السني، وكان ثقة، أن أحد أصحاب الشيخ رآه في نومه ليلة أخذ القاضي، والقاضي بين يديه يُجرّ، فقال له الشيخ : كيف ترى، يا فلان، الذباب تدخل مراقد الأسود؟ وأما أخوها أحمد المذكور، فلم يظهر إلا بعد مدة، ثم كانت البادية مستوطنته، ولم يستقم له حال بعد، وهجرته أمه حتى ماتت، وهي كانت تكفل أحفادها حتى كبروا، رحمة الله تعالى عليها.

---

(91) أبو زيان محمد بن عثمان بن يغمراسن تولى الحكم من سنة 703 هـ/ 1303م إلى سنة 707هـ/1308م (التنسي، نظم الدر والعقيان، 131 ؛ بغية الرواد، 210).

(92) كذا في النسختين. ولعلها : علمت.

(93) في أ : أبي.

فصل في الإشارة التي أشار إلى الفقيه الصالح، أبي الحسن بن النجارية، نفع الله به بمنه.

كان السلطان أبو يحيى[94]، رحمة الله عليه، لما أوصى بأن يُدفن بإزاء الشيخ، قال لبنيه[95] : أول صالح يموت بعده يدفن إلى جانبي من جهة أخرى، لعل الرحمة تكتنفني. فكان الصالح أبو الحسن[96] أول من مات بعده من أصحابه. وقيل : بل نصَّ عليه، وكان من كبار الأولياء الصلحاء، فدفن مع الشيخ. فهاذه كانت الإشارة، نفع الله بهم.

وكان أبو الحسن ابن النجارية من أصحاب المقامات، وأرباب الأحوال، وكان يعلم القرآن. وظهرت له كرامات معروفة عند أهل بلده. وله عقب من جهة البنت، وهو بنو الوجدي، ويعرفون بابن النجارية، جدهم. وكان أحدهم من خيار العدول، وله عقب من جهة الولد، ولا أدري هل له عن بني النجارية القاطنين بهُنيْن الآن ولادة من جهة الولد أم من جهة البنت، أو غير ذلك، أو لا. وهم قوم من خيار النجار.

فصل في ذكر مشايخه، وأصحابه معاشريه ومعاصريه ببلده وغيرها، رضي الله تعالى عن جميعهم.

قرأ القرآن العظيم على جماعة، منهم :

الشيخ الصالح، أبو عبد الله الكفيف[97]، وعليه كان معوّله، وكان من المشاهير. والشيخ الصالح، النحوي الشهير، الزاهد، أبو عبد الله المالقي[98]. وقرأ عليه يسيراً

(94) أبو يحيى يغمراسن بن زيان تولى الحكم من سنة 633 هـ إلى سنة 681 هـ/1236 – 1283 م (**بغية الرواد**، 204-207 ؛ التنسي، **نظم الدر والعقيان**، 115-116.

(95) في أ : لابنه.

(96) **أبو الحسن علي بن النجارية** : الشيخ الولي الصالح ذو الزهادة في الدنيا. قبره إزاء قبر أمير المسلمين أبي يحيى يغمراسن بن زيان، قصد التبرك له بجواره. انظر : **بغية الرواد**، 122.

(97) **بغية الرواد**، 114.

(98) نفسه.

من العربية، وجوّد عليه القراءات، وقد ذكره أبو عبد الله ابن عبد الملك(99) في كتاب : "الذيل والتكملة"(100). والحديث على ابن عصفور(101)، والتنسي(102). وحضر تدريس الفقيه أبي زيد اليزناسني(103)، وعنده كان يدرس بمسجده، وغيره ممن لا أذكره الآن.

وأما مشايخه في طريق القوم وسلوكهم، وعلوم الآخرة، فأخذ عن جماعة من أصحاب سيدي أبي مدين وهو كان المقدم على أتباعه، وعن أصحاب الشيخ أبي العباس أحمد المقري، صاحب الشيخ أبي مدين، وعن أصحاب الشيخ أبي محمد صالح(104)، ولبس من جميعهم، ولزم الخطيب الفقيه المتصوف أبو عبد الله محمد بن علي ابن اللجام(105)، وهو الذي قدّمه، فإنه كان من أصحاب سيدي أبي مدين، وكان المقدم على أصحابه وأتباعه، فتخلى عن ذلك، وقدم الشيخ، ودفع

(99) **أبو عبد الله بن عبد الملك** : محمد بن محمد بن سعيد بن عبد الملك الأنصاري، الأوسي المراكشي. مؤرخ أديب من القضاة ولي القضاء بمراكش مدة، توفي بتلمسان سنة 704 هـ/ 1303م من آثاره **"الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة"**، أكبر موسوعة مغربية في التراجم. (انظر الترجمة الضافية التي خصها به د. محمد بن شريفة في تقديمه للسفر الثامن من كتاب الذيل والتكملة).

(100) **الذيل والتكملة**، بقية السفر الرابع، ترجمة 325، ص 178 (أبو محمد عبد الله بن إبراهيم المالقي).

(101) **أبو زكرياء يحيى بن محمد بن عصفور العبدري**.الشيخ الفقيه القاضي. توفي سنة 734 هـ (**بغية الرواد**، 114 ؛ **ألف سنة من الوفيات**، 78، 188).

(102) أبو إسحاق إبراهيم بن يخلف بن عبد السلام التنسي، جد ابن مرزوق للأم. انظر ترجمته المفصلة لاحقاً.

(103) أبو زيد عبد الرحيم بن محمد (أو بن عمر) **اليزناسني** (اليزناتني في **عنوان الدراية**) : الشيخ الفقيه العالم، له رحلة إلى المشرق، صاحب نجم الدين ابن شاس، كان محققا لمذهب مالك ولأصول الفقه، من أهل الاجتهاد. ارتحل لفاس فوطنها حتى مات، وكان له بها ظهور (الغبريني، **عنوان الدراية**، تحقيق عادل نويهض، بيروت، 1969، 258 ؛ أحمد بابا، **نيل الابتهاج**، 266-267 ؛ **جذوة الاقتباس**، 415 ؛ ابن الأحمر، **نثير الجمان في شعر من نظمني وإياه الزمان**، تحقيق د. محمد رضوان الداية، بيروت، 1976، 367 ؛ **شجرة النور**، 185.

(104) الشيخ الصوفي **أبو محمد صالح** بن ينصارن الدكالي ثم الماجري دفين رباط آسفي، مؤسس طائفة الماجريين، ت631هـ/1233م (**أنس الفقير**، 62-64 ؛ **المنهاج الواضح في تحقيق كرامات أبي محمد صالح**، الكتاب كله ؛ **رحلة العبدري**، 280 ؛ **مفاخر البربر**، 77-78 ؛ **الديباج المذهب**، 210 ؛ **كفاية المحتاج**، 227/1 ؛ **توشيح الديباج**، 108 ؛ **البستان**، 116 ؛ **سلوة الأنفاس**، 43/2-44).

(105) بغية الرواد 118.

سلاح سيدي أبي مدين، رضي الله عنه، مرقعته وفركينه، وهو المظلة التي كان يجعل على رأسه، وسجادته وعكازه الذي كان يتوكأ عليه، وهو الباقي الآن من سلاحه بيدنا. وأما غيره، فقيل إنه ضاع من عنده، وقيل إنما ضاع من عند ابن اللجام، في دخلة تلمسان، سنة ستة وأربعين، حين دخلها عنوة، الأمير أبو زكريا ابن عبد الواحد[106]، وكان قد استباحها. وفي هذه الدخلة[107]، ذهب أكثر ما كان بيد أبي عبد الله الأكبر، والد جدي، رحمة الله عليهم.

حدثني الشيخ الصالح، أبو العباس ابن القطان، وعمي، رحمهما الله تعالى، عن جدي، عن أبي، قال : لما قرب الأمير أبو زكرياء من تلمسان، اجتمع إلى أهل مرسى الطلبة، وقالوا لي : نجعل أسبابنا في دارك. فقلت لهم : هؤلاء القوم لا يعرفونني ولا أعرفهم. فقالوا لي : فكيف نعمل ؟ فقلت لهم : يا إخواني ! نحن من الناس. فقالوا لي : لا بد أن نجعل أسبابنا في موضع واحد. فقال لهم شخص، كان يخدم الشيخ : هذه مصرية الشيخ، وفيها مطبق يدخل منه لبرجة، وهي ما بين سقفين للجامع المتصل بمصرية الشيخ، فاجعلوا جميع أسبابكم فيها. فعزموا على ذلك، وكان في المصرية تاجر أندلسي، قد جاء بسلع من تونس، من أصحاب الشيخ، وكان منقفلا[108]، فجمعوا أسبابهم وأسباب التاجر، فجعلوها في الموضع المذكور، وتفرق الناس، فأكثرهم اختفى في القنوات والمطاهر والصبور[109]،

(106) مؤسس الدولة الحفصية بإفريقية، حكم ما بين سنة 627 و647 هـ/1228-1249م (الزركشي، تاريخ الدولتين، 55-69).

(107) ينفرد ابن مرزوق بإيراد سنة 646 هـ تاريخ دخول الخليفة الحفصي مدينة تلمسان عنوة. فالمصادر الأخرى تقدم تواريخ مختلفة. ويبدو أن الأمير أبو زكرياء الحفصي قد حاصر مدينة تونس في شهر شوال من سنة 639 هـ/1241م أو في أواخر محرم 640 هـ/يوليوز 1242م، في جيش ضخم. وأخذها عنوة في شهر ربيع الأول من سنة 640، و"عاثوا فيها بقتل النساء والصبيان واكتساح الأموال". إلا أن المصادر تختلف في تحديد الجهة التي تمّ منها اقتحام المدينة (من باب إيلان أم من باب كشوط؟) كما تختلف في شهر هذا الاقتحام (صفر أم ربيع الأول؟) (انظر : ابن عذاري، **البيان المغرب** (قسم الموحدين)، ص 361 ؛ الزركشي، تاريخ الدولتين، 62-63 ؛ ابن خلدون، **العبر**، 95/7 ؛ **الذخيرة السنية**، ص 61) وفي **بغية الرواد**، (ص 205) تحرك أبو زكريا إلى تلمسان سنة 640 هـ/1242م. وينفرد التنسي (**نظم الدر والعقيان**، 117) بتحديد حصار تلمسان واقتحامها بسنة 645 هـ/1247-48 م روبار برونشفيك، **تاريخ إفريقية في العهد الحفصي**، 41/60).

(108) في ب : متغفلا.

(109) في النسختين : والشروب. والصحيح ما أثبتناه، وهي قنوات صرف الماء.

والمواضيع الغائبة، فإنهم كانوا سمعوا النداء بالإستباحة، وقالوا للأندلسي : اخرج. ودخل الشيخ أبو عبد الله، وولده، جدي، أبو عبد الله المذكور، المسجد. فلما دخل البلد، أخذ جهة مرسى الطلبة من وزرائه وخواصه، ابن أحجازير. فلما جاء إلى باب الدرب، جلس على دكانة بباب الدرب، وقال : انظروا من فيه. فعرف بالشيخ، فقال : سلوا عنه، فلا سبيل إليه، ولا لمن يليه. فقيل له : هو في المسجد. فقال : دعوه، ولا تتعرضوا له، ولا لداره. فدخل خدامه الدرب، وتفرقوا، والأندلسي في مصريته، فنقر أحد الخدام على المصرية، فأجابه الأندلسي، ونزل إليه بثياب بيض، وشاشية حسنة، على تودة، بقبقاب في رجليه، فقال له : من تكون؟ فقال : أندلسي تاجر. فقال له الخديم : تعالى إلى الشيخ وخبره. فقال لهم : الموحدون أنتم، ومن أين دخلتم، فهدّده أحدهم. فقال لهم : لا تهددوني، ولا نهددكم. جميع ما رزقني الله وأهل هذا الزقاق المغابن، في هذا الموضع، وأشار إلى موضع الأسباب. فاحتمل جميعها، وكانت فيه أموال لا تحصى كثرة، للشيخ أبو عبد الله المدخس[110]، وإخوته، وبني اللجام[111]، القاضي والخطيب[112] وإخوانهما، وابن حسون، وابن الجلاب، وغيرهم من أرباب الأموال الطائلة. قال عمي، رحمه الله تعالى، عن أبيه : إنه لم يسلم له إلا سلك كان بيده، وبطنية كانت على وسطه. فنعوذ بالله من الفتن، ومن المحن، ومن تقلبات الزمان.

ومن معاصريه، وهو في عدد مشايخه، العالم الصالح، الولي العارف، أبو زكريا يحي بن الصيْقل[113]، إمام وقته زهداً وورعاً، صاحب كرامات وأحوال. أخذ في أول عصره، وفي شبيبة من عمره، ثم تخلى وتبتل، وكان أكثر ملازمته للمقابر والمساجد الخربة، خارج البلد[114]. وكان محدثا، انتفع به كثير من صلحاء تلمسان وعلمائها.

(110) سيرد لاحقا بصيغة "المرخس".

(111) في أ : اللحام.

(112) هو القاضي الإمام أبو إسحاق إبراهيم بن علي بن اللجام القاضي المشهور بالعدل والصرامة في الحق (بغية الرواد، 118).

(113) ابن مريم، البستان، 305 ؛ بغية الرواد، 115-116.

(114) ويقول عنه يحيى ابن خلدون "لا يكاد يفارق القبور والمساجد توحشا من الخلق" (بغية الرواد، ص 116).

حدثني الشيخ أبو العباس ابن القطان، رحمه الله، عن سيدنا الشيخ الولي، الخطيب، الصالح العارف، أبي العباس أحمد بن منصور، ابن صاحب الصلاة[115]، أنه ذاكره يوما في شأن تلمسان، وأن أحوالها تبدلت، وأنه كثر فيها المنكر، وقلّ فيها الحلال الذي كان غالب قوت خيار أهلها، وكانت قد اشتهرت بذلك بين البلاد، قال : فأكثرتُ عليه من هذا، وهو خارج من باب العقبة[116]، وأنا أرغب منه ألا يخرج عنها، فإن كونه فيها ترجى معه البركة والسلامة. فلما توسطت معه الزيتون الذي خارج باب العقبة، ويخرج منه للموضع المعروف بالطاهري، قال لي : يا أبا العباس ! أتلومني على الخروج منها؟ انظر إلى ورق الزيتون، ففيه جوابك. قال : فالتفت إلى ورق الزيتون، فإذا على كل ورقة مكتوب بخط أصفر بيِّن : هذه بلدة غضب عليها. قال : فرجعت عنه وأمسكت.

وهو من الأكابر، دفن بتلمسان، خارج باب العقبة، وقبره معروف، وله عقب موجود الآن بتلمسان، لكن فيهم من خالف، مثلي، طريق سلفه وتخلف، فدخل في نمط العمالة والولاية[117]، لطف الله بنا أجمعين، وردنا إليه بفضله.

ومن خواص أصحابه، سيدنا الشيخ، أبو العباس أحمد بن منصور، ابن صاحب الصلاة[118]، خطيب جامع تلمسان القدمى، وبركة وقته.

كان أحد العلماء العباد الأتقياء، الأشداء في إنكار المنكر. وكانت له كرامات، يتحدث بها في تلمسان[119].

(115) ابن مريم، **البستان**، ص 55 ؛ **بغية الرواد** 116.

(116) باب العقبة : يقع في شرق المدينة، وهو الباب القديم الذي ظل قائما منذ تأسيس مدينة "أكادير" (الإسم القديم لتلمسان)، بني بأحجار من بقايا الرومان. وقد انهارت بقايا باب العقبة واندثرت في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي (عبد العزيز فيلالي، تلمسان في العهد الزياني)، ج 1، ص 112.

W et G Marçais, *Les monuments arabes de Tlemcen*, Paris, 1903, p. 14 et 123-124

(117) يقول صاحب **بغية الرواد** (ص 116) : "وله الآن بتلمسان ولد على غير هدية، نجباء فيما ولوه من أمر السلطنة".

(118) **بغية الرواد**، ص 116.

(119) يقول ابن مريم عنه : "من العلماء العابدين، ومن أهل الكرامات والإخبار بالغيب، والدين والصداقة" (**البستان**، 55).

أخبرتني الصالحة المباركة، فاطمة بنت الشيخ العالم، أبي عبد الله محمد بن عبد العزيز–[120] وبنو عبد العزيز من أجل بيتة تلمسان، أهل علم وعدالة وقضاء، وثقة وأمانة، وكانت حفيدة أبي العباس، ابن صاحب الصلاة، لبنته– أنه كان لا ينام الليل، وأنه كان يخبرهم بالكوائن والوقائع.

وحدثني غير واحد من الشيوخ، أن شيخنا، الفقيه القاضي الخطيب، أبا عبد الله محمد بن منصور، بن علي، بن هدية القريشي[121]، دخل في صغره يصلي التراويح في الجامع الأعظم، موضع إمامة الشيخ، أبي[122] العباس، فجاء الشيخ وقال له : يا بني! دع الصلاة فيه للشيوخ حتى يأتي وقت تكون خطيبه وقاضيه، والناظر فيه. فكان كذلك. أدركنا هذا القاضي خطيبا بالموضع، وناظرا فيه، وقاضيا .

فانظر، وفقك الله تعالى، ما بين الوقتين، وقت ذكر فيه إمامة أبي عبد الله ابن هدية، في التراويح، وكان من كان علما وصلابة في الحق. ومن الناس من زاد في هذه الحكاية ما كرهت ذكره.

وأبو عبد الله ابن هدية، أحد قضاة العدل، وأئمة اللسان والآداب، ونفوذ الأحكام، والبصر بالوثائق، غاية في ذلك كله، عفيفا طاهراً، دينا وهو من ولد عقبة ابن نافع القريشي الفهري، قديم الاستطان بتلمسان، وخلف ولداً خلفه وزاد عليه في المعارف، أبو علي[123] منصور، وتولى الخطبة بعده، فقام بها خير قيام، وكان من العلماء، رحمة الله تعالى عليه. وله خلف مبارك، وعقب معروف الآن. وخلف أيضاً أبو العباس أحمد؛ رجلا منقبضاً، لا يعرف إلا الخير، له بصر بالوثائق، وناب في الخطة أحياناً، ورحل وروى، ومات، رحمه الله تعالى،

(120) من بين أفراد هذه الأسرة الذين استقضوا، نجد الفقيه أبا عبد الله محمد بن عبد العزيز الذي كان قاضيا للسلطان أبي زيان بن أبي سعيد بن أبي يحيى يغمراسن وللسلطان أبي حمو بن أبي سعيد (**بغية الرواد**، 210، **البستان**، 307).

(121) سبقت ترجمته.

(122) في النسختين : أبا.

(123) في الأصل : عبد الله. وهو الفقيه أبو علي منصور بن محمد بن هدية. ولي القضاء بعد أبيه، فقام به خير قيام، وخطب بالجامع الأعظم من أجادير (**بغية الرواد**، 116-117).

وخلف، لا أدري الآن منهم من هو حي. ونال هذا القاضي بالوجاهة والظهور، ما لم ينله غيره، رحمة الله على الجميع.

رجعنا إلى أخبار أبي العباس ابن منصور. حدثتني حفيدة فاطمة المذكورة عن ولدها الخير أبو عبد الله محمد بن أحمد بن النجارية، أنه كان يجلس بإزاء داره، فلا يأتيه ضعيف ولا ذو حاجة، إلا وأتاه وقضى حاجته، وأن المرضى كانوا يقصدونه فلا ينصرفون عنه إلا وقد ظهرت له دلائل النجح، وكان يعطي من فواكه جنانه أكثر أهل البلد، ويعم مع ذلك عائلته وأهله. وقد رأيت غيره مرة، وظهرت لي آثار بركاتها. وكان بإزاء داره حجر أزرق يجلس عليه إذا جاء من الجامع، فرأيت ذلك الحجر، والناس يقصدونه للاستشفاء والتبرك، نفع الله به. دفن في مقبرة سلفه بباب العقبة. وروضتهم معروفة بهم إلى الآن. وله سلف كثير، منهم :

القاضي أبو عمرو عثمان(124)، الذي بنى الجامع العلوي وحضره المهدي وعبد المؤمن بن علي(125)، وأوصى به المهدي(126) عبد المؤمن شراً، وقال إن صفير الصاد من قوله لي : "عليك بخويصة نفسك" في أذني فكان من شأنه ما ذكره المؤرخون(127).

ومنهم الإمام أبو الحسن(128)، شارح الأحكام(129)، بيتة علم وديانة، مع

(124) **أبو عمرو عثمان بن صاحب الصلاة** : حفيد القاضي الأمير أبو عمرو عثمان شارح الأحكام الصغرى. من أهل العلم والدين والرياسة على أهل بلده (**بغية الرواد**، ص 116).

(125) عبد المؤمن بن علي الكومي. أول خليفة لدولة الموحدين وواضع أسسها. توفي سنة 558 هـ/ 1163 م.

(126) المهدي ابن تومرت، أبو عبد الله محمد بن عبد الله المغربي السوسي. مؤسس ومنظر الحركة الموحدية التي أفضت إلى نشوء دولة الموحدين. توفي سنة 524 هـ/1129 م (كتب عنه الكثير. انظر على سبيل المثال الدراسة الشاملة التي خصه بها الدكتور عبد المجيد النجار، بعنوان : **المهدي ابن تومرت، حياته وآراؤه وثورته الفكرية والاجتماعية وأثره بالمغرب**، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1983.

(127) في بغية الرواد (ص 116) "قتله عبد المؤمن بن علي بوصاية من المهدي إذ قال له : "اقتله فإن صفير الصاد من قوله لي "اشتغل بخويصة نفسك : في أذني حتى الآن".

(128) **أبو الحسن علي بن منصور بن هدية**. خطيب الجامع الأعظم، وصدر من صدور الدراية والتدريس (**بغية الرواد**، 117).

(129) توجد نسخة مخطوطة منه في خزانة الجامع الكبير بمكناس، منه ميكروفيلم في الخزانة العامة بالرباط.

استقامة. وهم خزرجيون، ولا أدري لهم عقب الآن، إلا من جهة البنت لأبي العباس ابن منصور. كانت له ولادة على أبي أحمد بن عبد الرحمان بن النجارية، وبني عبد العزيز، وبنو مروان القباب، وغيرهم.

وأما بنو صاحب الصلاة التجيبيون، فليسوا من القدماء بتلمسان، وإنما ظهر منهم بالطلب أبو عمرو وميمون ثم انقرض الطلب منهم، فيما علمت، وله ولد عهدته بسبتة، وآخر بهوارة.

ومن خواص أصحابه، الشيخ الإمام العالم، السالك العارف الشهير، أبو عبد الله محمد بن عيسى[130]. من أهل تلمسان القدماء، أحد العارفين المتصرفين المنظرين.

حدثني ابن القطان في آخرين، قالوا : كان أبو عبد الله بن عيسى، نفع الله به، يصبح أياما وقد لبس أفخر الثياب مما يحاكي بلبسه الملوك، ثم يصبح أياما في مرقعة لا شيء دونها. ثم يصبح أياما مستحلا في كساء[131]. وكان يتصرف في الولاية والعزل، وغير ذلك، من المستفيض المشتهر الذي أدركت الناس يتحدثون به تواتراً بتلمسان. ورأيت خلائق ما شهده جميع من حضر جنازته. وكانت جنازة حفيلة لم يتخلف عن حضورها أحد، وأنه لما وضع على شفير قبره تساقط الطير عليه كما تساقط الذباب على الطعام، وأكثره الخطاطيف. ثم لما أدخل في قبره تساقطوا عليه في القبر حتى منع الحافرين من أن يهيلوا عليه التراب، إلا بعد مدة. قال لي غير واحد ممن حضر : رأيت الحفارين يرفعون المسحاة دون أن يصيبوا الطير، والطير مع ذلك تتوافى بين أقدام الناس[132].

وله أحوال عظيمة، نفع الله به، وصلوات الله وسلامه على سيد الخلق، وهاديهم من هذه أمته، حشرنا الله في زمرته، وجعلنا ممن يشفع فيه من أمته، وأراني بركة التوسل بهؤلاء الأولياء إليه في أن يشفع في خلاصي دنيا وأخرى.

(130) **بغية الرواد**، 117 (وهو غير أبي عبد الله بن عيسى، الفقيه الصالح الورع صاحب الترجمة رقم 27 ص 112 من نفس المصدر، وترجمته كذلك في **البستان**، ص 224) محمد بن عيسى ترجمته في ص 225 من **البستان**.

(131) يقول صاحب **بغية الرواد** بهذا الصدد (ص 117) : "تارة تراه في زي الملوك ومرة في زي الرهبان".

(132) نفس المعطيات نجدها (مع اختلافات بسيطة في اللفظ) في **بغية الرواد** (ص 117).

ومن أصحابه : الشيخ الخطيب، الصالح الصوفي، المحقق، سيدي أبو عثمان سعيد[133]، بن سيدنا الشيخ الصالح الولي الزاهد، أبو إسحاق إبراهيم بن علي الخياط[134]، كبير إخوانيْ عبد الله بن عيسى لأمه. من كبار المتصوفة، رحل وراء الأكابر، وتربى وربى، وجلس على سجادة الإرشاد، ولبس الخرقة من طريق أبي العباس الرفاعي[135]، ومن طريق سيدي أبي مدين[136]. وكان شيخ الفقراء.

أدركته، وأكلت ولبست من يده. وكان كبير الشأن، وتوجه في الرسالة[137] عن سلطان تلمسان إلى ملك المغرب، السلطان أبي سعيد[138]، وأكرم نزله وعظمه. وكان له خاطر فعال، ودعاء مستجاب، كان يتناوب الخطابة والإمامة مع الخطيب الصالح أبي عبد الله ابن الصالح أبي الحسن ابن الحمال[139]، تارة يتقدم هذا، وتارة يتقدم هذا. وخطب مدة بالجامع الجديد، وله عقب مبارك. خلفه ولده الخطيب الصالح، المقرىء المحسن، الحاج أبو عبد الله، في الخطابة. وخطب مدة في حياته، ورحل معنا في رحلتي الثانية، سنة أربع وثلاثين، فحج ورجع، وتوفي في قفوله لبلده، بمدينة توزر من بلاد الجريد[140]. وله ولد حاج مبارك فقير، وخلف ولده الصوفي المبارك، الصالح السالك، أبو العباس أحمد، شيخ

(133) **أبو عثمان سعيد بن إبراهيم بن علي الخياط** ت 729 هـ. (**نفح الطيب**، 241/5 ؛ **الإحاطة**، 201/3 ؛ **أزهار الرياض**، 57/5).

(134) توفي سنة 729 هـ ترجمته في : **بغية الرواد**، 118 ؛ **نفح الطيب**، ج 7 ص 165 و313 ؛ **البستان**، 57 ؛ **أزهار الرياض**، 57/5.

(135) الشيخ الصوفي أبو العباس أحمد بن علي الرفاعي، شيخ الطريقة المنسوبة إليه. (ت 578هـ). انظر ترجمته في : ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، 492/11 ؛ **وفيات الأعيان**، 172/171/1 ؛ **الوافي بالوفيات**، 219/7 ؛ **البداية والنهاية**، 312/12، **مرآة الجنان**، 409/4-412 ؛ **النجوم الزاهرة**، 84/6-85.

(136) نفس العبارات تجدها عند يحيى ابن خلدون في **بغية الرواد**، ص 117.

(137) عن هذه الرسالة انظر : **المسند**، ص 121.

(138) **السلطان أبو سعيد عثمان** بن يعقوب بن عبد الحق. بويع بعد السلطان سليمان ليلة الأربعاء ثاني رجب عام 710 هـ، وتوفي بعلة النقرس ليلة الجمعة 25 ذي القعدة سنة 731 هـ وله 56 سنة، ودفن بشالة. (**روضة النسرين في دولة بني مرين**، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، ط 2، الرباط، 1991، ص، 34).

(139) **بغية الرواد**، 117 ؛ **نفح الطيب**، 242/5 (ويرد فيه باسم الجمّال بالجيم).

(140) **بلاد الجريد** : تمتد من تخوم بسكرة إلى جزيرة جربة، وهذه البلاد شديدة الحرارة وقلما ينزل فيها المطر، ولا تنبت فيها الحبوب، ومع ذلك فإنها تنتج كميات وافرة من التمر الجيد، ولهذا سميت ببلاد الجريد، أي بلاد التمر.

الفقراء اليوم بتلمسان، وهو [الذي قام] مقامه في التقدم، وهو من خيار الناس، طيب نفس وسذاجة باطن وحسن تخلق.

ومن أصحابه أيضا : الشيخ الصالح، أبو العباس أحمد(141)، أخو الخطيب أبي عثمان سعيد المذكور آنفا، وكان من الصلحاء الخيار، ومن العارفين بكتاب الله، التالين له، المتطورين(142). وله كرامات ظاهرة، كان السلطان أبو يعقوب(143)، لما حاصر تلمسان(144) سجنه في القيود، فلما سمرت عليه القيود انحلت، فأعيدت، [فتكسرت] فأمر بسراحه، فامتنع ؛ فإنه لما دخل إلى السجن وجد فيه خلائق لا تحصى كثرة، فأرشدهم إلى الصلاة، وأمرهم بالقراءة(145)، فتعلقوا به، فقال لهم : والله لا خرجت إلا معكم أجمعين. فاتخذ موضعاً من المسجد للتعليم، فسمعت من مشايخ أنه قرأ عليه نحو من سبعمائة نفس، وكان الناس يدخلون إليه من البلد للتجويد [عليه، وربما قصده] أهل بلاد المغرب من بلادهم، فأقام على هذا الحال سنين، حتى خرجوا أجمعين يوم وفاة السلطان، أبي يعقوب(146). وسمعت أنه قال لهم يومئذ : تأهبوا للخروج.

---

(141) **بغية الرواد**، 117-118 ؛ ابن مريم، البستان، 30.

(142) كذا في النسختين. ولعلها : المتنورين.

(143) يوسف بن يعقوب بن عبد الحق، السلطان **أبو يعقوب المريني**، بويع في غرة صفر سنة 685هـ/ 29 مارس 1286م وقتل في ضحى يوم الأربعاء 7 ذي القعدة عام 706 هـ ودفن بشالة (**روضة النسرين**، 30-31 ؛ **روض القرطاس**، 374).

(144) ضرب السلطان أبو يعقوب الحصار على مدينة تلمسان عام 698 واستمر الحصار قائما ثماني سنين وثلاثة أشهر إلى أن تم اغتيال السلطان يوم 7 ذي القعدة من عام 706 هـ. وقرر خليفته السلطان أبو ثابت رفعه. وقد خلف هذا "الحصار الأكبر" عددا من الموتى من أهل تلمسان "قتلا وجوعا" قدرهم يحيى ابن خلدون بزهاء مائة وعشرين ألفا. (**روض القرطاس**، 386 ؛ **بغية الرواد**، 211 ؛ **نظم الدر والعقيان**، 130-135؛ **العبر**، 261/7، 111 وانظر **الفصل التمهيدي** من هذه الأطروحة).

(145) يقول يحيى ابن خلدون : "تفقه السلطان أبو يعقوب المريني، فلما كبل، تكسرت عنه القيود، وألفى بالسجن أزيد من سبعمئة رجل فأخذهم بالقراءة والصلاة، فكان أمرهم في ذلك عجبا. وكان الناس يقصدونه بالسجن لتجويد القرآن" (**بغية الرواد**، ص 117-118).

(146) اغتيل بظاهر تلمسان في ضحى يوم الأربعاء السابع لذي القعدة عام 706 هـ/1307م وله 66 سنة ودفن بشالة. ابن الأحمر، **روضة النسرين**، م. س.ص 30-30 ؛ **الذيل والتكملة**، السفر 8، ص 69 ؛ **روض القرطاس**، ص 388 ؛ **رحلة التجاني**، ص 220، 197 ؛ **الإحاطة**، 4357 ؛ **العبر**، 307/7، 129-308؛ **رحلة ابن خلدون** 77 ؛ **بغية الرواد**، 124/123/1 ؛ التنسي، **نظم الدر والعقيان**، 133, الوزان، وصف افريقيا، 17/2-18 ؛ **جذوة الاقتباس**، 471/2. وعن أسباب وظروف اغتيال هذا السلطان انظر : =

وكان أحسن الناس خلقاً، يمر بالصغير والخادم، فيدعو ويمسح على الرؤوس. ودعاؤه مرجو الإجابة. وكان يحسن ظنّه بجميع خلق الله.

رأيته وتبركتُ به. سمعت الناس يوما يتحدثون عنه، فقالوا : أحواله اليوم غريبة، وهي أن رجلا كان له متاع خارج البلد، وشيء من الفلفل يحمله على بغلته، لأن يدخل به البلد، وكان عليه مغرم ثقيل. فلقي الشيخ أبا العباس، وهو داخل البلد، فحلف عليه التاجر أن يركب بورائه، فركب. فلما رآه ركب، هرب رجاء أن لا يتعرض له في الباب، فيسلم من المغرم. فلما دخل، قال له البواب : سيدي أحمد! ما هذا الذي تحتك ؟ فقال له : وأي شيء يكون تحتي؟ المتاع والفلفل، في معرض التهكم . قال له : أدخل يا سيدي، فلما دخل إلى البلد، جاء التاجر إلى دابته، فقال له : يا بني! حيرتني، فإن زرعك هذا سُئلتُ عنه، فقلت كذا. فقال له التاجر : هو والله ما قلت، يا سيدي. وكان الشيخ يظنه زرعاً. وبركاته معروفة.

خلف ولده الفقيه المبارك التالي، أبا إسحاق إبراهيم، وخلف إبراهيم ولده الفقيه العدل، الخطيب الصالح التقي، أبا العباس أحمد، الخطيب الآن بتلمسان القدمى، من خيار الفضلاء.

ومن خواص أصحابه : والدهما الشيخ الصالح، التقي المتخلق، المتبرك به، أبو إسحاق ابراهيم بن علي الخياط(147). كان جدي، رحمه الله، يعتقده ويجتاز به، ويجلس إليه، وكان من كبار الصالحين المعظمين بتلمسان، وكان يتعيش بالخياطة، وكانت له حانوت يجلس فيها للخياطة، بموضعهم المعروف بهم الآن بالقبابين، من تلمسان.

حدثني شيخنا أبو العباس أحمد القطان، في آخرين، أنه كان لا يقصده أحد للتوسل به في قضاء حاجة إلا قام معه. فربما دخل على السلطان المرحوم أبي

= محمد ياسر الهلالي، "اغتيال السلطان يوسف بن يعقوب المريني : قراءة في نصوص تاريخية ومناقبية لحادثة المنصورة"، ضمن كتاب : **التاريخ والفقه. أعمال مهداة إلى المرحوم محمد المنوني**، تنسيق محمد حجي، منشورات كلية الآداب الرباط، 2002، ص 229-259.

M. Kably, *Société, pouvoir et religion au Maroc...*, op. cit, pp. 104-109.

(147) **البستان** 57 ؛ **بغية الرواد**، ص 118.

يحيى[148]، في يوم سبعين مرة، مع نحوله ومرضه، وسلس[149] كان به. فربما قيل للسلطان في ذلك، فقال : دعوه ! هذا رحمة للناس. فما قضى الله يقضى، والله لا أبرأته ولا وددته. فرحم الله السلطان أبا يحيى، ونفع بالشيخ، وأعاد علينا بركاتهم. وكان الواجب ذكره قبل ولديه، رحمة الله عليه، وقبره معروف بتلمسان[150].

ومن أصحاب الشيخ : الصالح السالك، أبو الحسن علي بن محمد الحمّال، بحاء مهملة[151]. وكان من الصالحين المتبتلين، ومن أهل الفتوة. كان يجمع الضعفاء والواردين، فيقيم حالهم بداره التي بدرب ملالة، وهي التي وهبها له الشيخ الصالح الواعظ، أبو عبد الله محمد بن رشيد البغدادي، ناظم القصائد الوتريات [152] في مدح النبي، صلى الله عليه وسلم. ورد من بغداد مدة، ثم رحل عنها. وأخباره في كتاب "الذيل والتكملة" لـ[أبي[153]] عبد الله ابن عبد الملك[154]، وغيره. وكان يحضر ليالي الشيخ ومجالسه. حدثني بذلك شيخنا، أبو[155] عبد الله، ولده[156]. وكان أبو عبد الله هذا، من الخطباء الصلحاء، المفوهين المسددين، وإن لم يكن لديه كبير علم، ولكنه يسدد فيما يجمعه ويلفقه، وكانت له قريحة ونية صادقة، فيفعل في القلوب، رحمه الله. حضرت له في عدة جمع

---

(148) أبو يحيى يغمراسن بن زيان. سبقت ترجمته.

(149) سلس : بول الرجل إذا لم يتهيأ له أن يمسكه. وفلان سلس البول إذا كان لا يستمسكه (**لسان العرب**).

(150) نفس المعطيات نجدها في **بغية الرواد** (ص 118) وفي **البستان** 57، مع اختلافات طفيفة في العبارة.

(151) **بغية الرواد** ص 118.

(152) محمد بن رشيد البغدادي. يعرف بالوتري لأنه نظم الوتريات، وهي قصائد على حروف المعجم تتألف كل واحدة من 21 بيتا في مدح الرسول ﷺ وأول كل بيت على حرف القافية، بدأ نظمها بغرناطة سنة 652 هـ ثم زاد فيها وعدل منها، وحج سنة 661 هـ وقد نشرت باسم "**ديوان معدن الإفاضات في مدح أشرف الكائنات**" بيروت، 1310، وقد عارضها وخمسها وشرحها بعض الأعلام (انظر **نفح الطيب**، 242/5، هامش 1 **الذيل والتكملة**، 275/1/8).

(453) في النسختين : لعبد الله. والصحيح ما أثبتناه.

(154) انظر : **الذيل والتكملة**، السفر الثامن، القسم الأول، ص 274-280.

(155) في النسختين : أبي.

(156) **بغية الرواد**، 118 يصفه بـ "أحد الخطباء المفوهين الصلحاء".

وأعياد ومواطن استسقاء، فكنت أجد لكلامه، مع صغري، وقلة فهمي، فعلا في نفسي. وكان تأخيره من الخطبة لغير موجب، بل لغرض، رحمة الله تعالى عليه، ونفع به.

ومن خواص أصحابه، وهو في عدد مشايخه، فإنه كان يحاوره ويصلي معه، ويحضر مجالسه : القاضي الإمام، العلامة، أبو إسحاق إبراهيم بن علي، ابن اللجام[157]. وكان من قضاة العدل، وأهل الصرامة والصلابة في الحق. وكان أشد الناس بصراً بالشروط والوثائق، وأبرعهم خطا. رأيت خطه، غير مرة، خطا بارعاً إلى الغاية. وكان من العلماء ممن يجلس للإفادة والإقراء. وكان نزيه النفس، عالي الهمة، موسوعا عليه. حدثني غير واحد، أنه كان إذا تداعى له الخصوم، أدى عن المعسرين.

وحدثني غير واحد، أن السلطان، رحمه الله، ذكره في مجلسه، فقال كبير من كبراء حضرته يحقره، أليس هو ابن أناظ؟ [158]، وهذه اللفظة، عند زناتة عبارة عن الحدّاد، أليس هو ابن حداد؟ يعني لشهرته بابن اللجام. فبلغه الخبر، فقال : اللهم أدعوه للشرع. فما كان إلا نحو ثلاثة، وإذا به قد أوتي به سكراناً، فقال لهم السلطان : يحمل للشرع. فلما قام عليه الحد، قال له : ترى ابن أناظ أقام عليك الحد كتاب الله ؟[159] وكان ذا فراسة جيدة[160].

حدثني عمي، رحمه الله تعالى، قال : كان هذا الموضع، المعروف بمرسى الطلبة، دربا واحداً، ويقال أنه كان يجتمع في مسجده نحواً من أربعين، بين مدرس وصاحب فائدة، وشهرة فائدة، كانوا كأنهم إخوة، من غاب عن شهود الصلاة وصلوا إلى منزله ليعرفوا حاله، والضعيف منهم يواسيه القوي. وكان يسكن معهم بالدرب مياسير من أهل الخير، كأبي عبد الله المرخس[161]، وغيره، وكان من مشاهير الأولياء، وكان لا يدخل أحد من باب الدرب إلا من هو من سكانه، ومن

(157) بغية الرواد، ص 118.

(158) في أ : الأناظ.

(159) انظر رواية مشابهة لهذه في بغية الرواد، ص 118.

(160) ب : فراسة وخبرة. وكلمة "جيدة" مصححة في هامش أ.

(161) سماه سابقا : أبو عبد الله المدخس.

جاء زائراً، يستأذن عليه من رجل وامرأة. وإن جاء حطب أو فحم، يوضع بباب الدرب، ويخرج أصحابه لإدخاله. وكان هذا القاضي يجلس في المسجد، فيحكم بين الرجال من الطاقة الكبرى، وبين النساء من جهة الدرج من الطاقة الصغرى، يُدخَل من باب الدرب الخصمان فقط. وكان الصبيان يقرأون تحت المسجد، في مساطب بُنيت، يمر بهم الداخل. قالوا : فجلس يوما القاضي وحده، فرأى رجلين حديثي السنين، دخلا ثم خرجا، فدعا بالبواب، وقال له : لمن دخل هذان ؟ فقال : لا علم لي. فعاتبه، ودعا بهما، فسألهما، فاختل أمرهما[162] لاختلافهما، فقال لهما : أصدقاني، إنما جئتما قاصدين لهذا المكتب قصد سوء. فاعترفا وتابا، ومنعهما ألا يَخرُج صغير[163] من الدرب إلا مع أبيه، أو من يقوم مقامه.

هذه حكاية عرضتْ تدل على ما كانت عليه الأحوال، وعلى ما عرض من النقص، لا يكاد اليوم هذا المسجد تقام به الجماعة. ولا أعلم داراً واحدة بقيت لمن كانت له، ممن أدركته، فضلاً عمن تقدم. ودار هذا القاضي هي التي تقابل دارنا، وهي اليوم لابن الطويل.

فسبحان سيد الكل، ومفني الخلائق، وصلوات الله على سيد المرسلين، محمد الكريم، فهو القائل : "يذهب الأمثل فالأمثل، حتى لا يبقى إلا حثالة، كحثالة القمح والشعير، لا يعبأ الله بهم"، الحديث[164]. والقائل : "في كل عام ترذلون، ولا يأتي زمان إلا والذي بعده شر منه"[165]، إلى غير ذلك مما أنذر به، ولكنا لا نعقل. جعلنا الله ممن استبصر وتاب، واستغفر ونظر، فاعتبر وقطع في خدمة الله وطاعته، ما بقي له من عمره، بحرمته، صلى الله عليه وسلم.

ومن أصحابه : إمام مسجده، الشيخ الصالح، المقرىء، أبو عبد الله المستاري[166]، وابن أخيه، أبو محمد عبد الواحد[167]، الإمام بعده، والمعلم في

(162) في ب : أخبارهما.

(163) في النسختين : صغيرا.

(164) صحيح البخاري، كتاب الصلاة، 88.

(165) صحيح البخاري، فتن، 4 (نقلا عن "المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي"، لونسيك، ج 2، 1943، ص 342.

(166) في بغية الرواد، ص 118 المستاوي.

(167) نفسه.

مكتبه. وكانا من الصلحاء الأتقياء. شُهرا بالديانة والخير، وكانا يعلمان القرآن، ولا يأخذان عليه أجراً، في الأغلب، إلا من يرتضيان ماله من أصحابه الموسعين منهم. وإنما كانا يتعيشان من أرض لهما بالموقع المعروف بـ"اغلان" من بني مستار. وابن أخيهما هو الفقيه الخطيب الصالح، المقرئ الخَيِّر العفيف، أبو عبد الله[168]، الذي خطب بجامع القصبة من تونس المحروسة، وخطب قبل بجامع الزيتونة، ثم أُخِّر لسبب أذكره بعد، إن شاء الله تعالى، في ترجمة التّنسي، أبي الحسن، إن شاء الله تعالى.

ومن أصحاب الشيخ، أبي عبد الله، جدي، رحمه الله تعالى : الإمام العالم العارف الكبير، أبو العيش الخزرجي، الشهير[169]. وقد ذكره ابن عبد الملك في كتابه[170]، وغيره[171]. وكان من كبار الصلحاء والعلماء، ممن تخلى عن الدنيا وتاب لله عز وجل، من خدمة أهلها، فإنه كان كاتبا لبعض الأمراء[172]، فأجاب داعي الحق، منادي الهدى، فجانب طريق الردى، وتجرد عن الدنيا، فأماط عنه الأذى، فأذهب الله ما في بصيرته من ظلمة، وما في بصره من قذى. وكان من الخدام المقربين، والأولياء المهذبين. وتصانيفه تشهد له وتدل على مقامه. فكتابه في "شرح أسماء الله الحسني" عنوان درايته، وترجمان على مكانته. كان من

(168) هو أبو عبد الله محمد بن يعقوب المستاري، تلمساني الدار تونسي القرار. كان معلما لأبي حمو بن يغمراسن. خطب بالجامعين. أخر عن الإمامة "زورا وبهتانا". (ابن الطواح، **سبك المقال**، ص 172-173).

(169) أبو العيش محمد بن أبي زيد عبد الرحيم بن محمد بن أبي العيش الخزرجي، إشبيلي الأصل، أديب وشاعر ذو مشاركة في فنون العلم، مؤلف، وله في التصوف نظم حسن كثير. توفي بتلمسان ودفن خارج باب كشوطة. **بغية الرواد**، ص 103 ؛ **نيل الابتهاج**، 332 ؛ **الحفناوي**، **تعريف الخلف**، ج 2، ص 342-344، ابن مريم، **البستان**، ص 252-253.

(170) **الذيل والتكملة**، السفر الثامن، القسم، 2، تحقيق د. محمد بن شريفة، الرباط، 1984، ص 516.

(171) ابن الزبير، **صلة الصلة**، القسم الثالث، تحقيق د. عبد السلام الهراس والشيخ سعيد أعراب، الرباط، 1993، ص 37. ووردت الإشارة في **البستان** لابن مريم ص 159 إلى "محمد بن عبد الرحيم بن أبي العيش الخزرجي الخطيب بتلمسان".

(172) يقول ابن عبد المالك المراكشي بهذا الصدد : "كان أديبا بارع الكتابة... دخل الأندلس وكتب عن بعض الولاة بها ثم تخلى عن ذلك ولزم الانقباض، وآثر الخلوة والعزلة عن الناس ونبذ علائقه منهم" (**الذيل والتكملة**، 2/8/ ص 314).

خواص أصحابه، وولده الخطيب أبو زيد عبد الرحمن[173]، خطيب الجامع الأعظم وإمامه، من كبار العلماء والبلغاء الفصحاء، وصدور الشهداء. كان يخط خطا بارعا، وله نفوذ في علم الوثائق والشروط، ولم تزل هذه البيتة معمورة بمن يوصف بهذا الوصف. فخطب بعده ابنه محمد، ثم عبد الرحيم، ثم محمد، ابنه، ثم عثمان بن محمد الأكبر، ثم يحيى، ابنه. ولهم الآن عقب، خيارهم أبو زكرياء[174] يحيى بن محمد، بن عبد الرحيم، بن محمد، بن عبد الرحيم، ابن العيش؛ وهو من خيار العدول، متصرف مبارك. رحل وحج، وناب عني في الخطابة، بالجامع الأعظم من البلد الجديد، من المدينة البيضاء، فاس المحروسة، فشكرت خطابته.

ومن خواص أصحابه، الأقربين إليه، الفقيه الصالح، أبو عبد الله ابن البلد[175]. كان شديد الملازمة له، وكان من كبار الأولياء المتعبدين، يتعيّش بالنسخ، فإذا حصل له القدر الذي ينسخ به، تمسك منه بما يقوت به. وكان قوته الشعير والشحم، ويتصدق بالباقي.

وَحدثني سيدي الشيخ، أبو العباس ابن القطان، رحمه الله تعالى، قال لي : أدركته في آخر حاله يتصدق بالجميع، وإنما كان يتقوت بما كان يعطيه جدك، فإنه قام بمؤونته. قال : وكان يكسوه كل سنة فضلة من قطن وإحراماً خشناً، ففي كل سنة يقول : انظروا لي أخشن من هذه، بالخاء المعجمة، والشين المعجمة، وكانت له جبة صوف أقامت عنده سنين. وكان له إخوة من أهل الخير، ومع هذا لا يأكل لأحد منهم طعاماً. وكان خطه يقارب خط جدي، ففي كتاب "الشفاء" خطه وخط جدي، رحمه الله عز وجل، خط جدي، أوله وآخره وفي وسطه، وخطه في وسط الكتاب. وهذه النسخة بخط وليّيْن عارفيْن، ولا أدري ما كان منها في هذا الوقت الذي أوتي به على الكتب، وغيرها، والحمد لله، على كل حال.

---

(173) أبو زيد عبد الرحمان (أو عبد الرحيم) بن أبي العيش، عالم متفنن، ذو علم بالوثائق، خطيب الجامع الأعظم بتلمسان وإمامه. هو جد الفقيه أبي زكرياء يحيى بن محمد بن عبد الرحيم، صاحب الأشغال العلية بباب السلطان أبي حمو، **بغية الرواد**، 104 ؛ **روضة النسرين**، 69.

(174) في ب : أبو زيد زكرياء يحيى.

(175) في أ : ابن الباز. وانظر ترجمته في : **بغية الرواد**، 119.

ومن خواص أصحابه، وهو المتصرف في خدمة الفقراء، واستدعاء الأصحاب : الحاج الصالح، أبو عبد الله، المعروف بالحاج فرج. كان من الصالحين الخيار. وكان شيخنا، أبو العباس أحمد بن القطان، رحمه الله تعالى، يقول : إن الشيخ، رحمه الله تعالى، كان يخف عليه ويباسطه. وكان كثير الخشية، كثير الأوراد والأذكار، والتصرف في الحوائج، وإغاثة الملهوفين. ويصفه بأوصاف جليلة، رحمة الله عليه. وقبره بمسجد صالح أيضا(176).

ومن علية مشايخه، وأشك في أخذه عنه مباشرة أو بواسطة القراءات : الشيخ الولي، العالم العارف الكبير الشأن، القدوة، صاحب الكرامات المشهورة، والمقامات المأثورة، أبو يعقوب يوسف التفريسي(177). قال لي الشيخ ابن القطان : لا يكاد يمر وقت على سيدنا الشيخ إلا وهو يذكر مقامه.

حدثني شيخنا الخطيب الصالح، العالم المبارك الخاشع، أبو محمد عبد الله بن عبد الواحد المجاصي(178)، قال لي : يا بني! لا نظير لرَجلين : سيدي أبو يعقوب التفريسي، وجَدّك.

وحدثني هو، وابن القطان، وعمي، وغيرهم، أنه كان إذا تفرغ من إقراء الطلبة، يقول لهم : خلوا الفضل لإخوانكم. فيخرج، ويقوم إلى باب الجامع فيغلقه، وهو جامع الجُدار. قال : فيسمع القراءة عليه من خارج المسجد بأصوات مختلفة، من مؤمني الجن، وكان يخبرهم ويبلغ سلامهم لمن يسلمون عليه من الطلبة.

---

(176) يحيل على مسجد صالح من العباد الذي دفن به صاحب الترجمة السابقة، أبي عبد الله ابن البلد. **بغية الرواد**، 119.

(177) أبو يعقوب التفريسي (أو التيفريسي) من الأولياء الكبار، دفين باب وهب من أبواب تلمسان، (**البستان**، 296، **بغية الرواد**، 107، ابن صعد، **النجم الثاقب**، الجزء الثامن، **مخطوط الخزانة الداودية** رقم 53 ص ع ن، ورقة 111-112).

(178) أبو محمد عبد الله بن عبد الواحد بن إبراهيم بن الناصر المجاصي (ت. سنة 741 هـ/ 1340م : الشهير بالبكاء أيام مجاورته بمكة. أخذ عنه الخطيب ابن مرزوق الجد ونقل عنه في مواضع من كتبه، قال المقري في حقه : "عالم الصلحاء وصالح العلماء وجليس التنزيل وحليف البكاء والعويل"، كان خاشعا كثير البكاء حتى شهر به، كان لا يرفع طرفه إلى السماء حياء من الله وخشية، حج على حمار أربعا وعشرين حجة لا يركبه إلا عند الإعياء، مناقبه كثيرة لا تحصى، توفي سنة 741 هـ، وقبره، رضي الله عنه، مشهور بعين وانزروته (من باب الجياد) قرب العباد السفلى. (ابن مريم، **البستان**، 121، **المسند**، 390 ؛ **بغية الرواد**، 115 ؛ **نفح الطيب**، 230/5 وما بعدها؛ **أزهار الرياض**، 415 ؛ **نيل الابتهاج**، 218 ؛ **ألف سنة من الوفيات**، 111-193).

وحدثني ابن القطان، أن بعض الطلبة كان يحدث في نفسه أنه لا يراهم، وكأنه استبعد هذا، وتحدث في ذلك مع الطلبة، قال : فبينما هم مجتمعون في الحلقة، والجامع عامر[179]، إذ أقبل حنشٌ عظيمُ الخلقة داخلا من باب الجامع، فنفر الناس، فقال لهم : دعوه. فلما قرب من الشيخ، تمسح بأثوابه، وناوله من فيه براءة. فطلب الشيخ الدواية والقلم، وكتب في البراءة، ودفعها له، والناس جميعا ينظرون، فولى خارجا، فقال لهم : هذا من إخوانكم الجان، بغثه أصحابه من العراق بهذا السؤال ليوسف، يعني نفسه، فأجابهم[180]. وكان خطابه للمتحدثين في طلب رؤيتهم، وهو عظيم القدر، والدعاء عند قبره مرجو الإجابة، وقبره بالموضع المعروف بباب وهب[181]، مشهور، ظاهر متبرك به. ولا أدري هل بقي له الآن عقب من جهة الولد أو لا.

وكان حفيده سيدي الحاج يوسف بن يحيى بن يوسف، من إخوان والدي وعمي وأصحابهما. وكان من خيار الصلحاء، وكان له أولاد، انقرضوا وأولادهم، والله أعلم، في هذا الوباء الذي كان عام خمسين ونحوه[182] ؛ ففيه انقرض، وتغيرت الأحوال. ثم دهى تلمسان بعده، وفي زمانه اتصل من الفتنة ما اتصل إلى الآن! فأسأل الله تعالى اللطف الجميل، الذي يتكفل بصلاح الأحوال، وبلوغ الآمال، إنه جواد كريم.

---

(179) ب : غاص.

(180) انظر الحكاية في **البستان**، 296-297، وفي **النجم الثاقب**، 113/112/8 نقلا عن ابن مرزوق.

(181) هي إحدى أبواب الناحية الجنوبية لتلمسان.

(182) يتعلق الأمر **بالطاعون الأسود** (أو الطاعون الجارف حسب وصف ابن خلدون له) الذي ضرب افريقية سنة 749 هـ/1348-49 والذي أودى بحياة عدد من شيوخ العلامة ابن خلدون، وبوالده (**رحلة ابن خلدون**، 78، 74، 92). ولقد تفشى هذا الطاعون في العالم. قال صاحب "**شذرات الذهب**" 158/6 : "وفيها – أي في سنة 749 – كان الطاعون العام الذي لم يُسمع بمثله، عمّ سائر الدنيا حتى قيل إنه مات نصف الناس، حتى الطيور والوحوش والكلاب". ومن المعلوم أن هذا الوباء كان قد ألمّ بمعظم مناطق العالم القديم، وظهر أول ما ظهر في آسيا الوسطى سنة 1345 م قبل أن ينتقل عن طريق موانيء البحر الأبيض المتوسط إلى أوربا وإفريقيا الشمالية في الفترة المتراوحة بين سنة 748 هـ/1347 و752 هـ/1352م.

- Carpentier, E. Autour de la peste noire, famines et épidémies dans l'histoire du 14e siècle, *Annales, E.S.C.*, 1962.
- J. N. Biraben, «La Peste Noire en terre de l'Islam» in, *L'Histoire*, Revue mensuelle, Paris, n° 11, avril, 1979.

مكتبه. وكانا من الصلحاء الأتقياء. شُهرا بالديانة والخير، وكانا يعلمان القرآن، ولا يأخذان عليه أجراً، في الأغلب، إلا من يرتضيان ماله من أصحابه الموسعين منهم. وإنما كانا يتعيشان من أرض لهما بالموقع المعروف بـ"اغلان" من بني مستار. وابن أخيهما هو الفقيه الخطيب الصالح، المقرئ الخير العفيف، أبو عبد الله[168]، الذي خطب بجامع القصبة من تونس المحروسة، وخطب قبل بجامع الزيتونة، ثم أُخِّر لسبب أذكره بعد، إن شاء الله تعالى، في ترجمة التّنسي، أبي الحسن، إن شاء الله تعالى.

ومن أصحاب الشيخ، أبي عبد الله، جدي، رحمه الله تعالى : الإمام العالم العارف الكبير، أبو العيش الخزرجي، الشهير[169]. وقد ذكره ابن عبد الملك في كتابه[170]، وغيره[171]. وكان من كبار الصلحاء والعلماء، ممن تخلى عن الدنيا وتاب لله عز وجل، من خدمة أهلها، فإنه كان كاتبا لبعض الأمراء[172]، فأجاب داعي الحق، منادي الهدى، فجانب طريق الردى، وتجرد عن الدنيا، فأماط عنه الأذى، فأذهب الله ما في بصيرته من ظلمة، وما في بصره من قذى. وكان من الخدام المقربين، والأولياء المهذبين. وتصانيفه تشهد له وتدل على مقامه. فكتابه في "شرح أسماء الله الحسني" عنوان درايته، وترجمان على مكانته. كان من

(168) هو أبو عبد الله محمد بن يعقوب المستاري، تلمساني الدار تونسي القرار. كان معلما لأبي حمو بن يغمراسن. خطب بالجامعين. أخر عن الإمامة "زورا وبهتانا". (ابن الطواح، **سبك المقال**، ص 172-173).

(169) أبو العيش محمد بن أبي زيد عبد الرحيم بن محمد بن أبي العيش الخزرجي، إشبيلي الأصل، أديب وشاعر ذو مشاركة في فنون العلم، مؤلف، وله في التصوف نظم حسن كثير. توفي بتلمسان ودفن خارج باب كشوطة. **بغية الرواد**، ص 103 ؛ **نيل الابتهاج**، 332 ؛ **الحفناوي، تعريف الخلف**، ج 2، ص 342-344، ابن مريم، **البستان**، ص 252-253.

(170) **الذيل والتكملة**، السفر الثامن، القسم، 2، تحقيق د. محمد بن شريفة، الرباط، 1984، ص 516.

(171) ابن الزبير، **صلة الصلة**، القسم الثالث، تحقيق د. عبد السلام الهراس والشيخ سعيد أعراب، الرباط، 1993، ص 37. ووردت الإشارة في **البستان** لابن مريم ص 159 إلى "محمد بن عبد الرحيم بن أبي العيش الخزرجي الخطيب بتلمسان".

(172) يقول ابن عبد المالك المراكشي بهذا الصدد : "كان أديبا بارع الكتابة... دخل الأندلس وكتب عن بعض الولاة بها ثم تخلى عن ذلك ولزم الانقباض، وآثر الخلوة والعزلة عن الناس ونبذ علائقه منهم" (**الذيل والتكملة**، 2/8، ص 314).

خواص أصحابه، وولده الخطيب أبو زيد عبد الرحمن[173]، خطيب الجامع الأعظم وإمامه، من كبار العلماء والبلغاء الفصحاء، وصدور الشهداء. كان يخط خطا بارعا، وله نفوذ في علم الوثائق والشروط، ولم تزل هذه البيتة معمورة بمن يوصف بهذا الوصف. فخطب بعده ابنه محمد، ثم عبد الرحيم، ثم محمد، ابنه، ثم عثمان بن محمد الأكبر، ثم يحيى، ابنه. ولهم الآن عقب، خيارهم أبو زكرياء[174] يحيى بن محمد، بن عبد الرحيم، بن محمد، بن عبد الرحيم، ابن العيش؛ وهو من خيار العدول، متصرف مبارك. رحل وحج، وناب عني في الخطابة، بالجامع الأعظم من البلد الجديد، من المدينة البيضاء، فاس المحروسة، فشكرت خطابته.

ومن خواص أصحابه، الأقربين إليه، الفقيه الصالح، أبو عبد الله ابن البلد[175]. كان شديد الملازمة له، وكان من كبار الأولياء المتعبدين، يتعيّش بالنسخ، فإذا حصل له القدر الذي ينسخ به، تمسك منه بما يقوت به. وكان قوته الشعير والشحم، ويتصدق بالباقي.

وَحدثني سيدي الشيخ، أبو العباس ابن القطان، رحمه الله تعالى، قال لي : أدركته في آخر حاله يتصدق بالجميع، وإنما كان يتقوت بما كان يعطيه جدك، فإنه قام بمؤونته. قال : وكان يكسوه كل سنة فضلة من قطن وإحراماً خشناً، ففي كل سنة يقول : انظروا لي أخشن من هذه، بالخاء المعجمة، والشين المعجمة، وكانت له جبة صوف أقامت عنده سنين. وكان له إخوة من أهل الخير، ومع هذا لا يأكل لأحد منهم طعاماً. وكان خطه يقارب خط جدي، ففي كتاب "الشفاء" خطه وخط جدي، رحمه الله عز وجل، خط جدي، أوله وآخره وفي وسطه، وخطه في وسط الكتاب. وهذه النسخة بخط وليّيْن عارفيْن، ولا أدري ما كان منها في هذا الوقت الذي أوتي به على الكتب، وغيرها، والحمد لله، على كل حال.

(173) أبو زيد عبد الرحمان (أو عبد الرحيم) بن أبي العيش، عالم متفنن، ذو علم بالوثائق، خطيب الجامع الأعظم بتلمسان وإمامه. هو جد الفقيه أبي زكرياء يحيى بن محمد بن عبد الرحيم، صاحب الأشغال العلية بباب السلطان أبي حمو، **بغية الرواد**، 104 ؛ **روضة النسرين**، 69.

(174) في ب : أبو زيد زكرياء يحيى.

(175) في أ : ابن الباز. وانظر ترجمته في : **بغية الرواد**، 119.

ومن خواص أصحابه، وهو المتصرف في خدمة الفقراء، واستدعاء الأصحاب : الحاج الصالح، أبو عبد الله، المعروف بالحاج فرج. كان من الصالحين الخيار. وكان شيخنا، أبو العباس أحمد بن القطان، رحمه الله تعالى، يقول : إن الشيخ، رحمه الله تعالى، كان يخف عليه ويباسطه. وكان كثير الخشية، كثير الأوراد والأذكار، والتصرف في الحوائج، وإغاثة الملهوفين. ويصفه بأوصاف جليلة، رحمة الله عليه. وقبره بمسجد صالح أيضا[176].

ومن علية مشايخه، وأشك في أخذه عنه مباشرة أو بواسطة القراءات : الشيخ الولي، العالم العارف الكبير الشأن، القدوة، صاحب الكرامات المشهورة، والمقامات المأثورة، أبو يعقوب يوسف التفريسي[177]. قال لي الشيخ ابن القطان : لا يكاد يمر وقت على سيدنا الشيخ إلا وهو يذكر مقامه.

حدثني شيخنا الخطيب الصالح، العالم المبارك الخاشع، أبو محمد عبد الله بن عبد الواحد المجاصي[178]، قال لي : يا بني! لا نظير لرَجلين : سيدي أبو يعقوب التفريسي، وجَدّك.

وحدثني هو، وابن القطان، وعمي، وغيرهم، أنه كان إذا تفرغ من إقراء الطلبة، يقول لهم : خلوا الفضل لإخوانكم. فيخرج، ويقوم إلى باب الجامع فيغلقه، وهو جامع الجُدار! قال : فيسمع القراءة عليه من خارج المسجد بأصوات مختلفة، من مؤمني الجن، وكان يخبرهم ويبلغ سلامهم لمن يسلمون عليه من الطلبة.

---

(176) يحيل على مسجد صالح من العباد الذي دفن به صاحب الترجمة السابقة، أبي عبد الله ابن البلد. **بغية الرواد**، 119.

(177) أبو يعقوب التفريسي (أو التيفريسي) من الأولياء الكبار، دفين باب وهب من أبواب تلمسان، (**البستان**، 296، **بغية الرواد**، 107، ابن صعد، **النجم الثاقب**، الجزء الثامن، **مخطوط الخزانة الداودية** رقم 53 ص ع ن، ورقة 111-112).

(178) أبو محمد عبد الله بن عبد الواحد بن إبراهيم بن الناصر المجاصي (ت. سنة 741 هـ/ 1340م : الشهير بالبكاء أيام مجاورته بمكة. أخذ عنه الخطيب ابن مرزوق الجد ونقل عنه في مواضع من كتبه، قال المقري في حقه : "عالم الصلحاء وصالح العلماء وجليس التنزيل وحليف البكاء والعويل"، كان خاشعا كثير البكاء حتى شهر به، كان لا يرفع طرفه إلى السماء حياء من الله وخشية، حج على حمار أربعا وعشرين حجة لا يركبه إلا عند الإعياء، مناقبه كثيرة لا تحصى، توفي سنة 741 هـ، وقبره، رضي الله عنه، مشهور بعين وانزروته (من باب الجياد) قرب العباد السفلى. (ابن مريم، **البستان**، 121، **المسند**، 390 ؛ **بغية الرواد**، 115 ؛ **نفح الطيب**، 230/5 وما بعدها؛ **أزهار الرياض**، 415 ؛ **نيل الابتهاج**، 218 ؛ **ألف سنة من الوفيات**، 111-193).

وحدثني ابن القطان، أن بعض الطلبة كان يحدث في نفسه أنه لا يراهم، وكأنه استبعد هذا، وتحدث في ذلك مع الطلبة، قال : فبينما هم مجتمعون في الحلقة، والجامع عامر[179]، إذ أقبل حنشٌ عظيمُ الخلقة داخلا من باب الجامع، فنفر الناس، فقال لهم : دعوه. فلما قرب من الشيخ، تمسح بأثوابه، وناوله من فيه براءة. فطلب الشيخ الدواية والقلم، وكتب في البراءة، ودفعها له، والناس جميعا ينظرون، فولى خارجا، فقال لهم : هذا من إخوانكم الجان، بعثه أصحابه من العراق بهذا السؤال ليوسف، يعني نفسه، فأجابهم[180]. وكان خطابه للمتحدثين في طلب رؤيتهم، وهو عظيم القدر، والدعاء عند قبره مرجو الإجابة، وقبره بالموضع المعروف بباب وهب[181]، مشهور، ظاهر متبرك به. ولا أدري هل بقي له الآن عقب من جهة الولد أو لا.

وكان حفيده سيدي الحاج يوسف بن يحيى بن يوسف، من إخوان والدي وعمي وأصحابهما. وكان من خيار الصلحاء، وكان له أولاد، انقرضوا وأولادهم، والله أعلم، في هذا الوباء الذي كان عام خمسين ونحوه[182] ؛ ففيه انقرض، وتغيرت الأحوال. ثم دهى تلمسان بعده، وفي زمانه اتصل من الفتنة ما اتصل إلى الآن! فأسأل الله تعالى اللطف الجميل، الذي يتكفل بصلاح الأحوال، وبلوغ الآمال، إنه جواد كريم.

---

(179) ب : غاص.

(180) انظر الحكاية في **البستان**، 296-297، وفي **النجم الثاقب**، 113/112/8 نقلا عن ابن مرزوق.

(181) هي إحدى أبواب الناحية الجنوبية لتلمسان.

(182) يتعلق الأمر **بالطاعون الأسود** (أو الطاعون الجارف حسب وصف ابن خلدون له) الذي ضرب افريقية سنة 749 هـ/1348-49 والذي أودى بحياة عدد من شيوخ العلامة ابن خلدون، وبوالده (**رحلة ابن خلدون**، 78، 74، 92). ولقد تفشى هذا الطاعون في العالم. قال صاحب "**شذرات الذهب**" 158/6 : "وفيها – أي في سنة 749 – كان الطاعون العام الذي لم يُسمع بمثله، عمّ سائر الدنيا حتى قيل إنه مات نصف الناس، حتى الطيور والوحوش والكلاب". ومن المعلوم أن هذا الوباء كان قد ألمّ بمعظم مناطق العالم القديم، وظهر أول ما ظهر في آسيا الوسطى سنة 1345 م قبل أن ينتقل عن طريق موانىء البحر الأبيض المتوسط إلى أوربا وإفريقيا الشمالية في الفترة المتراوحة بين سنة 748 هـ/1347 و752 هـ/1352م.

- Carpentier, E. Autour de la peste noire, famines et épidémies dans l'histoire du 14e siècle, *Annales, E.S.C.*, 1962.
- J. N. Biraben, «La Peste Noire en terre de l'Islam» in, *L'Histoire*, Revue mensuelle, Paris, n° 11, avril, 1979.

وكان أكثر أصحابه ومعاشريه، رضي الله عنه، المنقطعون الواردون. حدثني والدي، رحمه الله، في وصية كان يوصي بها، قال : يا بني ! إذا أحدثت حادثا في هذا الدار، وبنيت فيها أشياء، فلا تغير عتبة هذا البيت، فإن كثيراً من أفراد الأولياء حط رأسه في هذه العتبة، وكم من ولي، ممن لا يعرفه إلا صاحب هذا الدار، قد دخل هذا البيت، فلا تغيره. نفع الله بهم أجمعين، وأعاد علينا بركاتهم، بفضل ربنا وإكرامه. وكذلك أوصاني على البئر، فقال لي : هذا البئر كان يفطر على مائه الأولياء.

وحدثتني خالة والدي، لما كانت حضرت السنين المعروفة، حين حصرها السلطان أبو يعقوب المريني[183]، كان سلطان تلمسان وإخوته لا يخرجون حتى يفطرون على مائه، ويزعمون أنهم يوم يفوتهم الفطر عليه، يجدون أثر ذلك، رحمة الله على الجميع.

أبو العباس أحمد ابن مرزوق،
والد المؤلف (681-741هـ/1282-1340م)[184]

وأما مولاي الوالد، رحمة الله عليه، أحمد بن محمد، فأمه[185] – وأم شقيقه عمي الحاج الصالح أبي عبد الله[186]، وعمتي زينب، ثلاثتهم – فاطنة بنت الشيخ الصالح الأمين، الحسيب الأتقى، أبي زيد عبد الرحمان بن محمد بن عبد الله، ابن النجار. قدم جده، عبد الله بن النجار، من مدينة مراكش المحروسة، وكان صاحب مال وثروة، فاستوطن تلمسان، بعد أن ذكر أنه توجه إلى مدينة تونس برسم استيطانها، ثم اختار تلمسان وطناً، وأولد أولاداً وحفدة فيها ؛ منهم : أبو زيد هذا، وكان وجيهاً سرياً موسعاً عليه، كثير الصدقات وأعمال البر، له جرايات على الطلبة وأهل الدين والخير، وكان يحترف بإقامة عمل الحاكة من الصوف الرفيع، التي كانت تلمسان تختص به[187]، واختص هو بذلك، فكانت له تربيعات

---

(183) يوسف بن يعقوب بن عبد الحق بن محيو، السلطان أبو يعقوب المريني بويع في غرة صفر سنة 685 هـ/29 مارس 1286م وقتل في ضحى يوم الأربعاء 7 ذي القعدة عام 706 هـ ودفن بشالة (**روضة النسرين**، 30-31 ؛ **روض القرطاس**، 374 ؛ **الإحاطة**، 356/4).

(184) العنوان من وضع المحققة.

(185) في ب : فإنه.

(186) الحاج أبو عبد الله محمد بن محمد بن مرزوق الشيخ بالعباد. ورد ذكره في **المسند**، ص 463.

(187) انظر المسند (ص 129) حيث يتحدث عن "ثياب الصوف التلمسانية الخالصة".

بموضعه من درب شاكر. وكان أكثر هذا الدرب له، ولعماله وخدامه. وكان له داخل الدرب، درب يختص به؛ فيه دوره ودور بنيه، والدور التي عيَّنَ لأبنائه. أدركت من دوره، الدار الكبرى، وتتصل بها دار تعرف بدار الإنجاصة، تتصل بها دار تعرف بالدار الجديدة، وهي مواضع سكناه المخلصة به. وتتصل بهذه الدور الثلاثة، دور آخر لأولاده وخدامه. وخارج هذا الدرب الصغير، درب كبير، إذا وقفت على أوله، تنطق على بعد إلى آخره. ولقد رأيته بهذه المدة خراباً، فسبحان مفني الخلائق وسيدهم.

وكان مقصوداً من البلد، ترده التجارة من كل بلاد. وملوك افريقية والمغرب، إنما يلبسون حينئذ ما كان يعمل بتلمسان من رفيع الصوف، فإنها اختصت بذلك[188]. وكان هو قد أنماها في ذلك.

حدثني الشيخ أبو العباس ابن القطان، وعمي، رحمهما الله تعالى، قال : بعث المستنصر[189] والأمير أبو حفص[190]، لصاحب تلمسان هدية تشتمل على ثياب رفيعة، قال : ووصل فيها إحرام ثماني العمل، عليه مكتوب : "بعثه الأمين فلان، أمين تونس، للأمين أبي زيد عبد الرحمان بن النجارس. قال : فنظر الإحرام، فوجده في أكمل عمل، لا يمكن أن يصنع أحسن منه، فقيل له : هذا قد قصد أن يريك غاية ما تنتهي إليه الإقامة من الكتان، ويقول لك : كيف يفضل هذا شيء ؟ قال : فأخذه ووزنه، فوجد فيه نحواً من خمسة أواقي ونصف، قال : فبعد زمان، جاء بإحرام كتب عليه : زمن ابن النجار للأمين فلان". فنظر فوجد يزيد طولا وعرضا نصف شبر، وينقص أوقية ونصف أوقية.

---

(188) يقول يحيى ابن خلدون عن الأراضي التي توسطتها تلمسان أنها ز منْجِبة للحيوان والنبات، كريمة الفلح، زاكية الإصابة، فربما انتهت في الزوج الواحدة بملاتة منها إلى أربعمائة مد كبير ... من البر، سوى الشعير والباقلاءس ويضيف قائلا : "إن غالب تكسبهم – [أهل تلمسان] الفلاحة وحوْك الصوف يتغايون في عمل أثوابه الرقاق... بذلك عرفوا في القديم والحديث ومن لدنهم يجلب إلى الأمصار شرقا وغربا" (**بغية الرواد**، 90، 92).

(189) يقصد السلطان أبو عبد الله محمد بن أبي زكرياء يحيى بن الشيخ أبي محمد بن عبد الواحد بن الشيخ أبي حفص الذي بويع بسلطانا بتونس في 3 رجب سنة 647 هـ خلفا لوالده السلطان أبي زكرياء الحفصي (الزركشي، **تاريخ الدولتين**، 69 وما بعدها).

(190) هو الأمير أبو حفص عمر بن أبي زكرياء الأول. بويع بتونس 24 ربيع الثاني 683 هـ/10 يوليوز 1284 م (ابن الشماع، **الأدلة البينة في مفاخر الدولة الحفصية**، ص 61، 80 ؛ الزركشي، **تاريخ الدولتين**، 104-105).

حدثني عمي، رحمه الله تعالى، وقد ذكر اتساع حاله، أن قافلة وردت تلمسان من تونس، وكانوا يجلبون ثياب الكتان[191]، ويحملون ثياب الصوف، قال : فباعوا واشتروا، وأكثروا الشراء من عنده، وخرجوا مسافرين لتونس. فلقيهم بظاهر البلد تاجر ورد بمال يبلغ قدر ألف دينار من الذهب، برسم الرفيع من ثياب الصوف. فلما رآهم، أسف وحزن على التخلف دونهم، فدخل باكيا، فقصد إلى الشيخ أبي زيد، ليدله على موضع نزوله. فسأله عن حاله، فأخبره بأن له أطفالا ووالدة يحزنون دخول الناس عنده دونه، وأن القافلة لا تتصور إلا بعد طول زمان. فرقّ له، وقال له : أيّ شيء تريد أن تشتري؟ فقال له : الرفيع من الصوف، فإني جئت برسمه، ومتى يجتمع لي ما أريد؟ فقال له : ادخل معي إلى الدار. فدخل معه، فعمد إلى خزائن ففتحها، وقال له : اختر حاجتك. قال : فأخذ من خزانة واحدة، أو من اثنتين، ما أحتاج بما عنده من الذهب، وشد له، وانصرف، فلحق بأصحابه.

وحدثني الشيخ ابن القطان، والشيخ الرحال، الحاج أبو علي، ابن شيخ اللبن[192]، في آخرين، أن الموضع المعروف بمسجد إيلان، وهو اليوم داخل الربض، كان يطلع منه كل يوم حمل للبضع، من عمل الصوف، وهذا موضع من آحاد المواضع، فانظر هل تجد اليوم في ذلك الموضع، أو ما يجاورهم، عماراً، أو في البلد كلها ما يشترى به بأقل عدد. فسبحان مبيد الجميع، لا إله إلا هو، يفعل في ملكه ما يشاء، ويحكم ما يريد[193]. أوردت هذه الحكاية، والتي قبلها، مورد الاستبصار. وكان كثير الصدقات.

حدثني عمي، رحمه الله تعالى، أنه كانت له مطامير من قمح وفحم، وكان يعد اللحم المدخر، المعروف بالمسلي[194]، وبالخليع، والزيت. فاذا كان يوم الثلج،

(191) حول ازدهار صناعة الأقمشة الكتانية بتونس، انظر : روبير برونشفيك، **تاريخ افريقية في العهد الحفصي**، ج 2، نقله إلى العربية حمادي الساحلي، بيروت، 1988، ص 241.

(192) لم أقف له على ترجمة.

(193) إشارة إلى الآية القرآنية 5 من سورة المائدة.

(194) **المسلي** : هو اللحم المصبر أو المقدد (انظر المنتصر بن أبي لحية القفصي، **نور الأرماش في مناقب القشاش**، تحقيق ودراسة لطفي عيسى وحسين بوجرة، المكتبة العتيقة، تونس، 1998، ص 555.

فتح مطمورة من قمح وأخرى من فحم، ويتصدق بالزرع والفحم والإدام طول يومه، فلا يرجع إلى داره حتى يفرغ من المطمورتين.

وكان له كل يوم خبز الصدقة، وثياب في كل سنة، وقد تقدم طرف من حديثه. ويقال إن بني النجار دعا لهم جدهم، عبد الله، وكان صالحاً، ودعا له ولذريته باليسار والستر. فهم جماعة تجار ميسورون، فمنهم اليوم بتلمسان، ومنهم بمكناسة، ومنهم خَلَفٌ بفاس، وكان لهم بتونس من لم يعقب، وله الولادة على جماعة من أهل تلمسان.

وانجرت لنا بذلك قرابة كثيرة من جهة البنت، ومن جهة زوجته بنت ابن حسين؛ كبني إبراهيم بن علي العطار، وبني أبي تسنوسة، وقد انقرضوا، وآخرهم خيرهم، أبو عبد الله محمد بن محمد بن عمر، كان متبتلا خيراً منقبضا عن الناس، مشتغلا بنفسه، مات، رحمه الله تعالى، مغتالاً ظلماً في داره، أصبح مذبوحاً، والله أعلم بحقيقة أمره.

ومنهم بنو الرماح : الفقيه الخطيب، المدرس أبو الحسن. وولده الآن خير خلف؛ والعدل الخير، أبو سرحان مسعود، ابن الفقيه أبي العباس أحمد بن حسن المليلي، من عدول فاس اليوم.

وبنو الفقيه : أبو عبد الله محمد بن عمر بن الدراج التلمساني[195]، ولد[196] بسبتة، وحفيده بها اليوم من خيار الطلبة العدول الأتقياء.

وبنو البياري : بمدينة فاس، منهم اليوم بالحياة، المؤذن الخير أبو زيد عبد الرحمن بن علي البياري، مؤذن بجامع القرويين، بفاس المحروسة ؛ ولأخيه أحمد عقب بفاس، وآخرين لم نذكرهم الآن.

(195) محمد بن أحمد بن عمر ابن الدراج السبتي (ت. 693 هـ) : الشيخ الفقيه القاضي المحدث. أصله من تلمسان ونشأ بسبتة في كنف صاحبها أبي القاسم العزفي. ولاه أبو يعقوب المريني قضاء سلا. له كتاب **"الامتاع والانتفاع في معرفة أحكام السماع"** (صدر بتحقيق الأستاذ محمد بن شقرون)، (الأنصاري، **اختصار الأخبار**، 21 ؛ **برنامج التجيبي**، 167 ؛ **درة الحجال**، 248/2).

(196) في أ : ولد توفي.

وممن ظهر من بني النجار : الفقيه، نخبة وقته، أبو عبد الله محمد بن يحيى[197]. وكانت له سيادة على أهل وقته في التعاليم والمعقولات، توفي بالطاعون[198] بتونس المحروسة، سنة خمسين[199]. وقد كان أعلم بوقت موته، وانتفع به جماعة من الطلبة، فكل ساد وظهر له علية مشيخة.

وأكبر الآخذين عنه، وأحسنهم طريقة، وأشدهم نظراً، أبو الحسن علي ابن الشيخ المكرم، أبي العباس أحمد، المعروف بابن الفحام[200]. فهو أعلم وقته

(197) أبو عبد الله محمد بن يحيى بن علي بن النجار التلمساني المتوفى سنة 749 هـ/1350 م وصفه المقري بـ "نادرة الأعصار". ترجمته في : **بغية الرواد**، 119 ؛ **رحلة ابن خلدون**، ص 91 ؛ ابن مريم، **البستان**، ص 153-154 ؛ **جذوة الاقتباس**، 190 ؛ أحمد بابا التنبكتي، **نيل الابتهاج**، 241 ؛ **نفح الطيب**، 236/5 ؛ ج 160/7-162 ؛ الحفناوي، **تعريف الخلف**، ج 573/2-574 ؛ **أزهار الرياض**، 51/5-53).

(198) يتعلق الأمر بالطاعون الأسود (أو الطاعون الجارف حسب وصف ابن خلدون له) الذي ضرب افريقية سنة 749 هـ/1348-49 والذي أودى بحياة عدد من شيوخ العلامة ابن خلدون، وبوالده. ونقرأ في كتاب التعريف لابن خلدون : "وكان في جملة السلطان أبي الحسن جماعة كبيرة من فضلاء المغرب وأعيانه، هلك كثير منهم في الطاعون الجارف بتونس، وغرق جماعة منهم في أسطوله لما غرق" (**رحلة ابن خلدون** ، 89)، وعانت منه افريقية مثلها مثل بلدان الحوض المتوسطي، وهناك من الروايات من تذهب إلى أن تونس كانت تفقد يوميا ألف شخص جراء هذا الطاعون. (ابن الشماع، **الأدلة البينة النورانية في مفاخر الدولة الحفصية**، تحقيق د. الطاهر بن محمد المعموري، تونس، 1984، ص 97-98). وقد كتب فيه الأندلسيون رسائل منها : "**مقنعة السائل عن المرض الهائل**" للسان الدين ابن الخطيب، وتحصيل و"**غرض القاصد في تفصيل المرض الوافد**" لابن خاتمة... ومن الدراسات الحديثة العربية نشير إلى مقال أحمد السعداوي، "**المغرب الإسلامي في مواجهة الطاعون الأعظم والطواعين التي تلته** (القرنين 8 و14/9 و15)، مجلة *IBLA* ج 58، 1995 ؛ د. محمد الأمين البزاز، "**الطاعون الأسود بالمغرب في القرن 14م**"، مجلة كلية الآداب الرباط، العدد 16، 1991، ص 109-122، ودراسة مصطفى نشاط، **إضاءات على تاريخ المغرب خلال العصر المريني**، م. س. ص 112-132.

(199) سنة تسع وأربعين وسبعمائة حسب **بغية الرواد** ص 119.

(200) يقول يحيى ابن خلدون في بغية الرواد بأن أبا الحسن علي بن أحمد ابن الفحام كان "أعرف أهل زماننا بفنون التعاليم... ظهر على يديه من الأعمال الهندسية المنجانة المشهورة بالمغرب فأثا به عنها ملوكه بألف من الذهب، مقسطة على عمال بلادهم في كل سنة" (**بغية الرواد**، ص 119. ومن بين منجزاته إحدى الساعتين الدقاقتين المائيتين المقابلة للباب الشمالي للمدرسة العنانية بالطالعة الكبرى من فاس، وصنعها بأمر من أبي عنان. وفرغ من علها يوم 14 جمادى الأولى عام 758 هـ/1357م. وكانت علامة الوقت بها أن تسقط كل ساعة صنجة في طست وينفتح طارق، فتحدث رنة تعلن بداية كل ساعة نهارية) .علي الجزنائي، **جنى زهرة الآس في بناء مدينة فاس**، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، ط 2، الرباط، 1991، ص 53 ؛ محمد المنوني، **ورقات عن حضارة المرينيين**، 359).

الآن، والواحد في عصره في التعاليم، وأبعدهم عن الخوض فيما لا يعني، وأوقفهم مع الظواهر الشرعية، وله سلف صالح. سمعت هذا من والدي، ومن عمي، رحمهما الله تعالى، عن والده أحمد، كان يلي الشرطة والنظر في المظالم، وكنت إذا لقيته كأنك لقيت إمامَ مسجد سكوناً وعقلا. وكان لا يحدث في أيام ولايته إلا الخير، فيقولون : انتفع بسلفه. وأبو الحسن الآن مستوطن مدينة فاس، وما ظهر على يده من الأعمال معروف.

وأخذ عن أبي عبد الله بن النجار(201)، الفقيه المفتي، مشارك الوقت، الشريف أبو عبد الله محمد بن أحمد الحسني(202). وسيأتي، إن شاء الله تعالى، ذكره؛ والفقيه القاضي، العدل المرحوم، أبو عبد الله المقري، قاضي مدينة فاس، المتوفى بها، ودفن بتلمسان(203)، وسيأتي، إن شاء الله ذكرهم، وغيرهم من علية

---

(201) محمد بن يحيى ابن النجار التلمساني، أبو عبد الله. المتوفى عام 749 هـ/1348م–49. ارتحل إلى المغرب فلقي بسبتة إمام التعاليم محمد بن هلال شارح المجسطي في الهيئة، وأخذ بمراكش عن أبي العباس ابن البنا ورجع إلى تلمسان بعلم كثير. واستخلفه السلطان أبو تاشفين بحضرته فلما هلك وملك أبو الحسن المريني نظمه في جملته، وحضر معه إفريقية، وهلك بالطاعون في سنة 749 هـ (**رحلة ابن خلدون**، 91-92 ؛ **جذوة الاقتباس**،302/1 ؛ **درة الحجال**، 264/2 ؛ **ألف سنة من الوفيات**، 200).

(202) أبو عبد الله محمد بن أحمد **الشريف الحسني** التلمساني (710-771 هـ). قال عنه ابن مريم في **البستان** : "كان إماما في العلوم العقلية كلها، منطقا وحسابا وتنجيما وهندسة وموسيقى وطبا وتشريحا وفلاحة وكثيرا من العلوم القديمة والحديثة" (من مؤلفاته : **مفتاح الوصول إلى بناء الفروع على الأصول** : دراسة وتحقيق محمد علي فركوس، المكتبة المكية، مكة المكرمة، مؤسسة الريان للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط 1، 1998)، لما استولى السلطان أبو عنان المريني على تلمسان ألحقه بمجلسه العلمي، ثم صحبه إلى فاس حيث تألق نجمه وزادت شهرته. بعد وفاة أبي عنان ملك أبو حمو مدينة تلمسان فاستدعاه من فاس وزوجه ابنته وبنى له مدرسة للتدريس بها انظر : **بغية الرواد**، 20-21، 120 ؛ **رحلة ابن خلدون**، ص 105-106 ؛ ابن مريم، **البستان**، 164-184 **نيل الابتهاج** 308 ؛ **تعريف الخلف**، 106/1-123 ؛ الزركشي، **تاريخ الدولتين**، 91 ؛ الونشريسي، **المعيار المعرب**، 224/12-225 ؛ **درة الحجال**، 269/2 ؛ **معجم أعلام الجزائر**، 139-140).

(203) محمد بن محمد بن أحمد المقري التلمساني (عُرف بالمقري الجد) : قاضي الجماعة بمدينة فاس وبتلمسان. حج ورجع لبلده وانقطع إلى خدمة العلم. فلما ولي أبو عنان السلطة جتذبه وولاه قضاء الجماعة بفاس، واستعمل في الرسالة. توفي بفاس سنة 759 هـ. ودفن بتلمسان. انظر : **الإحاطة**، 191/3-226 ؛ **المرقبة العليا**، 169-170 ؛ **جذوة الاقتباس**، ص299-300؛ **درة الحجال**، 43/2 ؛ **نيل الابتهاج** ؛ 420-427 ؛ **البستان**، ص 154-164 ؛ **رحلة ابن خلدون**، ص 102-103 المقري، **أزهار الرياض**،12/5 وما بعدها ؛ **نفح الطيب**، 203/5-250 ؛ **شجرة النور**، 232 ؛ **سلوة الأنفاس**، 271/3-273 ؛ **تعريف الخلف**، 500/2-509).

الطلبة. وكنت أنا، أقل الآخذين عنه نجابة، رحمة الله عليه. وكان والدي، رحمه الله، يحبه، إلا أنه كان ينفر عنه لموجب أوجب ذلك، عفا الله عنه. وكان من الخاشعين المعترفين بالذنوب، الذين لم يعثر لهم قط على ما يشين، أو يطعن في شيئا، رحمة الله عليه.

وَوُلِد والدي، رحمة الله عليه، في الليلة الثلاثين من المحرم، سنة أحد وثمانين وستمائة، وربي تحت حجر جدته. فلما توفيت، وهو صغير، كفلته أخته زينب، فكان معها. وخرج أخوه عمي، رحمه الله تعالى، للحج وخلفه صغيراً، وجال في البلاد، وبقي مع أخته، إلى أن خرج في أثناء إحصار تلمسان الحصار الطويل، الذي بلغ مقدار تسع سنين(204)، أخرجه بعض أصحاب والده من سور تلمسان، وكان سلطانها يبعث إليهم ما يحتاجون إليه، فيتورع، هو، رحمه الله تعالى، على صغره عنه. فانظر من لا يبالي في كبره، وبعد شيبه، من أين يأخذ، ردنا الله إليه. فبقي بموضعه من العباد يقوم به بعض خدام والده، إلى أن جرت له حكاية، رأيت ذكرها هنا(205)، وهو أنه كان له رجل من خدام والده، يتردد إليه بالمرافق للبلد، وهي محصورة، ويبعث، هو، لأخته ولخاله بعض المرافق. وكان السلطان أبو يعقوب، قد هدر دم من يوجد داخلا، أو عرف منه ذلك، أو وافق عليه، أو علم به، ولم يرفعه. وقتل على ذلك خلقا من كبار بني مرين، وغيرهم(206). فخرج خارج يوماً، فأتبع وسقط له كتاب عنوانه : يدفع بيد أحمد بن محمد ابن مزوق. وباطنه من خاله إليه، يعرف أنه وصله وعاء السمن الذي بعثه له يوم كذا، وقبله كذا، وبعده كذا، مع الذي عوايده أن يصل. فعند ما قرأ القارىء الكتاب بين يدي السلطان، غضب السلطان غضبا شديداً، وقال : وجلوسنا نحن بلا فائدة؟ أين هذا؟ فقيل له : بالعبّاد، وهو ابن فلان. فقال : عليّ به، ولو كان من كان. قال لي والدي،

(204) ضرب السلطان أبو يعقوب الحصار على مدينة تلمسان عام 698 واستمر الحصار قائما ثماني سنين وثلاثة أشهر إلى أن تم اغتيال السلطان يوم 7 ذي القعدة من عام 706 هـ وفرر خليفته السلطان أبو ثابت رفعه. وقد خلف هذا "الحصار الأكبر" عددا من الموتى من أهل تلمسان "قتلا وجوعا" قدرهم يحيى ابن خلدون بزهاء مائة وعشرين ألفا. (**روض القرطاس**، 386 ؛ **بغية الرواد**، 211 ؛ **نظم الدر والعقيان**، 130-135 ؛ **العبر**، 111/7، 261).

(205) وانظرها كذلك في **البستان**، ص 27-28.

(206) يؤكد عبد الرحمان ابن خلدون أن السلطان المريني كان "ينزل أشد العقاب والسطو بمن يميرها ويأخذ بالمرصاد من يتسلل بالأقوات إليها" (العبر، 262/7).

رحمه الله، فتتابع الإرسال إليّ، والشر ظاهر عليهم، فلما وصلتُ إلى القصر، وعُرِّف بي، خرج الإذن أن أثقف في دويرة، وجدت فيها الشيخ ابن حسني[207]، وهو ينسخ مصحفا، فآنسني. وذكرني السلطان داخل قصره، فقالت له حظية كانت عنده من تلمسان : يا مولاي! احذر الشتم[208]، فإنه ولد سيدي فلان، ومن شأن أبيه وشأنه. قال : فقال لها : حال الله بيني وبينه، يعرفني من هو الداخل الخارج، وينصرف. قال : فلما كان بعد العصر، خرج السلطان، واستدعى بالفقيه أبي[209] الحسن التنسي[210]، أخو والدي للأم[211]، فقص عليه السلطان الخبر، فقال له، وكان أبوهما صالحاً، : هذا هو ابن فلان، الذي شأنه معروف، وأخاف عليك منه، يا سلطان. فقال له : إنما نريد منه أن يعرفني بالرجل فقط. فدعي بالفقيه الكبير، خاصته ومقيم دولته، أبي محمد عبد الله، بن أبي مدين[212]، وقال له : يا عبد الله ! أخرج لهذا الشاب وقلْ له : لا بدّ أن يعرفني بهذا الرجل، وشدّ عليه، قال : فدخل أبو محمد عبد الله، فآنسني وبسطني، وقال : السلطان يقول لك، لا بدّ أن تعرفه بهذا الرجل الذي أُحيل عليه في الكتاب. قال : فقلت له : أنا لا أعرف المحيل ولا المُحال عليه، ولا علم لي بهذا. قال : فقبّل رأسي، وقال : أحسنت يا ابن الصالحين، معاذ الله أن يهلك أحد على يدك. على هذا الكلام دُمْ،

---

(207) في طرة أ : التنسي.

(208) في ب، وفي **البستان** (ص 28) : احذر السم.

(209) في الأصل : أبو.

(210) أبو الحسن بن يخلف بن عبد السلام التنسي. يصفه يحيى ابن خلدون بأنه "من العلماء الصالحين الأولياء، كبير القدر حيا وميتا، زاهد ورع، ذو كرامات شهيرة، ومكانة عند الملوك عظيمة. ألف في العلم كثيرا. حج وعاد إلى تلمسان، فتوفي في حدود الثمانين وستمئة، قبره رحمه الله بالعباد" (**بغية الرواد**، ص 114) وانظر كذلك، العبدري، **الرحلة المغربية**، 11 ؛ **البستان**، 28-29، 123.

(211) في النسختين : أخو جدي للأم. والتصحيح من **البستان** (ص 28).

(212) **عبد الله بن أبي مدين العثماني**. الفقيه الكاتب الحاجب. أصله من قصر كتامة. ارتحل عن القصر إلى مدينة مكناسة واستوطنها وبرز عدلا في سماط عدولها، ثم ارتحل إلى مدينة فاس وتعلق بالحاجب الكاتب صاحب العلامة محمد بن محمد الكناني حاجب يعقوب بن عبد الحق المريني ورسوله في أسفاره وكاتب علامته. تقرب إلى السلطان يعقوب بن عبد الحق وترقى في خدمته حتى تولى العلامة والحجابة وتدبير الدولة مدة دولة يعقوب ودولة ولده يوسف ودولة عامر بن عبد الله بن يوسف ودولة أخيه أبي الربيع سليمان. وأبو الربيع هو الذي قتله بسبب دسائس القصر. (**جذوة الاقتباس**، ص 438-439).

ولا تخف. قال : فخرج عني، ثم جاءني فلان وفلان بمثل ذلك، وهم يشددون علي، فصممت على كلامي، فعرف بذلك [صدقي[213]] فقال : ادعوه إلي. فتلقاني عبد الله القشيري[214]، ودخل وأنا معه. فلما دخلت على السلطان وأنا معه، وبصرني، استدعائي واستدناني إليه، وأجلسني وتلطف بي في القول، وقال : هذا ابن الصالحين حقا. ثم قال لي : لعلك ارتعبت ؟ فقلت له : ما رأيت إلا خيراً. فقال لي : ادع لنا[215]، وانصرف. ثم قال لي : لعل لك حاجة ؟ فقلت له : لا حاجة لي. فخرجت، والناس يظنون أني قد هلكت. قال : فلما خرجت، قال السلطان للفقيه التنسي : لمثل هذا ينبغي أن تزوج بنت سيدي أبي إسحاق، أخيك. فقال له : نصرك الله، قد سبق مني معهم في ذلك حديث[216]، فقال له : باسم الله، يا أبا عبد الله، أنت تعمل هذا، وتتم هذه العقدة. فقال له : نعم، فبعث أبو محمد بن أبي مدين، من غدوة عن والدي. وقال له : اقتضى نظر السلطان والفقيه كذا. فقال لي أخي، الذي هو أكبر مني، وقد وصل من الحجاز، وأنا لا أبرم أمراً دونه. فبعثوا عن عمي، فحضر، فتمنع والدي، وقال : لا غرض لي في النكاح. فلم يزالوا به حتى أجاب، فانعقد هذا النكاح. وله قصة، وإن كان موضعها كرامات الشيخ جدي للأم، أبي إسحاق التنسي، ولكني أذكرها هنا، لتعلقها بالباب.

حدثني شيخنا أبو العباس ابن القطان، قال : دخلت مع أبيك وعمك، وأبوك من نحو سبع سنين، وعمك بالغٌ على سيدي أبي إسحاق التنسي، نزوره في مرض، قال : فلما سلمنا عليه، وأقبل علينا، قال : مرحبا بأولاد الحبيب، ثم مرحبا بولدي وحبيبي، لأبيك؛ وقربه إليه، وقبل رأسه، وقال له : أنت نسيبي[217]. ثم نظر لابنته، وهي صغيرة، في الرابعة أو الثالثة، فناداها : يا خديجة ! فهربت وغطت وجهها، فقال : استحيت منك يا بني، الله، الله، فيها. قال : فخرجنا من عنده، وقلنا : هذا الكلام له شأن. فلما وصل عمي من الحج، عرف الفقيه أبو الحسن بمقدمه، وكان أسنّ من أبي، بعث إليه الفقيه أن يزوجها، فتوقف لما ذكر القصة التي كانت لهما

(213) زيادة من **البستان** (28) ليستقيم المعنى.
(214) لم أقف على ترجمته.
(215) في أ : له.
(216) في الأصل : حديثا.
(217) في الأصل : نصيبي : (والتصحيح من **البستان**، 29).

مع أبيهما، ولم يخبر والدي بشيء مما كان، إلى أن وقع هذا، فتم العقد بينهما. فبعد أشهر[218]، توفي الفقيه أبو الحسن التنسي، رحمه الله، وتقدم على بناته وعلى والدي[219]، أخوها، خالي أبو عبد الله، وكان قد خلف ربعاً بفاس وتلمسان، وخلّفَ تَرِكَةً مقدَّرةً بأموال. فقال السلطان، رحمه الله، للفقيه أبي محمد، بن أبي مدين : يا عبد الله ! أنت تقوم مقام الفقيه في تمام هذا النكاح، وتعمل فيه ما ينبغي أن يعمل في مثله. وأمر له السلطان بأربعمائة دينار، وثمانين من الذهب، وبفرس كان بعث لعمها من تونس، وسنذكر ترجمته في شأنه. فدخل بها مولاي الوالد، رحمة الله عليهما، فلما كان في اليوم السابع، كان من موت السلطان، رحمه الله، ما كان، قال لي والدي، وكان جميع ما في ديار أبي محمد[220] من حلي، وفرش عندنا، قال : فاجتاز بنا، رحمه الله تعالى، والناس يموج بعضهم في بعض، وقال لنا : لا تخافوا، والله حاجة واحدة ما تخرج من عندكم حتى يتم العرس. قال : وكان الطعام الذي جرت عوائد الناس بعمله في السابع، يُعمل، وخرج أخوه وأصحابه لاستدعاء الناس، فوقع الواقع، فرجعوا، والطعام قد تمّ طبخه. فخرج أهل تلمسان للحين، فكان ذلك رزقهم، حتّمه الله، عزّ وجلّ، لهم بعد حصر تسعة أعوام. فسبحان مقسم الأرزاق.

وعلى هذه الحكاية، أذكر حكاية مثلها في أن جلب الرزق، يسوقه الله للمرء حيث كان. كنا قد عزمنا إلى التوجه للحج من تلمسان، سنة ثلاث وثلاثين. فاستعددنا ما جرت العادة لنا باستعداده للسفر، وكان من جملة ما استعد، طعام يسميه أهل المغرب : الفداوش، وبعض أهل إفريقية : الدوداذ[221]، وهو على شكله، وأهل الديار المصرية : الأطرية. وحملنا منه شيء كثير، لكونه صالح للسفر، خفيف المؤونة، وجعل في غرارتين من نوع آخر، يسمى بالمحمصة. فلما لم يتهيأ السفر، اخترنا مع أسباب الحركة، فلما تم العزم على السفر في عام

(218) في **البستان** (ص 29) : بعد ثلاثة أشهر.

(219) في ب : والدي. وفي **البستان**، 29 : (وتقدم على ابنته والدي فلما توفي بقيت عندنا هي وأخوها خالي أبو عبد الله).

(220) في طرة أ : يعني ابن بي مدين.

(221) هكذا في النسختين. ولعل المقصود بها : "الدويدة". وهو طعام مصنوع من فتائل العجين ولحم الدجاج كان يتناولها الناس يوم عاشوراء وكانت رائجة بإفريقية في العصر الحفصي (برونشفيك، **تاريخ افريقية**، م. س. ص 284).

أربعة وثلاثين، وأخرجنا أسباب الحركة، وجد فيها منسيا. فاحتملناه، وكنا قد سافرنا من تلمسان، في أول محرم، في اتساع من الوقت، وعلى أول فصل الربيع، في ركب من تلمسان خاصة نحو من ثلاثمائة مسكن، ما بين خباء وقيطون؛ وفي كل قيطون وخباء جماعة، ما عدا من انضم إليهم بعد خروجهم. فكان فيه ما يقرب من مائتي فارس وثمانين، وجماعة من الرماة، فسبحان مبدي الخلائق ومفنيهم. وكانت سنة كثيرة الخصب، ما عدم الناس فيها كل يوم الدقيق والغنم، من باب تلمسان إلى باب اسكندرية، فنسي الفداوش في حمله، إلى أن وصلنا إلى القاهرة المحروسة، في جمادى الأخرى. فاقتضى نظر مولاي الوالد، رحمة الله عليه، أن يقيم بالقاهرة من أجلي لأن أقرأ هنالك، حرصا منه على أن يكون مني شيء. فلم يرد الله إلا ما سبق به علمه، و﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾[222]. فأقمنا تلك السنة والتي تليها، ونصف سنة أخرى، وكانت أسباب السفر مختزنة عند بعض أصحابنا، فعزمنا على التوجه مع الوجيبة، سنة ست وثلاثين. فلما كان في شهر رمضان المعظم، أمر مولاي الوالد، رحمة الله عليه، خديمه أن يعمل طعاماً ليفطر عليه مع المجاورين، على عادته. وكانت عادته يصنع طعاماً قدر ما يكفي عشرين، أو نحوها، ويدعو كل ليلة هذا العدد، فيفطر معهم. فأخرج الخديم الغرائر، فوجد الفداوش على حاله في شكائر، فصنع منه قصعتين. فلما حضر المجاورون للطعام، قلت لهم: يا سادتي! بالله سألتكم ألا ما عرّفتموني ببلادكم، ومتى قدمتم؟. فنظر إليّ والدي، رحمه الله، وقال: وما ذاك؟ فقلت له: ليعلموا أين كان رزقهم، ومن أين جلب لهم. فقال: بعضهم من عراق العرب، وقال آخرون: من عراق العجم[223]، وقال بعضهم: من اليمن الزرع يحصد بصيدور[224]، ويصنع بتلمسان، ويحجب الآكلون منه هذه المدة، ليصل كل من هؤلاء لما حتم له فيه من الرزق. فسبحان مقدر الأرزاق، الفعال لما يريد، لا إله إلا هو.

---

(222) سورة الانفطار، الآية 6.

(223) **عراق العجم**: عَلَم جغرافي كان يطلق على ما يعرف باسم (الجبال)، أي ما بين أصبهان إلى قزوين وهمدان والرّي إلخ... في مقابل السهل الواقع على شاطىء دجلة والفرات الذي يسمى عراق العرب. ويقول ياقوت: إن تسمية العجم للمنطقة الأولى بالعراق غلط... وقد ظننت أن السبب فيه أن ملوك السلجوقية كان أحدهم إذا ملك العراق دخلت تلك البلاد في ملكه. فكانوا يسمونه سلطان العراق، وهذا أكثر مقامه بالجبال، فظنوا أن العراق المنسوب إليه ملكه هو الجبال.

(224) في أ: بصيد.

فصل [في شيوخه][225]

قد تقدم ذكر مولد مولاي الوالد، وما كان من تربيته. ولنذكر الآن على من قرأ في صغره.

قرأ القرآن العظيم على الفقيه الإمام، الولي الصالح، أبي يوسف يعقوب بن علي الصنهاجي[226]. وكان رجلا قانتا، ورعا، زاهداً، صاحب كرامات. وكان من بني علا الناس، أصحاب قلعة ابن حماد الصنهاجيين[227]. وكان مبرزاً في القراءة والتعليم. قرأ عليه أكثر أهل تلمسان، وما قرأ عليه أحد إلا ونفعه الله به. وكان مجاب الدعوة. سمعت هذا تواتراً من مشايخ أهل تلمسان. وقبره بالمرج، ما بين الأسوار، خارج باب الجياد، وبمقربة من الحفير، بقصد التبرك به، والدعاء عنده[228]. وخلف ولديه : سيدنا الفقيه الصالح العارف المحقق، شيخنا، أبا زيد عبد الرحمن[229] ؛ ومحمداً[230]. فخلفه سيدنا أبو زيد وزاد. وسنذكر خبره وكرامته في ترجمته، إن شاء الله عز وجل. وخلف سيدي عبد الرحمن ولده، وخليفته، محل إبني وأخي، الفقيه العدل، الثقة الصدر، أبو يوسف يعقوب[231]، بارك الله فيه. وسيأتي، إن شاء الله تعالى، ذكره.

وقرأ أيضا القرآن على أبي محمد عبد الواحد المستاري، وتقدم ذكره[232]. ثم لما رحل من تلمسان، بعد وفاة السلطان أبي يعقوب، نزل مدينة فاس المحروسة، فسكن بدار التنسي، بزنقة حجامة[233]، التي هي الآن على ملكي، وتعرف حين كتبي هذا، أنها اغتصبت فيما اغتصب، والحمد لله.

---

(225) ما بين المعقوفتين من وضع المحققة.

(226) **بغية الرواد** 119، **البستان**، 27.

(227) **قلعة بني حمّاد**. أسسها حماد بن بلكين سنة 370 هـ " تشبه في التحصن ما يحكى عن قلعة أنطاكية". انظر حولها : رشيد بورويبة، **الدولة الحمادية : تاريخها وحضارتها**، ديوان المطبوعات الجامعية، المركز الوطني للدراسات التاريخية، الجزائر، 1977.

(228) نفس المعطيات تجدها في **بغية الرواد** 119 وفي **البستان**، ص 27.

(229) **بغية الرواد** 119 ؛ **أزهار الرياض**، 585.

(230) نفسه.

(231) نفسه.

(232) انظر هامش 244.

(233) توجد في الزنقة التي تحت باب المدرسة المصباحية في الداخل إلى الدرب (ابن عيشون، **الروض العطر الأنفاس**، 277).

فقرأ بفاس على جماعة. قرأ القرآن العظيم على الأستاذ ابن آجروم[234]، والجمل للزجاجي[235]. وقرأ الجمل أيضاً على الشيخ الفقيه، العدل أبي زيد عبد الرحمن بن يحيى[236] بن إسماعيل، الأبدي التلمساني[237].

وحضر على الفقيه الإمام، واحد وقته، وحافظ عصره، حامل راية حفاظ الفقه، الفقيه بالمغرب، وزعيم أهل النظر، أبي الحسن علي، المعروف بالصغيّر[238]، ختمة من اختصار البراذعي للمدونة، كان قرأ عليه خالي بمحضر والدي.

---

(234) **ابن آجروم الصنهاجي.** محمد بن محمد بن داود الصنهاجي، أبو المكارم منديل (فاس 672 هـ/ 1273م– فاس 723هـ/1323م)، أديب نحوي له تآليف منها "المقدمة الأجرومية في مبادىء علم العربية"، التي اشتهرت شرقا وغربا وشرحها الكثيرون وحصل عليها الإقبال حتى في أوربا حيث طبعت لأول مرة في روما سنة 1592م وترجمت إلى اللاتينية سنة 1610، وصار إسم الآجرومية علماً على كتب النحو في لغات أوربا الحديثة. يقال إن ابن آجروم ألف "مقدمته" في حجّة له تجاه الكعبة المشرفة. ولابن آجروم مصنفات أخرى وأراجيز. (**جذوة الاقتباس**، 233 ؛ **نفح الطيب**، 951 ؛ **شجرة النور**، 217 ؛ **سلوة الأنفاس**، 112/2).

(235) عبد الرحمان بن إسحاق البغدادي النهاوندي، الزجاجي، أبو القاسم، نحوي لغوي، أصله من نهاوند وولد بها، سكن بغداد ونشأ بها، وتتلمذ على إبراهيم السري الزجاج فنسب إليه، سكن طبرية ودمشق وتوفي بها سنة 337 هـ/ 949م، من تصانيفه : "الجمل الكبرى في النحو" ووضعت عليه شروح كثيرة. (عمر رضا كحالة ، **معجم المؤلفين**، 124/5 ؛ **كشف الظنون**، 603/1-604).

(236) في أ : أبي يحيى.

(237) أحد فقهاء تلمسان وعدولها الحسباء. استقر بفاس، وهو جد أبي العباس بن حسن البلياني التلمساني (انظر، **المسند**، ص 313).

(238) علي بن محمد بن عبد الحق الياصلوتي **الزرويلي** ثم الفاسي (ت. 719هـ/1319م) الفقيه المالكي الحافظ المحصل، كان قيما على تهذيب البرادعي حفظا وفهما، كان يفتح في مجلسه ما ينيف على الثمانين ديوانا فيعرضها حفظا على ظهر قلب، قدمه يوسف المريني لقضاء تازة، وولي قضاء مدينة فاس في مدة سليمان حفيد يوسف فظهرت صرامته في الحق وكان قصيرا، وكان يشارك في شيء من أصول الفقه، درس بجامع الأزدع من مدينة فاس المحروسة، وكان أحد الأقطاب الذين تدور عليهم الفتيا بالمغرب، راح سفيرا إلى الأندلس، توفي بمدينة فاس سنة 719 هـ ودفن بخارج باب الجيسة بجبل العرض. من آثاره شرحه على المدونة، وأجوبته التي جمعها تلميذه ابن أبي يحيى ابراهيم بن عبد الرحمان التسولي ورتبها ابراهيم بن هلال السجلماسي وعنونها بـ "**الدر النثير في أجوبة أبي الحسن الصغيّر**" وله تقييد على تهذيب البرادعي: ترجمته في: **الديباج**، 119/2-121 ؛ **الجذوة**، 472/2، **درة الحجال**، 243/3 ؛ **سلوة**، 147/3 وانظر : محمد المنوني، **ورقات**، ص 297.

239 انظر : **بغية الرواد**، 115

والفقيه القاضي، أبو زيد عبد الرحمن بن زاغو التلمساني، كان قد خصهم بهذه الدولة عناية بخالي، لاعتقاده في والده، ومعرفته بقدره. وحضر ختمة مع الجمهور، نفعه الله بذلك.

وحضر تدريس الفقيه أبي محمد خلف الله[239]، وكان يختلف للشيخ الإمام، الولي الزاهد، العارف، أبي إسحاق إبراهيم القاري[240]، ويقول : إن الله نفعني به وبملازمته، وكان له به اختصاص. وحضر دولا من كتاب سيبويه على الفقيه الإمام، شيخنا، الإمام المرحوم أبي محمد عبد المهيمن الحضرمي[241]، أحد شيوخي بمسجد رحبة الزبيب[242]، من فاس. وكان يختلف للفقيه أبي عمران، المعروف بالزريهني[243]، في داره، فقرأ عليه أيام عزلته. وحضر مجالس الفقيه القاضي أبي عبد الله المليلي[244]، في إقرائه للموطأ، ومجالس للفقيه القاضي، شيخنا، أبي عبد الله بن عبد الرزاق[245]، في إقرائه للمحصول، وكان شديد الحرص على حضور المجالس. قيل ما كان بفاس المحروسة، في ذلك الوقت مجلس علم إلا حضره، وقد غاب عني الآن كثير مما كان يخبرني به من ذلك.

---

(240) نفسه.

(241) أبو محمد **عبد المهيمن** بن محمد الحضرمي السبتي. ولد بسبتة سنة 676 هـ وتوفي بالطاعون بتونس في 13 شوال 749 هـ عالم كبير وكاتب مشهور احتل منصبا ساميا في البلاط المريني كتب للسلطانين أبي سعيد وابنه أبي الحسن علي، وكان صاحب العلامة. ألحقه السلطان أبو الحسن بمجلسه العلمي وصحبه في حملته إلى افريقية سنة 748 هـ انظر: **المسند**، 264-265 ؛ **الإحاطة**، 4/11-18 ؛ **رحلة ابن خلدون**، 84-86 ؛ **العبر**، ج 7، ص 515-517 ؛ ابن الأحمر، **مستودع العلامة**، ص 50 ؛ **نثير الجمان**، 223226 ؛ **بغية الرواد**، 115 ؛ ابن قنفذ، **وفيات**، 352 ؛ **جذوة الاقتباس**، ص 444-445 ؛ **نفح الطيب**، 5/240 ؛ **درة الحجال**، 3/173-174).

(242) **رحبة الزبيب** : موضع بجوار جامع الرصيف ومنها ينطلق درب الحمام، كان يباع فيها الأوان والحصر (لوجي لوطورنو، **فاس قبل الحماية**، ص 197-448).

(243) **بغية الرواد**، 115.

(244) أبو عبد الله محمد بن علي **المليلي**، الفقيه القاضي بفاس. من خواص أهل مجلس السلطان أبي الحسن ومسامريه. توفي سنة 737 هـ/ 1337م (**المسند**، 118 ؛ **جذوة الاقتباس**، 227 ؛ ؛ **درة الحجال**، 2/113 ؛ **روضة النسرين**، 35، 36، **بغية الرواد**، 115 ؛ ألف سنة من الوفيات، 188.

(245) أبو عبد الله محمد بن علي **بن عبد الرزاق** الجزولي. قاضي الجماعة وخطيب الحضرة (فاس). توفي بمدينة فاس سنة 758 هـ/1256-57م. شيخ ابن مرزوق وابن خلدون (ابن مرزوق، المسند، 125، 138، 135، 147، وخاصة 262-153-263...، **نثير الجمان**، 355-357 ؛ **جذوة الاقتباس**، 65، 300 461 ؛ **درة الحجال**، 2/240 ؛ **بغية الرواد**، 115 ؛ **روضة النسرين**، 36 ؛ **نيل الابتهاج** ، 419 ؛ **ألف سنة من الوفيات**، 82، 209 ؛ **سلوة الأنفاس**، 3/247-276).

وقرأ ختمة من القرآن على الشيخ العالم أبي العباس المكناسي(246)، في رحلته الثالثة إلى فاس، سنة سبع عشر، فأقام بفاس إلى سنة إحدى وعشرين(247)، ورحل بزوجته، والدتي، وأنا حمل، إلى تلمسان. قرأ بها وحضر بها، على من يذكر بعد، بحول الله تعالى.

فمنهم : الفقيهان الإمامان الأوحدان الصدران، أبو زيد عبد الرحمن، وأبو موسى عيسى(248)، أبناء الفقيه، الإمام الخطيب، أبي عبد الله محمد بن عبد الله، ابن الإمام أبي شكيان، نزيلا تلمسان. وقد عرفت بهما في فهرستي(249). قرأ عليهما بلفظه، وحضر دروسهما، طول إقامته بتلمسان، مدة أعوام، لم يفته تدريس واحد منهما، نفع الله بذلك الجميع.

وقرأ على الخطيب، الصالح الزاهد، أبي(250) محمد عبد الله بن عبد الواحد المجاصي(251)، القرآن تجويداً، والموطأ، والجمل. وكان من أولياء الله الصلحاء. فإنه جاور بمكة، وقرأ بها على المجاصي، وغيره. وكان من الخاشعين، بكى حتى كف بصره(252)، وضعف نظره، أو عدم، ولا يعرف له أنه رفع بصره نادراً.

---

(246) لعله أبو العباس أحمد بن عبد الرحمان اليفرني الشهير بالمكناسي. الإمام الفقيه العالم أخذ عن أخيه علي الشهير بالطنجي وعن ابن الزبير وابن رشيد. توفي سنة 752 هـ (**شجرة النور**، 218 ؛ **أزهار الرياض**، 73/5).

(247) لا يمكن الأخذ بهذه التواريخ. فقد سافر أبو العباس أحمد ابن مرزوق إلى المشرق سنة 717 وولد ابن مرزوق سنة 711هـ !

(248) **إبنا الإمام** : عبد الرحمان بن محمد بن عبد الله أبو زيد ابن الإمام، وأخوه أبو موسى عيسى، العلمان التلمسانيان الشامخان وعالماها الراسخان. يُذكران معا لاشتراكهما في الأخذ عن المشائخ. لهما رحلة إلى الشرق في حدود العشرين وسبعمائة، ثم وردا على تلمسان أول المائة الثامنة. كانت لهما حظوة عند السلطان أبي حمو الزياني وابنه أبي تاشفين. وزادت حظوتهما عند السلطان أبي الحسن المريني. وتخرج بهما كثير من الفضلاء. لهما تصانيف مفيدة. توفي أبو زيد الذي يصفه ابن مرزوق بـ زالإمام العلامة صدر علماء المغرب، ومجتهد وقتهس سنة 743 هـ/1242-1243م وعاش عيسى بعد أخيه ست سنين، ومات بتلمسان سنة 749 هـ/1348م (**المسند**، 265-266 ؛ **رحلة ابن خلدون**، 75-79 ؛ **نفح الطيب**، 215/5-223 ؛ **توشيح الديباج**، 144-151؛ **أزهار الرياض**، 12/5 وما يليها ؛ ابن مرزوق، **تيسير المرام في شرح عمدة الأحكام**، مخطوط الخزانة العامة بالرباط رقم 38 ق، ورقة 234 ؛ **درة الحجال**، 80/3-81).

(249) هي "عجالة المستوفز المستجاز، في ذكر من سمع من المشايخ دون من أجاز، من أئمة المغرب والشام والحجاز". توجد نسخة مخطوطة منها بالخزانة الحسنية رقم 7579.

(250) في النسختين : أبو.

(251) انظر هامش 176.

(252) لذلك يطلق عليه لقب "البكاء" (**بغية الرواد**، 115).

جرى يوما بمجلس الفقيه أبي زيد ابن الإمام، كراهة التزويق في المساجد، وأنه مشغل للمصلي، فقيل له : كالجامع الذي أنت فيه، وكان الجامع الذي يخطب فيه ويؤم، هو جامع القصر الجديد بتلمسان، وهو منقوش مزوَّقٌ إلى حد الإزار، بحيث يسامت القصير القامة من الرجال، فقال : سبحان الله، أَوَ منقوشٌ هو؟ وكان له فيه ما يقرب من عشرين سنة. وله بركات، ودعوات مجابة، وقبره معروف مقصود للزيارة على طريق العبّاد. توفي في حدود سنة إحدى وأربعين(253)، ولا أدري عقبه الآن .

وقرأ على الفقيه القاضي، الأستاذ أبي عبد الله بن هديّة القرشي(254)، وقد تقدم التعريف به، كتاب الموطأ رواية، حضر تدريسه له.

وقرأ على الفقيه، القاضي العدل الصالح العفيف العالم، أبي عبد الله محمد بن أحمد، بن علي، بن أبي عمرو التميمي(255)، أحد قضاء العدل المشهورين بالعفة والطهارة والورع، على سنن من مضى من قضاة العدل، أمرأ الناس نفسا، وأعلاهم همة، وأقومهم طريقة. حسن القبول، مليح المحاضرة، مصنف في المناظرة، زاهدا فيما في أيدي الناس(256)، منقبضا عن التعرض إلى أبواب من يتعرض إلى أبوابه، ملازما لمنزله على طريق علماء تونس، من بيتات أهل إفريقية. قرأ عليه مولاي الوالد كتاب ابن الجلاب(257)، وكتاب الحاصل للأرموي، والمعاليم لابن الخطيب(258)، وحضر قراءتي لهذا الكتاب عليه، وكان قد تفقه في بلدة تونس،

(253) يذكر المقري أنه توفي في العشر الآخر من شهر ربيع الأول من عام أحد وأربعين [وسبعمائة] (أزهار الرياض، 44/5).

(254) سبقت ترجمته.

(255) في النسختين : التنسي (وهو خطأ). تقضى بتونس وسكن تلمسان وولى قضاءها مرات، ومات بها في حدود سنة 745 هـ/1345م (**البستان**، 291. وورد ذكره كذلك في ص 168 ؛ **بغية الرواد**، 115 ؛ **أزهار الرياض**، 49/5 ؛ ابن الأحمر، **نثير الجمان**، 226-231 ؛ **نفح الطيب**، 235/5 ؛ وفي **المسند**، ص 313-314 ووصفه بـ "القاضي الصالح").

(256) يقول ابن الأحمر في **نثير الجمان** (ص 227) : "كان من عباد الله الصالحين، ومن الأولياء المخلصين، وحسبُه من ورعه أنه ولي القضاءَ بتلمسان سنين طائلة، فلما توفي لم يوجد له غير قطيفة، ووسادة صوف".

(257) المقصود **بالجلاب** كتاب التفريع لأبي القاسم عبيد الله بن الحسين بن الحسن الجلاب، الفقيه المالكي البغدادي المتوفى سنة 378 هـ.

(258) هكذا في الأصل، ولعلها : المعالم الدينية

المحروسة، على الفقيه الإمام أبي الطاهر، بن سرورة[259] تلميذ الفقيه أبي القاسم ابن زيتون[260]، وقرأ على صدور من علماء بلده.

ورد على تلمسان بعد أعوام الحصار، وتقضى بوجدة، ثم نقل إلى تلمسان فوليها في مدة، وتأخر في مدة، فلم تزل حالة الولاية على حالة العزلة عنده في أحواله زيادة. صنف ودون، فظهر من تصانيفه ترتيب كتاب اللخمي على المدونة، وهو من أحسن المصنفات. توفي عن سن تزيد على الستين، ودفن بمقربة من العباد، خارج تلمسان، المحروسة. وقبره هنالك مشهور معروف، في حدود خمس وأربعين وسبعمائة. وخلفَ خيرَ خَلَفٍ، ولدَهُ الفقيه، العدلَ المرتضى، الخيّر الأسنى، أبا[261] العباس أحمد[262]، من كبار العدول، وشهراء الحضرة، أحسن الناس هديا، وأدعنهم خلقا، شديد الانقباض والاشتغال بما يعنيه، مع نزاهة نفس، وسراوة همة وتُقى.

والفقيه المشهور[263] الذي برز في السؤدد، وسنى على من تخطط بخطته، حاجب الدولة المتوكلية الفارسية، وصاحب قلمها العالي وكبيرها، نال من الحظوة مع سلطانه، واكتساب المجد والمال ما لم ينله غيره ؛ ومات في حياة سلطانه مستوراً، وخلف أولاداً مرجوين للخير، والخلق يكتنفهم، وعمّتهم بركة

(259) هو أبو الطاهر بن يحيى بن سرور (وليس سرورة كما في النسختين) القرشي. الفقيه القاضي. أخذ الفقه والأصلين عن ابن زيتون، وأخذ علم التصوف عن جماعة وافرة ولقي الشيخ العارف أبا الحسن الششتري. له شرح على المعالمين الفقهية والدينية، وله وضع على كتاب التفريع لأبي القاسم الجلاب وغيره.(ابن الطواح، **سبك المقال**، 173-175).

(260) أبو الفضل (وأبو القاسم) بن أبي بكر اليمني التونسي، الشهير **بابن زيتون**. الفقيه العالم المفتي المشاور قاضي الجماعة بتونس في دولتين. له رحلة إلى المشرق وتفقه فيه في فنون العلوم وخصوصا الأصلين. توفي في شهر رمضان عام 691 هـ/ سبتمبر 1292م. (**برنامج ابن جابر الواديآشي**، تحقيق د. محمد الحبيب الهيلة، تونس، 1981، ص 44-45 ؛ **عنوان الدراية**، 362 ؛ **درة الحجال**، 276/3 ؛ **شجرة النور**، 193 ؛ **رحلة العبدري**، 256 ؛ **كتاب العمر**، 714/1-717).

(261) في النسختين : أبي.

(262) أبو العباس بن محمد التميمي (**بغية الرواد**، 131).

(263) يقصد هنا الفقيه الرئيس الوزير أبو عبد الله محمد بن محمد بن أحمد بن علي بن أبي عمرو التميمي، الذي تحجب للسلطان أبي عنان، زنال حظوة لديه، وكان جوادا. وتوفي أميرا ببجاية سنة 756 هـ، وسيقت جنازته إلى تلمسان، فدفن بها في زاويته الكائنة بطريق العباد (**نثير الجمان**، 227-228 ؛ **مستودع العلامة**، 36 ؛ **روضة النسرين**، 39 ؛ **بغية الرواد**، 132 ؛ **البستان**، ص 228 ؛ **درة الحجال**، 265/2).

البيت الشريف النبوي الحسني[264] الحقيقي الجوطي، الذي استند جميعنا لجنابه، ووقف كل منا على بابه، أسأل الله تعالى أن لا يحرمنا من بركة التعلق بأسبابه، بحق فضله، صلى الله عليه وسلم، وآله وأصحابه.

وقرأ على السيد الشريف، الإمام العالم، المحدث الراوية، الرحال الصدر، القدوة المتفنن، المشارك، أبي علي حسن ابن السيد، الشريف المعظم، الصالح الأفضل، المرحوم أبي يعقوب يوسف بن يحيى الحسني، السبتي[265]، نزيل تلمسان، بعض الموطأ بلفظه، وحضر قراءتي عليه الموطأ، وبعض ابن الحاجب[266]، وسمع عليه بقراءته كتاب الشفا، ورسالة القشيري[267]، والتيسير[268]، وأجزاء حديثية[269] جملة

---

(264) في الأصل : الحسيني.

(265) أبو علي حسن بن أبي يعقوب يوسف بن يحيى الحسني (في **المسند** ص 44، 121 : **الحسيني**) السبتي : إمام ومؤرخ ومحدث.أدرك أبا الحسن بن أبي الرفيع وأبا القاسم العزفي، واختص بابن عبيدة وابن الشاط، ثم رحل إلى المشرق فلقي ابن دقيق العيد وحلبته، ثم قفل فاستوطن تلمسان إلى أن مات بها سنة 753 هـ أو 754 هـ (**بغية الرواد**، 131 ؛ **نفح الطيب**، 25-23؛ **أزهار الرياض**، 445 ؛ **البستان**، 144).

(266) عثمان بن عمر بن أبي بكر بن يونس، أبو عمرو جمال الدين بن الحاجب. فقيه مالكي من كبار العلماء بالعربية، كردي الأصل ولد في أسنا)من صعيد مصر(سنة 570 هـ 1174 / م ونشأ في القاهرة، وسكن دمشق ومات بالإسكندرية 646 هـ/ 1249 م وكان أبوه حاجبا لعز الدين موسك الصلاحي، فعرف به، من تصانيفه "الكافية" في النحو و"الشافية" في الصرف و"مختصر في الفقه" يسمى المختصر الفقهي أو المختصر الفرعي واسمه الحقيقي "المختصر في الفروع"، والجامع بين الأمهات. أدخله إلى المغرب عبد الرحمان بن سليمان اللجائي (ت771 هـ) (وقيل ولده سليمان) وعني بشرحه كثير من المغاربة كالقاضي ابن عبد السلام التونسي شيخ ابن خلدون، وسعيد العقباني وغيرهما، وشرحه من المصريين الشيخ خليل المالكي. ولابن الحاجب مختصر آخر في أصول الفقه ويعرف عند القدماء بالمختصر الأصلي وعنوانه الكامل "منتهى السول والأمل في علمي الأصول والجدل" (**شجرة النور**، 167 ؛ **وفيات الأعيان**، 2/413-414؛ **حسن المحاضرة**، 1/393 ؛ كحالة، **معجم**، 6/265).

(267) **القشيري** : عبد الكريم بن هوزان بن عبد الملك بن طلحة النيسابوري القشيري، من بني قشير بن كعب، ولد سنة 376 هـ، شيخ خراسان في عصره زهدا وعلما بالدين، كانت إقامته بنيسابور وتوفي فيها سنة 986 هـ ، وهو صاحب "الرسالة القشيرية" المشهورة.

(268) في ب : والتفسير

(269) في ب : حديثه. ويقصد بالأجزاء الحديثية عند المحدثين تأليف الأحاديث المروية عن رجل واحد من الصحابة أو من بعدهم، وقد يختارون من المطالب المذكورة في صفة الجامع مطلبا جزئيا يصنفون فيه مبسوطا، وفوائد حديثية أيضًا، ووحدانيات وثنائيات إلى العشاريات وأربعونيات وثمانونيات والمائة والمائتان، وما أشبه ذلك، والأجزاء الحديثية كثيرة جدًا.

من العوالي، كالخلعيات(270) والغيلانيات(271)، وعوالي الدمياطي، والعنعنات، وغير ذلك، من الأجزاء.

وقرأ(272) على علماء بلده سبتة، كالأستاذ ابن عبيدة(273)، وابن الشاط(274)، ونظرائهما(275) وجال يقرأ على خلائق.

ورحل إلى المشرق سنة تسع وتسعين، فروى وحصل مالم يحصل غيره، ثم تخطط بخطة القضاء من بلاد افريقية، ثم تقضى ببلاد السواحل من تلمسان، فلما علم قدره، نقل لقضاء حضرة تلمسان، فولي القضاء بها، فرأى الناس من صرامته وعدم مبالاته بأهل الظهور وأرباب الدولة ما لم يعهدوا مثله ثم تأخر عن القضاء لمثل هذا السبب، وبقي مجالساً للسلطان، من أهل مشورته، وخاصة أهل بساطه، ولم يزل معظماً وجيهاً عند الخاصة والعامة، أحسن خلق الله محاضرة، وأحفظهم بتاريخ، فكان يعاملني معاملة من هو في سنه ومنصبه، وتحصل لي من أنْسه ما

(270) في النسختين: كالخلقيات. والصواب ما أثبتناه. و(الأجزاء الخِلَعِيّات) هي عشرون جزءا للقاضي أبي الحسن علي بن الحسن بن الحسين بن محمد الشافعي المعروف : (بالخِلَعي) بكسر ففتح المتوفى : سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة، وقبره بالقَرافة. جمعها له (أبو نصر أحمد ابن الحسين الشيرازي، وخرجها عنه، وسماها : الخلعيات).

(271) **الغيلانيات** : هي مجموعة أحاديث (أحد عشر جزءا)، تخريج الدارقطني من حديث أبي بكر محمد بن عبد الله بن إبراهيم البغدادي الشافعي المتوفى سنة أربع وخمسين وثلاثمائة، ويسمى هذا الكتاب بـ (الغيلانيات) نسبة لاسم راوي الكتاب عن المصنف، وهو تلميذه ابن غيلان البزّاز المتوفى : سنة أربعين وأربعمائة.

(272) يقصد أبي علي، حسن بن يوسف السبتي.

(273) أبو بكر/ أبو عبد الله محمد بن عبيدة الأنصاري الإشبيلي. الإمام النحوي الأديب شارح جمل أبي القاسم. من أهل اشبيلية استقر بسبتة وبها توفي سنة 706 هـ/1306-1307م (محمد الأنصاري، **اختصار الأخبار**، 17 ؛ **ألف سنة من الوفيات**، 165 ؛ **برنامج ابن جابر الواديآشي**، 126 ؛ **درة الحجال**، 272).

(274) أبو القاسم، قاسم بن عبد الله بن محمد الأنصاري المعروف بـ"**ابن الشاط**". فقيه محدث (ولد بسبتة سنة 643 هـ وتوفي سنة 723 هـ) قال عنه ابن راشد : "ما رأيت عالما في المغرب إلا رجلين ابن البناء بمراكش وابن الشاط بسبتة" له مؤلفات منها : **أنوار البروق في تعقب مسائل القواعد والفروق**، وكتاب **تحرير الجواب في توفير الثواب وغنية الرائض في علم الفرائض والإشراف على أعلى شرف** في التعريف برجال سند البخاري من طريق الشريف أبي علي بن أبي الشرف، (تحقيق إسماعيل الخطيب، تطوان، 1986). انظر ترجمته في : **الإحاطة**، ج 4 ص 259-262 ؛ **الديباج**، ج 2، ص 152-153 ؛ **برنامج الواداياشي**، ص 170 ؛ **درة الحجال**، 270/3 ؛ **شجرة النور**، 217.

يشغلني من تذكر أهلي. توفي بتلمسان، وخلف ولده الفقيه الفاضل، العالم المشارك القدوة، القاضي الأعدل، سفير الملوك ولسان حضرتهم، وترجمان مساءلاتهم وأجوبتهم للواردين على مقاماتهم، وإمام المتصدرين بمشورتهم، أبا القاسم محمد[276]، أشد الناس حمية وإقداما ورجلة، إذا سخروا لم يتقلب، وهو مستوطن فاس المحروسة الآن، وبها خلفه.

وقرأ أيضاً والدي، رحمه الله، على الفقيه أبي محمد عبد الحق المستاري، بعض الكتب الفقهية. وكان يجالس القضاة، ويشاورونه في النوازل والأحكام، وتقلد القضاء مدة، وكان من خيار الناس دينا، رحمة الله عليه.

وكان والدي قد لبس خرقة التصوف في صغره، من الشيخ الصالح، بلال الحبشي[277]، مولى سيدي أبي مدين، رضي الله عنه، وخديمه وخاصته. وكان بلال قد لبس من سيدي أبي مدين، رضي الله عنه[278]. وقد أوضحت ذلك في جزء أفردته في لباس الخرقة. ومن الولي الشيخ الصالح، أبي عبد الله محمد بن علي بن المطرالي، والولي الكبير العارف، الشهير القدوة، المجاب الدعوة، صاحب المقامات المشهورة، والكرامة المأثورة، والأخبار المسطورة، أبي زكريا يحي بن أبي محمد الشريف الحاحي[279]. قدم تلمسان، فسأل عن أبيه، فأخبر بوفاته، فسأل عن بنيه، فأخرج له مولاي الوالد والعم، فأجلسهما بين يديه وألبسهما بطريقته المعروفة[280]، وكان من كبار الأولياء الصادقين، وآحاد العلماء العارفين، لا مرْية في ولايته، وعلوّ قدره، وعظيم مكانته، ولا يشك في ذلك إلا مكابر، أو

(275) هذه الصفحة (أي صفحة 35) من النسخة ب مأروضة جدا وقد أصابها كثير من البلل. وكل ما وضعناه بين معقوفتين هو غير واضح فيها.

(276) أبو القاسم بن أبي علي السبتي (**بغية الرواد**، 131).

(277) بلال بن عبد الله الحبشي، الشيخ العالم القطب. ولد سنة 559 هـ وخدم الشيخ أبي مدين نحوا من خمسة عشر عاما، إلى أن توفي في عام 590 هـ (**البستان**، 71؛ **نفح الطيب**، 242/5).

(278) انظر **نفح الطيب**، 242/5 ؛ وابن قنفذ، **أنس الفقير**، 93-94 حيث يقول : "يغلب على ظني أنه كانت عند أبي العباس بن مرزوق المرقعة التي نزعت عن الشيخ [أبي مدين] بعد وفاته".

(279) هو أبو زكرياء يحيى بن أبي عمر بن عبد العزيز الحاحي (ابن قنفذ، **أنس الفقير**، 52).

(280) يقول ابن مرزوق : "حدثني، عن سيدي أبي زكرياء، والدي رحمه الله، قال : "أجلسني في حجره وألبسني". ويضيف موضحا : "ولأهل بلاد افريقية وبعض أهل المغرب الأوسط في هذا الشيخ زيادة في الاعتقاد، بل لبعضهم طعن، وأنا أبرأ إلى الله من هذا المعتقد". (**المسند**، ص 253).

جاهل به، أو ممال في طريق غيره[281]. وله أتباع صادقون، أولياء محققون، وذرية صالحة، حفظت طريقته، وحمت منصبه، نفع الله بهم، وحفظ مكانتهم.

وأخبرني والدي، رحمه الله، قال : الذي نفعني الله به في طريق القوم، رجل من الأولياء قَدم في أربعين من أصحابه من بلاد المصامدة، وأقام في العبّاد نحوا[282] من شهرين، فعنه أخذت، وبه انتفعت، ولا يعرف له اسم. قال لي : رأيت من الكرامة بطول مقامه ما لا أحصيه كثرة، عزمت على التجرد معه فمنعني، وأخذت عنه رسالة القشيري.

ومن أصحابه وعلية أصحابه سيدنا الشيخ، الولي العارف الكبير، القطب المشهور المعظم، شيخ العارفين[283] وإمام علماء الآخرة العاملين، أبو يعقوب يوسف بن الغماز البادسي[284]، نفع الله به. لقيته متوجها من الحج، وقدم عليه ولده واتصلت المعرفة النافعة به. سألت والدي يوما، وبيدي رسالة القشيري، وقد قرأت عدة مشايخها، وذكرت مقامتهم، فقلت : يا سيدي ! أترى[285] على وجه الأرض من بلغ هذه المقامات؟ فقال لي : نعم، يا ولدي وجازوها كلها. فقلت له : ومن هو ؟ فقال : سيدي أبو يعقوب يوسف بن الغماز البادسي، هذا نصه.

(281) لعله يشير هنا إلى الجدل الذي طان قائما بين ابن مرزوق وبين بعض علماء افريقية الذين كانوا "يسيئون الظن بجملة الطائفة والشيخ" أبي زكرياء الحاحي، وانتصار ابن مرزوق لهذا الأخير. (المسند، ص 253).

(282) في النسختين : نحو.

(283) هذه الصفحة (أي صفحة 36) من النسخة ب مأروضة جدا وقد أصابها كثيز من البلل. وكل ما وضعناه بين معقوفتين هو غير واضح فيها.

(284) الشيخ الحاج أبو يعقوب يوسف بن محمد بن عبد الله **الزهيلي** الشهير بابن الغماز. توفي في النصف الأول من القرن 8هـ/14م مقامه مشهور بين أهل الريف. ذكر ابن خلدون في مقدمته أنه آخر أولياء المغرب، كما ذكره ليون الإفريقي عند كلامه عن منطقة بقيوة المدفون بجوارها. ينسب إليه كتاب "وصول العبد بالسمو، إلى محل القدس العلو" (انظر ترجمته في "**المقصد الشريف**"، 139-140 ; ليون الإفريقي، **وصف إفريقيا**، 325/1 ؛ ابن خلدون، **المقدمة**، دار الكتب العلمية، بيروت، 1992، ص 347 ؛ سعيد أعراب، **من نوادر المخطوطات المغربية في التصوف : "وصول العبد بالسمو، إلى محل القدس العلو"** المنسوب لأبي يعقوب البادسي، دعوة الحق، عدد 262، ص 22-33).

(285) في الأصل : أترى من.

وبركاته وكراماته متداولة، نقلها الأمم، وولايته وكبر قدره أوضح من نار على علم. وترك عقبا مباركا، حفيديْه : الخطيب أبي الحسن، والصالح الذي أخبر الشيخ، رضي الله عنه، بانتقال السر إليه، ووقوف البركة عليه؛ أبو زكريا يحيى(286)، إبنا الشيخ الصالح، سيدي أبي محمد عبد الله، ولا شك في ظهور مخايل السر عليه، نفع الله بهم أجمعين.

ومن أشياخه : سيدي سليمان، السائح وكان منقطعا في جبل مديونة، بين الجبال وبطون الأودية، ومواضع السباع . قال لي سيدي، رحمه الله تعالى : انتفعت منه بكلمات، وكان قد بعثني إليه، فرأيته وانتفعت به، وأخبرني بالكائن الواقع في تلمسان قبل وقوعه بثلاث سنين، رضي الله عنه، ومثال هؤلاء من السائحين والمنقطعين.

ومن علماء مشايخه الإمام القدوة العرف، الخاشع المتبتل، القطب الغوث المحدث، المكاشف، أبو زيد عبد الرحمن الهزميري(287)، الشهير القدر، صاحب المقامات العظيمة، والكرامات الشهيرة.

قال لي والدي، رحمة الله عليه : لازمته من أربعين يوماً، وانتفعت به، وكاشفني بالحال غير مرة. وكان هذا الرجل، من كبار أولياء الله عز وجل، وهو لا يعلم من أين يقتات، وكان لا يأتيه أحد إلا أجابه عن مسألته، وكاشفه عن حاجته قبل سؤاله. وكان مبسوطاً قد بسطته المعرفة، لا يؤنس أحداً ولا يقنطه، بل باب الترجي عنده أغلب، لا ينفصل عنه أحد إلا وقد استبشر بما يعده به من الرحمة، ويقرره لديه من شمول العفو والمغفرة، ويطمعه فيه من دخول الجنة. وكان هذا مقامه، ومقام

(286) من أصاحب ابن خلدون (**المقدمة**، 347-348) ؛ وانظر خطابا لابن الخطيب إليه في **ريحانة الكتاب**، ج 2، ص 167.

(287) أبو زيد عبد الرحمان بن عبد الكريم **الهزميري**. توفي بفاس سنة 706 أو 707 هـ/ 1306-1308م. الولي الصالح أحد مؤسسيْ الزاوية الهزميرية (مع أخيه أبو عبد الله محمد) المتبنية لتعاليم الشيخ أبي محمد صالح. ألف ابن تيجلات كتاب "**إثمد العينين**" في كراماتهما، وقد سبق ذكره. وقد حققه محمد رابطة الدين لنيل دبلوم الدراسات العليا بكلية الآداب بالرباط. (**جذوة الاقتباس**، 410 ؛ ابن عيشون، **الروض العطر الأنفاس بأخبار الصالحين من أهل فاس**، تحقيق زهراء النظام، الرباط، 1997ن ص 206 وما يليها؛ **المسند**، ص 158 ؛ **درة الحجال**، 783 ؛ **شجرة النور**، 201 ؛ **ألف سنة من الوفيات**، 76).

سيدي أبي يعقوب البادسي، رضي الله تعالى عنهما، وهو مقام سلكه جماعة من الأولياء، ممن غلب الرجاء، وسلك آخرون مسلك من غلب الخوف. والمختار عند جماعة من أهل الطريق التوسط، وإن ذلك يختلف باختلاف الأحوال والأزمان، حسب ما هو مبسوط في كتب القوم.

جعلنا الله ممن حسن الظن به، وممن خاف من سوء كسبه، وردني إليه رداً جميلا، بفضله، إنه جواد كريم، لا مرجو غيره.

ومن كبار أصحابه الذي كان، رحمة الله عليه، يعظمهم : الشيخ الصالح العارف، العابد القانت الفاضل، أبو محمد عبد الهادي(288)، وكان يسمى قبل السديدر المغربي، من بلد ويران من جهة تامسنا، أحد أولياء الله البدلاء الخاشعين الأتقياء، صاحب كرامات وأحوال ومقامات، أحد المتصوفين الطاهرين، وخاتمة الأولياء المتقين، لم ير مثله أبداً في المغرب. وكان والدي، رضي الله عنه، شديد الاعتقاد فيه، مخالف لمذهب من كان يخطه.

أخبرني أنه كاشف بي مرات، وأما أنا فقد وقع لي هذا منه مرات لا أحصيها. فمن جملة ما أخبرني به والدي، رحمه الله تعالى، قال : قمت ليلة مفكراً في رحلتي للحجاز، فقلت إنما يشغل باطني هذه البنيّة عن أختها صغيرة، فلو قبضها الله لخف عني حملها. قال : ثم استغفرت. قال : وكان ذلك إثر تهجدي ليلا، فلما صليت الصبح، بكرت إلى العُباد إلى ضريح الشيخ أبي مدين، رضي الله عنه، فدخلت فوجدت الشيخ مطرقا، فسلمت وجلست. فبعد ساعة رفع رأسه، وقال لي : ما فعلت البنيّة يا أبا العباس ؟ ولعلها من الخير البركة، وينفعك الله، عز وجل، بها. أعد الاستغفار عند هذا الشيخ، وحين هاجر لا يشغله شيء أبدا، خالقنا أكفل بها. فكان كذلك. كانت من خيار خلق الله، ورثت عن والدها، رحمه الله، أخلاقه وحياءه وديانته.

ومما كشف أنه لو أراد الله بي الخير أولى بالتخلق به، ثم صارت إلى رحمة الله شهدة. وأخبرني عنه أن بعض الفقهاء ممن كان يقع فيه، تنازع معه في

(288) شيخ وولي وحاج من قسنطينة، كانت له منزلة معتبرة عند السلطان أبي الحسن المريني رغم تحفظه على حملته الإفريقية. سمعه ابن مرزوق يقول "السلطان أبو الحسن أفضل الملوك وأقربهم إلى الله" (المسند، 468) وورد ذكره كذلك في ص 156 ، 356.

شأنه، فلما أصبح اجتمع به، فقال له : كيف كانت ليلتك مع من توقع فينا ؟ ومثل هذا كثير. وأما أنا فكان يقول لي : يا أبا الهموم ! يا المظلوم]...[لم تزل الهموم، والله المفرج اللطيف يتعاقب على واحد الظلم وكشف إلي منها الحاجة التي أنا فيها، تداركني الله بعاجل فرجه، وأمتعني بلطفه، وعاملني بما يليق بفضله وجوده، بحرمة محمد، صلى الله عليه وسلم.

ودخلت يوما إلى زاوية العُباد، وكانت لنظر عمي، رحمه الله عز وجل، فقال لي الخدِم : طلب مني اليوم خديم الشيخ كذا من الدقيق، وكذا من الإدام. فاستكثرت هذا، وقلت : ألزمتني كلفة هذا الشيخ وأتباعه ! فعندما خرجت من الموضع الذي قال لي فيه هذا، سمعت من يصيح : يا محمد ! هكذا يقول من هو ابن الفقراء ؟ فقلت : وما ذاك يا سيدي؟ فقال لي : ألم يقل لك الخديم بكذا، وأجبته بكذا؟

وكنت قد لازمته، وحصل لي خط منه كاشفني بما نزل بالسلطان المعظم، أبي الحسن المريني، وقبل، بما نزل بتلمسان ووقع فيه، وبما وقع أيضا في طريق، وقد كان ندبني للرجوع عن حضورها، وبما وقع في الحركة لتونس، وبأشياء لا أحصيها الآن. وقد صنف في أخباره صاحبنا وشيخنا، الفقيه العلامة، المقيد الراوية، الضابط الجامع المكثر، أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الله بن الحاج النميري(289)، محدث الوقت بالأندلس، تأليفا كبيراً جامعاً، نفع الله به؛ وكذلك صاحبنا الخطيب أبو زيد عبد الرحمان ابن أبي العيش(290)، ووالده قبله.

(289) الفقيه الإمام الرحالة المحدث الراوية العلامة صاحب الرحلة الموسومة بـ"**فيض العباب**" (تحقيق د. محمد ابن شقرون، بيروت، 1990). ولد بغرناطة سنة 712 هـ/1312م، اشتغل كاتبا بالبلاط النصري. وحج ولدى عودته استقر بإفرقية. وببجاية مصطنعا بالكتابة. استدعاه السلطان أبي الحسن إلى فاس حيث تولى الكتابة حتى سنة 744 هـ/1344م ثم رحل ثانية إلى الشرق وعاد مجددا إلى فاس ليستقر نهائيا في غرناطة حيث تقلد القضاء. توفي سنة 764 هـ. (ابن مرزوق، **المسند**، 376 ؛ **الإحاطة**، 1/350-371 ؛ **جذوة الاقتباس**، 91 ؛ **نفح الطيب**، 2/534، 535 ؛ **نثير فرائد الجمان**، 313) ولم أهتد إلى عنوان هذا التأليف المشار إليه في المتن.

A. L. de prémare, *Les notes de voyages d'Abu Ishaq Ibrahim al Numayri al Andalusi, en l'année 145 h. 1344 J. C.*, Revue d'Histoire et de Civilisation du Maghreb, IX, 1970, pp. 31-37.

(290) أبو زيد عبد الرحمان (أو عبد الرحيم) **بن أبي العيش**، عالم متفنن، ذو علم بالوثائق، خطيب الجامع الأعظم بتلمسان وإمامه. هو جد الفقيه أبي زكرياء يحيى بن محمد بن عبد الرحيم، صاحب الأشغال العلية بباب السلطان أبي حمو (**بغية الرواد**، 104 ؛ **روضة النسرين**، 69).

ولنقتصر على هذا القدر من ذكر من لقيه من الكبار، أو أخذ عنه؛ فموضع هذا الفهارس والرحلات، ولكون أكثر من لقيته، رضي الله عنه، في رحلتي الثانية والثالثة، لقيته معه، وقد أودعت ذلك برنامجي الأصغر والأكبر، جبرهما الله تعالى. ونعود لذكر ما قصدته من أخباره وكراماته، نفع الله به، وأعاد علينا بركته.

فصل في سيرته بطول نهاره،
رضي الله عنه.

كان، رضي الله عنه، من اليوم الذي عقلتُ فيه وميزتُ، إلى يوم فارقته، رضي الله عنه يختم ختمة من كتاب الله عز وجل، بين يومه وليلته، [...] رحلته الثانية والثالثة كان يختم ختمة بالليل وختمة بالنهار ويختم بلا مصحف بإحداهما وفي المصحف بالأخرى، وكان إذا حل الصبح حضر ما يحضر من مجالس العلم إلى الضحى، فينصرف إلى منزله، فيُبقي سبحة الضحى، ويقضي أشغاله، ويتوجه أحياناً لزيارة خالته وخالة والدته، وبعض قرابته، ويعود فيقوم للصلاة إلى الزوال. فإذا زالت الشمس، طالع ما يقع لديه من كتب. فإذا صلى الظهر، قام يتهجّد إلى صلاة العصر غالب أوقاته. فإذا صلّى العصر، عكف على مطالعة "الإحياء" غالب الليالي، وأحيانا يخرج إلى العباد، وأحيانا يؤخر زيارة من ذكر من قرابته عن الضحى إلى بعد صلاة العصر، حتى يخرج إلى صلاة العشاء الأخرة. ثم يدخل لصلاته قدر ساعتين، ثم يأوي إلى مضجعه، فينام يسيراً، ثم يقوم إلى صلاته حتى يصبح. هذه سيرته أيام كونه بتلمسان، رضي الله عنه.

ولنذكر سيرته في أيام مجاورته بمكة، شرفها الله عز وجل.

كان إذا صلى الصبح في مكة، رحمه الله، جلس لتجويد القرآن – في رحلته الثانية– على الإمام الأستاذ العلامة مقرىء عصره، برهان الدين إبراهيم بن مسعود المصري(291)، إمام وقته في القراءات، وصدر صدور عصره ؛ وقد ذكرته في برنامجي. وفي رحلته الثالثة، يتلو إلى أن يصلي الضحى. فإذا صلى الضحى وارتفع النهار، خرج لمواساة الضعفاء. ثم يدخل إلى الطواف، فيطوف حتى يشتد

(291) هو برهان الدين إبراهيم بن مسعود بن إبراهيم بن سعيد الإربيلي المصري، المعروف بابن الجابي وبالمسروري . ت745 هـ (**العقد الثمين**، 262/3، رقم 727 ؛ ابن حجر، **الدرر**، 741 رقم 191).

الهجير، ثم يعود إلى منزله، فينام إلى أن يأخذ حاجته من النوم. ثم يقوم فيتلو، إلى أن يصلي الظهر. ثم يدخل إلى الطواف في رحلته الثانية، وفي الثالثة يجلس لسماع كتب الحديث من أصول الأمهات والأجزاء، حسبما تقيد ذلك في برنامجي، إلى صلاة العصر. ثم يعود للتلاوة في مصحفه إلى غروب الشمس؛ فإذا غربت الشمس أفطر بشيء وخرج إلى الطولية ليطوف في صلاة العشاء الآخرة، ويتهجد في البيت الحرام قليلا خلال ما يخف الطواف من البيت ثم يعود للطواف، فيطوف إلى أن يتم العدد الذي كان يعتاده من الطواف، ثم ينام قليلا في أخريات المسجد، أو في الرباط المعروف برباط الخوزي[292] ، بالخاء والزاي المعجمتين. ثم يقوم فيتوضأ، ويعود للطواف، إلى أن يصلي الصبح، فإنه كان أكثر الناس طوافاً.

أخبرني شيخنا، الإمام الصالح، الصوفي الرحلة، أبو الحسن علي بن محمد، بن فرغوس التلمساني[293]، قال لي : ما رأيت أجلد من والدك على الطواف، ومن خديمه يوسف، ومن الوزير أبي القاسم، بن سهل الأندلسي[294]، ومحمود العجمي[295]. وكان كل واحد من الأربعة يطوف بين نهاره وليله، اثنين وثمانين ميلا [296] ، وهي بقدر أن يمشي الماشي اثنين وثمانين ميلا، فكان يلازم هذا العدد

(292) في أ : الخوزة.

(293) ابن فرحون المالكي، **نصيحة المشاور وتسلية المجاور**، تحقيق علي عمر القاهرة، 2006، ص 190 يقول "له رحلة طاف فيها كثيرا من بلاد المشرق والمغرب... انعطف عليه المجاورون وجميع أهل المدينة وكبار الدولة وكذلك أهل مكة بأجمعها" ؛ وذكره ابن بطوطة في رحلته وحلاه بـ"الصالح السايح السالك" (**الرحلة**، ط. د. التازي، 393/1).

(294) وزير غرناطة وكبيرها أبو القاسم محمد بن محمد ابن الفقيه أبي الحسن سهل بن مالك الأزدي الأندلسي الغرناطي. كان له علم بالفقه والتاريخ، ويلقب بالوزير مجازا. أدركه أجله بالقاهرة عام 730 هـ/1336م وهو عائد من الحج (ابن فرحون المالكي، نصيحة المشاور وتسلية المجاور، تحقيق علي عمر، القاهرة، 2006، ص 96-97 ؛ ابن حجر، **الدرر الكامنة**، 296/4-297).

(295) عده ابن مرزوق في مكان آخر من التأليف "من كبار أولياء الله المنقطعين، مجردا منقبضا عن الناس، وذكر له كرامات، وفي **الدرر الكامنة** (335/4) ترجمة لمحمود بن محمد بن داود القسري المعروف بالعجمي المتوفى سنة 799 هـ.

(296) في ب : برعا (وفوقها : كذا).

مدة جواره في رحلته الثانية، إلى أن أقعد، نفعه الله[297]. وسنذكر، إن شاء الله، قصته في هذه الزمانة التي عرضت له، وكيفية برئه، في كراماته، رحمة الله عليه، ورضي عنه. ولرباط الخوزي[298] هذا، قصة، ذكرتها في شرح كتاب العمدة[299]، والله أعلم.

وأما سيرته أيام مجاورته بمدينة رسول الله، صلى الله عليه وسلم، نهاراً وليلا، فكان إذا صلى الصبح قرأ مع القراء في سبع، يعرف بسبع ابن السلعوس[300]. والسبع عبارة عن اجتماع جماعة لقراءة القرآن بإجارات. وأصحاب هذا السبع يقرأون خمسة أحزاب غدوة، وخمسة أحزاب عشية، وبعد المغرب، وكان فيه أعلام.

(297) من المفيد أن نسوق هنا شهادة ابن بطوطة الذي ذكر في رحلته بعض المجاورين بالمدينة الشريفة وخص أحمد ابن مرزوق بشهادة حية : يقول ابن بطوطة : "منهم الشيخ الصالح الفاضل أبو العباس أحمد بن محمد بن مرزوق. كثير العبادة والصوم والصلاة بمسجد رسول الله، صلى الله عليه وسلم تسليما، صابر محتسب وكان ربما جاور بمكة المعظمة. رأيتُه بها سنة ثمان وعشرين وهو أكثر الناس طوافا، وكنت أعجب من ملازمته الطواف مع شدة الحر بالمطاف، والمطاف مفروش بالحجارة السود وتصير بحر الشمس كأنها الصفائح المحماة، ولقد رأيت السقائين يصبُّون الماء عليها فما يجاوز الموضع الذي يصب فيه إلا ويلتهب من حينه!ئ وأكثر الطائفين في ذلك الوقت يلبسون الجوارب. وكان أبو العباس بن مرزوق يطوف حافي القدمين، ورأيته يوما يطوف، فأحببت أن أطوف معه، فوصلت المطاف وأردت استلام الحجر الأسود فلحقني لهب تلك الحجارة وأردت الرجوع بعد تقبيل الحجر فما وصلته إلا بعد جهد عظيم. ورجعت فلم أطف، وكنت أجعل سجادتي على الأرض وأمشي عليه حتى بلغت الرّواق" (**رحلة ابن بطوطة**، تحقيق د. التازي، ج 1/357-358) وانظر كذلك، ابن فرحون المالكي، **نصيحة المشاور وتسلية المجاور**، تحقيق علي عمر، القاهرة، 2006، ص 80.

(298) في أ : ومربط أخوزة.

(299) هو كتاب "**تيسير المرام في شرح عمدة الأحكام**" وهو شرح لكتاب "**عمدة الأحكام عن سيد الأنام**" لتقي الدين عمر بن علي الجمائلي المتوفى سنة 600 هـ/1203م، ويصف الحاج صدوق هذا العمل لابن مرزوق بأنه تلخيص لشرحي العمدة لمحمد بن دقيق العيد (ت 702هـ/ 1302م) وعمر الفاكهاني (ت734هـ/1333م). بينما يقول ابن مرزوق في مقدمة هذا الكتاب : "زدتُ على ذلك ما أمكنني من تنبيهات، وإفادات، وفروع ملحقات، ونكت مستحسنات، وتذكيرات من أئمة التحقيق...". **تيسير المرام في شرح عمدة الأحكام**، مخطوط الخزانة العامة بالرباط رقم 38ق، ص 4. (وهذه النسخة تقع في 448 صفحة من الحجم الكبير، ولم أقف بها على قصة رباط الخوزي). كما توجد نسخ أخرى من هذا العمل الضخم الذي يقع في خمسة أجزاء في تركيا (خزانة آيا صوفيا 1331) وفي مصر (خزانة القاهرة رقم 292). انظر : **المسند**، ص 40.

(300) في أ : السعلعوس.

فكان والدي يقرأ معهم تطوعاً، ويشهد دعاءهم بعد ختم الأحزاب وذكرهم. فإذا فرغ السبع - وكانت القراءة في الروضة الشريفة، ما بين القبر الشريف والمنبر الكريم - يجلس إلى المنبر يذكر، إلى أن تطلع الشمس وترتفع، فيقوم يتهجد إلى وقت الضحى، فيخرج إلى منزله يتفقده، ولقضاء ما يحتاج إليه من ضروريات، ومواساة الضعفاء. وينام قليلا، ثم يعود إلى المسجد، إلى أن يصلي الظهر، وهو في هذه المدة يتلو مصحفه. فإذا صلى الظهر، جلس إلى سماع الحديث إلى صلاة العصر. فإذا صلى العصر، جلس لسماع قراءة الكتب التي عوائدها تقرأ في الروضة الشريفة، بعد العصر، وهي : كتاب الشفا[301]، وكتاب فضائل مولانا محمد[302]، صلى الله عليه وسلم، وقصائد في مدحه، جرت العادة بقراءتها؛ ولقارئها عليها جريات. ثم يعود للتلاوة في مصحفه إلى الغروب، فإذا صلى المغرب، وقرأ السبع، قصد منزله لقضاء ضرورياته، ثم إلى المسجد الكريم، فيتهجد فيه إلى صلاة العشاء الأخرة، ثم ينصرف. فإذا انصرف الناس من المسجد، فإن الناس يُمنعون من الكون فيه ليلاً، إلا آحاد. ولما عرف خدام المسجد، وهم الطواشية[303]، قدر مولاي الوالد، رحمه الله تعالى، أذنوا له في المسجد. فإذا آوى إلى منزله، أقام فيه نائماً يسيراً، ثم يعود للمسجد، فيفتح له، فيدخل للصلاة فيه، إلى أن يصبح. وكان يقصد إلى البقيع يوماً بعد يوم، ثم كان يخرج له غالب أيامه بعد الضحى، فيترحم على الأموات، ويعود. وكان في بعض الأعوام بين الصلاتين يحضر مجالس التدريس، وبين العشاءين كذلك، وكان يقصد قُباء[304] يوم السبت في أكثر الجمع، فيصلي في مسجدها، ويقصد الشهداء، حيث هو ضريح حمزة، عم النبي، صلى الله عليه وسلم، ومن معه من الشهداء في أحيان، وربما يبيت فيه ليالي، وكان قد سكن في مكة والمدينة في مواضع، رأيت ذكرها.

---

(301) كتاب "الشفا بتعريف حقوق المصطفى" للقاضي عياض السبتي (ت. 544 هـ/1149م).

(302) لعله يقصد كتاب الشمائل المحمدية للترمذي.

(303) الطواشية : سيوضح ابن مرزوق لاحقا أن الطواشي بمصر بمثابة المفتي ببلاد المغرب. واستعمل هذا المصطلح في المسند (ص 493) بما يفيد أنهم خصيان القصر. وبهذا المعنى ترجمت الكلمة الدكتورة ماريا خيسوس بيغيرا eunoco انظر :

el Musnad, Hechos memorables... op. cit. p. 409.

(304) قُبا أو قُباء : قرية على ميلين من المدينة على يسار القاصد إلى مكة. واشتهر منها مسجدها. وقيل إنه مسجد رسول الله ﷺ. قال ياقوت : وأصله اسم بئر هناك عرفت القرية بها (معجم البلدان، 301/4).

فسكن، أولا، بمكة بدار مجاورة لبئر إبراهيم، في علو مطل على البئر المذكور، وأقمنا به عاما كاملاً، وكان له بيت في رباط الخوزي المذكور، وله طاقة مفتوحة للحرم، يشاهد منه الكعبة، شرفها الله عز وجل، كان للصالح أبي محمد عبد الله الهواري[305]، فكان يلازمه لقربه.

وسكن أيضاً في رباط ربيع، في المجاورة الثالثة، ورباط موفق، وكان يخرج للمعلى، فيترحم على من به من الأموات، ويتمنى الكون معهم، فبلغه الله أمنيته. وسنذكر ذلك، إن شاء الله، في وفاته.

أذكرني ذكر هذه المعاهد الشريفة، أسأل الله تعالى، جلت قدرته، ألا يحرمني من العود إليها، أو ثواب الحب فيها، إن قضى بالحرمان من هذا المطلب، فإن ذنوبي كثيرة، وزلاتي خطيرة، ووحلتي هذه شديدة؛ إلا أن اللطف أعظم، والرحمة أوسع، والكرم أكبر، وباب القبول مفتوح.

ومن كان في هذا الربط من الأولياء، أصحابه أصحاب الكرامات، وأهل التحقيق؛ فلنذكر بعضهم، وطرفا من أخبارهم على سبيل الاختصار، والله تعالى ولي التوفيق، والهادي إلى أقوم طريق.

فكان برباط الخوزي، ويعرف برباط ابن فرغوس، لكثرة سكناه له نحو من ثلاثين سنة، وأخاله الآن يعرف بالشيخ عبد الله الهواري، لكونه أقام به أكثرمن هذا العدد، وعهدي به الآن بحالة الحياة، نفع الله به. فكان الشيخ أبو الحسن علي ابن محمد بن فرغوس، التلمساني الأصل، أدرك بتلمسان جدي، وأصحابه ونظرائه، ولازمهم. ورحل وجال في أقطار الأرض، من السوس إلى السيس[306]، مع العراقين واليمن والعدوتين. ثم لزم مكة، حتى مات بها، رضي الله عنه.

كان رجلا متصوفا متجرداً جواداً سمحاً ليناً سهلا، لا يتماسك بشيء، يجتمع إليه أهل رباطه، وغيرهم وقت أكله، فيأكلون معه في سماطه. ولأهل مكة فيه

(305) انظر : ابن فرحون المالكي، **نصيحة المشاور وتسلية المجاور**، تحقيق علي عمر، القاهرة، 2006، ص 117.

(306) السيس : وهي سيسية وعامة أهلها يقولون سيس : بلد يوجد بين أنطاكية وطرسوس على عين زربة (ياقوت، **معجم البلدان** (297/3).

جميل اعتقاد، يرقي مرضاهم، ويدعو لصغارهم، ويستشفون برقاه. ولم يزل صرورة، لم يتزوج قط، إلى أن كان في آخر عمره، عجز عن التصرف، واحتاج إلى من يخدمه.

من الصلحاء الأولياء، الشيخ أبو الحسن العجمي. من كبار أولياء الله المنقطعين، مجرداً منقبضا عن الناس، مقبلاً على شأنه، لا يزال تاليا، ذاكراً، صامتاً عن جميع الكلام، إلا رد سلام، أو نحوه. ونذكر له كرامات، نفع الله به.

وأبو محمد الهواري هذا الذي تقدم ذكره، من الصلحاء الأتقياء الكرماء، كان والدي يعظمه، ويقول لي : عبد الله يا بني ! من الأولياء الصلحاء.

وأما رباط ربيع، فكان فيه من أصحابه أعلام كبار، ينقطعون ؛ كأبي الحسن الغماري، ويوسف الغماري[307]، وأبي الحسن علي بن رزق الله الطنجي[308]، الفقيه الحافظ، العلامة المالكي، شيخنا، الذي به استفدت، وعليه أولا في مكة قرأت، وقد ذكرته في فهرستي، وغيرهم من الأعلام، كانوا معاشرين له.

وأما رباط موفق[309]، فكان فيه الشيخ الصالح، الولي المجاب، أبو محمد عبد الله الزواوي[310]. كبير القدر، من كبار العلماء المتصدرين المشهورين. كان في أول حاله متصدراً للإفادة، قرأ على أعلام، وقرأ عليه، واستفاد به أعلام، ثم تخلى وآثر الأخرة على الأولى، فعكف على العبادة، وتبتل ولازم الجوار بمكة، شرفها

(307) لم نقف على ترجمة هذين الغماريين. إلا أن ابن بطوطة يورد إسم أحد المجاورين برباط ربيع، من أصحاب أبي الحسن بن رزق الله الآتي الذكر، وهو أبو العباس الغماري، ويصفه ابن بطوطة بـ "الصالح المبارك" (**رحلة ابن بطوطة**، ط. دار صادر، 1963، ص 154).

(308) أبو الحسن علي بن رزق الله اللنجري. ورد ذكره في **رحلة ابن بطوطة**. وقال عنه أنه كان زمن كبار الصالحين، جاور بمكة أعواما وبها وفاته... وكان "زله بيت بالمدرسة المظفرية يعلم العلم فيها نهارا ويأوي بالليل إلى مسكنه برباط ربيع" (رحلة ابن بطوطة ط. دار صادر، 1963، ص 153-154).

(309) "رباط الموفق" عند ابن بطوطة، الذي اعتبره "من أحسن الرباطات"، وسكنه أيام مجاورته بمكة المعظمة (**رحلة ابن بطوطة**، ط. عبد الهادي التازي، 379/1).

(310) عبد الله بن موسى بن عمر بن يونس الزواوي، الفقيه. حج وأقام بمكة والمدينة، وأخذ عن ابن دقيق العيد، وسمع من مؤنسة خاتون بنت الملك العادل، وحدث عنها ... بمكة. وكان يحفظ الموطأ. ومات بالمدينة الشريفة في شهر ربيع الأول، سنة 734 هـ/ نونبر 1333م (**الدرر الكامنة**، 413/2).

الله تعالى. وكان من المكاشفين المنقبضين عن الناس، يخرج إلى المسجد الحرام لشهود الصلوات، بتؤدة وسكون وخشوع وإطراق، ويدخل الطواف ليلا، فيطوف عشرة أسابيع[311]، وبالنهار، إما مشاهداً، أو في منزله يفر ممن يقصده للتبرك، لا يرى نفسه أهلا لذلك، ولا يعلم له أحد من أين يقتات، ولا يخالط أحداً من الناس، بركاته مشهورة، وكراماته مأثورة، نفع الله به، وأرانا بركات التوسل به وبأمثاله. مات بمكة، ودفن في الموضع الذي دفن فيه مولاي الوالد، رحمة الله تعالى عليه.

وكان من سكان رباط موفق، الشيخ الإمام، ولي الله تعالى، المجمع على ولايته، سعادة الجوابي[312]، أكبر من كان إذ ذاك من الأولياء، يشار إليه، وهو الذي انعقد الإجماع عليه، رضي الله عنه. وكان مبسوطاً، رضي الله عنه، ما لقيته قط إلا تبسم في وجهي، ويعطيني يده حتى أقبلها، ويفرح بي. وجرت لي معه غريبة، وذلك أن والدي ومعاشره، الفقيه المقرىء، الصالح، أبو عبد الله محمد بن محمد القرموني، التلمساني[313]، كانا يتحدثان بقصة وقعت له، وكرامة حفظت عنه واشتهرت، حتى يقال إنها كانت سبباً في خروجه من المغرب، فيذكر أنه كان مستوطنا مدينة فاس، المحروسة، فخرج يوما يشيع أقواما يلحقون بركب مشرق، فلما عاد من تشييعهم، لقي عجوزاً تبكي وتتفجع، وكاد عقلها يذهب. فقصد إليها، وقال لها : ما لك يا هذي؟ فقالت : يا حبيبي! لي ولد غاب عني في بلاد الحجاز، ثم إنه لما عاد، أقام في بلاد يقال لها توزر[314]، وبقيت محترقة من شوقي

(311) "الأسبوع" : مصطلح ظهرت معالمه منذ الأيام الأولى لظهور الإسلام وتشريع الحج، وهو يعني الطواف حول الكعبة سبع مرات . ونجد هذا التعبير عند ابن بطوطة مثلا (انظر : **رحلة ابن بطوطة**، تحقيق التازي، ج 358/1 هامش 67)، وانظر كذلك: عبد الهاي التازي، **المستدركات على تحقيقي : رحلة ابن بطوطة**، منشورات وزارة الثقافة، الرباط، 2005، ص 28.

(312) الجوّاني عند د. التازي. وقد وصفه ابن بطوطة بـ "الشيخ الصالح الطيار" ويضيف قائلا : "دخل يوما إلى بيته بعد صلاة العصر فوُجد ساجدا مستقبل الكعبة الشريفة ميتا من غير مرض كان به" (ابن بطوطة، **الرحلة**، 379/1).

(313) ورد ذكره عرضا في **البستان** (ص 160) ومنه نعرف أنه كان سجن على يد السلطان المريني أبي يعقوب يوسف "مع غيره من أهل تلمسان أيام حصره لها". وكان صاحب رؤيا . انظر تفاصيل ذلك في **أزهار الرياض**، 59/5).

(314) هي قاعدة كور قصطيلة من البلاد الجريدية، اشتهرت بنخيلها وكثرة ثمرها (الحميري، **الروض المعطار**، 144-145).

إليه، فكتبت له هذا الكتاب، لعله يجيء. فنظر إلى الأرض ساعة، ثم أخذ من يدها الكتاب، وذلك ضحى، فدخل منزله، ثم خرج على هيئة السفر. فلما كان بعد صلاة الظهر من يومئذ ولدها جالس بتوزر، إذا بالشيخ قد دفع إليه الكتاب. فلما قرأها وجد تاريخها غدوة ذلك اليوم بعينه، وكان قد عرفه، والشيخ يظن أنه لا يعرفه. فقبل يده ورجله، وقال له : يا بني ! لا تفضحني. فتمادى على حاله إلى المشرق، ولم يعد بعد إلى المغرب. فرجع صاحب الكتاب إلى أمه، فعرف أهل فاس الخبر، فاشتهرت القصة، فوعيتها من أبي، وصاحبه القرموني، رحمة الله عليهما. إذ خرج سيدي الشيخ يقول : هذه الأقدام المباركة تمشي من فاس إلى توزر في ساعة واحدة، وأتفكر في نفسي في ذلك، فدعاني ليلة، وقد قبلت يده، وصوبت له النعل في خروجه من المسجد الحرام، وتأملت قدميه، فقال لي : أحقا يا ولدي هذه الرجيلات الرقاق النحاف تمشي من فاس إلى توزر في تلك المدة؟ يا بني ! سعادة أقل من هذا، ما أنا إلا عُبيّد مسكين، أو ما هذا معناه. فقبّلتُ أقدامه وانصرفت إلى والدي، فأعلمته القصة، فسرّ بها، وتبسّم، فرأيته قد لقيه وتحدث معه، وهما ينظران إليّ ويتبسمان. وكان أسمر، رقيقا طوالا نحيفاً إلى غاية، وخصوصاً أطرافه : الأقدام واليدان كأنها أقلام. مات بمكة، ودفن بالمقبرة المذكورة، مقبرة الغرباء.

ومن الساكنين فيه، العابد الولي، أبو الحسن التكروري. من كبار الأولياء، قدم مكة من بلاد التكرور(315)، سودان العجم، فأقام بها معتكفاً، إلا إذا خرج إلى الطواف أو الصلاة. سكن هذا الرباط، ورباط ابن فرغوس مدة، وكان يقال إنه لا يفطر إلا عند تمام الأربعين، والخبر بذلك مستفيض، وكان يقصد للدعاء، وربما غاب عن مكة أعواماً، ويقول : "أغيب عنها ليشتد شوقي إليها". ووصل مدة من تلمسان، واجتاز إلى بلاد المغرب، ثم عاد إلى تلمسان مجتازاً للمشرق، فرأيته بها، سنة أربعين، ونزل عندي. وسيأتي، إن شاء الله، ذكره وذكر كراماته(316). وكان يسكن بعض الروابط من الصلحاء الأعلام، وربما أذكر، إن شاء الله، بعضهم فيمن لقيته من أولياء الله الصادقين.

(315) **تكرور** : بلاد تنسب إلى قبيل من السودان في أقصى جنوب المغرب، وأهلها أشبه الناس بالزنوج. معجم البلدان (ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، مج 2 ص 38).

(316) لم يورد ابن مرزوق شيئا من ذلك فيما وصلنا من هذا الكتاب.

فصل في قوته وطعامه،
رضي الله عنه، وأرضاه بمنه.

كان، رحمه الله، يصوم كثيراً، ويفطر في النادر. وكان أكثر أكله ثريداً من الخبز الخمير، بإدام خفيف من سمن، أو شحم، ويتأدم باللحم أحياناً.

فصل غريب

كان، رحمه الله تعالى، لا يأكل الفاكهة الخضرة على الإطلاق. وأعرف ذلك منه منذ عقلت. وكان يأكل الخضر، ويأكل من اليابسة التمر والزبيب والتين، فما زلت أسأله عن هذا، رحمة الله عليه، فتارة يعرض عني، وتارة يقول لي لعذر، وتارة يقول لي لفتق عرض لي. فتحدثت يوما مع الشيخ الصالح، أبي[322] مهدي عيسى بن محمد المديوني، أن جرى ذكر هذا، فقال لي : يا ولدي ! أخبرك بشيء، وهو أن سيدي جدك، رحمه الله، دخل يتمشى معي في الجنان، فأخذت باكورة أعجبتني، فقلت له : يا سيدي ! ما رأيتك قط أكلت شيئا من هذه الفواكه، فسألتك، بالله وحرمة رسوله، ألا ما أكلت هذه. قال : فتغير وجهه، وقال : يا بني ! لأي شيء فعلت هذا ؟ فإنك سألتني بعظيم. فأخذها من يدي، وأكلها، ثم قال لي : يا بني ! إنما خرجت عنها منذ سنين لله، وموعدي معها الجنة، برحمة الله . فقلت هذه الحكاية لوالدي، فاستفادها مني مراراً، ثم عمل ولده، فتركها جملة وكذلك المقاتي، ويوهم إذا حضرت أنه يأكلها، ومنذ عقلت ما رأيته قط أكلها، ولا يعرف ذلك إلا أهل بيته، رحمه الله، ونفع به.

فصل في ورعه في الأكل،
رضي الله عنه

كان لا يأكل عند أحد إلا من عرف مكسبه، من تجارة أو فلاحة . فكان زرعه من فدانه الذي ورثه عن أبيه، أو شيء كان يشارك فيه بعض أصحابه من أهل صيطور[323]، والسمن الذي يأكله إما من بقرات عنده، أو من عند رجل صالح من

---

(322) في النسختين : أبو.

(323) في طرة أ : زيدور.

بني محمد، من بني ورنياد[324]، كان يسكن بالربض على مقربة من العُباد، أو من يشتريه له، وكذلك اللحم والأضحية. وإذا حضر عند أحد، أوْهَم بالأكل، ولم يأكل. وكان كثيراً ما ينتاب دار الفقيه القاضي الخطيب الصالح، أبي زيد عبد الرحمن بن يوسف، بن علي بن زاغ[325]، من كبار بيتات تلمسان القدمى، أهل علم ورياسة، وخطط مرعيّة. وكان أبو زيد هذا، فاضلا ديناً. كنت أبيت عنده عدة ليال، فوالله ما أراه ينام الليل إلا يسيراً، غلبة، ثم يقوم صواماً تالياً متحفظاً. وكان صديق والدي ومعاشره. وكانت خالتي تحته، وهي التي ربتنا. فإذا جاء إلى داره، يجيء بالخبز في كمه، فإذا حضروا عشاءهم، أخرج خبزه وأكل منه، أوْهَم بأنه يأكل معهم، تطييبا لخواطرهم، واستجلاباً لقلوبهم، حتى عرف الشيخ وأهله ذلك، لأنه كان يرى أنه يخلط طعامه بدراهم الوثائق، وكان له مع ذلك رزق يجري عليه من المخزن، وكان يدخل لدار الشيخ ابن القطان. وكان، رحمه الله، إذا مشى يبحث عن فتات الطعام فيلتقطه، فإذا كان مفطراً أكله، أو جعله في جيبه، حتى يأكله أو يطعمه للحيوان، فإذا التقط حبة في دار هذا الشيخ، أعطاها للحيوان في حال فطره وصومه، لأنه كان يرتزق من المخزن، بسبب أنه ائتمن على المبيتة[326] بالقصر، لعارض إذا يخرج إليه ليلا من أمور الشهادة والإمامة. وكان قد اضطر إلى ذلك، لكبر سنه، وقلة تسببه، ومع هذا، كان تصرفه هذا، رحمة الله عليهم أجمعين.

ومرض[327] مرة مرضاً شديداً بالكبد، فدخل إليه القائد، الحاج الخير، هلال بن عبد الله، حاجب[328] السلطان أبي تاشفين[329]، ووزيره ومقيم دولته، وكان أشد الناس اعتقاداً فيه، حج معه وجاوره في موضع سكناه، ومعه السيد، الفقيه

---

(324) هكذا في النسختين. وفي بغية الرواد، 186 : بنو ورنيد.

(325) لم أقف على ترجمته، ولعله : أبو زيد عبد الرحمان بن يوسف بن علي الصنهاجي (ترجمته في بغية الرواد، ص 119).

(326) في أ : البيتة.

(327) في طرة أ : يعني أباه سيدي أحمد.

(328) لعله هلال بن عبد الله (حاجب السلطان أبي تاشفين) : أصله من سبي النصارى القطلونيين، لذا يسمى أحيانا "هلال القطلاني". أهداه السلطان ابن الأحمر إلى عثمان بن يغمراسن وصار إلى السلطان أبي حمو، فأعطاه ولده أبا تاشفين فيما أعطاه من موالي ونشأ معه تربيا، وكان مختصا به بالمداخلة والدالة. ولما ولي أبو تاشفين استوزره وولاه على حجابته. وكان مهيبا فظا غليظا، فقعد مقعد الفصل ببابه وأرهب الناس بسطوته، فاستولى على أمر السلطان. حج سنة 724 هـ =

وأما مساكنه من المدينة، صلى الله على مشرفها وسلم، فسكن في الرحلة الثانية، وهو الجوار الأول، بمقربة من باب السلام، أحد أبواب الحرم. وكانت لرجل يعرف [بـ]ـمحمد بن عمر، من مؤذني المسجد الشريف، ثم انتقلنا إلى المدرسة الشهابية، فسكنا في الدويرة التي فيها مبرك الناقة، حيث بركت برسول الله، صلى الله عليه وسلم، يوم قدومه المدينة في هجرته، وهي دار أبي أيوب الأنصاري، اشتراها بعض من سبقت له السعادة، وابتنى بها مدرسة، وعمل موضع البرك دويرة ومسجداً فيها، علما على الموضع. فسكنا هذه الدويرة في السنة الثانية. وكان والدي، رحمه الله، يحترم مقامي فيها ومقام الخديم، فاتخذ لي بيتا من بيوت المدرسة أقرأ فيها، وبيتا آخر لما يحتاج إليه ويلازم هذا الموضع. وكان الخديم وإقامة المؤونة بالدار المذكورة أولا، لا نرجع إليها إلا ليلاً، ثم صار المبيت بالمدرسة. ولما كانت السنة الثالثة، رحل سيدنا وشيخنا، عز الدين الحسن ابن علي الواسطي[317]، إمام مسجد رسول الله، صلى الله عليه وسلم، للجوار بمكة، فأعطى داره لوالدي، وكان يسكن في رباط دكالة، في دويرة بنيت بدار عثمان بن عفان، رضي الله عنه[318]، وفيها مسجد هو موضع استشهاده، رضي الله عنه، وكانت دويرة معظمة يسكنها الأكابر، فاختص هذا الشيخ والدي، رحمه الله، بسكناها. فارتحلنا إليها جملة من المدرسة والدار، وسكناها بطول سنتين.

وسكنا مدة بدار الفقيه، الإمام الصالح، أبي محمد بن فرحون[319] عند باب الرحمة، وبمقربة من المدرسة المحدثة هنالك، المعروفة بمدرسة جربان، وبنيت ونحن هنالك.

---

(317) عز الدين أبو علي الحسن بن علي بن إسماعيل **الواسطي**، صاحب خطتي الإمامة والخطابة بالمسجد الكريم النبوي. ولد ببغداد عام 654 هـ/1256 وقد قدم مصر فسمع عن الدمياطي وحج مرات وناب عن الإمام بالمسجد النبوي وتوفي سنة 741 هـ/1341م ذكره ابن مرزوق في برنامجه "**عجالة المستوفز المستجاز** ..." وقد أفرد له جزءا في مناقبه. انظر : **نفح الطيب**، 392/5 ؛ **الإحاطة**، 105/3 ؛ **الدرر الكامنة**، 146/2) ؛ ابن فرحون المالكي، **نصيحة المشاور وتسلية المجاور**، تحقيق علي عمر، القاهرة، 2006، ص 75-80.

(318) **عثمان بن عفان** بن أبي العاص بن أمية من قريش: ثالث الخلفاء الراشدين، وأحد العشرة المبشرين بالجنة، ولد بمكة وأسلم بعد البعثة بقليل، وكان غنيا شريفا في الجاهلية، وصارت إليه الخلافة بعد وفاة عمر بن الخطاب سنة 23 هـ/644م. قتل مطعونا سنة 35 هـ/656 م.

(319) الفقيه أبو محمد عبد الله بن أبي القاسم **بن فرحون** اليعمري التونسي الأصل المدني المولد والمنشأ. من أكابر الأئمة الأعلام، عالما بالفقه والتفسير وفقه الحديث ومعانيه. أقام مدرسا للطائفة المالكية ومتصدرا للاشتغال بالحرم النبو أكثر من خمسين سنة. وانفرد في آخر =

ثم سكن في جواره الثالث في دار اشترى نصفها، والفقيه الصالح، أبو عبد الله محمد بن علي بن عيسى، من أهل تازة، وحبساها. وبها أقام إلى أن رحل إلى مكة رحلته التي مات بها في مكة، شرفها الله تعالى، حسبما نذكر، إن شاء الله تعالى، في وفاته، نفعنا الله به.

ورباط دكالة هذا، يقال أن جماعة من أهل دكالة(320) المغرب أولياء وردوا المدينة، وكانوا من الأولياء، اشتروا هذا الموضع بأموال من أعمال أيديهم، وبنوا فيه هذا الرباط، وهو من أكبر الربط، يشتمل على بيوت وغرف، يسكنه المجاورون، وغالبهم المغاربة الخيار الفضلاء، نفع الله بهم. كان فيهم صدور وأي صدور! أرباب كرامات وأحوال، كالشيخ عز الدين، إمام الحرم الشريف، وما أدرك منه(321) ! وقد ذكرت أخباره وكراماته في برنامجي. كان إذا جن الليل في هذا الرباط لا يسمع إلا كدوي النحل ذكراً وتلاوة، فإنا لله وإنا إليه راجعون، على مفارقة هذه المواضع، والرد على العقب، والطرد للخبث، وتعرض هذه المعاهد النيرة بالامكان، وتبديل هذه الحالات الشريفة بما أنا عليه من الحالات الخسيسة، والارتباط في وحل العصيان، والاختلاط بأهل سوق الخسران، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

اللهم إني رفعتُ أمري إليك، وعولتُ في إصلاح حالي عليك، يا منْ لا يعجزه شيء، فأنتَ موجد كل شيء، القادر على كل شيء، المتصرف في كل شيء، بإيجادك لكل شيء، وقدرتك على كل شيء، وتصرفك في كل شيء، خلّصني مما أنا فيه، وانقذ وحلتي وذريتي، إنك على كل شيء قدير، يالله، يالله، يالله. يا عماد من لا عماد له، ويا سند من لا سند له، ويا ناصر من لا ناصر له، ويا راحم من لا راحم له، يا ذا الجلال والإكرام، يالله، يالله، يالله. وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه، وسلم تسليما.

= عمره بعلو الإسناد. ناب في القضاء نحو أربعة وعشرين سنة، وأم في المحرب النبوي. له تآليف عديدة في أنواع شتى منها كتاب " الدر المخلص من التقصي والملخص" و"كفاية الطالب" و"شرح مختصر الجلاب" و"العدة في إعراب العمدة"... توفي سنة 769 هـ، (**الديباج المذهب**، 1/454-459 ؛ **رحلة ابن بطوطة**، 1/356 ؛ **درة الحجال**، 3/49-52 ؛ **الدرر الكامنة**، 2/300 **شجرة النور**، 203).

(320) **دكالة** : منطقة سهلية واسعة ما بين نهر أم الربيع شمالا ووادي تانسيفت جنوبا، وأطلقت التسمية على كل من المنطقة وسكانها، كما نجد عند ابن خلدون الذي يطلق اسم دكالة على قبائل مصمودة، قدر ابن قنفذ طولها مسيرة أربع أيام وكذلك عرضها حوالي 200 كلم مربعا.

(321) كذا في النسختين. ولعلها : وما أدراك من هو.

فصل في قوته وطعامه،
رضي الله عنه، وأرضاه بمنه.

كان، رحمه الله، يصوم كثيراً، ويفطر في النادر. وكان أكثر أكله ثريداً من الخبز الخمير، بإدام خفيف من سمن، أو شحم، ويتأدم باللحم أحياناً.

فصل غريب

كان، رحمه الله تعالى، لا يأكل الفاكهة الخضرة على الإطلاق. وأعرف ذلك منه منذ عقلت. وكان يأكل الخضر، ويأكل من اليابسة التمر والزبيب والتين، فما زلت أسأله عن هذا، رحمة الله عليه، فتارة يعرض عني، وتارة يقول لي لعذر، وتارة يقول لي لفتق عرض لي. فتحدثت يوما مع الشيخ الصالح، أبي[322] مهدي عيسى بن محمد المديوني، أن جرى ذكر هذا، فقال لي : يا ولدي ! أخبرك بشيء، وهو أن سيدي جدك، رحمه الله، دخل يتمشى معي في الجنان، فأخذت باكورة أعجبتني، فقلت له : يا سيدي ! ما رأيتك قط أكلت شيئا من هذه الفواكه، فسألتك، بالله وحرمة رسوله، ألا ما أكلت هذه. قال : فتغير وجهه، وقال : يا بني ! لأي شيء فعلت هذا ؟ فإنك سألتني بعظيم. فأخذها من يدي، وأكلها، ثم قال لي : يا بني ! إنما خرجت عنها منذ سنين لله، وموعدي معها الجنة، برحمة الله . فقلت هذه الحكاية لوالدي، فاستفادها مني مراراً، ثم عمل ولده، فتركها جملة وكذلك المقاتي، ويوهم إذا حضرت أنه يأكلها، ومنذ عقلت ما رأيته قط أكلها، ولا يعرف ذلك إلا أهل بيته، رحمه الله، ونفع به.

فصل في ورعه في الأكل،
رضي الله عنه

كان لا يأكل عند أحد إلا من عرف مكسبه، من تجارة أو فلاحة . فكان زرعه من فدانه الذي ورثه عن أبيه، أو شيء كان يشارك فيه بعض أصحابه من أهل صيطور[323]، والسمن الذي يأكله إما من بقرات عنده، أو من عند رجل صالح من

(322) في النسختين : أبو.

(323) في طرة أ : زيدور.

بني محمد، من بني ورنياد[324]، كان يسكن بالربض على مقربة من العُباد، أو من يشتريه له، وكذلك اللحم والأضحية. وإذا حضر عند أحد، أوْهَم بالأكل، ولم يأكل. وكان كثيراً ما ينتاب دار الفقيه القاضي الخطيب الصالح، أبي زيد عبد الرحمن بن يوسف، بن علي بن زاغ[325]، من كبار بيتات تلمسان القدمى، أهل علم ورياسة، وخطط مرعيّة. وكان أبو زيد هذا، فاضلا ديناً. كنت أبيت عنده عدة ليال، فوالله ما أراه ينام الليل إلا يسيراً، غلبة، ثم يقوم صواماً تالياً متحفظاً. وكان صديق والدي ومعاشره. وكانت خالتي تحته، وهي التي ربتنا. فإذا جاء إلى داره، يجيء بالخبز في كمه، فإذا حضروا عشاءهم، أخرج خبزه وأكل منه، أوْهَم بأنه يأكل معهم، تطييبا لخواطرهم، واستجلاباً لقلوبهم، حتى عرف الشيخ وأهله ذلك، لأنه كان يرى أنه يخلط طعامه بدراهم الوثائق، وكان له مع ذلك رزق يجري عليه من المخزن، وكان يدخل لدار الشيخ ابن القطان. وكان، رحمه الله، إذا مشى يبحث عن فتات الطعام فيلتقطه، فإذا كان مفطراً أكله، أو جعله في جيبه، حتى يأكله أو يطعمه للحيوان، فإذا التقط حبة في دار هذا الشيخ، أعطاها للحيوان في حال فطره وصومه، لأنه كان يرتزق من المخزن، بسبب أنه ائتمن على المبيتة[326] بالقصر، لعارض إذا يخرج إليه ليلا من أمور الشهادة والإمامة. وكان قد اضطر إلى ذلك، لكبر سنه، وقلة تسببه، ومع هذا، كان تصرفه هذا، رحمة الله عليهم أجمعين.

ومرض[327] مرة مرضاً شديداً بالكبد، فدخل إليه القائد، الحاج الخير، هلال بن عبد الله، حاجب[328] السلطان أبي تاشفين[329]، ووزيره ومقيم دولته، وكان أشد الناس اعتقاداً فيه، حج معه وجاوره في موضع سكناه، ومعه السيد، الفقيه

(324) هكذا في النسختين. وفي بغية الرواد، 186 : بنو ورنيد.

(325) لم أقف على ترجمته، ولعله : أبو زيد عبد الرحمان بن يوسف بن علي الصنهاجي (ترجمته في بغية الرواد، ص 119).

(326) في أ : البيتة.

(327) في طرة أ : يعني أباه سيدي أحمد.

(328) لعله هلال بن عبد الله (حاجب السلطان أبي تاشفين) : أصله من سبي النصارى القطلونيين، لذا يسمى أحيانا "هلال القطلاني". أهداه السلطان ابن الأحمر إلى عثمان بن يغمراسن وصار إلى السلطان أبي حمو، فأعطاه ولده أبا تاشفين فيما أعطاه من موالي ونشأ معه تربيا، وكان مختصا به بالمداخلة والدالة. ولما ولي أبو تاشفين استوزره وولاه على حجابته. وكان مهيبا فظا غليظا، فقعد مقعد الفصل ببابه وأرهب الناس بسطوته، فاستولى على أمر السلطان. حج سنة 724 هـ =

الشريف، شيخنا : أبو علي الحسيني[330]، المتقدم الذكر، فتذاكروا ما يصلح للشكية من دواء، ومعهم بعض الطلبة الأطباء، فاتفقوا على الربيد[331] العشاري، فقال القائد : عندي منه ما عملته بهاذه الساعة، لمثل هذه الشكية. فقال قائل : ولعل سيدي أبي العباس لا يستعمله. فقال : والله ما عملته إلا مما اتفق الفقهاء، أعزهم الله، أنه مسوغ لي من خالص الحلال. فقال لـه السيد الشريف، رحمه الله : نعم، نعرف هذا. فسكت والدي، رحمه الله. فلما انصرف، وجهه إليه، فلما كان من الغد، قال لي : يا ولدي ! أعرف فلانة المسكينة مريضة بهذه العلة، وهي لا تقدر على التوصل لهذا الدواء، فلعلك، يا ولدي ! توجهه إليها. واستعمل هو دواء غيره.

وكان قد توجه في شأن الصلح بين السلطان أبي سعيد، رحمه الله عز وجل، فلم يأكل للفريقيْن طعاما، ولم يأخذ منهما إحسانا.

فصل
في لباسه، رضي الله عنه، وأرضاه.

لباسه كلباس والده، رحمة الله عليهما. وكان يتجمل في لباسه. فلباسه الجربي، والمثني الرفيع التلمساني، وأكثر ألوان لباسه الأخضر المسني، والزرعي والهندي. وكان يعتم مُقَلَة[332]، ويلبس الحازر الإسكندرانية، والإحارم التونسية، نفع الله به. وبقي في البلاد الحجازية والمصرية على عادته من اللباس في بلاد المغرب.

= ولقي في طريقه بمصر سلطان مالي منسى موسى. ولما عاد من حجه لم يجد مكانه من السلطان، فقبض عليه سنة 729 هـ وأودعه سجنه فلم يزل معتقلا إلى أن هلك من وجع أصابه قبيل فتح تلمسان ومهلك السلطان بأيام (ابن خلدون، **العبر**، 135/7 ؛ **بغية الرواد**، 214-215، 217).

(329) في أ : أبي ثابت تاشفين. وهو أبو تشفين عبد الرحمان بن موسى بن عثمان، السلطان العبدلوادي. حكم ما بين سنة 718 هـ/1318م وسنة 737 هـ/1337 م. عرف بتعلقه بالفنون الجميلة لاسيما من المعمار، وميله الشديد إلى اللهو والنعيم (**بغية الرواد**، 215 ؛ التنسي، **نظم**، 139-149).

(330) حسن بن يوسف بن يحيى بن محمد الحسيني، أبو علي. إمام ومؤرخ ومحدث وقاضي السلطان أبي تاشفين بن حمو بن سعيد بتلمسان. ت. 754 أو 743 هـ (**بغية الرواد**، ص 215 ؛ **نفح الطيب**، 232/5 **أزهار الرياض**، 44/5 وما بعدها ؛ ويصفه ابن مرزوق في **المسند** (ص 121 بـ"الإمام القاضي التاريخي المحدث القدوة".

(331) فوق هذه الكلمة علامة (كذا)، في النسختين.

(332) في الأصل مقلبة. والمقلة نوع من العمائم.

فصل في مركبه،
رضي الله عنه، ورحمه بمنه وكرمه.

ومركبه في الأغلب من أسفاره بغلة، أحيانا مبرذعة، وأحيانا بسرج. وركب الفرس. وأما في البلد، فكان لا يركب أصلا، وإذا ركب في خروجه للعباد، يركب من حيث كان أبوه يركب، وكان يركب الحمار، [نفعه الله، ونفعني به][333].

فصل في صفته،
رحمة الله [تعالى عليه][334]

كان معتدل القامة، أميل إلى الربعَة، آدم اللون، شديد حمرة الوجه، أكحل العينين والشعر، مستدير اللحية، قويم الأنف، جميل الصورة، إذا كلمته احمَرّ احْمِرارَ العذراء ويعرق، خفي الصوت في الكلام والمحادثة، طيب النغمة في القراءة، ما رأيت أحسن صوتاً منه ولا أشجى ولا أفعل في القلوب، لا تلقاه أبداً إلا مبتسماً ضاحكاً، يتودد لكل من يدخل إليه لزيارة أو قضاء حاجة، بما تيسر من الطعام، حتى أني يدركني الخجل أحياناً من يسارة ما يقدمه، أو قلة اعتباره. فكان يقول لي : يا بني! التكلف[335] يؤدي إلى البخل[336].

فصل

فيما حفظته من كرامته، وباشرته من بركاته، وإن كان هذا الباب لا أحيط به، ولا أحصره، لكثرته وطول الزمان، وبعد العهد. وهذا الفصل فيه أنواع تفسر، بحول الله تعالى. نوعٌ منها، والإسم المتقدم، وإن كان الواجب ذكرها على حسب الترتيب في الزمان، منذ عقلت معناها إلى الزمن الذي فارقته فيه.

---

(333) في أ : نفعنا الله به.
(334) في أ : رحمة الله عليه ونفعنا به آمين.
(335) في ب : التكل.
(336) في طرة بنسخة ب : إلى هذا المعنى كان يشير شيخ شيوخنا [أبو الحسن] علي بن هارون، مفتي الحضرة الفاسية حسبما سمعناه عن الشيخ سيدي أحمد المنجور، ووقفنا عليه في فهرسته الصغرى الأمجد بحسب الموجود أن التكلف [مميت] الجود.

أخبرني، رضي الله عنه، أنه في رحلته الأولى، سنة سبع عشر وسبعمائة، كان قد تردد في الرحلة أو الإقامة، فرأى مولانا محمد، صلى الله عليه وسلم، في نومه، فأمره بالرحلة، ووصفها له. فكانت كما وصف. ومرض، رحمه الله، بتلمسان مرضاً شديداً، شارف منه الموت، وآيس منه أهله. فكان في الليلة التي اشتد فيها مرضه، رغب مني عمّي، أبو عبد الله، أن يبيت عنده، فحلف عليه إشارة أن ينصرف، وبقي في بيته وحده. فدعاني، فجلستُ بين يديه طويلا، تارة أبكي، وتارة أترجّى بعمي، رحمه الله، فغلبني النوم، فقمت، فإذا هو ينادي : يا ولدي ! يا محمد! ويغمزني بيده، فاستيقظت، فوجدته جالساً ما به من بأس، فقلت : ما هذا يا سيدي ؟ فقال : وتكتم ؟ فقلت : اكتم، فقال لي : رأيت رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وقد دخل على هذا البيت، قال : فقبّلت يديه، فقال لي : يا أحمد ! لا تخف، لا بأس عليك، ستعود إن شاء الله، عيشاً وتموت عندنا، فهاذا كما ترى، ولله الحمد والمنّة. ولكني يا بني، أريد أن أراجع الشمائل الكريمة، وأذاكر بها الفقيه أبا موسى ابن الإمام[337]، لأطبق بين الأوصاف المحفوظة وما رأيت. فعرفت سيدي الفقيه أبا موسى، فعاده، فقص عليه ما رآه، فإذا جميع ما كان يصف هو المجتمع عليه عند العلماء، رضي الله عنهم. وأصبح ما يشتكي ألما، ولكنه ورّى، فاظهر الراحة، شيئاً بعد شيء[338].

ومن الغريب الذي يتحدث به أهل الحجاز ويعجبون منه، وهو من هذا النمط، أنه، رضي الله عنه، كان يكثر الطواف في شدة الحر، كما قدمنا. فنزل له خلط في ساقيه وركبتيه ووركيه، فأقعد، فكان يُحمل إلى المسجد الحرام وهو كذلك، مدة من ستة أشهر. ووقع اليأس من برئه، وصار من المقعدين الزمنى. وعالجه أطباء هنالك، فلم يجد علاجهم شيئاً. فجاءت أيام الحج، فحج على حاله، وذلك خمس[339] وعشرين، وتوجهنا إلى مدينة رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فلما دخلنا إليها وقضى واجب التسليم على الضريح الشريف، وعاد إلى منزله محمولا[340]، وكان يحمله رجل من أهل تلمسان، يسمى عمر بن الحاج، وكان

(337) سبق التعريف به.

(338) في النسختين : شيئا.

(339) في ب : خمسة.

(340) في أ : محمودا.

ممن تاب عن خدمة السلطان، ويكثر من حمله، ويقترح عليّ أن لا يحمله غيره، وكان خياراً. فأصبح يوماً بعد أن حمله قبل الصبح وهو يبكي، ويكثر من حمله، ويقترح عليّ أن لا يحمله غيره، ويكثر من تقبيل يديه وقدميه، وهو، رحمه الله، يحلف عليه وينهاه. فلما تعالى النهار، ذهب إلى النجارين، فجعل له عكازيْن مما يُجعل تحت الإبط ويتوكأ عليهما، فقلت له: ويستطيع مولاي الوالد أن يقف على هاذين، ويمشي عليهما؟ فقال لي: ولعله، فإنا نستكثر من الأدهان. وظهر في قدميه لين وانقياد، فحاول الوقوف عليهما، وجعل يُري أنه يتمرن بالمشي بهما، وعُمَر في ذلك كله يبكي، ويظهر عليه أثر التعجب. فسألته، فكتم عني، إلى أن رأى [رجل مريض][341] قائلا يقول له: اذهب إلى ابن مرزوق الذي أقامه رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ليدعو لك فتشفى. فكان كذلك. فلما سمع هذا الخبر، سألت عمراً عنه، فقال لي: يا بني! إنه أوصاني بالكتم، ولكني لا أكتم عنك، لتعلم قدر ما أنعم الله به عليك، إنه كان نائماً، فرأى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، في النوم، فقال له: يا أحمد! جئتنا زائراً أو مجاوراً، وأنت على هذه الحالة، فعلينا أن أقوم بك. هات يدك. قال: فأعطيته يدي، فقمت صحيحاً سوياً. فقلت له: يا سيدي! وهو اليوم صحيح؟ فقال لي: نعم. ولكنه يوري بعداً من الشهرة، وسأريك[342] ذلك، إن شاء الله عز وجل. فلما أراد الخروج إلى المسجد، ودعا به ليعينه على الإعتماد على العكازيْن، ترامى على قدميه، وقال له: يا سيدي! قد عرّفت ولدك ليعرف قدر نعمة الله عليك، سألتك بالله ألا ما أطلعته على الحال، ليعلم ذلك، وليس، ويسر بصحتك، فعاتبه، ثم قال له: بسم الله، فألقى العكازين، ومشى في نواحي الدار كلها، وهرول وهو يصلي على النبي، صلى الله عليه وسلم، ويدعو، ثم عاد إلى توريته أياماً، ثم ترك واحداً وأبقى واحداً، ثم تركهما. وهو يلازم الأدهان، رحمه الله عز وجل.

وأخبرني القاضي، الخطيب الصدر، أبو علي منصور بن هدية[343]، قال: رأيت رجلاً من أهل فاس، أعرفه معرفة جيدة، وبيني وبينه أخوة صداقة، وكان قد غاب عني مدة في الحجاز، فلما قدم أنزلته عندي، وسألته عن حاله، فقال لي:

(341) كذا في النسختين.
(342) في ب: سأوريك.
(343) سبقت ترجمته.

سيدي! إن لي قصة، وذلك أني مرضت وأقعدت بالمدينة، وبقيت بها أعواماً زمناً، فلما وصل أبو العباس ابن مرزوق، وهو على مثل حالتي وشفي، وكان إذا مرّ بي ينكسر خاطري، وأودّ أني لو كنت مثله، قال: فجاز علي يوماً، وأنا أفكر في مثل هذا، فنظر يميناً وشمالا، وأقبل إليّ، وأخذ بيدي، وقال لي: قمْ ببركة من أقامني. قال: فقمت قائما كأني ما شكوت قط ألماً. فقال: أكتم عنـي، وإلا شكوتـك. قال: فقمت وأنا كما تراني، أصحّ الناس، وجئت أكثر طريق الحج على قدمي.

وله مرائي كثيرة، رأى فيها النبي، صلى الله عليه وسلم، اقتصرت فيها على ما ذكرته، قصداً للإختصار.

نوع منه في إجابة الدعاء

كان بتلمسان رجل يعرف بيحيى بن إبراهيم بن علي العطار، وكان عاملا جريئاً ظلوماً، تجاوز الله عنه، وكان قد رفع للسلطان أبي تاشفين(344)، رحمه الله تعالى، أن الموضع المعروف بالعبّاد، حيث ضريح سيدي أبي مدين، رضي الله عنه، ترد عليه السلع، ويودعها التجار هنالك، حتى يتحيلوا على دخولها من غير ضريبة، وأن المجابي قد ضاعت بسبب ذلك، وأن الجنّات(345) المجاورة لضريح الشيخ كان في القديم نحو خمسة أو ستة، وهي الآن تبلغ عدداً كثيراً، وإنها لقوم لا يستحقون الاحترام ورفع الخراج، وكان الواجب أن يقتصر على العادة القديمة. وكان لهذا المسكين جنان، أراد أن يعده فيما احتُرم، فلم يعده أهل الموضع في عدادهم فيه، فحقد عليهم، فبعثه السلطان، رحمه الله، للنظر في هذا الموضع الذي رفع، وكانت فيه حدة وجرأة، فاستكثر من الأعوان، وجاء إلى العباد المذكور، فنادى باجتماع أهله، فاجتمع كبارهم وصغارهم، وذكورهم وإناثهم. وتسامع أهل البلد، فخرجوا، وأهل القرى المجاورين للموضع المذكور، فكثر عدد الحاضرين، فقال: أريد أن أتكلم مع فلان وفلان، والدي وعمي، وأسألهم عن العادة القديمة، وعن هذا الذي أحدث هؤلاء. فجاء إلى والدي، رحمه الله،

(344) هو أبو تشفين عبد الرحمان بن موسى بن عثمان، السلطان العبدلوادي. حكم ما بين سنة 718هـ/1318م وسنة 737 هـ/1337م (**بغية الرواد**، 215 ؛ التنسي، **نظم**، 139-149).

(345) في أ : الأجنات. والصواب ما أثبتناه، لأن جنات جمع جنة، وهي الحديقة أو الضيعة.

فقال : أريد أن أتكلم معك. فقال له : فيم ؟ قال له : فيما جئتُ بسببه. فقال له والدي : وفيما جئتَ ؟ قال له : لأنْ أخرب هذا الموضع، وأبدأ بهذه الروضة، يشير والعياذ بالله، إلى مدفن سيدي أبي مدين. فقال له والدي : كذلك يا يحيى، يميتك الله ميتة يُتحدث بها في المشارق والمغارب. اللهم افعل به كذا. قال : فسقط ما في يده، وأيقن بإجابة الدعاء، ثم انصرف بعد طول نزاع. فلما كان في السنة التي تلي هذه السنة، التي وقع فيها هذا، حاصر السلطان المعظم، أبو الحسن المريني(346)، رحمة الله عليه، تلمسان فنصب السلطان أبو تاشفين، رحمه الله، منجنيقا ليرمي به على المنجنيق الذي نصبه السلطان أبو الحسن، فجاء رئيس المنجنيق يستأذن في أن يختبر رميه، فألفى رسول يحي بن العطار قد جاء إلى السلطان يعتذر له، بأنه لا يجد ما يعطي، وكان يطلب بالمال، فقال له : يا مولاي ! يقول لك : والله لو رميتني في المنجنيق ما أجد ما أعطيك فقال السلطان : والله لأرْمِينّهُ في المنجنيق. امض، يا هذا، فاختبر به الرمي. فتوقف، فشد عليه، فذهب ثم رجع، وقال له : يا مولاي ! إنه إذا رمي يحيى، أيُرمى داخل البلد؟ فقال له : ارمِهْ حيث صار. فرمى به، فتحدث الناس بهذه الميتة الشنعاء شرقاً وغرباً.

ومثل هذا، أن رجلا، يعرف بعلي ابن منصور، كان كذلك عاملا، وكان يشق على الناس، وتعرض لأهل العباد كذلك، فشكي له به، فدعاه فنهاه، فأظهر الانقياد، ثم عاد فشكي له به، فقال : "اللهم اجعل حتفه على يد نفسه". فلم يمض إلا أياماً، فأخذ وطولِبَ، فقال : واشتد عليه بالطلب، وعرض عليه العذاب، فاستعجل الموت، فضرب تحت خاصرته بموسى، فخرجت أمعاؤه، ولم يزل كذلك حتى مات. فتحدث الناس بها زمناً.

ومثل هذا كان السلطان أبو تاشفين، رحمة الله عليه، بنى علية مشرفة على دارنا وما جاورها، وبعث يعتذر إليه بأنه لا يكشف على الدار، إلا على ما لا يضر، فأجابه بخير، ثم قال لي ولعمي ولمن حضر معنا : لا إله إلا الله، من اليوم الذي يعمل على الجلوس فيه لا يزال في نكد حتى ينقضي عمره، ولا يسر فيه أصلا. فلما

(346) حاصر السطان أبي الحسن مدينة تلمسان يوم 11 شوال سنة 735 هـ/ يونيو 1335م، واستمر على ذلك حتى دخلها يوم الأربعاء 28 رمضان 2/737 مايو 1337م (التنسي، **نظم الدر والعقيان**، 145-146 ؛ ابن خلدون، **العبر**، 536/7).

كان تمام العلية، توالت عليه الأنكاد والأحصار والأغيار[347]، رحمة الله عليه، حتى قضى، عفى الله عنا وعنه.

ومثل ذلك ما كتب لي به الشيخ الإمام، مدرس المنتخبة، ونائب الحكم الشرعي بالحرم الشريف، النبوي، على ساكنه السلام، أبو محمد عبد الله بن محمد بن فرحون[348]، في كتاب عرفني فيه بوفاة والدي، وما حفظ من كراماته، قال : كان رجل من أهل تلمسان يقتحم عليه بالطلب والسؤال، ويدل عليه بأنه من معارفه من تلمسان، وربما أساء عليه، المرة بعد المرة، وربما همّ بأن يرمي يده فيه، فقال : اللهم اكفنيه. فأصبح وقد شلّت يده، ثم مات بعد أيام، عفا الله عنه، وعن الجميع، بمنه.

ومثلها حدثني، رضي الله عنه، قال : بينما أصلي صلاة المغرب في سفر، وذلك في نواحي تلمسان، إذ سمعت أصوات الناس يصيحون. فلما أتممت صلاتي وسلّمت، وقفت وبقيت بموضعي أذكر الذكر الذي يذكر عقب الصلاة، فاستخبرت الصوت، فسمعت : يا أيها الرجل الذي يصلي، الأسد واقف خلفك. فبقيت على حالي، وقلت : اللهم اكفنيه، حتى أكملت الذكر. فالتفت، فرأيت أسداً واقفاً حذاء فرسي، والفرس لم يتحرك، وعنان اللجام بالأرض، فولى عني منصرفاً، ولا ظهر عند الفرس نفور ولا خوف، ومن عادته النفور عند أقل من هذا.

ومثلها، حدثني الطبيب المبارك الصالح، أبو القاسم محمد بن أبي القاسم الشاطبي التلمساني، قال : استدعاني يوماً السلطان، أبو تاشفين، رحمه الله، وعرفت أنه واخذ[349] عليَّ، وأنني معاقب منه، فلقيت والدك وقلت له : يا سيدي ! استدعيت، وأنا خائف. فقال لي : اذهب إليه، فسترى منه خيراً، وتعود إلي، وأنا واقف بهذا الموضع حتى تعود. ورفع يديه، ودعا. قال : فلما دخلت إلى السلطان، لقيت منه براً ما رأيت مثله، حتى قلت : لعله غلط في، وأمرني بما يختص من عملي، وعاملني بخير. وعدت إلى الموضع المذكور، فألقيته به واقفاً ينتظرني. وهذا باب واسع، المحفوظ فيه كثر.

(347) في أ : الغيار
(348) سبق التعريف به
(349) في أ : واجد

نوع آخر من باب الدعاء لمن به آفة، أو من عرضت له حاجة.

كنت في صغري كثير الأمراض، وأكثرها الدماميل والأورام العظيمة، فإذا اشتد علي الألم، قصدته، فيتفل عليه ويرقيه، ويدعو لي، فيتدارك الله بالشفاء العاجل، من غير أذى. وفصدني الفاصد مرة، فأخطأ موضع الفصادة، وتورم يدي كله، وأشرفت منه على الهلاك، فأشار بعض الأطباء بالطب، وتوقف آخرون بالبَطّ[350]. واتفق جميعهم على أن اليد تعتل. فدخل إلي وأنا أصلي وأسجد على مخدة، لأني لم أتمكن من السجود من الأرض نسياناً مني للحكم، فضرب رأسي بيده ضرباً أوجعني، وقال لي : أين وجدت فيما حفظت السجود على المخدة ؟ وأين الإيماء؟ فرفعت رأسي وأنا أبكي من الوجع الذي أصابني في موضع الألم، فرقّ لحالي وأشفق عليّ، فبصق على الورم، وقام وقد دمعت عيناه، فما كان إلا أن قام، فنظرت إلى يدي، فإذا بالصديد يسيل كالميزاب. وكان ذلك في الظهر، فما جاء العشي إلا وأنا آكل بيدي، وأكتب بها. وصار من كان يتعاهدني من الأطباء يعجب من ذلك، والموضع الذي انفتح منه، لكونه في موضع اشتباك العروق، ولا يتوصل لذلك بالطب.

ومثله أني لما كنت معه بالديار المصرية، كلأها الله، وكان سَكَنُنا بموضع يعرف بالوزيرية[351]، بدرب ابن الحاج، وكان في هذا الدرب مسجد كان في القديم كنيسة وصومعة لراهب، عالي البناء، وكان قد اعتكف فيه قوم صالحون. فلما سكنا بالموضع المذكور، وكان القائم بالمسجد المذكور، الشيخ أحمد البعلبكي، أحد رجال الله، مقصوداً بالمحل المذكور، له سماط ممدود للواردين، فعرض سفر بزيارة أهله بوطنه، فجاء إلى والدي، رحمه الله، وقال : يا سيدي ! لم أجد من يصلح لأن يبقى بهذا الموضع إلا أنت. فاعتذر له عن ذلك، فلم يزل به إلى أن قال له : يكون المفتاح بيدك، أو بيد محمد، ولدك، والخديم يتصرف.

(350) **البَطّ** : شقّ الدّمل والخراج ونحوهما. بطّ الجرح وغيره يبطّه بطّا وبجّه بجّا إذا شقّه (**لسان العرب**).

(351) **الوزيرية** : قريتان بمصر، إحداهما في كورة الغربية، والأخرى في كويرة البحيرة (ياقوت، **معجم البلدان**، 375/5).

فبقي المفتاح بيدي، وكان سماطه يجيء من داره على حسن ما كان يجيء بحضرته. فلما اشتد الحر كنت ألازم هذا الموضع المذكور، ويسمى بمسجد القبة، في الهاجرة لبرد الهواء فيه، إذ كان لا يخلو من هواء بارد، فاشتد يوماً علي ألم الحر، فجئت إلى الموضع المذكور، وجعلت أصبّ الماء على رأسي، وقد حلقت شعره، فانحدر لي خلط صار إلى حلقي، فظننت شيئا يعرض في موضع البلع، فما مرت إلا نحو ساعة، فحسست بورم قدر البندقَة، ثم ما جاء العشي إلا وهو قدر الجوزة، وقد غمرتني الحمى، وامتنعت من الشرب والأكل، وصرت أكابر ابتلاع الريق، فبت ليلتي على تلك الحالة. فلما أصبح، عرّفته، رحمه الله تعالى، [من أمر حالي](352) ما علم منه شدة الألم، وكان بعض أصحابه من علماء الديار المصرية حاضراً، فذهب فدعا بطبيب المارستان، وهو المقدم على سائر الأطباء بالبلاد المصرية، ويعرف بابن الأكفاني، وهو من كبار العلماء المشهورين، فلما نظر إلي، قال : هذه ذبحة، ومتى العهد بها؟ فعرفته، فرأيته قد تغير، وأمرني بالفصد حينئذ، فافتصدت وهو حاضر يأمر باستكثار إخراج الدم. ثم جاء من المارستان بأشربة وغراغر وأدهان وأرجوان، خنقت به الأفاعي، فجعل في عنقي، وقد علقت ما عانا به هذا الطبيب هذا الموضع في جزء، والألم مع ذلك يشتد. فسمعته وهو يقول : هذا مرض لا يتجاوز الثالث في الغالب، وهو يظن أني لم أسمعه، فجاوزت الثالث والرابع والخامس، وأنا مغمور لا أذوق طعاماً، إلا ما يصب في حلقي من أحساء النشى والجرعة. فلما كان في اليوم السادس، دخل علي يهودي(353)، كان مشهوراً بالطب والمشاركة في العلوم، يعرف بنصر الله، وهو حفيد الطبيب المعروف بابن عبد الله اليهودي، المشهور. وكان هذا اليهودي ممن أضله الله على علم، يحضر معنا دول التفسير والحديث، والأصلين، فتسمع منه أبحاث لا تصدر إلا من كبار العلماء المشاركين. فلما رآني وعلم أمري، قال لوالدي : يا سيدي ! لم يبق إلا اللجوء إلى الله، عز وجل. فتقدمه والدي بالخروج، وتأخر هو مع بعض أصحابنا، فقال : هذه حالة، والله ما انتهى إليها أحد قط فعاش، إلا أن يكون نادراً أو خواطر الصالحين تفعل، وخاطر والده. والله أعلم بقصد اليهودي بهذا الكلام. فما كان إلا أن خرج، وإذا بالشيخ الصالح،

---

(352) في أ : وأن أمر حالي. وفي ب : وأرى من حالي.

(353) في ب : يهوديا.

الولي شهاب الدين أحمد ابن شيخ الشيوخ، عماد الدين عبد الرحيم السمريائي(354)، خديم الشيخ السهروردي(355)، وهو ممن لبس منه والدي، ولبست منه الخرقة(356). فدخل يعودني، فنظرني وأنا أميز بعض التمييز، فبكى، وقال لوالدي : ما لكَ لا تطلبه من الله، ونطلبه معك، وكذلك أصحابنا أجمعين يطلبون معك، ونساعدك، لعل الله، عز وجل، يخفف عنه؟ وأخرج صدقة، فاجتمع الفقراء في زاوية، وكانت مجاورة لنا، فسهروا، وسهر والدي، رحمه الله، قائماً يدعو. فلما أصبح، دخل علي الشيخ مع والدي ينظران ما كان مني، فوجداني على حالي، فقال الشيخ : نصب في حلقه شيئاً، لعله أن يظهر لنا الحال. فحضر حسو نشاء، فصبه بيده في حلقي، فسعلت، فطارت في وجهي قطعة لحم من حلقي، فقال : زدْ. فزاد الصبّ، فسعلت أخرى، فخرج الصديد، وجعل يسيل إلى قريب العصر، شيئاً بعد شيء، فدخل اليهودي، وقال : هذا طب القلوب، هذا هو الذي لا مجال للصناعة فيه، والله ما رجوت حياته قط. فوالله، ما صليت العصر إلا قائماً، وأكلت من ليلتي وشربت. فأسأله، عز وجل، جلت قدرته، وعن سلطانه بعظيم قدرته، وعز سلطانه، أن ينفس ما نزل بي، ويداركني برحمته، وعاجل فرجه، إنه على كل شيء قدير، وهو حسبي ونعم الوكيل.

وكنت مرة بمكة، أَقْرأُ للناس كتاب البخاري، رواية عن شرف الدين عيسى بن عبد الله الحجي(357)، وقد ذكرته في برنامجي وأصول مروياتي، جبرها الله. وكان يحضر هذا السماع خلائق كثيرة، رجالا ونساء وأطفالاً، ويحضر جماعة من عباد الله

---

(354) في المسند، ص 410 : السمرنائي.

(355) **السهروردي** : عبد القاهر بن عبد الله بن محمد البكري الصدّيقي، أبو النجيب السهروردي، فقيه شافعي واعظ، من أئمة المتصوفين ولد بسهرورد سنة 490 هـ وسكن ببغداد، فبنيت له فيها رباطات للصوفية، ولي المدرسة النظامية وتوفي ببغداد سنة 563 هـ من تصانيفه "آداب المريدين"، "شرح الأسماء الحسنى" و"غريب المصابيح" (الزركلي، **الأعلام**، ج 4 ص 49).

(356) في طرة بنسخة أ : "عبد الرحيم السمريائي أخذ عن السهروردي أخذ عنه ابن مرزوق ووالده سيدي أحمد نفع الله بهم أجمعين". بيد أن ابن مرزوق يؤكد في برنامجه "**عجالة المستوفز**.." أن أباه هو الذي ألبسه الخرقة (انظر : **نفح الطيب**، 393/5).

(357) عيسى بن عبد الله بن عبد العزيز بن عيسى بن محمد بن عمران، الفارسي الأصل المعروف بالحجي. ولد بمكة سنة 641 هـ وتوفي سنة 740هـ (**الإحاطة**، 105/3 ؛ ابن حجر العسقلاني، **الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة**، ط دار الجيل، بيروت، ج 205/3 رقم 498 ؛ **العقد الثمين**، ط القاهرة، 1969، 459/6-461).

الصالحين، أعاد الله علينا بركاتهم، ونفعنا بهم. فعرضت لي نزلة اشتد علي بها الزكام والسعال، فلم أقدرعلى القراءة، فاجتمع لي جماعة من الحاضرين المصريين والشاميين والإسكندريين، ينعتون أدوية، وربما جاء كثير منهم بأدوية قد صنعوها، فلم يظهر لذلك كثير نفع، فقلت له : يا سيدي ! قد ضاق درعي بهذا السعال. فقال لي : قد ذهب، إن شاء الله بحمد الله تعالى. فناولني من بعض تلك الأدوية، فأصبحت بارئاً، ولله الحمد، وقال لي : هذا ببركة قراءتك للبخاري.

وكان معاشره الشيخ الفقيه، الصالح المقرىء، أبو[358] عبد الله محمد بن محمد القرموني التلمساني، وهو أحد الصلحاء العاملين، قد شرب نوعاً من اليُتوع[359] يسمى بحب القبيل، فأفرط عليه الإسهال إلى أن انتهى به إلى غاية، غلب على الظن تلفه، واستعمل أشياء، بها يقطع الإسهال، فلم تفده. فناداه الشيخ الوالد، فجاءه، فناوله مرقاً يشربه، وقال له : بخاطرك، استشفى، فانقطع عنه للحين.

وكنا نخرج للاعتمار في شهر رمضان، رغبة في حصول ثوابه لما رويناه عنه، صلى الله عليه وسلم، أنه قال : "عمرة في رمضان تعدل حجة"[360]، وفي رواية : "حجة معي"[361]، فكنا نخرج بعد الصبح للعمرة، وبعد العصر لعمرة أخرى. وربما كنا نصلي المغرب أحيانا، فنخرج لعمرة أخرى، وندرك في المسجد الحرام صلاة العتمة مع أخر المصلين، وأحياناً مع المالكية. وكنت أحياناً أكتري دابة للركوب، فتشكي له خديمه وتربيته، الحاج الصالح العابد، يوسف بن يعقوب المطغري، وكان من عباد الله الصالحين، ومن المجتهدين في العبادة، ما يدركه من الكسل، لأنه كان يعتمر هذه العمرة، مع ما يطوف، وكان يبلغ العدد الذي كان يبلغه والدي، رحمة الله عليه، فمسح له على قدميه، فطلبت أنا منه ذلك، فأسعفني، فصرت أعتمر في كل الأوقات هذه العمرات الثلاث في كل يوم، وأنا لا أشتكي تعباً، مع صغر سني، ولكن كان الوقت وقت توفيق.

فانظر، أيها المسكين، ما أنت عليه الآن، واسأل الله العفو والتجاوز والرحمة، وأن يتدارك برحمته، ويغيث بعاجل فرجه، وخفي لطفه، إنه رحيم جواد كريم، لا إله إلا هو.

---

(358) في النسختين : أبا،

(359) في أ : التبوع.

(360) رواه البخاري والنسائي وابن ماجة. (المنذري، **الترغيب والترهيب**، 2/181-182).

(361) نفسه.

ومن هذا الباب، أن الفقيه الصالح أبا عثمان سعيد بن أبي[362] الفضل ابن قراقش، وهو من قرابته، حسبما يذكر ذلك بعد، إن شاء الله، في فصل قرابته، كان في صغره قد قرأ يسيراً، وتشاغل بالصناعة بتحريض والده وقرابته على ذلك، فكان يأمره هو بالقراءة، ويحرضه عليها، إلى أن قال له يوما، وقد كنت أنا قلت له : يا سيدي! دعه على حاله، وعلى ما أراد به قومه، يا بني ! إنما تعيش بالقرآن، ولا حظ لك في الصناعة، ولا لك فيها رزق، وعيشك ورزقك وظهورك بالقرآن. فكان كذلك، بالقرآن ظهر، وبه انتفع، فصار يقرىء أبناءهم.

وحدثني في العام الفارط، قال : بت مكروباً من أمر عرض لي، وخفت خوفاً شديداً، فرأيته في النوم، فأحالني عليك، وبعثني إليك. قال : وقال لي : ﴿نَحْنُ أَوْلِياؤُكُم في الحَيَاة الدّنْيا، وَفي الآخِرَة[363]﴾. وما يزال يحكي مرائي، لم يزل يره فيها، ويخبر عنه بعجائب. وهو عنده بمثابة الولد، وهو من خيار الناس دينا وفضلا، وصحة مذهب، نفعه الله تعالى.

وقلت له يوما، عن الفقيه الشريف الأوحد، العلامة أبي القاسم بن الحسن[364]، المتقدم ذكره : يا سيدي! إنه لا يقرأ، ولا يجتهد، ولا يعبأ. فقال لي : يا ولدي ! لا بد وأن يكون من أهل العلم. فكان كذلك. وقد تقدم ذكره. وكذلك كان يتوسم الخير في ابنيْ الفقيه القاضي، أبي عبد الله ابن أبي عمر، ويفرح بهما ويؤثرهما، فظهر فيهما من الخير، والحمد لله.

نوع آخر

حدثتني الشيخة الصالحة، عائشة بنت ابن الأكحل، وكانت من خيار الصالحات، أنها مرضت، فاشتهت أن تشم تفاحاً، وذلك في غير إبانه، قالت : فدخل يعودني، فهممت أن أذكر له ما عرض لي، فقال لي : يا خالتي عائشة ! تشم تفيفحات ؟ وأخرج لي من كمه تفاحا.

(362) في أ : أبا.
(363) سورة فصلت، 41.
(364) لعله يقصد أبو القاسم بن أبي علي حسن السبتي السالف الذكر.

وحدّث أحمد بن الشراط، مثلها في سفرجلة، وكذلك ابن شرقي، في بطيخة والشيخ الصالح العالم لكتاب الله، الحاج ميمون، في نوع من التين، يعرف بالشريحة، إلى غير ذلك مما كثر تعداده واشتهر.

نوع آخر

كان، رحمه الله تعالى، كما قدمناه، كثيراً ما يؤثر الثريد من الخبز المختمر، وكانت تجعل له قصعة، قدر ما يكفي الواحد الأكل، فرأيت، غير مرة، الأربعة والخمسة يجتمعون عليها، فتكفيهم، فإذا رآني نتأمل هذا، يقول : يا بني! أما علمت أن الثريد معلوم البركة.

وكان إذا اجتمع زرعه واختزن، لا يكاد يقوم بقوت أهل داره طول السنة، فكان يجعله في مخزن، وينهى عن أن يكال، فيخرج منه بطول العام ما يتغذى به أهل محله، ويتصدق منه طول الأيام.

وحدثتني الحاجة المباركة، ست الملوك، بنت يعقوب الهواري، زوجة عمي، رحمه الله تعالى، قالت لي : طلبت من والدك زيتاً، وقد كان اشترى منه وعاء كبيراً، فأمرني، فملأت منه آنية كبيرة، وقال لي : احتفظي بها. فقالت له : يا سيدي! عسى تنزل فيه البركة، هذا نصفها، فقال لها : ويكون كذلك، إن شاء الله، قالت : فأقمت قريب العام، وأنا أوقد منه، ولا يفرغ . فقلت يوماً : هذا والله هو العجب! هذا الزيت ما فرغ . فنظرت إلى الإناء، فوجدته على حاله، قالت : فصببت منه شيئاً كثيراً في وعاء، ثم نظرت إليه، فوجدته والزيادة تظهر فيه، إلى أن عاد إلى حده، قالت : فقلتها للناس. فلما جاء، عرفته، فقال لي : ولأي شيء كشفت السر؟ هلا تركت الحال على حاله، ودعوت بالبركة؟ قالت : فَفَنِي[365] من يومئذ.

وأما الذي كنا نسافر به إلى أرض الحجاز، كان يجعل يده في الأوعية، ويدعو، فما احتجنا قط إلى زيادة زاد، والناس يجددون الأزواد في كل بلد. وهذا مع ما كان يوثر به الضعفاء من الحجاج المحتاجين، نفعه الله بذلك ونفع به، آمين، آمين، بحرمة سيد الخلق إمام المرسلين، محمد، صلى الله عليه وسلم.

(365) كذا في ب. وفي أ : رسم الناسخ مكانها حرف ف متبوعا بثلاثة نقط

فصل في حبه الخمول، ونفوره من الخطط، ومن طلب الجاه والشهرة التي تورط فيها من تورط، وهو في وحلها يتخبط.

حدثني، رحمه الله، أن سبب انتقاله مَن مدينة فاس وَعوْده لتلمسان، هو أن السلطان المعظم الأشهر، أبا سعيد، ملك المغرب[366]، رحمه الله تعالى، كان له به معرفة وتأكيد، حين كان محاصراً لتلمسان مع أخيه، السلطان أبي يعقوب. فكان يلازم العباد، فتأكدت المعرفة بهذه الجهة. فلما ملك، رحمه الله تعالى، وصار له ملك المغرب، جرى ذكر والدي بين يديه، فقال السلطان : أهاهنا هو؟ والله ما علمت. فقيل له : نعم . فقال : لا بد لنا من الإجتماع به. فقال له قائل : يا مولاي ! إن شئتم أن يبعث إليه، وإن شئتم أن تراه موافقة، فأنتم تدخلون اليوم إلى الجامع الأعظم، جامع القرويين، ومجلسكم فيه عند باب الصومعة، وهناك أكثر جلوسه. فنقل له المجلس، فتوانى إلى أن رحل إلى تلمسان. حدثني بهذه الحكاية.

وحدثني أيضا، قال : لما وصلتُ إلى تلمسان ومعي والدتك، وصلت إليها، والحال ضيقة، وألفيت الدار خربت، وغلات الجنات قد أنفقها عمك. قال : فضاقت المعيشة وتقتر الإنفاق، وتعذر ما أصلحُ به شأن داري. وكنا قد نزلنا يوم وصلنا دار الفقيه القاضي، أبي زيد عبد الرحمن بن زاغ، وكان يومئذ من العدول، وكان تزوج خالتي، ابنة عم والدتي، ووجدنا حالهم في سعة. فقال لي والدي، رحمه الله تعالى : وأملك تتأمل حالهم، قال : فما كان إلا أن مرت علينا نحو من أربعة أيام، وإذا بالفقيه القاضي أبي عبد الله بن هدية، وشيخ الدولة داود بن علي[367]، وغيرهم، قد دخلوا المسجد الذي يجاورنا ودعوني. قال : فجئتهم، فقالوا لي : السلطان أبو حمو[368] يسلم عليك، ويقول لك : إني قد رفعت أيدي

(366) هو عثمان بن يعقوب بن عبد الحق المريني، يكنى أبا سعيد . بويع في 2 رجب عام 710 هـ وتوفي بعلة النقرس ليلة الجمعة 25 ذي القعدة سنة 731 هـ ودفن بشالة (روضة النسرين، 34)

(367) انظر عن مهمة قام بها هذا الشيخ لمفاوضة الأمير أبي علي الثائر ضد أبيه السلطان المريني أبي سعيد سنة 722 هـ (**بغية الرواد**، 216).

(368) أبو حمو موسى بن أبي سعيد عثمان بن يغمراسن، رابع ملوك بني عبد الواد. اعتلى العرش في 21 شوال 707 هـ/15 أبريل 1308م ومال مقتولا بيد ابنه أبو تاشفين، الذي خلفه، في 22 جمادى الأولى 718 هـ/22 يونيو 1318 (**بغية الرواد** ؛ 212-215 ؛ التنسي، **نظم الدر والعقيان**، 132؛ روضة النسرين، 62).

العدول، وتخيرت للمسلمين أربعة، أنت أحدهم، تجلس للناس لعقد الشروط والشهادة بينهم. قال : فقلت لهم : هذا شيء لا أعمله، وشغلي بنفسي. فقالوا : إن عزم السلطان اشتد على هذا، وقد جلس أصحابك، وهم : الفقيه الخطيب الصالح أبو محمد المجاصي[369]، والفقيه أبو عبد الله بن أبي عمر[370]، وذلك قبل ولايته القضاء الرابع. قال : فامتنعت، فقالوا لي : نحن لا ننقل عنك الإمتناع، فأنت تعرف حاله. وكان شديد البأس والبطش، رحمه الله تعالى، وشديد الاعتقاد فيه، ولكنا نخيرك إلى بعد العصر، إن شاء الله تعالى، ونجتمع بك : قال لي، رحمة الله عليه، فدخلت إلى أمك، وقلت لها : يا فلانة ! جرى وجرى. قال : فقالت لي : ولِمَ لمْ تجبهم، وأنت ترى ما نحن فيه من ضيق الحال؟ ورأيت حال فلانة في دارها، ورزقهم في هذه الخطة؟ قال : فقلت لها : ﴿وَمَا عِنْدَ اللهِ خَيرٌ وَأَبْقَى﴾[371]، والله لا فعلت وأنت عندك من الصبر فوق ما عندي. قال : فقبلتْ يدي، وقالت : الحمد لله الذي أرشدك إلى الحق، ووفقك للصواب. والله يا سيدي، ما كنت إلا مختبرة لك في قولي، ولو قلت لي غير هذا، لحلفت لك أني تفارق عيشتي عيشتك، فإني سمعت والدي يسأل عن الأجرة التي يأخذها الموثقون، فكان ينهى عنها، ويعدها سُحْتا، إلا ما تعلق بثمن الكاغيد والمداد.

هذا نص ما حكى لي والدي، رحمه الله، عن أمي، عن أبيها[372]. وكان يذكر لي هذه الحكاية في معرض الثناء على الوالدة، رحمة الله عليها، ونفعني بها. والعجب من فساد النتيجة مع إصلاح المقدمتين.

اللهم ارجعني إليك، وعجل بتوبتي وصلاح حالتي، يا من لا يعلم كيف هو إلا هو، ويا من لا يبلغ قدرته إلا هو، تداركني بعاجل فرجك ورحمتك، واستعملني باقي عمري في خدمتك، يالله، يا رحمان يا رحيم.

(369) انظر هامش 176.

(370) تقضى بتونس وسكن تلمسان ومات بها في حدود سنة 745 هـ/1345م (البستان، 291 وورد ذكره كذلك في ص 168 ؛ بغية الرواد، 115 ؛ وفي المسند، ص 313-314 ووصفه بـ "القاضي الصالح").

(371) سورة القصص، آية 60.

(372) في طرة أ : والدها هو أبو إسحاق سيدي إبراهيم التونسي، نفعنا الله به، آمين.

ولما مات الخطيب الصالح، أبو عثمان سعيد بن أبي إسحاق[373]، دخل يوماً، وهو مغتمّ، فسألني عمي وخالتي، رحمهما الله، عن سبب اغتمامه، فقال : مولاي بعث إلي وقال لي، تخطب وتقوم بهذه الخطة، فاعتذرت لهم. فقيل لي : لا بدّ من هذا، فهوّن على عمي وخالتي، وكنت أصغي لكلامه، ففرحت كأني سكن لهذا. فلما كان من العشي، بعث عن الفقيه أبي عبد الله محمد بن علي السبتي، فقال : تعرف هؤلاء؟ إن هذا عمل لا أعمله الآن أبداً، ولا قدرة لي عليه. فانصرف عنه، فقبل عذره.

ورأيت يوماً السلطان المرحوم، أبا تاشفين، رحمه الله، بالعُباد، وقد قصد زيارة ضريح الشيخ سيدي أبي مدين، رضي الله عنه، فلقي عمي، فسأل عن والدي، فقال له : هو هنا في الجامع. فلما دخل الجامع، لقيه والدي، رحمه الله، فصافحه، وقال له : سألتك بالله لأي شيء تمنعنا من رؤيتك، والتبرك بك؟ لا تجيئنا ولا تزورنا، وإن أذنتَ لنا أن نزورك، زرناك. فشكر له، وقال له : رؤيتي لك بظهر الغيب، فلا تحملني على ما لا قدرة لي عليه، ولا أصلح له. فقال له : المقصود أن أكون في خاطرك، ورغبتي أن أدفن في هذا الموضع، الذي أعددته للدفن، إلى جانبك، كما دفن جدي مع أبيك. فقال له، رحمه الله : أما أنا، فأرجو من ربي أن لا أدفن، إلا حيث أطلب، في أحد الحرمين الشريفين، والله يخير لك أنت. فتحدث معه ساعة، وانصرف. فقال له : لعل لك حاجة. فكلمه في محبوسين، فأمر بسراحهم. فلما انصرف السلطان، قال لي عمي، رحمه الله، إن والدي قال له : مسكين والله، ما يدفن بهذا الموضع، لا هو ولا أنا، فكان كذلك. أما والدي فدفن حيث طلب، حسبما نوضحه إن شاء الله تعالى، في فصل وفاته. وأما السلطان أبو تاشفين، رحمه الله، فدفن بباب وهب، قريبا من الولي الصالح، سيدي أبي يعقوب التيفريسي. وربما عتب عليه بعض أصحابه في هذا، ويقول له : لو جئت هذا السلطان، لقضى لك ما شاء الله من الحوائج، ولك في هذا أجر كبير، فيقول لي : في نفسي أكبر شغل.

---

(373) يقصد الشيخ الخطيب أبو عثمان سعيد بن إبراهيم بن علي الخياط السابق الذكر.

ومن غريب ما كان يجري على لسانه في شأنه، منذ عقلت، وأنا في المكتب، أنه كان يقول لي : يا بني ! ما لك وللسلطان؟ أخْوف ما أخاف عليك مخالطة السلطان[374]. يكاد يكرر هذا الكلام كل يوم، وأنا أعجب من هذا، لصغر سني، وبعدي من هذا. فكان ما قال، رحمه الله تعالى. فها أنا في بحر الوحلة مرتبط، وفي خصرها مشتبك، وبسببها ممتحن، ومن أجلها- بعد العزة بجانب الله- ممتهن. فإنا لله وإنا إليه راجعون.

اللهم أجرني في مصيبتي، واعقبني خيراً منها، بفضلك يا من لا مرجو سواه، ولا كاشف لما نزل في إلا إياه، يا حليم، يا رحيم، يا الله، وسيلتي إليك في ذكر محمد، صلى الله عليه وسلم، فلا تخيب مقصدي، يا كريم، يا واسع العطاء والرحمة.

وكان، رحمة الله عليه، مرة مريضاً في تلمسان، فجاء السلطان أبو تاشفين، رحمه الله، إلى باب كان يدخل منه إلى دار متصلة بدارنا، كان يسكنها شيخنا، ابن القطان، لكونه ربى والدي، رحمة الله عليه، وهو على رجليه، مع كاتبه أبي عبد الله بن مرورة، وكان خرج من داره وقصره من باب يقابل هذا الباب المذكور، فضرب الباب، فخرج إليه الشيخ، فقال له : جئت لزيارة الشيخ فلان، فإني أعرف أنه لا يهون عليه أن أزوره على حالي من الركوب، ومن معي. فدخل الشيخ، فوجد الخوخة[375] التي بيننا وبينه مغلوقة، فأراد كسر قفلها، فاستصعب. فقال السلطان، رحمه الله تعالى، لمن معه : لعل فيكم من لا يصلح لزيارة الصالحين، وكذلك كان، ارجعوا بنا إلى غير هذا اليوم، ونستغفر الله عز وجل، فعرف والدي، رحمة الله عليه، فبعث إليه الشيخ يعتذر له، ويحلف عليه، فكان كذلك.

وكنت ليلة في زمن صغري، وأنا من نحو خمسة أعوام، قد خرجت من باب داري، قبل آذان العشاء الأخيرة مع خادم خرجت لحاجة، فانتظرتها، وكان الموضع الذي فيه دارنا، زُقَيْقا[376] غير نافد، وهو متصل بالقصر، وفيه باب يعرف

(374) نفس المعطيات تجدها في المسند، 482.

(375) لعل المقصود "باب الخوخة" إحدى الأبواب الثلاثة التي كانت تحيط بتلمسان جنوبا إلى جانب كل من باب الحمام وباب وهب.

(376) في النسختين : رانيقا.

بباب الغدر(377)، فإذا برجل قد وقف علي، وبيده فنار، ومعه شيخان، أحدهما بزي الفقهاء، والآخر بزي الفرسان. فدعاني الشيخ الذي هو بزي الفرسان، وقال لي : من والدك؟ فقلت له : ابن مرزوق . فقال لي : من فيهما ؟ فقلت له : أحمد . فقال لي : حفيد سيدي محمد! فضمني، وقبل رأسي، والفقيه يقول له : يا مولاي! بيت البركة، فقال لي : ولأي شيء خرجت في هذا الوقت؟ فقلت له : أنتظر خادمنا. فقال لي : وأين أبوك؟ فقلت له : في الدار. فقال لي : أدخل، وسلم عليه، وقل له يدعو لنا. فقال له الفقيه : ندعوه لك حتى تراه، فقال له : يشوش عليه، وكان قد خرج لبعض دور خدامه الخاصين به. فدخلت ووجدت أبي، رحمه الله عز وجل، مختفيا، فقال لي : يا بني ! سمعتك تتكلم مع السلطان أبي(378) حمو، رحمة الله عليه. فبعد ذلك، ركب لصلاة العيد، وكان عقب ذلك، فرأيته بعيني. في هذا كان شأنهم، رحمهم الله، فشتان ما بين الفريقين.

ولما وصلنا إلى القاهرة المحروسة، ولبس الناس من يده الخرقة، وعرفوه واشتهر حاله، طلب منه بعض الأمراء الكبار أن يستقر بخانقات(379)، على ما جرت به عوائد المشايخ هنالك، فامتنع. وطُلب منه أن يبيت مع أشياخ الصوفية بخانقات سعيد السعداء، وهو أعظم الخوانق وأكبرها، وهي محل شيخ الشيوخ، وكبار المشايخ، فامتنع من ذلك، وطلب مني أن أترتب في وظيف(380)، يعرف عندهم في

(377) **باب الغدر** : يعتقد ليفي بروفنسال أن هذه التسمية فنية وليست علما. "ويحتمل جدا أن يكون مدلوله بابا سريا منخفضا يقع في جدار، وعن طريقه يفر أمير المدينة مثلا إلى الريف إذا وقع حصار، في نفس اللحظة التي يخترق فيها العدو مدينته". ويتحدث الأنصاري عن "أبواب الغدر" بسبتة ضمن أسماء فتحات أخرى ثانوية كالخنزيرة بمعنى ممرات تحت الأرض. انظر : إ. ليفي بروفنسال، **الإسلام في المغرب والأندلس**، ترجمة د. محمود عبد العزيز سالم ومحمد صلاح الدين حلمي، القاهرة، (د.ت.)، ص 71 ؛ الأنصاري، **اختصار الأخبار**، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، الرباط، ص 45.

(378) في النسختين : أبو

(379) يعرف ابن مرزوق "**الخانقة**" مقارنا إياها بكل من "الزاوية" و"الرباط" ببلاد المغرب، قائلا : "وهذه الزوايا هي التي يطلق عليها في المشرق الربط والخوانق. والخانقات علم على الربط وهو لفظ أعجمي، والرباط في اصطلاح الفقهاء عبارة عن احتباس النفس في الجهاد والحراسة، وعند المتصوفة عبارة عن الموضع الذي يلتزم فيه العبادة... والظاهر أن الزوايا عندنا في المغرب هي المواضع المعدة لإرفاق الواردين، وإطعام المحتاج من القاصدين. وأما الربط على ما هو المصطلح عليه في المشرق فلم أر في المغرب في سبيلها ونمطها إلا رباط سيدي أبي محمد صالح والزاوية المنسوبة لسيدنا أبي زكريا يحيى بن عمر بسلا..." المسند، 411، 413.

(380) في النسختين : وظيفي.

البلاد بالإعادة؛ وشأن المعيد عندهم أن يعمد تدريس المدرس، فهو مدرس يلي المدرس الأكبر، وفي كل مدرسة لها مدرسون. فعينت للإعادة في جامع الحاكم، وعينت لي على ذلك جراية، نحو من ثمانية دنانير من الذهب في كل شهر، ونحو من مائة وثمانين وسقا من قمح، في السنة، وأن أترتب في إعادة أخرى بجامع طولون[381]. فقال لي : يا بني ! إنما هجرت بك لطلب العلم، لا للظهور في الدنيا، والإستكثار منها، ومع هذا فأنت أبصر . فقلت له : والله لا أوثر إلا طريقتك، وكنت يومئذ موفقاً، فإنا لله وإنا إليه راجعون، لا مصيبة أعظم من العمى بعد الإبصار. اللهم نور قلبي برحمتك وفضلك، وردني إليك.

أذكرتني هذه القصة أختها، وذلك أني كنت أقرأ للناس البخاري، كما قدمته، وكتب الحديث، فلما ختمنا البخاري في يوم حافل، لم أشاهد مثله جلالا وجمالا، ذهبت لأن أطوف قبل صلاة العصر أسبوعاً. فبينما أنا أطوف، إذ جاء طواشي—وهو المفتي عندنا – لقاضي القضاة، كمال الدين بن قاضي القضاة، فخر الدين بن الريقي[382]، المالكي الإسكندراني، وقال لي : مولاي قاضي القضاة يدعوك. فلما أكملت الطواف، قصدت نحوه، فوجدته في قبة تعرف بقبة الشريف، حذاء قبة زمزم، وبيده بقشتان، وهما السبنيات عندنا التي تجعل فيه الثياب. فجلست معه، فتفضل يشكر قراءتي، وبالغ في ذلك، وأنه قد حصل له بسبب سماع هذا الكتاب العظيم، في هذا المحل الكريم، بهذا السند الشريف، وأن هذا كان مني، فقابلته بما يحب أن يقابل، ثم قال لي، وهو خجل : يا سيدنا! المملوك يرغب، من إحسان سيدنا، أن يقبل هذا، وأشار إلى سبنية فيها ثياب، وعليها قرطاس كثير، بذهب مصري[383]، وهذه لشيخنا الذي سمعنا عليه، هذا أحل مال ملكته، فكان الخير إذاك غالباً، وحب الدنيا لم يخالط بشاشة القلب، وغالب القوت الحلال، فنفرت، والله، للحين، وقلت : يا سيدي ! أنتم، رضي الله

---

(381) **جامع طولون** : هو ربض يمتد غربا إلى الخرائب المجاورة للمدينة القديمة، وهذا الربض بناه قبل أن تبنى القاهرة المدعو طولون ، وهو مولى لأحد خلفاء بغداد ونائبه بمصر، كان رجلا حكيما حذرا، ترك المدينة القديمة وأقام في هذا الربض، وبنى فيه قصرا فخما عظيما وجامعا لا يقل عنه فخامة وفي هذا الربض عدد كثير من الصناع والتجار، لا سيما من بلاد البربر (وصف إفريقيا، 208/2).

(382) أو الريغي كما سترد الكلمة لاحقا.

(383) في أ : مصر.

عنكم، هاجرتم لسماع هذا الكتاب العظيم في هذا المحل الكريم، بهذا السند الشريف، من ثغر الإسكندرية، وأبي هاجر من أقصى بلاد المغرب، وتحمل المشقة، وأنفق علي ماله، فلا أريد أن يكون أجر قراءتي إلا لي وله. فقبل سيدنا ومولانا عذري، فبكى، وأعاد الرغبة، فأعدت الكلام، وانصرفت عنه. وهو من خيار القضاة الفضلاء الكرماء الأتقياء. وتعرفت أنه بقيد الحياة الآن، جمعنا الله به، على أفضل حال. فخرجت من عنده، فوجدنا مولاي الوالد يسأل عني، فجئت إليه، وقصصت عليه خبري مع القاضي، فبكى، وقال لي : الحمد لله الذي أقر عيني بك، وألهمك لمرادي منك. ورفع يديه، ودعا لي بما أرجو من الله تعالى، أن لا يضيعه، وأن يختم بالحسنى، وصالح الأحوال.

وذكرت أيضاً مثلها حين كنا بالديار المصرية، بالفندقانيين، وهنالك مدرسة، تعرف بمدرسة الصاحب، هي خاصة بالمالكية، ليس في القاهرة ما يختص بهم غيرها، فإذا خرجت بعد صلاة الصبح، أجيء إلى المدرسة، فأحضر معهم، وهم جماعة من كبار المصريين، والمدرس قاضي القضاة، برهان الدين ابن بنت الشاذلي(384)، العظيم القدر، نفع الله به. وكان المقروء كتاب تهذيب البراذعي للمدونة، وأتذاكر معهم في المجلس، ولازمت الحضور مرة، فلما كان في ذات يوم، ألفيت فيها خلائق لم أعهدهم يحضرون بطول المدة، ويهودي يزن دراهم، والنقيب واقف، فوزن عدداً كثيراً ودفعه لخديم المدرس، ثم للمعيدين، ثم أشار القاضي المدرس للنقيب أن يدفع إلي شيئاً، فجاءني بدراهم قد وزنها اليهودي، فقلت له : ما (385) هذا جاء منك يا سيدي؟ فقلت له : يا سيدي! إنما هاجر بي أبي من أقصى بلاد المغرب لطلب العلم، وهو المنفق علي، فلا أريد أن أنقص من أجره. فنظر بعضهم لبعض، وتعجبوا من هذا، كونهم لا يعهدونه. وسأل من لم يعرف والدي منهم عنه، واتصل الخبر بقاضي القضاة، تقي الدين بن الأخنائي

(384) ذكره ابن بطوطة (الرحلة، ج 218/1) ضمن علماء مصر وأعيانها، مؤكدا أنه "نائب" قاضي القضاة بجامع الصالح. ولا ندري إن كان المقصود بـ"ابن بنت الشاذلي" هو سبط أبي الحسن الشاذلي، المتصوف المغربي الشهير، أم أن الأمر يتعلق بمجرد لقب لا علاقة له بالشاذلي. ونشير إلى أن خالدا البلوي قد التقى بالإسكندرية سبط الشيخ أبي الحسن الشاذلي ويسميه تقي الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن عوام الربعي الشافعي، ولا يشير إلى توليه القضاء (**تاج المفرق في تحلية علماء المشرق**، ج 1، ص 210).

(385) هناك سقط لا ندري مقداره.

المالكي[386]، وذلك قبل معرفتنا به، فعجب من القضية، وتحدث أهل القاهرة بها، وصرت لا أمر على صغير بدكان عدل من العدول، ومجلس قاض أو تدريس، إلا ويبتدرون بالقيام إلي. ولما سمع والدي، رحمه الله، بذلك دعا لي وشكر. أسأل الله أن يراجع بي، تورعتُ يومئذ عن مثل هذا العطاء، ثم صرتُ الآن أقتحم على السحت المحض، حتى كان من أمري ما كان، جعله الله آخر الإمتحان، وعصمنا من الخسران، وراجع بنا فيما بقي من العمر إلى طاعته، واستعملنا في خدمته، بفضله ورحمته.

ولهذه الحكايات آخرات، اقتصرت منها على ما ذكرته، وحسبي الله ونعم الوكيل. فهذا من باب طلبه، رحمه الله، للخمول، وكراهية الظهور، ولو أراد الله بي خيراً لسلك بي سبيله، واتبعت مذهبه، ولكن الله يفعل ما يشاء، ﴿وَفِي أَيِّ صُورَة مَا شَاءَ رَكبَكَ﴾[387]، ﴿وَما تَشاؤُونَ إلاَّ أنْ يَشاءَ اللهُ﴾)[388]. اللهم رحمتك وعفوك.

فصل في مجاملته للناس، وترك حقوقه، حياء وحشمة. ونذكر بعض الصور التي وقعت له في ذلك، فإنها كثيرة جدا،نفعنا الله به، آمين.

تعين لي وله ميراث والدتي، رحمها الله تعالى، عدد يزيد عن خمسمائة دينار من الذهب. فلما كبرت وصرت في مقام الطلب، ودلني أقاربي على طلب ذلك من بعض أقاربي، فاحتيج إلى أن وكل عني، وتقدم الوكيل للطلب، وتعين المال على من تعين عليه من المطلوبين، وتعين أيمان على بعضهم، قال لي : يا بني ! دعْ هذا عنك، وأنا أشهد لك بهذا العدد من مالي، ولا تقابح قرابتك، والله يعينك.

ولما توفي والده[389]، على حفيده، شيخنا، الإمام أبي موسى بن الإمام، وكانت وفاته بعد وفاة أمه، وأحاط بميراثها، بعث إليه الفقيه أبو موسى المذكور بالتركة،

(386) محمد بن أبي بكر بن عيسى المعروف بابن الأخنائي، الملقب تقي الدين. فقيه تولى قضاء القضاة المالكية بالديار المصرية، توفي سنة 750هـ/1349م (الديباج، 321/2 ؛ وذكره ابن مرزوق في **المسند**، ص 483 ؛ **الدرر الكامنة**، 407/2-408 ؛ **حسن المحاضرة**، 397/1 ؛ **شجرة النور**، 187.

(387) سورة الانفطار، آية 82.

(388) سورة الإنسان، آية 76.

(389) في ب : توفي والده أخي على حفيده.

فقال : معاذ الله، وإن كان مالا مباركا حلالا، إلا أن والدها أحق مني فيه، فحلف عليه، ولم يتماسك منه إلا بلحافين ومخدتين ورداء وكساء، حياء منه وحشمة، وكان هذا شأنه.

وكذلك فعل في ميراث، صار له من أمه، تحصل تحت يد أخواله، ثم تحت بنيهم. فلم يطلب منهم شيئاً، وكتب لهم مبارأة منه، رحمه الله.

وقد فعل مثل هذا عمي، رحمه الله تعالى، لما توفيت زوجته، ست الملوك، بنت الهواري، وكانت قبله تحت السلطان المرحوم أبي حمو موسى بن عثمان، رحمة الله عليه، فخلفت حلياً وخدماً، ودواب وبقراً، وفرشاً كثيراً، وورثها ولدها من غير السلطان أبي حمو، أبوه يحي بن حازم، فلما حضرت التركة قال له ابنها، وكان له كالولد : يا سيدي ! خذ ما تريد، واعطني ما يهون عليك. فقال له : يا بني! قد أغناني الله بحلالي، والله لا أتماسك لك بوبرة. فرفع له جميع ذلك بمحضري.

فصل في تواضعه، رضي الله عنه.

كان أشد الناس تواضعاً، وإذا مر بطريق ورأى فيه حجراً، أزاله، أو شوكاً أماطه، هذا دأبه دائماً. وربما يجد الطبق من العجين على باب الدرب، ولا يجدون من يحمله، فيحمله إلى الفرن. وإذا خرج إلى العبّاد، فلقيه أحد أهل البادية بحمار من حميرهم على حاله في الرثاثة، فيعرض عليه الركوب، فيسعفه ويركبه. وكان يجيء بالمحفظة في يده من جنانه بما يجد من الفاكهة، فيلقى الصغير والمسكين، فيعطيه، ويشتري لنفسه مثل الحطب والفحم، وغير ذلك، مما يحتاج إليه، والأضحية ومثلها. وكان أكثر لياليه يدعو الخادم، فتأكل معنا، وربما ننكر ذلك عليه في بعض الأحيان، فيدنيني ويؤنسني. وكان يخيط ثوبه بيده، وعنده ماعون النجارة، فيصلح ما يحتاج إليه في داره، وإذا سافر في طريق الحج، لا يخلو أبداً مما يردف خلفه على دابته، وربما يركب الإثنين، ويمشي على قدميه المرحلة بطولها، أو معظمها، ويحمل المزاود للترّاسة[390] الذين لا دابة عندهم.

(390) التراس : حمّار يحمل الأمتعة على دواب. E. Fagnan, *Additions aux dictionnaires arabes*, Alger, 1923, p. 17

وأما أيام مجاورته، فكان يصنع في مكة والمدينة في أول النهار دشيشاً في قدر، ويطبخه أول النهار بنفسه، فإذا نضج من الغد، خرج ومعه من يحملها، فيمر بالمرضى والمنقطعين، فيعطي كل واحد منهم ما يشبعه، ويأتيهم آخر النهار بخبز، في بعض الأحيان [خبزاً وإداماً][391]، ويفرق عليهم؛ ثم بعد يومين يجيء إلى المرضى الذين يعجزون على صلاح شؤونهم، فيغسل عنهم الأذى بنفسه، رأيته، والله، غير مرة مشمراً محتزماً، وهو يصب بيده، ويغسل بالأخرى، ويحمل أطمارهم فيغسلها، والله، بنفسه، ويكنس تحتهم بيده، ويفلي ثيابهم من القمل ورؤوسهم، ويحلقها لهم بيده، ويرقع خلقهم، فإن الناس إذا حجوا ينقطع كثير[392] من الغرباء بالحرمين الشريفين، فمن قصرت به النفقة، وأدركه التعب، وأصابه مرض، فإن تلك المياه الكائنة في البرية يحدث عنها غالباً أمراض، وأكثرها البطن، فينقطع في الحرمين بعد سفر الحج خلائق من الغرباء، فيقوم بهم أهل الخير. وكان له، رحمه الله، في هذا تقدم وشدة، لا يفوته في يوم من الأيام، وذلك بعد خروجه من القراءة في السبع، كما قدمته : فالله، عز وجل، ينفعه بذلك ولا يضيعه، ويديم به ستراً على ذريته، وهو ولي ذلك، سبحانه، والمتفضل به، والقادر عليه.

وحدثني أبو[393] زكريا يحيى الجزولي، وهو الآن بقيد الحياة ببلد أزمور، قال لي : سافرت من فاس إلى تلمسان صحبة سيدي أبي العباس، والدك، في زمن البرد، فكان يقوم آخر الليل إلى برمة، فيجعل فيها الماء على النار، حتى تنكسر حدته من البرد، ثم يفرقه علينا للوضوء، لِئَلا تفوتنا الصلاة في وقتها، ونعتذر من برد الماء، رحمه الله تعالى.

وكنا في أيام مقامنا بالحجاز، والديار المصرية، كان عنده من يقوم بخدمته، وكان مع هذا في كثير من الأيام يباشر الطبخ بنفسه، سيما في طعام يقصد به القربة، أو يحضره من هو من أهل الخير. وشاهدته، غير مرة، في الموضع الذي كنا نسكن فيه من مدينة القاهرة المحروسة، يأخذ الآنية من يد خديمه التي يشترى فيها الطعام، فيشتريه هو، فآخذها من يده، فيمنعني قصداً منه للتواضع.

(391) في أ :بخبز وآدم.
(392) في النسختين : كثيرا.
(393) في النسختين : أبي.

وكان يجاورنا القاضي شهاب الدين ابن فضل الله[394]، صاحب قلم الإنشاء، ورئيس الكتابة، وحامل راية الأدب بالديار المصرية والشامية، فإذا لقيه هو في مركبه، ترجل توقيراً له وتعظيماً، فيتمادى هو، رحمة الله عليه، على حاله، وربما ينزل، في أكثر الأحيان، لتقبيل يده، والسلام عليه، وهو على حاله. وكذلك أمير يعرف بابن الحاج، على مثل تلك الحالة كان يلقاه، فلا يزيده على رد السلام والشكر. وإذا لقيه صاحب مرقعة، بادر إليه بالسلام، والرجوع معه.

وتذكرت بذكر هذا، الأمير غريبة؛ وذلك أن هذا الأمير أدخل الفيل يوماً للدرب الذي كنا نسكن فيه، فأحاط الناس به ينظرون إليه، والخديم الموكل بالفيل يحذر الناس من القرب منه، فسمع والدي، رحمه الله، جلبة[395] الناس، فخرج، فرأى الفيل، فقرب منه، فقال له الخديم : يا شيخ ! يا مغربي! "حاذور"، معناه : احذر الفيل، فإنا لا نأمن على من يقرب منه، فتغافل والدي عن كلامه، ولم يسمعه، فقرب من الفيل حتى وضع يده على كفله، فدار الفيل، فصاح الناس، فبقي على حاله، وحيز أطراف أذنيه، والفيل عند ذلك كله يحن إليه، ويقرب إليه، والأمير ينظر من عليته، والناس يصيحون به، وأنا قد كاد عقلي يتلف خوفاً عليه. فلما انصرف الفيل، بادر الأمير، ومن حضرر لتقبيل أقدامه، والتبرك به. ومازالوا يتحدثون بذلك. فهذا كان سبب معرفة الأمير به، رحمة الله عليه، وعلى الجميع.

(394) القاضي شهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله العدوي العُمري. يتصل نسبه بعمر بن الخطاب، ولذلك عُرف بالعمري . عمل في ديوان الإنشاء مع والده لما كان هذا الأخير كاتب السر بدمشق، في أيام سلطنة الناصر محمد بن قلاوون الثالثة. ولما انتقل والده إلى كتابة السر بمصر انتقل معه وصار هو الذي يقرأ البريد على الملك الناصر وينفذ المهمات. وقد استمر في ذلك طوال مدة عمل والده، نيابة عنه بسبب كبر سنه. صرفه السلطان سنة 738 هـ وتوجه شهاب الدين إلى دمشق وبقي فيها حتى وفاته في ذي الحجة سنة 749 هـ أشتهر بموسوعته "مسالك الأبصار في ممالك الأمصار"، وبكتابه "التعريف بالمصطلح الشريف" وبغيرها من المؤلفات. (انظر مقدمة كتاب "التعريف بالمصطلح الشريف"، تحقيق محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، 1988) ؛ مسالك الأبصار، ص 165 من مقدمة المحقق.

(395) في النسختين : وجبة. والجلبة : الأصوات.

فصل في حمله الأذى، وتجافيه عن من جهل عليه.

رأيته يمر بشيخ، كان يعرف بعبد الكريم الكسبي، ويحسن إليه، ويعامله بكل جميل، فقلت له : يا سيدي ! ما سبب إيثارك لهذا الشيخ، مع ما هو عليه؟ وكان فيه حمق. فكشف لي عن مقدّم رأسه، وقال لي : يا بني! هذا الجرح الذي في رأسي، وكان أثراً فاحشاً، من يد هذا الشيخ. أراد أن يضرب غيري فأخطأ، فوقعت الضربة في رأسي، فشجني. ومهما رأيته، أتوقع أن يكون قد ذكر هذا.

وتبعه يوما[396] رجل، كانت فيه سلاطة، شهر بها، يعرف بابن البلولي، عفا الله عنه، وهو يسيء الأدب عليه ويشتمه، فدخل معه إلى زقاق، وقال له : قل ما بدا لك، ها هنا حيث لا يسمعك أحد، ولا يشهد عليك، ولا ينتصر لي، فإذا رأيت أحداً، فاسكت.

وحضرت له لمثل هذا، وقد جفاه رجل من أبناء الصالحين، وهو يلاطفه، فبالغ في الجفاء إلى أن ترقى إلى السّب، فأردت جوابه، فانتهرني وضربني، وقال له : إذا أردت هذا، حتى أكون وحدي، واشتم وافعل ما بدا لك.

وهذا كان دأبه، وبهذا أوصاني، لو وفقت للعمل بمقتضى وصيته في جميع ما أوصى به، حسبما أنبه على ذلك، إن شاء الله تعالى. وما رأيته قط ضرب دابة، ولا وصيفاً، ولا خادماً. وكان بيدي سوط أضرب به جمَلي الذي كنت راكباً عليه، فأخذه من يدي ورماه. فما أمسكته بعد في يدي. ومثل هذا كان يصدر منه كثيراً، رحمه الله تعالى.

فصل في ذكر وداعي له حين وادعته، وشرح بعض ما جرى لي معه في تلك السفرة التي فارقته فيها، رحمه الله.

لما قضينا حجنا، سنة ست وثلاثين، وكانت وقفة الجمعة، وشاهدها من الخلائق ما لا يحصى كثرة، ومن الأولياء عدد كثير، وعزمنا على التوجه إلى المدينة، شرفها الله عز وجل، وكنت مع والدي، رحمه الله، في شقة شقدف[397]

(396) في النسختين : يوم.
(397) في أ : شقرو . والشقدف، هو لركوب النساء، والهودج لركوب الرجال.

حجازي، وهو في الشقة الأخرى، فقال لي : يا بني! ركبت معك لأتأنس بك، فإني استخرتُ الله، عز وجل، وعزمتُ على بعثك لبلاد تلمسان. فقلت له : لا تفعل يا مولاي، والله لا فارقتك. فقال لي : يا بني ! هذا شيء لا بد منه، فأنت رأيتَ كتاب عمك لي، وهو يقول بقيت هنا غريباً، ولقد لقيت نصباً من الناس، وكان قد سماهم لي، فأظهر الله فيهم ما عوّد، وإني توالت علي الأمراض، فخفت على نفسي. وهذه البنت، يعني أختي، تركناها، رحمها الله، بتلمسان، أخاف عليها ولا أقدر على أمرها، لبعد المسافة. وكانت تلمسان يومئذ محصورة، حاصرها السلطان المرحوم، أبو الحسن المريني[398]، رحمه الله، عز وجل، إلى غير ذلك من الأمور التي اشتملت عليها كتبه. فقلت له : يا مولاي الوالد ! قد عرفت عذري. فسكت عني، ثم لم يزل يعيد الكلام إلى أن نزلنا بخُلَيْص، فأصابته حمى مطبقة شديدة، تمادت به إلى أن نزلنا بوادي الصفراء، فاشتد به الألم، وكان يُغمى عليه في بعض الأحيان، فأغمي عليه إغماء شديداً، وطال زمنه، فدهشت وصرت أبكي، وأذهب وأجيء في الزقاق، والناس يشفقون من حالي، فأفاق وقال لي : يا ولدي ! ليس هذا وقت ما تخاف عليه حتى تصل أنت إلى الغرب، إن شاء الله تعالى، وحينئذ، تبكي علي هذا البكاء. فأصبح وقد ذهب عنه الألم، ورأيت ثنيته تتحرك، وقد كان رجل ضربه برأسه عند تقبيل الحجر، فتأثرت، فقلت له ! أظنها يا سيدي، تسقط. فقال لي : يا بني ! قد سألت الله ألا تسقط حتى أصل بها إلى مدينة رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ليعظم الأجر، فإن ذهاب منفعةٍ بها، أو مصيبة تصيب الإنسان فيها، يكتب له فيها من الثواب ما لا يكتب في غيرها، جرياً على قاعدة تضعيف الحسنات. فوَعِزّةُ الله وجلاله، ما زالت سنه على حالها.

فلما دخلنا مدينة النبي، صلى الله عليه وسلم، وصلنا إلى باب السلام، أهوى لأن يخلع نعليه، فسقطت السن بالأرض، وسمعت صوت وقوعها على عتبة المسجد، فنزلنا بالدار التي نزلنا بها ؛ دار أخيه وخليله، الفقيه الإمام أبي محمد عبد لله بن فرحون[399]، أبقاه الله تعالى، وأقمت معه فيها الأيام التي أذكرها، إن

(398) حاصر السطان أبي الحسن مدينة تلمسان يوم 11 شوال سنة 735 هـ/ يونيو 1335م، واستمر على ذلك حتى دخلها يوم الأربعاء 28 رمضان 737/ 2 مايو 1337م (التنسي، **نظم الدر والعقيان**، 145-146 ؛ ابن خلدون، **العبر**، 536/7).

(399) سبق التعريف به.

شاء الله تعالى، متطارحاً عليه في الإقامة معه، وتوسلت بالشيخ أبي محمد، المذكور، وبأصحابه، في أن يتركني مقيماً معه، وهو، رحمه الله، يعتذر بكتاب أخيه، والتقية على ابنته، أختي، رحمها الله تعالى. ولما كان صبيحة اليوم الذي وصلنا فيه المدينة، على ساكنها السلام، سافر الركب الذي كنا معهم من مكة إلى مصر، وكانوا من خيار أصحابنا المصريين، وأهل الإسكندرية والمغاربة، فقال لي : باسم الله يا بني، تسافر مع هؤلاء. فقلت له : الناس خرجوا، واليوم وصل أناس آخرون[400]، فيهم قاضي القضاة، عز الدين بن جماعة[401]، وهو شيخي، وسفري معه أولا، فأجابني على ذلك. فلما كان من الغد، أصبحوا مسافرين، فقلت له : يا سيدي ! هم مستعجلون، فدعني، إن شاء الله، إلى غد أسافر مع القاضي كمال الدين بن الريغي، وهو أشد موالفة لي، فأصبح مسافراً. فقال لي : يا بني ! سافر. فقلت له : يا سيدي ! لا أجد أولى بالإنسان من صنفه وأهل بلده، وغدا يسافر المغاربة، وهم من بلدنا، وأقرب الناس لنا الحاج أبو الحسن بن الشرقي، وعيسى بن يوسف، ابن المرابط، أحدهما لي كالوالد، والآخر كالأخ، معهما أسافر، وهما أولى لي. فقال : يا بني ! على اسم الله، وهذا كله رجاء أن يبدو له، ولأستكثر من المقام معه، وأنا في الحقيقة أبعَد عن المحل الأشرف وأطرَد، لما سبق لي من البلاء والإمتحان في هذه الأوطان، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

فلما رأيت عزمه قد اشتد على سفري، جلست في الروضة الشريفة بين يديه، وقلت في نفسي : وددت، والله، أن لو أخذ بيدي، وذهب بي إلى موضع التسليم على رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فيقول : يا رسول الله ! أشهدك أني راض عنه، ويدعو لي بكذا وكذا، بدعوات ألهمتها، وليتها كانت كلها في المطالب الأخراوية، ثم تردد فيّ هذا الخاطر، وعارضني في الوقت فيه عارض، وكان بالروضة الشريفة سيدنا، الفقيه الولي، الإمام القدوة العارف، أبو زيد عبد الرحمن الواسطي، وكان يقال إنه غوث، مستقبل القبلة، مريضاً. فرفع رأسه، وأقبل ماشياً

---

(400) في النسختين : آخرين.

(401) عز الدين أبو عمر (أو أبو عبد الله) عبد العزيز بن محمد بن سعد الله بن جماعة الكناني، الشافعي. قاضي قضاة الديار المصرية. (وهو ابن بدر الدين بن إبراهيم بن جماعة). قاضي قضاة الديار المصرية سنة 638 هـ توفي سنة 767 هـ بمكة (**الدرر الكامنة**، 2/379-382 ؛ السيوطي، **حسن المحاضرة**، 309/1 ؛ وقد ذكره ابن مرزوق في **المسند**، ص 483).

نحونا، فلما وصل إلى والدي، قال له : يا شيخ أبي العباس ! هات يدك وقمْ، وهات يدك أنت، يا محمد، وقمْ. فذهب يقودنا، حتى وقف قبالة رأس رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فقال : يا شيخ أحمد! قل : يا رسول الله، أشهد بأني راض عن هذا الولد، وأدعو له بكذا وكذا، بما كنت، علم لله، نويته، فأشهد بالرضى عني ثلاثة، ودعا لي، فأسل الله، جلّت قدرته، بحرمة رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أن يحمل خلاصي، ويردني إليه في باقي عمري، وييسر عليّ في الوصول إلى تلك المحال الطاهرة، آمين، آمين.

وأذكرتني هذه القصة، ما جرى لي مع هذا السيد الواسطي. كان أيام قراءتي للبخاري بمكة، شرفها الله عز وجل، يحضر، فاذا انصرف الناس، أقبل جميعهم إليه لتقبيل يده، فيناولهم إياها، ولا يمنع أحداً من ذلك. فكنت أجد في نفسي ما يحدث للطلبة المتسرعين للانتقاد، من إنكار تعرضه لهذا، حتي إن الناس يزدحمون عليه، ويده للجميع منصوبة. وإذا مررت به، ينظر إلي متبسماً. فلما كان ذات يوم، وأنا أقبّل الحجر الأسود، وإذا بيد على صدري أجد بردها ولينها، فرفعت رأسي، فوجدت الشيخ قائماً على رأسي، وهو يقول : شرحه الله من صدر لحب الفقراء، وأزال ما فيه من نقد عليهم. فأهويتُ إلى قدميه لأقبلها، فرفع رأسي، وقبلها، نفعنا الله به، وأعاد علينا بركاته. ثم خرجنا إلى ركب المغاربة الذي فيه أصحابنا، فوصل معي، رضي الله عنه، إلى رحالهم، فدعا الرجلين المذكورين، وكان بينه وبين أبي الحسن بن الشرقي تأكيد وصلة، فقال لهما : اعلما، أسعدكما الله تعالى، أن هذا الولد ما فارقته قط، وإني أفارقه الآن، وأخاف عليه من النوم حالة السرى، أو حالة النزول، من السقوط أو سرقه، فلعله يكون معكما. فنظر أحدهما إلى الآخر، ثم إن أحدهما قال : يا سيدي ! القيطون الذي نحن فيه صغير، فلعله لا يسعنا، ولكنا نعمل جهدنا. ولم يصدر منهما من القول ما تطيب به النفس، فأخذ بيدي، وأقامني، وقال : أسأل الله ألا يحوجك إليهما، وأن يحوجهما إليك، وأن يرفع عنك شغبهما. فاشترى لي مسكنا، وزاد لي جملا يحمله، وأخدمني خديماً، فاستدرك أصحابنا ما فاتهما، وجاءوا معتذرين، وقالا : إنما أردنا أن نجيبه بالفعل. وقال لهما : قد كفيت المؤونة، والحمد لله. وخرج معي، وذلك بعد صلاة الظهر، فخرج معه كبار المجاورين، وأهل المدينة، شرفها الله تعالى، مرافقة له لتوديعي. فلما وقفنا للتوديع، حضر معي أصحابنا المغاربة،

وأهل تلمسان، وارتفعت أصوات الجميع بالبكاء، فقال له أهل تلمسان : يا سيدنا ! ادع الله لنا أن يجمعنا بأهلنا، فقال لهم : امضوا على بركة الله، ومع وصولكم، إن شاء الله، تلمسان، يجمع شملكم بأهلكم على خير وعافية. فوالله، ما كان بين وصولنا لتلمسان ومن معي رفيقاً، إلا اثني عشر يوماً، فقبّلت قدميه، فقال لي : كان الله معك. ثم سارّني، وقال لي :

يا بني ! إنك تبتلى بمخالطة السلطان، فإياك أن تضر أحداً، وأنا قد سألت الله ألا يضرك أحد[402]، إلا وترى فيه الأمل، ويعجل الله عقوبته، وتكفلت لك بذلك.

يا بني ! أوصيك بتقوى الله وبالخمول، وإياك والدنيا، واشتغل بنفسك، وتسبب بالحراثة والتجارة، ولا تترك طلب العلم والتمسك به، وعليك بالاقتصاد في أحوالك، وقد عرفت طريق من سلف لك، وإياك وخطة القضاء، فإنك إن قبلتها مختاراً كنت غير راض عنك، وإذا دعيت إلى الخطابة، فاقبل. وإياك والدخول فيما لا يعنيك، وعليك بملازمة كتب الرقائق، وخصوصاً الإحياء، وعندك من الحلال ما يكفيك عن طلب غيره، وعليك بطاعة عمك وبخدمته، وبالرفق بأختك وصلة قرابتك، ولا تنس حظاً من قيام الليل، ومن تعاهد الصوم؛ إلى غير ذلك، مما أوصاني به. وتركت الجميع، فكيف لا أعاقب بمثل هذه الشدائد.

اللهم اعف عني، بفضلك أتوب إليك، ربي، وأستغفرك، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، يا حليم، يا رحيم.

وكان مما أوصاني به، أن قال لي : يا بني ! أوصيك بوصية لا تدعها، وهي أنك إذا وصلت إلى القاهرة، واحتجت إلى شيء، فلا تتعرض للقبول من أحد، والله يغنيك بما عندك، وبما يفتح به عليك، إن شاء الله تعالى، ثم إذا خرجت مسافراً منها، فلا سبيل أن تسافر منها، حتى تتوجه نحو سيدنا وشيخنا، وبركة الوقت، أبي عبد الله المرشدي[403]. واحفظ، يا بني ! ما يجري لك معه في سفرك، ذاهباً إليه ومنصرفاً عنه، واكتب به إليه.

---

(402) في النسختين : أحداً.

(403) أبو عبد الله المرشدي، (ت.737/ هـ1337م)، ولي الله الساكن بمنية مرشد بمقربة من فوة قاعدة بلاد الريف بين القاهرة والإسكندرية. من أولياء الله العالمين العارفين، تفقه بمذهب مالك (وقيل كان شافعيا) ودرس التهذيب ودرسه في ابتدائه قبل أن يتحول إلى التصوف. تباينت =

فودعته، فلما وليت، قال لي في أذني : يا بني ! إني إنما فارقتك لأني سألتُ الله، عز وجل، أن يميتني غريباً في أحد الحرمين[404]، لتحصل لي شهادة الغربة، وأظن الأجل قد قرب. فبكيت، فقال لي ! انصرف، كان الله معك. فأسأل الله ألا يخيبني بركة هذه الدعوة، ويتقبلها في بجاه مولانا محمد، صلى الله عليه وسلم.

ووقعت في هذا التوديع إشارة، رأيت أن أذكرها، وأذكر معها ما وقع فيها من الكرامة، قوله، رحمه الله، في جواب ابن الشرقي، وابن المرابط، "زأسأل الله أن لا يحوجك إليهما، ويحوجهما إليك".

كانا، رحمهما الله، مقتّرِيْن على أنفسهما في الإنفاق، وليس معهما من يقوم عنهما بمؤونة الطبخ، وكان عندي من يقوم بذلك أحسن قيام، فكنت أكفيهما ذلك، فقلت : لعل هذا هو الذي أشار إليه مولاي الوالد، رحمة الله عليه. ثم إنا سافرنا إلى المغرب، وكانت صحراء برقة[405] تلك السنة لا عمارة فيها، وكانت شديدة الجذب، فحملت زاداً، بارك الله لي فيه ببركة سيدنا المرشدي، حسبما أذكر، إن شاء الله، بعد، وعملا هُما في سفرهما أنهما إنما يشتريان ما يحتاجان إليه من برقة، فاستكثرا من السلع، وقللا من الزاد، فنفذ زادهما في توسط[406] برقة، ولم يجدا ما يشتريانه، فكانا يأخذان حاجتهما من عندي، حتى وصلنا إلى اطرابلس، وغيرهما، فقلت : لعلها هذه، ثم إنهما اشتريا سلعا في الطريق، من بركة تاجر، على أن يدفعا الثمن بمدينة اطرابلس، فلما وصلا إليها، طولبا بالثمن فلم

= آراء الناس بخصوصه، وكان "يتصرف تصرف سيدنا أبي العباس السبتي في وقته وزيادة". ألف ابن مرزوق جزءا في كراماته، لكنه أضاعه بمكة (**المسند**، 482-483 ؛ ابن بطوطة، **الرحلة**، 53/1 ، 51 ، 50 ، 48 ، 47 ، ج 21/5 ؛ **نفح الطيب**، 418/416/5 ؛ السيوطي؛ **حسن المحاضرة**،454/1 ؛ محمد بن علي الشوكاني، **البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع**، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، 188/2-190).

(404) يقول ابن مرزوق وهو يتحدث عن وداعه لأبيه : "وبعثني للوطن في قصة يطول ذكرها ولمعاذير أبداها ومعوله منها على ما صرح أبي عند وداعي له تجاه قبر الرسول صلى الله عليه وسلم "يا بني، وفاتي قربت وأنا قد سألت الله أن أموت غريبا، فلا تفسد علي عملي". (**المسند الصحيح الحسن**، م. س. ص 480-481).

(405) **صحراء برقة** : تبتدئ عند تخوم إقليم مسرانة، وتمتد شرقا حتى تخوم الإسكندرية، وهي بلاد قاحلة وعرة لا ماء فيها ولا أرض تزرع، كانت خالية من السكان قبل دخول العرب إلى إفريقيا (**وصف إفريقيا**، 112/2).

(406) أ : وسط

يجداه، فعرضا سلعاً للبيع لأن يدفعا منها ثمنها فيما عليهما من الدين، فلم يجدا م
يشتري منهما شيئاً، فدخلت إلى الجامع بمدينة اطرابلس، وهما في أيدي خ
القاضي، وقد شدد عليهما في الخلاص والواجب، فأخرجت من نفقتي ما وج
عليهما وانصرفا، ولم يزالا، رحمهما الله، يحتاجان إليّ في قضاء حوائجهما، إل
أن ماتا، رحمهما الله تعالى.

قوله، رحمه الله : "ويدفع عنك شعبهما"، كانت هذه إشارة إلى نازلة نزلت وذلك أنهما حملا من الحجاز سلعا تباع في المغرب، من العقيق والعلك والفلفل والعود والمسك، ونحو ذلك، ما يجلب من الحجاز، بمال له قدر. فلما وصلنا إلى العقبة الكبرى، حيث تفرق طريق الشام وطريق مصر، قالا لي : إن أكثر الناس عرجوا من هنا إلى طريق فليس، خوفاً من المغارم التي يطلبون بها في البركة قريباً من القاهرة، فإن كنت تقدر لنا على التخلص من المغرم التي نُطلب به، صحبناك، وإلا انصرفنا. فقلت لهما : أنا لا أدري هل أقدر على هذا أم لا، ولا أدري هل يتلقانا أحد من أصحابنا أم لا . فقالا لي : إنا نعرف لك جملة من أصحاب من كبار الناس والعلماء، ومن عادة أهل البلد لقاء أصحابهم من الحجاج بالتحف والظرف، والثياب الرفيعة، حياهم الله، فما أفضلهم وأوفاهم لا جرم أن الله خولهم النعم، وصرف عنهم النقم، فقلت لهم : لا أدري، اعملا ما يظهر لكما. فقالا : ننصرف معك. فلما فارقنا الطريق، أدركهم الندم، وأكثروا من العتب عليّ، واللوم على أنفسهما، فتلقى الناس أصحابهم قبل الوصول إلى البركة، وأبطأ أصحابنا، فكثر عيابهما في غير شيء، فلما أشرفنا على المنزلة، رأينا فيها أخبية، وقد خرج منها أقوام معتبرون، فركبوا وتلقوني، فعرفتهم على البعد، فظنا أنهم الطالبون للمغارم، فضجا وكثر عتبهما ولومهما. فلما تلقاني أصحابنا وقدموا لي بغلة أركبها، فحينئذ عرفا أنهم الأصحاب، فسكنت أنفسهما، فتلقاني الأصحاب الفقهاء الجلة، القضاة بدر الدين ابن النظام، وأخوه بهاء الدين، ونور الدين ابن الزواوي، ونجم الدين ابن السبكي، وشيخنا الإمام، محيي الدين الصفاقسي(407)،

(407) أ : الصفاقسي. وهو إبراهيم بن محمد بن إبراهيم بن أبي القاسم القيسي الصفاقسي، برهان الدين أبو إسحاق. ولد سنة 697 هـ قرأ ببلده ورحا حاجا واستقر بالقاهرة مدة ثم عاد لبلده إفريقية وبها توفي سنة 743 هـ/1343م. والظن الغالب أنه مدفون برباط المنستير ويعرف قبره الآن بسيدي إبراهيم الصفاقسي. من مؤلفاته "المجيد في إعراب القرآن المجيد" ويقول عنه =

وأخوه محيي الدين يحيى[408]، وجماعة من الأصحاب، بما يليق بهم من التحف. فعرفتهم بأسباب صاحبي، فأمروا من معهم من الخدام، فحملوا الأسباب. فلما دخلنا إلى القاهرة وأقمنا بها ثلاثة أيام، طلبوا أسبابهم، فقبضوها، ثم بعد قبضهم إياها بنحو خمسة أيام، جاءاني مستغيثَيْن صارخَيْن، وهما يقولان : ذهب مالنا، وتلفت أرواحنا. فقلت لهما : وما ذاك؟ فقالا : بقيت لنا من أسبابنا غرارة عقيق، بسبعمائة دينار من الذهب، عملا على ثمنه بالمغرب، وأكثرا القول، فقلت لهما : عندي منه قدر ما تلف لكما، فخذاه، ولا يسمع هذا. فامتنعا، فبلغ الخبر القاضي بدر الدين، فأمر على غلامه بالضرب الوجيع، فأدركته ومنعته منه، فحلف القاضي على غرم هذا العدد من ماله، فانصرفت عنه إلى منزل أحد أصحابنا، حلف لي أن أبيت عنده، وكان يسكن طبقة محمولة على خان، فبعد ساعة من الليل، أو نحوها، سمعت صوتا في الخان، فصغيت له، فسمعت أحدهما يقول للآخر : بأي وجه تراه؟ وكيف تقول له؟ فقال له الآخر : نقول له الواقع كيف جرى، إنا جعلنا الحوية على غرارة، ما عرفنا ما فيها، فلما نظرناها وجدنا الغرارة التي فيها العقيق، فصحت بهما، فجاءا إليّ، وأخبراني الخبر، فبكرت إلى القاضي معهما، معتذرين من الواقع، فصرف الله عني شغبهما.

قوله، رحمه الله، لأهل تلمسان : امضوا، جمع الله شملكم، فمع وصولكم، إن شاء الله،لأهلكم، يجتمع شملكم، إن شاء الله، في شهر ذي حجة، من ستة وثلاثين. وكان وصولنا لتلمسان في سبع عشر لشهر رمضان المعظم[409]. وكان قد لقيني، بوادي شلف[410]، أبو محمد عبد الواحد بن محمد الكاتب[411]، فقال

= ابن مرزوق : "سمعت من لفظه [=الصفاقسي] كتابَه الذي أعرب فيه وأغرب في إعراب القرآن العظيم" (**المسند**، ص 471 ، 473 : (برهان الدين السفاقسي) **الديباج**، 92 ؛ **نيل الابتهاج**، 42 ؛ **شجرة النور**، 209 ؛ **ألف سنة من الوفيات**، 194 ؛ **كتاب العمر**، 163-168).

(408) لعله يحيى بن موسى بن عمر الزواوي المالكي. كان حيا بالقاهرة سنة 771 هـ (ابن حجر، **الدرر الكامنة**، 429/4).

(409) نفس التاريخ يورده ابن مرزوق في **المسند**، ص 481.

(410) **واد شلف** : واد ينبع في وسط القطر الجزائري خلف جبل ونشريس، ثم يسير إلى الشمال والشمال الغربي، مارا ببوغازه، وهو أهم أودية الجزائر وأطولها وحوضه من أخصب أراضيها.

(411) ورد في المسند ذكر عبد الواحد بن محمد باعتباره كاتبا للعسري الذي نجهل هويته. "فلما نزلنا بوادي شلف تلقاني عبد الواحد بن محمد كاتب العسري بكتب من الحضرة ومن عمي رضي الله عنه يستحثني على الوصول" (**المسند**، 481).

السبتي[420]، عندنا، إلا أن هذا كان أسلم من الانتقاد على ظاهره، اختلف فيه أهل الديار المصرية، أول مرة، وأكثرَ المعترضون عليه الاعتراض، ثم سلموا، ووقع الاتفاق والوفاق على أنه وليّ متصرف، إلا شرود من الناس، لا عبرة بهم. ولنذكر إن شاء الله، بعض أخباره التي تلقيتها من أعلام الأمة.

حدثني شيخنا، خطيب الخطباء، بقية العلماء، ناصر الدين أبو عبد الله محمد ابن الصاحب عز الدين بن الصاحب، قال : كان والدي جميل الاعتقاد في سيدي الشيخ، سيدي محمد المرشدي، [نفع الله عز وجل به[421]]، وكان يزوره في كل سنة، في شهر رجب. فحملني أبي [معه[422]]، وأنا ابن تسع عشرة سنة، أو نحوها. قال : فوصلنا الشيخ، فنزلنا عنده على العادة، فوافقنا صلاة الجمعة عنده، ومن عادته أن لا يتخذ للمسجد إماماً راتباً، بل يقوم في مسجده للصلاة من يريد الله به خيراً، فيختاره للصلاة. قال : وحضر يومئذ من أعلام الفقهاء من شتى البلاد من لا يجتمع مثلهم في غير هذا المشهد. قال : فقرب وقت الصلاة، فتشوف من حضر من الخطباء الفقهاء إلى الصلاة، وصاروا يتطاولون بالأعناق، ويفرون إلى الموضع الذي يخرج منه الشيخ، حتى زاحم الوقت، ولم يبق إلا خروج الإمام، فإذا بالشيخ قد خرج، فنظر يميناً وشمالاً، وأنا خلف والدي، في الصف الثاني، فوقع بصره عليّ، فقال : يا محمد! تعالَ، قال : فقمتُ إليه، فدخلت معه إلى موضعه، فقال لي : يا محمد ! أي شيء قرأت؟ فعرّفته بأني قرأت معظم كتاب التنبيه، للشيرازي، على مذهب الشافعي[423]. فباحثني في الفروض والشروط والسنن، ثم قال : يا محمد ! توضأت لصلاتك هذه ؟ ، فقلت له : نعم. فقال لي : كرِّر الوضوء بين يدي. فدعا خديمه[424]، فجاء بإناء، فقال : كرِّر الوضوء، وانْوِ به ما نويت

---

(420) أحمد بن جعفر الخزرجي، أبو العباس السبتي. الولي الشهير، الزاهد العالم العارف بالله ذو الكرامات الشهيرة والمناقب الكبيرة والأحوال الباهرة. نزيل مراكش وبركتها ودفينها. خصه ابن الزيات التادلي بترجمة مفصلة. (انظر : أخبار أبي العباس السبتي، تحقيق أحمد التوفيق، ضمن كتاب : التشوف).

(421) أ : نفعنا الله به.

(422) كذا في النسختين. ولعلها : إليه (كما في البستان، ص 188).

(423) الشافعي : محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن نافع القرشي الشافعي الحجازي، المكي، (أبو عبد الله) أحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة وإليه تنسب الشافعية ولد بغزة بفلسطين سنة 150 هـ،وتوفي بمصر سنة 304 هـ/ 819 م.

(424) أ : خادمه.

بوضوئك الأول. قال : فتوضأت وأخلصت النية، فأعجبه وضوئي، ثم أخذ بيدي ودخل معي المسجد، وقادني إلى المنبر، وقال لي : يا محمد ! ارقَ، فقلت له : يا سيدي ! والله ما أعرف ما أقول، فقال لي : ارقَ، وناولني السيف الذي يتوكأ عليه الخطيب عندهم، قال : فرقيت على المنبر، وأنا حائر مفكر فيّما أقول، إذا تم المؤذنون الآذان، فلما فرغوا، ناداني بصوته، وقال : يا محمد ! قمْ، وقلْ : بسم الله. قال : فقمتُ، وأنطقَ لساني بما لا أدري ما هو، إلا أني كنت أنظر إلى الناس وهم ينظرون إليّ، ويتخشعون ويبكون، من موعظتي. فأكملت الخطبة الأولى وجلست، ثم قمت إلى الثانية كذلك، حتى أكملتها، فلما نزلت، وقف وقال لي : أحسنتَ يا محمد، جزاؤك[425] عندنا أن نوليكَ الخطبة، وأن لا يخطب أحد غيرك، ما دمت حياً[426]. قال : فازدحم الناس عليّ، بين مقبِّل رجلي، ومقبل يدي ورأسي، وجاء إليّ أبي، وقبلني بين عيني، وقال : يا بني ! ومتى وفقك الله لحفظ الخطبة التي لم يسمع بمثلها ؟ فقلت : والله يا أبتي ما حفظت قط خطبة، ولا أدري ما كنت أقول، إلا أني أرى الناس يبكون، فزاد تعجب الناس، وانصرفنا عنه. فعند دخولنا إلى مصر، لقينا من أخبرنا بوفاة خطيب كان يخطب بمصر، فكثر طلب الناس لولاية الخطابة بدلاً منه، فقيل للسلطان في يومه، إنما يتولى مكانه ابن الصاحب. فعند دخولنا إلى مصر، أخبرنا بالقصة، فكتب لي التقليد، وبعثه إلى الخيلفة الخطابة. فوالله ما حفظت قط خطبة لغيري، ولا تكلفت إنشاء خطبة، إلا على أعواد المنبر. وكان من أبلغ خطباء عصره، وعهدي به منذ أعوام بقيد الحياة. حدثني بها، وسمعته يحدث بها والدي، ويكررها في مجالس، والناس يسألونه عنها.

وحدثني سيدنا وشيخنا، قاضي القضاة، شيخ الشيوخ، علم الأعلام، الصالح القانت، الوريع[427] العابد، تقي الدين أبو عبد الله محمد، بن أقضى القضاة، شمس الدين أبي بكر عيسى السعدي المالكي، المعروف بابن الأخنائي[428]، غير مرة

(425) في أ : جزاك الله عندنا.

(426) هذه المعطيات أوردها المقري مع اختلافات طفيفة في كتابه **نفح الطيب** (ج 5/416-417) وصدرها بقوله : "قال الخطيب المذكور، رحمه الله، في بعض تعاليقه ما صورته". كما يوردها كذلك ابن مريم، **البستان**، 188.

(427) كذا في النسختين، ولعلها : الورِع.

(428) سبقت ترجمته.

لي : مولانا السلطان أبو الحسن، يسلم عليك، ويؤكد عليك في العجلة للقدوم عليه. فقلت له : ولم ؟ فقال لي : قيل له ما قال لك والدك عند توديعه لك[412] فاستعجل مقدمك. فلما دخلت على السلطان أبي الحسن، رحمه الله عز وجل، آنسني وخاطبني، واستخبرني عن القصة، فأخبرته بها، فقال لي : قد قبلت وأيقنت الآن بأخذ هذه البلدة. وشرحت له ما قال لي المرشدي، وأنه شرح لي مراد والدي، رحمه الله، فأيقن السلطان، رحمه الله، بالإستلاء على البلد، وسر واستبشر. فلما كان في اليوم السابع والعشرين، استولى على الملعب[413]، وهو موضع متصل بالبلد، وفي اليوم الثامن والعشرين، دخلها، فبحث عني، وأحسن وتلطف، وقرب وأدنى؛ وكان قد ولاني الخطابة بجامع العباد[414] يوم قدومي عليه، فمن يومئذ لازمت السلطان، رحمه الله عز وجل. وكان من شأني في الخروج عن وطني، وسلوك سبيل غير سلفي، ما كان. فإنا لله وإنا إليه راجعون. اللهم ردني إليك باقي العمر، يا رحمان يا رحيم.

---

(412) لفهم ما سيرد، لا بأس من إيراد بعض ما قاله ابن مرزوق لدى توديعه لإبنه : "سلموا على السلطان أبي الحسن وقولوا له أنا هنا نخدم عليه... يا بني أرجو الله أنك إذا وصلت إليه لا تقيم إلا أياما يسيرة، وتفتح تلمسان... والمرجو من الله أن يستر ما فيها من الذراري الحرم" (**المسند**، 481).

(413) كانت تلمسان تتوفر على عدة ملاعب تقع خارج أسوارها يتوجه إليها الناس أيام الأعياد ووقت الاحتفالات السلطانية وفي الأيام العادية ووقت الفراغ للتفرج على سباق الخيل والاستعراضات العسكرية وليلعب فيها الأطفال ويمرحون، ومن بين هذه الملاعب ملعب برج الكيفان شمال المدينة، والملعب الذي يقع شرق المدينة أمام باب العقبة وملعب آخر يقع جنوب المدينة ما بين باب الجياد والمنصورة، والملعب الذي يقع أمام باب القرمادين الذي منه دخل السلطان أبو الحسن منتصرا مدينة تلمسان يوم 28 رمضان 737 هـ/1337م (انظر : د. عبد العزيز فيلالي، **تلمسان في العهد الزياني**، الجزائر 2002، ج 1، ص 155).

(414) قرب تلمسان والذي يزدان بمدخل قد غطي بالفسيفساء، وهو من بناء السلطان أبي الحسن سنة 740 هـ/1339م، يقول ابن مرزوق أن السلطان قد "أنفق فيه مقدارا جسيما ومالا عظيما. وكان بناؤه على يد عمي ... وعلى يدي". وكان يتوفر على خمس بلاطات وثلاثة أساكيب ومحراب ذي زخارف من الآجر والطين. ويصفه ابن مرزوق قائلا : "اشتمل على الوضع الغريب، وهو أن سقفه كلها أشكال منضبطة بخواتم وصناعات نجارة كل جهة تخالف الجهة الأخرى في الوضع، رقمت على نحو ما يرقم عليه أشكال النجارة، فلا يختلج في النفس شك ولا يعرض لها وهم أنها أشكال منجورة منقوشة، وهو كلها مبنية احكام بالآجر والفضة. واشتمل على المنبر العجيب الشكل المؤلف من الصندل والعاج والآبنوس المذهب ذلك كله" (**المسند**، ص 403-404).

قوله : "إنك ستبتلى بمخالطة السلطان والملوك"، إلى آخره. هو مما لا يحتاج هذه الجملة، فلو كتبت فيها، ما عسى أن أكتب، ما استوفيت ما جرى علي سببه، وما أنا في معظمه، فالله يرحمني.

وكذلك قوله فيمن يضرني، وسأذكر، إن شاء الله، بعض ذلك بعد قوله : "وإذا وصلت إلى القاهرة المحروسة، واحتجت إلى شيء". فلما وصلت إلى القاهرة المحروسة، احتجت إلى شراء أسباب وإنفاق، فخففت النفقة، فعرض علي أشياخنا، قاضي القضاة القزويني[415]، وقاضي القضاة تقي الدين الأخنائي[416]، والقاضي بدر الدين ابن النظام، وبعض الأمراء، كالحضيري والمجاوري والملك، وغيرهم، المعونة في الزاد، فاعتذرت لهم، فبينما أنا في سوق الدواب تحت القلعة، وقد عرضت علي فرس أنثى، فترددت في شرائها، خوف الاحتياج إلى ثمنها في النفقة، فإذا ببعض أصحابنا لقيني، وسلم[417] عليَّ، وقال لي : يا سيدي ! إن سيدي والدك أعطاني أمانة، وقال لي : إذا رأيت ولدي بعد مقدمه من الحج، فادفع له هذا الذهب عند حاجته إليه، فناولني صرة فيها ذهب[418] كثير، فقضيت بها حاجتي، ووسعت في النفقة على نفسي حين قضيت سفري، ولله الحمد.

[أخبار أبي عبد الله المرشدي][419]

وقوله : "ولا سبيل أن تسافر حتى ترى سيدي أبي عبد الله المرشدي". فرأيت أن أذكر ها هنا بعض أخبار المرشدي، رضي الله عنه، ثم أذكر بعد ذلك لقائي له، إن شاء الله عز وجل. فأقول : إن هذا الشيخ كان أعجوبة زمانه، وإمام عصره، وحجة دهره. أحد المتصرفين في العالم، على طريق الشيخ أبي العباس

(415) محمد بن عبد الرحمان بن عمر العجمي أبو عبد الله، جلال الدين القزويني الشافعي، صاحب "تلخيص المفتاح" في علوم البلاغة وغيره، قدم من بلاده إلى دمشق الشام، وولي القضاء بها، وشرح "تائية" ابن الفارض والإيضاح. ولد سنة 666 هـ وتوفي سنة 739 هـ، ذكره ابن مرزوق في برنامجه (**عجالة المستوفز...**) وذكر أنه "شهير الذكر رفيع القدر". توفي سنة 739 هـ/1338م. انظر : **نفح الطيب**، 394/5 ؛ ابن القاضي، **درة الحجال**، 115/2 ؛ **الدرر الكامنة**، 3/4).

(416) سبقت ترجمته،

(417) ب : وعرض.

(418) ب : بذهب كثير.

(419) العنوان من وضع المحققة.

السبتي[420]، عندنا، إلا أن هذا كان أسلم من الانتقاد على ظاهره، اختلف فيه أهل الديار المصرية، أول مرة، وأكثرَ المعترضون عليه الاعتراض، ثم سلموا، ووقع الاتفاق والوفاق على أنه وليّ متصرف، إلا شرود من الناس، لا عبرة بهم. ولنذكر إن شاء الله، بعض أخباره التي تلقيتها من أعلام الأمة.

حدثني شيخنا، خطيب الخطباء، بقية العلماء، ناصر الدين أبو عبد الله محمد ابن الصاحب عز الدين بن الصاحب، قال : كان والدي جميل الاعتقاد في سيدي الشيخ، سيدي محمد المرشدي، [نفع الله عز وجل به[421]]، وكان يزوره في كل سنة، في شهر رجب. فحملني أبي [معه[422]]، وأنا ابن تسع عشرة سنة، أو نحوها. قال : فوصلنا الشيخ، فنزلنا عنده على العادة، فوافقنا صلاة الجمعة عنده، ومن عادته أن لا يتخذ للمسجد إماماً راتباً، بل يقوم في مسجده للصلاة من يريد الله به خيراً، فيختاره للصلاة. قال : وحضر يومئذ من أعلام الفقهاء من شتى البلاد من لا يجتمع مثلهم في غير هذا المشهد. قال : فقرب وقت الصلاة، فتشوف من حضر من الخطباء الفقهاء إلى الصلاة، وصاروا يتطاولون بالأعناق، ويفرون إلى الموضع الذي يخرج منه الشيخ، حتى زاحم الوقت، ولم يبق إلا خروج الإمام، فإذا بالشيخ قد خرج، فنظر يميناً وشمالاً، وأنا خلف والدي، في الصف الثاني، فوقع بصره عليّ، فقال : يا محمد! تعالَ، قال : فقمتُ إليه، فدخلت معه إلى موضعه، فقال لي : يا محمد ! أي شيء قرأت؟ فعرّفته بأني قرأت معظم كتاب التنبيه، للشيرازي، على مذهب الشافعي[423]. فباحثني في الفروض والشروط والسنن، ثم قال : يا محمد ! توضأت لصلاتك هذه ؟ ، فقلت له : نعم. فقال لي : كرِّر الوضوء بين يدي. فدعا خديمه[424]، فجاء بإناء، فقال : كرِّر الوضوء، وانوِ به ما نويت

---

(420) أحمد بن جعفر الخزرجي، أبو العباس السبتي. الولي الشهير، الزاهد العالم العارف بالله ذو الكرامات الشهيرة والمناقب الكبيرة والأحوال الباهرة. نزيل مراكش وبركتها ودفينها. خصه ابن الزيات التادلي بترجمة مفصلة. (انظر : أخبار أبي العباس السبتي، تحقيق أحمد التوفيق، ضمن كتاب : التشوف)

(421) أ : نفعنا الله به.

(422) كذا في النسختين. ولعلها : إليه (كما في البستان، ص 188).

(423) الشافعي : محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن نافع القرشي الشافعي الحجازي، المكي، (أبو عبد الله) أحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة وإليه تنسب الشافعية ولد بغزة بفلسطين سنة 150 هـ،وتوفي بمصر سنة 304 هـ/ 819 م.

(424) أ : خادمه.

بوضوئك الأولَ. قال : فتوضأت وأخلصت النية، فأعجبه وضوئي، ثم أخذ بيدي ودخل معي المسجد، وقادني إلى المنبر، وقال لي : يا محمد ! ارقَ، فقلت له : يا سيدي ! والله ما أعرف ما أقول، فقال لي : ارقَ، وناولني السيف الذي يتوكأ عليه الخطيب عندهم، قال : فرقيت على المنبر، وأنا حائر مفكر فيّما أقول، إذا تم المؤذنون الآذان، فلما فرغوا، ناداني بصوته، وقال : يا محمد ! قمْ، وقلْ : بسم الله. قال : فقمتُ، وأنطقَ لساني بما لا أدري ما هو، إلا أني كنت أنظر إلى الناس وهم ينظرون إليّ، ويتخشعون ويبكون، من موعظتي. فأكملت الخطبة الأولى وجلست، ثم قمت إلى الثانية كذلك، حتى أكملتها، فلما نزلت، وقف وقال لي : أحسنتَ يا محمد، جزاؤك(425) عندنا أن نوليكَ الخطبة، وأن لا يخطب أحد غيرك، ما دمت حياً(426). قال : فازدحم الناس عليّ، بين مقبِّل رجلي، ومقبل يدي ورأسي، وجاء إليّ أبي، وقبلني بين عيني، وقال : يا بني ! ومتى وفقك الله لحفظ الخطبة التي لم يسمع بمثلها ؟ فقلت : والله يا أبتي ما حفظت قط خطبة، ولا أدري ما كنت أقول، إلا أني أرى الناس يبكون، فزاد تعجب الناس، وانصرفنا عنه. فعند دخولنا إلى مصر، لقينا من أخبرنا بوفاة خطيب كان يخطب بمصر، فكثر طلب الناس لولاية الخطابة بدلاً منه، فقيل للسلطان في يومه، إنما يتولى مكانه ابن الصاحب. فعند دخولنا إلى مصر، أخبرنا بالقصة، فكتب لي التقليد، وبعثه إلى الخيلفة الخطابة. فوالله ما حفظت قط خطبة لغيري، ولا تكلفت إنشاء خطبة، إلا على أعواد المنبر. وكان من أبلغ خطباء عصره، وعهدي به منذ أعوام بقيد الحياة. حدثني بها، وسمعته يحدث بها والدي، ويكررها في مجالس، والناس يسألونه عنها.

وحدثني سيدنا وشيخنا، قاضي القضاة، شيخ الشيوخ، علم الأعلام، الصالح القانت، الوريع(427) العابد، تقي الدين أبو عبد الله محمد، بن أقضى القضاة، شمس الدين أبي بكر عيسى السعدي المالكي، المعروف بابن الأخنائي(428)، غير مرة

---

(425) في أ : جزاك الله عندنا.

(426) هذه المعطيات أوردها المقري مع اختلافات طفيفة في كتابه **نفح الطيب** (ج 5/416-417) وصدرها بقوله : "قال الخطيب المذكور، رحمه الله، في بعض تعاليقه ما صورته". كما يوردها كذلك ابن مريم، **البستان**، 188.

(427) كذا في النسختين، ولعلها : الورِع.

(428) سبقت ترجمته.

وكتبها عنه الرواة الحاملون عنه من سائر الأقطار، قال : كنت في أول قراءتي اخترت تقليد مذهب مالك، فحفظت على مذهبه كتباً، واشتغلت به على جماعة، وقرأ أخي كتب الشافعية، فظهر أخي، وتقلد الخطط من التدريس والقضاء، وبقيت أنا مهملاً ضعيفاً محتاجاً، مع أني كنت ضَعيفاً في التحصيل. هذا مقاله، رضي الله عنه. فاشتد عليّ الأمر، وضاقت علي المعيشة، فعزمتُ على قصد الشيخ، رضي الله عنه، قال : فخرجت قاصداً زيارته متجرداً، لم يصحبني إلا ثيابي التي عليّ، وإبريقاً من جلد أعددته للوضوء، قال : فركبت البحر، وتوجهت نحوه. قال : فلما دخلت عليه، أقبل عليّ، وقال لي : يا محمد ! يا مالكي المذهب ! وفقت وهديت، وصلح حالك. يا محمد ! اعطني هذا الإبريق لأن أتوضأ به، فقلت : بسم الله، يا سيدي . قال لي : بثمنه. فقلت له : يا سيدي ! قبولك له ما فوقه ثمن، فقال لي : يا محمد ! آخذته منك بثمنه، وثمنه أنا ولّيناك قضاء قضاة المالكية. فقلت له : يا سيدي ! حاشاك من هذا، ليس عندي من المكانة والعلم ما أطمع به في النيابة في أقل المواضع، فكيف بقضاء القضاة، وأنت تعلم كبر هذه الخطة، ومن يتقلدها؟ قال : فنظر في نظرة إنكار، وقال لي : وليناك، فقلْ : قبلت، قل : قبلت. قال : فقلت قبلت يا سيدي، قبلت يا سيدي، قال : فأوصاني بما يوصى به من تقلد هذه الخطة، وقال لي : قم. فقلت له : يا سيدي ! أريد أن أبيت عندك، وأتمتع بك. فقال لي : قم. فانصرف راشداً، ودعا لي بطعام، وزودني به، وانصرفت متوجهاً إلى مصر، وأنا قد استقدفتني الفكرة. فلما دخلت إلى مصر، لقيت أناساً وهم يتحدثون بموت القاضي، قاضي القضاة، زين الدين بن مخلوف المالكي[429]، وكان معظماً عند ملك مصر، لأنه كان وصياً عليه وناظراً، وخلف ولداً، وتطاولت الأعناق لولاية خطته، وكان من غرض السلطنة ولاية ولده، فلم يستكمل بشروط الولاية يومئذ. قال : فلما قربت المنزل، لقيت جناديون، فقال بعضهم لبعض : هذا الذي يطلبون. قال : فأدركني الروع، قلت لهم : من هو ؟ فقالوا : أنت، يطلبك السلطان. فذهلت، ونسيت ما عندي من كلام الشيخ، رضي الله عنه، فقلت لهم : أنتم غالطون، أنا لا أعرف أحداً،

(429) لعله عيسى بن مخلوف بن عيسى المغيلي. الذي كان "من فضلاء المالكية وأعيانهم بالديار المصرية، وولي قضاء المالكية" وتوفي سنة 746 هـ (**الديباج المذهب**، 742 ؛ **نيل الابتهاج**، 290 ؛ **شجرة النور**، 220. يسميه يحيى بن مخلوف بن يحيى المقيلي).

وكيف يعرفني السلطان؟ فقالوا لي : ألست تقي الدين الأخنائي المالكي؟ فقلت لهم : نعم. فذهبوا بي، إلى أن انتهيت إلى قلعة السلطان، فدخلوا بي إلى الإيوان، فوافقته يؤم دار العدل، وهو يوم جلوس السلطان للنظر في المظالم، وقراءة القصص، ووجدت أعلام الفقهاء بين يديه، وعندما رآني السلطان، قال لي : نعم، هو، هو يا سيدنا، تقي الدين، قد وليناك قضاء قضاة المالكية، مكان زين الدين بن مخلوف. وأمر أن تخلع عليّ خلع القضاة. قال : فخلعوا علي خلعة القضاء، وهنأني من حضر من أعلام وسط السجاد، على العادة، ثم قمت، فقدمت إلي بغلة القضاء بالزنار، على العادة، فإن بغلة قضاة القضاة عندهم تكون مكسوة بالملف كلها. فحينئذ رجع إلي عقلي، وتوجهت للمدرسة الصالحية[430]، مجمع المذاهب والقضاة. ومن العادة أن القاضي إذا تولى الخطة وخرج من دار السلطان، يقصد هذه المدرسة، فيفرش السجادة، ويجلس بين يديه خصمان، فيفصل بينهما، ثم يجلس في موضع التدريس، فيقرأ القارىء عليه آية يفسرها، وحديثاً يتحدث عليه، ومسألة من فقه يتكلم عليها، ثم ينصرف. قال : فما كان إلا أن فصلت بين خصمين، وإذا بفقهاء الطوائف الأربعة، من المالكية والشافعية والحنفية والحنبلية، والقضاة قد حضروا لسماع التدريس، على ما جرت به عوائدهم. ومن عادتهم أن يستعدوا لذلك، ويستعد له المدرس، فيكون على علم من الآية التي تقرأ عليه، والحديث والمسألة. قال : فجلست، ولم أستعد لشيء من ذلك. ومن عادتهم تقديم خطبة قبل ذلك، قال : فلما اجتمعوا بين يدي، استحضرت بركة الشيخ، فانطلق لساني بالحمد والثناء، وخطبة بليغة من غير ترو. ثم قرأ القارىء آية، فخلق الله من الكلام عليها ما لم يكن لي في حفظ، ولا جرى لي على ذهن. ثم كذلك على الحديث والمسألة الفقهية، وذلك بخاطر سيدي الشيخ. قال : ثم عرضت لي العلة التي أعيا الأطباء طبها، وهي ما نزل في عيني، فقدت بسببها بصري، فصرت أستغيث بالشيخ، رضي الله عنه، ووجهت إليه، فقال لي : ستبرأ، إن شاء الله عز وجل، ويعود بصرك أحسن ما كان، وبعث لي بشيء جعلته على بصري إثر القدح، فإني قدحت عني، فشفيت للحين.

(430) بناها الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل، شرع في بنائها سنة 639 هـ. ووصفها القريزي بأنها "من أجل مدارس القاهرة، إلا أنها قد تقادم عهدها، فرثت". (**حسن المحاضرة**، ج 2، ص 230 ؛ المقريزي، **الخطط**، ج 4، 209-211).

قلت : فوالله، لقد رأيته يكتب ويقرأ الخط الرقيق الذي يستصعب عليّ، وعندي الآن بخطه، الموطأ الذي هو أصلي، عليه طرر تشهد له بذلك، جبره الله تعالى. وهو ابن سبعين سنة، رحمة الله على الجميع، ونفعني بهم، آمين.

وحدثني شيخنا، الأستاذ العلامة، فخر الدين أبو عمرو عثمان بن محمد التكروري المالكي، وكنت أجود عليه القرآن بمدينة رسول الله، صلى الله عليه وسلم، غير مرة، وهي من المشهورات بالمدينة. قال : كان صاحبنا، أبي عبد الله المليكشي[431]، لما حضرته الوفاة، وكان صديقه وصاحبه، أوصاني، وقال لي : أريد أن تقضي لي حاجة، وتقر عيني بقضائها، وأموت طيب النفس إن قضيتها، فقلت له : وما هي؟ إن كانت في مقدرتي، قضيتها. قال لي : نعم، هي في مقدرتك، وهي أن تقبل مني ابنتي، وكانت له ابنة صغيرة، وسيمة، فائقة الجمال، وقد خطبها بعض قرابتها. قال : فقلت، يا سيدي ! كيف أصنع هذا وهي عندي بمنزلة ابنتي في تربيتي لها، وأنا كبير السن، حالك السواد، وكان كذلك. فقال لي : يا سيدي ! لا تطيب نفسي إلا بهذا. قال : وحضر هذا الكلام جماعة من الأصحاب، فأشهدهم بالإنكاح، وأقحم علي حتى أشهدتهم بالقبول، فتم الإملاك، وبقي الحال على حاله مدة، فلما عزمت على البناء، يسر الله تعالى أسبابه، فبنيت بها، فاعترضت عنها، فبقيت مدة من عامين، أو ثلاثة، معترضاً.

وعرفت من أخبار الشيخ سيدي محمد المرشدي ما عرفت، أزمعت على قصده، فتوجهت نحوه، فلما وصلت إليه وقربت منه، قلت في نفسي : من المستفيض أن من اشتهى طعاماً، على أيّ وجه كان، يعطيه الشيخ إياه، قال : فقلت في نفسي : أشتهي ملوخية بفراريج، وكان في غير وقت الملوخية، قال : فلما دخلت على الشيخ، قال لي : يا عثمان ! ملوخية بفراريج؟ يا فلان ! ودعا بخديمه، احضر لهاذا ما طلب. فاحضر لي ملوخية بفراريج، قال : فخجلت. فقال لي : يا عثمان ! كيف أخطأت الطريق وارتكبت هذا الذنب؟ فقلت له : وما هو، يا

(431) أبو عبد الله المليكشي : محمد بن عمر بن علي بن محمد بن إبراهيم بن عمر المليكشي البجائي ثم التونسي الجزائري. شاعر، أديب أخذ عن علماء مدينة الجزائر، ثم رحل إلى المشرق وحج، فروى عنه جماعة بمصر والحجاز، عني بالكتابة والأدب وله في التصوف قدم راسخ، توفي بتونس غرة محرم سنة 740 هـ/ 1339 م. (**نيل الابتهاج**، ص 401 ؛ **الدرر الكامنة**، 4/108-109 ؛ **تعريف الخلف**، 2/491 ؛ **شجرة النور**، 209 ؛ عادل أبو نهيض، **معجم أعلام الجزائر**، 171).

سيدي؟ فقال لي : تركت التوسل بضريح محمد، مولى محمد المرشدي، وتتوسل بمحمد الذي هو لا شيء! وسبّ نفسه بما كرهت ذكره. قال، فقلت له : يا سيدي! توسلت بك إليه. فقال : قم الآن. وانصرف إلى ضريح مولانا محمد، صلى الله عليه وسلم، واسأل من الله، عز وجل، حاجتك، فإذا كان ليلة كذا من شهر رمضان، أظنها ليلة الحادي عشر منه، تلك الليلة فيها، إن شاء الله، تقضى حاجتك. فحضرت أنا هذه الليلة، وقد عمل الوليمة، وشهدها المجاورون. فلما كان بعد صلاة العشاء الأخرة، قضيت حاجته.

وحدثني جماعة من الفقهاء والحجاج ممن حج معه، أنهم كانوا يسافرون في البرية فيشتهون الطعام السخن، فيخرج لهم خديمه من المحارة الطعام الحار، حتى الجبن المقلو والزلابية، لا يستطيعون أكلها لشدة سخانتها، وكأنها من المقلى. وكل من رافقه من الناس يأكل ما يشتهي من الطعام، محضراً بين يديه.

حدثني جماعة من أصحابنا المجاورين، أنه كان أيام مقامه بمكة، يزدحم الناس عليه، فيناولهم صرر الذهب والدراهم، على قدر ما عليهم من الديون، وما يحتاجون إليه. وهذا من المتواتر المستفيض.

وحدثني جماعة من أصحابنا، أهل الديار المصرية، أن السلطان الملك الناصر[432]، وكان تلميذاً له، قصد زياراته مرات، فربما وصل إليه في الخمسة آلاف فارس، فإذا نزلوا حذاء زاويته، يترغد الناس كلهم بالطعام والعلف، حتى إن كل فارس يطرح زبدتيه بين يديه من طعام، مع رغيفتين من الخبز الطيب ومن الشعير، قدر ما يحتياج إليه، وليس عنده إلا بيت واحد، ومنه يخرج هذا كله. وهذا كان سبب حديث الفقهاء فيه. وأما اختلافهم في أمره، وقول من قال منهم : هذا سحر أوْ له خديم، وغير ذلك من الأقاويل التي ظهر نور الحق فاضمحلت، واعترف بها أقوام وسعداء آخرون. وأدركت بقية من المنكرين، لكنهم من القلة بحيث لا يحس بإنكارهم.

(432) محمد بن قلاوون الصالحي، الملك الناصر (ناصر الدين محمد السلطان المملوكي. ولد سنة 684 هـ واعتلى العرش سنة 1293/694م). توفي سنة 741 هـ، وله ستون سنة، بعد أن خطب له ببغداد والعراق وديار بكر والموصل والروم، وضرب الدينار والدرهم هناك باسمه كما يضرب له بالشام ومصر، حج مرات وحصل لقلوب الناس بوفاته ألم عظيم، عهد لولده السلطان الملك المنصور أبي بكر فجلس على الكرسي قبل موت والده. (الدرر الكامنة، 4 144-148).

وقد كنت جمعت، أيام كوني بالديار المصرية، مجموعا في ذكر فضائله وما بلغني من كراماته، فاستعاره مني سيدي الفقيه، الإمام العلامة، إمام الحجيج وإمام المالكية بالحرم الشريف، المدعو بالخليل، محمد بن عبد الرحمن المالكي[433]، محل والدي، رضي الله عنه، فبقي عنده[434]. وفي هذا المقدار كفاية. ومقامه أعظم، وكرامته أكبر، أعاد الله علينا بركاته، بجاه مولانا محمد، صلى الله عليه وسلم، وشرف وكرم.

ذكر ماجرى لي في سفري إليه، رضي الله عنه.

لما أعملت في الحركة إليه من الديار المصرية، وهو بموضعه الذي يعرف بمنية مرشد، على يسار من بلاد فوا[435]، على بلاد الريف من القاهرة واسكندرية المحروستين، صليت الجمعة في الجامع الجديد، بمصر المحروسة، الذي هو بين مصر والقاهرة، بناه السلطان الملك الناصر[436]، رحمه الله تعالى، على شاطئ النيل، وكان بمقربة منه منزل شيخنا، قاضي القضاة، عز الدين[437] أبي عمرو عبد العزيز، ابن سيدنا وشيخنا، قاضي القضاة، بدر الدين بن جماعة[438]، نفع الله بطول بقائه المسلمين، وجمعنا به، بفضل بسم الله الرحمن الرحيم، والحمد لله رب

---

(433) محمد بن عبد الرحمان بن محمد بن عمر المالقي ثم المكّي المشهور بخليل المالكي. إمام المالكية بالحرم الشريف. اتخذ مكة دار إقامته وقلّ ما ترد على المدينة قافلة إلا وهو معهم، كان يواسي الفقراء ويتداين لأجلهم. توفي سنة 760 هـ/ 1359م (ابن مرزوق، **المسند**، ص 483-484؛ ابن بطوطة، **الرحلة**، 388/1 ؛ **أزهار الرياض**، 74/5 ؛ **نفح الطيب**، 534/2 ؛ **شجرة النور**، 222

(434) نفس المعطيات تجدها في : **المسند**، ص 482-483 (مع اختلافات في اللفظ)

(435) في أ : فوة، وستتكرر اللفظة بهذا الرسم في أ.

(436) الملك الناصر محمد بن قلاوون. هو ناصر الدين أبو الفتوح محمد، يلقب بالملك الناصر، تولى حكم مصر بعد وفاة أخيه الملك الأشرف صلاح الدين خليل بن منصور سنة 693 هـ، واستمر حكمه إلى سنة 694 فخُلع، ثم أعيد سنة 698 هـ، وتوفي سنة 741 هـ (**حسن المحاضرة**، ج 2، ص 97-101).

(437) توفي سنة 767 هـ انظر بعض أخباره في **الدرر الكامنة**، 380/2-381.

(438) بدر الدين محمد بن إبراهيم بن جماعة الكناني، قاضي القضاة بالديار المصرية، شافعي المذهب، توفي سنة 733 هـ/1333م ودفن بالقرافة (ذكره ابن مرزوق في **المسند**، ص 483؛ السيوطي، **حسن المحاضرة**، 366/1، 145/2).

العالمين. وكنت قصدت الصلاة معه، فلما ودعته، قال لي : على أي طريق عزمت؟ فقلت له، في البحر، إن شاء الله تعالى، قصداً لزيارة الشيخ والتمسك به. فودعته، لا جعله الله آخر وداعه، وانصرفت. فتوجه معي جماعة من أصحابنا الفقهاء إلى شاطئ النيل، فوجدت مركباً جيداً مسافراً إلى فوا، فاكتريناه، وجعلت فيه ظُلل من حصور[439] وكتان، فلما عزمت على الطلوع بعد صلاة المغرب، وأردت توديع أصحابنا، حلف جميعهم ألا يودعني إلا من اسكندرية، جزاهم الله خيراً. فركبنا في المركب، وأقمنا ننتظر خلاص المركب، والريح المساعد، إلى أن ذهبت طائفة من الليل، فنام أصحابي، وذهب عني النوم، فنظرت إلى رجل قريب مني بزي الفقهاء، فسألني عن الحال والوطن والوجهة، فعجبت من عدم معرفتي به، ومعرفته بي، إذ كان طلوعنا في وقت لا يغيب عنه، ولا عنى من كان معنا في المركب، فتمادى على سؤاله ومحادثته ومباحثاته، إلى أن عرفته إني قصدت بالوجهة زيارة الشيخ المرشدي، رضي الله عنه، فأنكر علي إنكار ذي غلظة، ثم أخذ في الاستدلال على منع شد الرحال، إلا لما ورد فيه النص، ثم أخذ في تقرير أحوال الشيخ، رضي الله عنه، واختلاف الناس في أحواله، ومخالفة ظواهر الشرع لأمور، وجلب من الأدلة والمقالات المعروفة للائمة ما عجزتُ عن معارضته، ووقفتُ عن مناظرته، وعدتُ على نفسي باللوم، مرة استصواباً لمذهبه، ومرة في دفع تشكيكه، إلى أن غلب النوم عليّ، فصاح الخدمة من البحرية بالناس، إشعاراً لهم بالحركة، فأقلعنا واستيقظ أصحابنا؛ فعند مفارقتنا المرسة، تكسرت القريّة، ودار المركب وكاد يغرق. فمضينا على حالنا، وأنا قد استغرقتني الفكرة، فنمت من حذري من هذا العارض الخاطر، فاستيقظت وأنا على ما كنت عليه، لم أرجع عن تغليب اللوم في غالب أحوالي، فارتفعت للحين أصوات النواتية وهم يقولون : ويلكم الشيمة، وهي عبارة عن موضع يدور فيه الماء، فتعطب فيه المراكب غالباً، وهي مواضع معروفة في بحر النيل. فداروا بالمركب من أجل ذلك، فصادف مركباً كبيراً قد حذر لما حذر منه، فاصطدما، فسلم جميع من كان في مركبنا، غيري، فإني قد حصلت تحت جنب المركب الآخر، وكانت السكة التي يرسى[440] بها معاقة منه، فصادفت شق فرجية كانت علي، فتعلقت منها،

---

(439) في الأصل : ضلل من حصر.

(440) في النسختين : يرصي.

وذهب المركب الذي كنت فيه، وبقيت معلقاً في الآخر، فثقلت وسقطت في البحر، وأنا لا أحسن العوم بوجه، فأشعرت نفسي للحين في التوبة من ذلك الخاطر، واستحضرت كلمة الإخلاص، فعندما تخبطت في الماء، صادفت خشباً في إطلاق المركب[441]، وعوائدهم يجلبون الخشب الكبار من اسكندرية، فاستويت على الخشب، فسمع النواتية الحس، فقالوا : غريق ! ونادى بعضهم بعضاً، ونزل بعضهم إليّ ورفعني إلى المركب، وذلك مع طلوع الفجر، فقال بعضهم لبعض : هذا ابن نعمة، يعنون أنه من ذوي اليسار، ولا يخلو من شيء معه، فأرادوا أن يفتشوني، ومعي بطنية فيها نفقتي ونفقة أصحابنا. فعندما قربوا مني، تأملني أحدهم، فقال : يا فُعّال ! هذا ولد مولانا قاضي القضاة المالكي، إني رأيته راكباً معه[442]، أو هو مثل ولده. فرجعوا عني وأقبلوا عليّ. ولو فتشوني ووجدوا عندي شيئا لعرفوني، ولما فقدوني[443] أصحابي، أرسوا وجاءوا على الساحل يبحثون عني، وأرسوا أيضا أصحاب المركب الذي أنا فيه عندما عرفوني، فوصل إليّ أصحابي في البر، فركبت دابة معهم، وعدت إلى المركب، وأخبرتهم بشأني وما جرى لي، واستغفرت[444]. فلما وصلنا إلى المركب، طلبت صاحبي المسلط عليّ، فما وجدته. فسألت أصحابي، فحلف كل واحد منهم أنه ما رأى بجانبي أحدا، وسألنا جميع أهل المركب، فكل يحلف أنه ما رأى ولا سمع. ثم أقسم جميع أهل المركب أنه لم ينزل منه إلا أصحابنا الذين تلقوني، وسئل النقيب الذي كتب الأسماء، وأحضر جريدة، فلم يوجد فيها الإسم ولا رآه أحد من خلق الله غيري، فعلمت أنه شيطان. فزدت، وزاد أصحابي تعجباً واعتباراً واعتقاداً في الشيخ، رضي الله عنه[445].

فلما وصلنا إلى فوا، وتجاوزناها قليلاً، إلى أن حاذينا مقام الشيخ، نزلنا، فقال بعض أصحابنا : نكتري دواب نصل عليها إلى مقام الشيخ، فإن بيننا وبينه أميالاً. فقلت لهم : أما أنا، فلا أمشي إلا على قدمي حافياً حاسراً. فوافقني الأصحاب،

(441) أ : البحر.

(442) في المسند ص 484 : "رأيته يقرأ عليه"

(443) هكذا في النسختين

(444) وردت هذه القصة مع اختلافات طفيفة في المسند ص 483-484.

(445) انظر القصة كاملة مع بعض الاختلافات اللفظية في المسند، ص 483-484.

ثم قال بعضهم : نصلي الظهر، وكان وقت الظهر. فقلت لهم : الرأي عندي أن نؤخر الصلاة إلى مقام الشيخ، لعلنا أن ندرك عنده الجماعة. فوافقني أصحابنا. فلما وصلنا إلى مقام الشيخ، وقربنا موضع العمارة، رأيت بالأرض قذراً. فلبست نعلي، ودخلت إلى بستان يخرج منه إلى زاوية الشيخ ومقامه، فإذا بأحد أصحابي، ممن كانت له معرفة بالشيخ، يقول : سيدي الشيخ! سيدي الشيخ ! فقلت له : أين هو؟ فقال : هو هذا. فالتفت عن يميني، فرأيت شيخاً، ذكرت الله عند رؤيته، فخلع أصحابي ما في أقدامهم، وبقيت نعلي إلى طرف الحصير، وأنا أنظر إليه، فلما قبلت يديه، قال لي : أصبت يا محمد، وأخطأ أصحابك. تحوطت الطهارة أعضاءك، فقدمت الأهم الواجب. ثم قال : أين المؤذن؟ فجاء المؤذن، فقال له : أقم الصلاة الآن. فتقدمنا للمسجد، وهو معنا، فقال من كان في المسجد : هؤلاء كان ينتظرهم الشيخ للصلاة. فصلينا معه الظهر، وأقمنا بالمسجد، وتقدم هو، رضي الله عنه، بالخروج، فدخل إلى بيت في الزاوية، واستدعانا جميعاً، فجلسنا بين يديه، ولا نتكلم بكلمة، هبة له. فأنّسنا وذاكرنا بمسائل فقهية. وكان من كبار الفقهاء، درس التهذيب[446] والجلاب[447]، وأفتى على مذهب مالك، ثم ترقى، رضي الله عنه، ثم دعا بالطعام، فاحضر خديمه سفرة عليها قصعة فيها طعام، ما فينا[448] من عرفه، يشبه الأرز وليس هو، والله ما استطعمت طعاماً مثله، ولا أطيب منه. وكذا قال كل واحد من أصحابنا، وفي القصعة ملاعق، ومن عوائد أهل البلد الأكل بها. وكنت أسمع من الأصحاب أنه يستدعي بملاعق عدد الحاضرين، وإن لم يرهم. فنظرت الملاعق، فإذا هي على عددنا، بزيادة واحدة، فقلت في نفسي : ترى، لمن هي هذه ؟ فقال عند تمام هذا الخاطر : فقال هذه المعلقة للواقف الآن على الباب. وأمر الخديم بأن يمضي إلى الباب، فيفتحها للداخل. فدخل الخديم ومعه رجل قد أقبل من بلاد بعيدة للزيارة، فلما استوفينا الأكل كلنا، والطعام على حاله، قام عنا، فقال أصحابنا العارفون بعادته : هذا وقت حضورنا

---

(446) المقصود هو كتاب التهذيب في اختصار المدونة، وصاحبه هو أبو سعيد خلف بن أبي القاسم الأزدي المعروف بالبراذعي، الفقيه المالكي المولود بالقيروان (ت.400 هـ/1010م بأصبهان)، الدباغ، **معالم الإيمان**، 184/3 ؛ **ترتيب المدارك**، 807/4).

(447) المقصود **بالجلاب** كتاب التفريع لأبي القاسم عبيد الله بن الحسين بن الحسن الجلاب، الفقيه المالكي البغدادي المتوفى سنة 378 هـ.

(448) أ : فيه.

بين يدي الشيخ، فإن من عادته إذا فرغ الطعام، يتوجه ليجلس في موضع ويستدعي كل شخص على حدته، ويخبره بحاله، ويتحدث معه في سائر أمره فخاف كل واحد منا الفضيحة. هذا حالنا مع مخلوق، فكيف بالعالم بخفيات الأمور، المطلع على ما في الصدور؟ اللهم لا تفضحنا. فدعا بأحد أصحابي، فخلا به ساعة، وجاء وهو يبكي، ويتعجب. ثم دعا بآخرين، فبعد ساعة جاء الخديم فدعاني، فذهبت معه، فلما تمثلت بين يديه، قال لي : يا محمد ! كيف حالك؟ فقلت : حال من منّ الله عليه بالمثول بين يديكم، فقال : كيف حال أبي العباس والدك؟ فقلت له : يقبل يدك ويسلم عليك. فقال لي : تقدم، يا محمد، واستند إلى هذه النخلة، فإن شعيباً عبدَ الله عندها ثلاث سنين. فقلت : من شعيب ؟ فقال لي : ما تعرف جارك بالعباد، أبا مدين؟ فقلت : نعم يا سيدي. فقال : هو ذاك، فنعم الجار، ونعم الولي. ثم قام وتركني، فلزمت مكاني. فلما وصل إلى خلوته دعاني، وجلس خارج الخلوة، عند بابها، فأمرني بالجلوس بين يديه، ثم قال لي : يا محمد! أبوك من أحبابنا وإخواننا، وسلفك خير سلف، إلا أنك، يا محمد ! وكانت هذه إشارة إلى ما امتحنت به من مخالطة الدنيا وأهلها، والتخليط[449]، ثم قال لي : يا محمد ! لا بأس. ورفع يديه، ودعا لي، ثم قال لي : يا محمد ! أنت مشوش من وجهين : من أبيك، فإنك تتوسم أنه بحال مرض، ومن بلدك. أما أبوك، فبخير وعافية، وها هو الآن عن يمين منبر رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وعن يمينه خليل المالكي[450]، وعن يساره أحمد[451]، قاضي مكة، ولقد حصل لهما منه خير كبير، وانتفعا به، فإن والدك، يا بني! من الكبار. وأما بلدك، فبسم الله، وخط دائرة في الأرض في الرمل، ثم قام، فقبض بإحدى يديه على الأخرى[452]، وجعلهما خلف ظهره[453]، وجعل يطوف بتلك الدائرة، ويقول : تلمسان، تلمسان، حتى طاف بتلك الدائرة مرات، ثم قال لي : يا محمد ! قد قضى الله الحاجة فيها، على حسب ما طلب والدك من الله، فقلت له : كيف يا سيدي ؟ فقال : يستر الله، إن شاء الله، ما فيها من دراري وحريم، ويملكها هذا

(449) في نفح الطيب : (5/417) أهل الدنيا والتخليط.
(450) سبق التعريف به.
(451) يقصدة أحمد الطبري (كما ورد في المسند، ص 485).
(452) في النسختين : الآخر.
(453) في النسختين : ظهري. وانظر الحكاية في نفح الطيب (ج 5/ ص 417).

الذي حاصرها، فهو خير له[454]. ثم جلس، وجلست بين يديه، فقال لي : يا خطيب ! فقلت : يا سيدي ! عبدك ومملوكك، فقال لي : كن خطيباً، أنت الخطيب. ثم أشار لي بأشياء، ظهر لي بعضها[455]، وأرجو الله قبول دعوته فيما بقي، وشمول بركاته التي أرجو بها الخلاص والستر، وحسن الخاتمة والسلامة في الآخرة.

وأخبرني بأمور، منها ما أذكره، ومنها ما نسيته. وأخبرني صاحبنا، الفقيه القاضي، أبو عبد الله العزفي[456]، أني أخبرته إثر قدومي من البلاد أنه قال لي : "لا بد أن تخطب بجامع الغربي"، وهذا الجامع هو الجامع الأعظم بثغر الإسكندرية المحروسة، ثم قال لي : يا محمد! عليك من سماطنا ما تجعله في زادك، فيضع الله لك فيه البركة، فاحتفظ به، فإنه ربما تلحقكم شدة من قلة الطعام في سفركم. فأعطاني في كمي شيئاً مما عوائد أهل البلاد يستعملونه، شبه الأصابع، وكعيكات صغار، وودعني[457]، ورغبته أن أبيت عنده، فقال لي : لا سبيل، امض لتلحق بأصحابك وبمالك. ودعا بأصحابي، وأعطاهم ما أعطاني، وانصرفنا. فعبرنا البحر إلى جهة الإسكندرية، فصادفنا أحد أصحابنا القضاة ينتظرنا هناك، وأخبرني أن جمالي بالقرب منا، فأصبحت من الغد وقد اجتمع شملي بأصحابي الذين توجهوا على البر، وكان قد أمرني أن أجتمع بفضلاء الإسكندرية، وأن أكتب لوالدي، رحمه الله، بلقائي به، وما دار بيني وبينه من الكلام. فكتبت لوالدي بذلك كتاباً، لحقني جوابه بتلمسان، وهو يقول فيه : "وأما ما أخبرك به سيدنا الشيخ من أني في ذلك الوقت مع الشيخين خليل المالكي، وأحمد قاضي مكة، فوالله ما غادر وصف الحال، كما قدمنا المدينة واجتمعت بهما، وجلست بينهما. وأما حديث تلمسان، فقد وقع الحال فيها على ما وصف، وقد تعرفت أنها

---

(454) انظر كذلك المسند، ص 485 (مع اختلافات بسيطة في اللفظ).

(455) نقل هذه المعطيات ابن مريم في البستان، ص 188-189 (نقلا عن "بعض تعاليق" ابن مرزوق، التي يبدو أنها "المناقب المرزوقية")

(456) لعله أبو عبد الله (أبو القاسم) محمد بن أبي زكريا يحيى بن عبد الله بن محمد بن أحمد العزفي. الفقيه والطبيب والشاعر. (ولد بسبتة سنة 699 هـ/1299م وتوفي بفاس سنة 768 هـ/ 1366/م) (المسند، 329، 277 ؛ جذوة الاقتباس، ص 300 ؛ أزهار الرياض، 378/2 ؛ نثير الجمان، 120-121 ؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، 52/5 ؛ الإحاطة، 117/3 ؛ نفح الطيب، 242/6-243).

(457) انظر : نفح الطيب، ج 417/5.

دُخلت يوم السابع والعشرين(458)، دخلت وستر الله ما فيها من الدراري والحريم، وأن السلطان أبا الحسن، رحمه الله، عفا وأحسن". وتاريخ الكتاب في ذي القعدة. فلما وصل إلي هذا الكتاب، وقف إليه الفقهاء بتلمسان، فأعلموا به السلطان المرحوم، أبا الحسن المريني، فطلبه مني، فكان يعجب منه، وأنه كتب بمدينة رسول الله، صلى الله عليه وسلم، في أول ذي قعدة، وفيه خبر تلمسان في آخر رمضان، وبين تلمسان ومدينة النبي، صلى الله عليه وسلم، من المسافة ما هو معروف. فكانت كرامة يحفظونها لمولاي الوالد، رحمة الله عليه. وكان وصول الكتاب لتلمسان في جمادى الأولى، من سنة ثمان.

ومن فصول هذا الكتاب ما نصه :"وأعرفك، يا ولدي، بوفاة سيدي الشيخ، رضي الله عنه، في شهر رجب، وذلك حضر عنده الوافدان عليه في هذا الشهر، على عادته، وبحث عن أناس له فيهم اعتقاد، فلما كان من ليلة كذا، من الشهر عينها، فأنسيتها من الشهر، صلى صلاة العشاء الأخيرة، فوقف على الناس، وقال لهم : يا أصحابنا ! حان السفر، دعينا فوجبت الإجابة. ودخل إلى خلوته، فبسط سجادته، واستقبل القبلة، وقضى".

نفع الله به، وأعاد علينا بركاته، وأراني بركة التوسل به، بجاه مولانا محمد، صلى الله عليه وسلم. اللهم ردني إليك، ودلني عليك، وارحمني يوم وقوفي بين يديك، وخلصني خلاصاً جميلاً وانقذ وحلتي، واسترني وذريتي، يا رحيم، يا حليم.

ولما اجتمعت بأصحابي، جعلت ما أعطاني من الطعام في أوعية الأزواد، فوحقّ جلال الله تعالى، ما زلنا، نحن، ومن يتعلق بنا وجاورنا، ومن يستسلف منا، يأخذ منها، وهي على حالها، وحتى أن الغالب على أكثر هذا الركب استسلف لما أراد.

ولما وصلنا إلى مدينة اطرابلس، وجدد الناس الأزواد، وما احتجت أنا إلى تجديد زاد، حتى وصلت إلى مدينة تونس، حاطها الله عز وجل، ووصلت إلى تلمسان ببقية ما أعطاني، ففرقتها على الأصحاب، نفعني الله تعالى به، وأعاد علينا من بركاته.

(458) في بغية الرواد (ص 219) : دخلت يوم الأربعاء 28 رمضان سنة 737 هـ.

وإنما طوّلت بأخبار هذا الشيخ، رضي الله عنه، رجاء أن يريني الله بركة ذكره، والتوسل إليه، جل وعلا، بعظيم قدرته. اللهم لا تردني خائباً.

فصل
في ذكر وفاته، رضي الله عنه وأرضاه.

فارقته، رضي الله عنه، من المدينة، كما ذكرت وسبق ذكره، فأقام بها إلى سنة إحدى وأربعين، وهو يتردد في زمن الحج إلى مكة ويعود. فلما كان سنة إحدى وأربعين المذكورة، ورد على مدينة الرسول، صلى الله عليه وسلم، الشيخ الإمام، سيدي خليل المالكي، من مكة زائراً، فأقام أياماً. ثم إنه، رضي الله عنه، قرأ بين يديه كتاب "أفضل القرى"، تأليف الإمام محب الدين الطّبري(459)، وقرأ في فضل ما جاء في مقبرة مكة، حديثاً رواه عبد الله بن عمرو بن العاص(460) (461)، وعبد الله ابن عمر بن الخطاب(462)، رضي الله عنهما، عنه، صلى الله عليه وسلم، أنه قال في مقبرة مكة، لما وقف على الثنية التي بأعلاها، وليس بها يومئذ مقبرة : "يبعث الله من هاهنا سبعين ألفاً، وجوههم كالقمر ليلة البدر، ويشفع كل واحد منهم في سبعين ألفاً، وجوههم كالقمر ليلة البدر، ويدخلون الجنة بغير حساب ولا عقاب". فقال أبو بكر، رضي الله عنه : من هم يا رسول الله ؟ فقال : "هم الغرباء من أمتي، الذين يدفنون هاهنا" الحديث(463)، وهذا معناه. فاشتد عزمه على الرحلة إلى مكة،

(459) محب الدين أحمد بن عبد الله الطبري المكي، الفقيه المحدث الإمام المصنف العالم مفتي الحرمين توفي بمكة عام 694 هـ (ابن رشيد السبتي، **ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة إلى الحرمين مكة وطيبة**، ج 5، تحقيق د. محمد الحبيب ابن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1988، ص 233-252 (والمصادر المذكورة هناك).

(460) في النسختين : العاصي.

(461) عبد الله بن عمرو بن العاص القرشي السهمي، أبو محمد على الأشهر. قرأ القرآن واستأذن النبي ﷺ في أن يكتب حديثه فأذن له. كان أبو هريرة يُثني على حفظه لحديث النبي. اختلفت المصادر في تاريخ وفاته وتؤرخها ما بين سنة 63 هـ وسنة 73 هـ. (**الاستيعاب**، ج 3، ص 956-959).

(462) عبد الله بن عمر بن الخطاب العدوي القرشي، شقيق حفصة، زوجة النبي ﷺ روى عن النبي (ص 1660) حديث حسب ابن الجوزي. ذكر أنه حج ستين حجة بعد حجة الوداع. توفي بمكة سنة 74 هـ (ترجمته في : **الاستيعاب**، 341/2 ؛ **أسد الغابة**، 227/3 ؛ **العقد الثمين**، 215/5).

(463) لم أقف عليه فيما بين يدي الآن من مصادر

واعتق مملوكة له، وحبس كتباً، وأوصى لي بكتب، وتصدق بزرع، وأوصى ببيع أسباب، وبما يدفع للمعتقة، وما يتصدق به، وعاد إلى مكة عن قرب مع الشيخ خليل المالكي، فوصلا إليها، فأقاما بها أياماً قلائل، نحو من أحد عشر يوماً، وهو بحمى مطبقة، فقضى، رحمه الله، في أول ذي قعدة[464].

كتب إليّ شيخنا، الفقيه الإمام، أبو محمد بن فرحون[465]، بكيفية وفاته، وتاريخها، وكذلك الشيخ الصالح، أبو العباس أحمد الغماري، ورفيقه، أبو الحجاج يوسف، بما غاب عني الآن، وذكروا كرامات ظهرت لهم عند وفاته، وأنه منذ خرج من المدينة كان قوته عشر حبات من زبيب، أو نبقاً، وأنه حين حضرته الوفاة، مازال يتلو، إلى أن قضى، عفى الله عنه، وأنه تخير مدفنه قبل إلزامه المرض، وقبره الآن معروف، مكتوب عليه اسمه وتاريخ وفاته، مقصود للزيارة، وهو في الموضع الذي فيه خديجة، زوجة [سيدنا[466]] مولانا محمد، صلى الله عليه وسلم. وجاوره كثير من الأولياء، كالفضيل ابن عياض[467]، رضي الله عنه، وسفيان[468]، ومن المتأخرين خلائق لا يحصون كثرة، نفع الله عز وجل، بهم أجمعين.

اللهم بحرمتهم أعملني من المجاورين لهم، بفضلك يالله، يا رحمان، يا رحيم، يا حي، يا قيوم، يا باقي.

---

(464) أورد ابن مرزوق هذا الحديث ووفاة والده، "ودفنه حيث طلب"، في كتابه **تيسير المرام...م. س.. ورقة 297.**

(465) سبقت ترجمته.

(466) في ب : التنسي.

(467) الفضيل بن عياض بن مسعود التميمي اليربوعي، كنيته أبو علي، شيخ الحرم المكي في زمنه. من العباد الصلحاء والمحدثين الأتقياء. انتفع بعلمه خلق كثير في طليعتهم الإمام محمد بن إدريس الشافعي. توفي سنة 187 هـ/803 م (**الرسالة القشيرية**، 424-425 ؛ **وفيات الأعيان**، 47/4.

(468) ليس المقصود هو سفيان بن سعيد الثوري (فقد توفي بالبصرة سنة 161 هـ) وإنما المقصود هو أبو محمد سفيان بن عيينة الهلالي. من علماء مكة وأكابر أوليائها، وأحد أئمة المسلمين وعلمائهم. أصله من الكوفة، وتوفي بمكة سنة 198 هـ (أبو الفرج ابن الجوزي، **صفوة الصفوة**، بيروت، 1989، 141).

فصل
في ذكر جدي للأم، رحمه الله
ورضي عنه بمنه

وهو إبراهيم بن يخلف بن عبد السلام بن عيشون المطماطي التنسي(469). أصلهم من مطماطة(470)، قبيل من أهل وانشريس. رحل جده، عبد السلام، إلى مدينة تونس، فسكنها وأقام بها. وكانت حرفته في البادية، يتعيش بالحراثة واكتساب الماشية. وكان رجلا صالحا. ثم اشتهر ولده، يخلف، في حياته بالعبادة والزهد، ثم ظهرت له كرامات، تحدث الناس بها، واشتهر حاله فيها، فقصده الناس من جميع الأقطار، فخاف الشهرة، فانتقل إلى البادية، وانقطع عن الناس مدة. وكان قد قرأ القرآن والفقه، فلما توفي والده، عاد إلى مدينة تونس، لضم أخواته وأهله، والقيام عليهم؛ فلزم داره، فكان لا يخرج إلا إلى الصلاة، وترك مخالطة الناس بالكلية، وكان الداعي من تلك النواحي إذا دعا، والمتوسل إذا توسل، إنما يتوسل به، وهكذا أدركت أهل تونس، ووقفت على قبره، وهو عندهم مقصود للزيارة، والتوسل به.

---

(469) أبو إسحاق التنسي : من العلماء الصالحين الأولياء من أهل تنس كانت مكانته عند الملوك عظيمة، و"انتهت إليه رئاسة التدريس والفتوى في أقطار المغرب كلها"، قرأ بتونس على جماعة، رحل إلى المشرق فزار مصر والشام والحجاز، ثم عاد واستقر بتلمسان إلى أن مات. له شرح كبير على كتاب "التلقين" للقاضي عبد الوهاب بن علي بن نصر، في عشرة أسفار، ضاع في حصار تلمسان. توفي في حدود الثمانين وستمائة من أهل تنس وقبره بالعباد. انظر، العبدري، **الرحلة المغربية**، ص 11، ابن مريم، **البستان**، 66-68، **نيل الابتهاج**، 35-37، **بغية الرواد**، 114 ؛ الحفناوي، **تعريف الخلف**، ج 2/18-20، **شجرة النور**، 218 ؛ كحالة، **معجم المؤلفين**، ج 1، ص 128 ؛ عادل أبو نهيض، **معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى منتصف القرن العشرين**، ص 122-124).

(470) انتشرت **قبيلة مطماطة** ببلاد المغرب، وتسمى بها اكثر من موقع : وذكر اليعقوبي بني مطماطة بالمغرب الأوسط، غرب تاهرت بمدينة ايزرج وشمال غرب تلمسان (اليعقوبي، **كتاب البلدان**، ليدن، 1893، ص 356 ؛ ويقول ابن خلدون من جهته أنهم "مفرقون في المواطن، فمنهم من نواحي فاس من قبلتها في جبل هنالك معروف بهم ما بين فاس وصفروى، ومنهم بجهة قابس والبلد المختلط على العين الحامية من جهة غربها، منسوب إليهم، إلى هذا العهد يقال حمة مطماطة".(ابن خلدون، **العبر**، 6/251-252 ؛ التقي العلوي، **أصول المغاربة**، مجلة البحث العلمي، عدد 33، الرباط، 1982 ، ص 90) د. محمد حسن، **الجغرافيا التاريخية لإفريقية**. من القرن الأول إلى القرن التاسع، دار الكتاب الجديد المتحدة، بنغازي، ليبيا، 2004، ص 11.

وأخبرني جماعة من أهل تونس، أنهم لم يزالوا يستسقون بقبره، فيمطرون ونشأ ولده إبراهيم المذكور، طالباً[471] للعلم ببلده، ثم انتقل إلى مدينة مليانة برسم القراءة على الفقيه الولي، أبي العباس المليلني[472]، فرافقه، ثم توفي، رحمه الله فقرأ على تلميذه الذي قد كان قام مقامه، وربما فضله، الفقيه الإمام، أبو إسحاق إبراهيم بن حي، فقرأ عليه كتاب تلقين القاضي عبد الوهاب[473]، وهو الذي كان يدرس الفقيه أبو العباس، من كتب المالكية ؛ وقرأ التهذيب، وقرأ عليه الفرائض. ثم طلب لنفسه، وقرأ الأصول على جماعة. ورحل إلى الجزائر، فقرأ على بعض أصحاب الأرموي كتاب "الحاصل"، كان قد وردها، وعكف على الإقراء، وانتهت إليه رئاسة التدريس والفتوى في تلك الأقطار، وكانت الأسئلة ترد عليه من تلمسان، ومن بلاد افريقية[474]. وصنف، فشرح "تلقين" القاضي عبد الوهاب[475]، وشرح "الحاصل". حدثني أبي، رحمه الله، والفقيه القاضي، أبو زيد عبد الرحمن بن زاغ، أنه كان في عشرة أسفار[476]، وأن أحد فقهاء تلمسان ظفر به، خرجوا[477] من تلمسان، وذلك في الحصار المتقدم الذكر، فغاب عليه، فكان من أحسن ما صنف.

ولم يزل السلطان أبو يحيى يغمراسن، ابن زيان، يحظه للورود على حضرة تلمسان، وهو يتمنع. إلا أنه كان يرد زائراً، ويقيم الأشهر يدرس فيها، ثم ينصرف

---

(471) ب : طلبا.

(472) أبو العباس أحمد بن عثمان بن عبد الجبار التونسي المليلني، أبو العباس. الشيخ الجليل المحصل المجتهد. كان إماما في الفقه. كمّل ما فات المازري على التلقين. توفي سنة 644هـ/1246م (**عنوان الدراية**، 171-172 ؛ **توشيح الديباج**، 72-73).

(473) عبد الوهاب بن علي بن نصر الثعلبي البغدادي، أبو محمد، قاض من فقهاء المالكية، له نظم ومعرفة بالأدب ولد ببغداد سنة 362 هـ/ 973 م، وولي القضاء في العراق، وتوجه إلى مصر فعلت شهرته، وتوفي فيها سنة 422 هـ/ 1031 م، له كتاب "التلقين" "عيون المسائل"، "شرح المدونة".

(474) يؤكد التنسي ("**نظم الدر والعقيان**، 126) أن الفتاوى كانت تأتيه من إفريقية وتلمسان إلى تنس.

(475) القاضي أبو محمد عبد الوهاب بن علي بن نصر البغدادي، فقيه حافظ، له تآليف كثيره أشهرها التلقين المذكور أعلاه. ولد سنة 363 هـ، وتوفي حوالي سنة 422 هـ (**وفيات الأعيان**، 382/1-384 ؛ **شجرة النور**، 103-104 ؛ **كحالة، معجم المؤلفين**، 226/6-227).

(476) يقصد شرحه على التلقين للقاضي عبد الوهاب. ونفس المعطيات يوردها ابن مريم في **البستان**، ص 67.

(477) كذا في النسختين. ولعلها (خرّجو)، بمعنى أخرجه.

إلى تونس. فلما كان من شأن مغراوة[478] ما كان، وحدث من الفتنة في تلك النواحي ما حدث، وصل من تونس إلى تلمسان المحروطة، بعد أن نظر في سكنى وهران فلم توافقه، فاجتمع إليه صلحاء تلمسان وفقهاؤها[479]، ورغبوا منه المقام بها. واتصل الخبر بالسلطان، فجاء إليه، وهو بحانوت الخطيب أبي زيد بن أبي العيش[480]، وكانت مجتمع العلماء، حذاء الجامع الأعظم، وهي التي تسامت الباب الأوسط من أبواب الجامع من جهة الغرب، وفيها كان يجلس الإمام أبو زكريا يحيى بن عصفور[481]، المتقدم ذكره. وهي في القديم ملك لأولاد ابن حسين، وكانوا أئمة الجامع في القديم، وعدول البلد، ولم تزل تلك الحانوت مجتمع الفقهاء والصلحاء، ويدّعيها بنو أبي العيش، وهي لهم هبة من بني ابن حسين[482]، وقد انقرضت بيتتهم، والله أعلم، بعد أن كان لهم عقب يتحرفون بصناعة الخرط، وشبهه. فوقف عليه السلطان هنالك، ودخل معه إلى المسجد، وقال له : "جئتك راغباً منك أن تقيم ببلدنا، لتحيي بها العلم"[483]. واجتمع إليه الفقهاء بحضرة السلطان، فعزموا عليه، فقال لهم : باسم الله، فعرض عليه السلطان المنزل، والإعانة، فقال لهم : إنما أقيم ببلدكم، بشرط ألا تتحملوا علي شيئا من هذا، وأن تتركوني بحالي. ثم قال لهم : انظروا لي داراً أشتريها[484] بمالي. فنظروا له داراً بدريبة ابن الذيب، بالسبطريّين، في ظهر السجن الكائن بالسراجين، وبعث لأهله، فجاءوا إليه، فأقام مستوطنا بتلمسان، رحمه الله عز وجل، هو وأخوه وأخته[485].

---

(478) دوخ يغمراسن بلاد مغراوة الواقعة شرقي نهر شلف عدة مرات ابتداء من سنة 666 هـ/1267-68م (راجع أخبار هذه التحركات في : **العبر**، 181/7).

(479) في النسختين : وفقهاءها.

(480) أبو زيد عبد الرحمان (أو عبد الرحيم) بن أبي العيش، عالم متفنن، ذو علم بالوثائق، خطيب الجامع الأعظم بتلمسان وإمامه. هو جد الفقيه أبي زكرياء يحيى بن محمد بن عبد الرحيم، صاحب الأشغال العلية بباب السلطان أبي حمو" : **بغية الرواد**، 104 ؛ **روضة النسرين**، 69.

(481) سبقت ترجمته.

(482) ب : حسن.

(483) نفس المعطيات تجدها عند التنسي (**نظم الدر والعقيان**، 126) مع اختلافات بسيطة في اللفظ.

(484) أ : اشتروها.

(485) انظر التنسي، **نظم الدر والعقيان**، 127.

فصل في معيشته بتلمسان
رضي الله عنه وأرضاه بمنه.

حدثني شيخنا، أبو العباس ابن القطان، وهو ممن اختص بخدمة جدي لأبي وجدي لأمي، لكنه انفرد أخيراً، بعد وفاة جدي لأبي، بخدمة جدي لأمي[486] وتجرد لذلك واختص به. حدثني، رحمه الله تعالى، قال : دعاني سيدي أبو إسحاق، عند وصول أهله لتلمسان، وقال لي : يا أبا العباس ! أريد أن تعينني. فقلت : فبماذا يا سيدي؟ فقال لي : في شيء أريد أن يحصل لك فيه من الأجر ما يحصل، فقلت له : وما هو ؟ فقال : تتحيّل لي في معيشة، تصون بها وجهي وعائلتي عن مشاركة الناس . فقلت له : الذي تأمرني به، أرجو من الله الإعانة عليه، قال فأخرج لي ذهباً، وقال : هذا من بقية حلا لنا الموروث، فأريد أن تجعله بين يديك، لعل الله يفتح للجميع فيه، فيكون قراضاً. فقلت له : يا سيدي ! أخدمك فيه وأنا غني من أخذه قراضاً. فقال لي : يا أبا العباس ! إن أخذته قراضاً، وإلا تركته . فقلت له : إنما أعمل غرضك. قال : فأخذته قراضاً، وانصرفت إلى حانوتي بالقيسرية، فلحقني رجل من أهل مديونة، فقال لي : يا سيدي ! عندي برنيسات[487] بيض صغار مما يلبسه الأطفال الصغار، وهم ثمانون، ولا وجدت لهم طالباً. فقلت له : احضرها. فحضرها، فاشتريتها منه بحسب ربع دينار للبرنس، فلما حزتها منه، وقف علي رجل من أصحابي، فقال لي : عندك برنس صغير، ويسمونها في تلمسان الغفارة، قال : فقلت له، نعم؟ فأخرجت له واحدا منها، فدفع لي فيه ديناراً من الذهب، وقال لي : وددت أن لو كان عندك أكثر، فقلت له : كم تريد منها؟ فقال لي : لو منها مائة . فقلت له : وما تصنع بها؟ فقال لي : إن بني عامر[488] نزلوا بالقرب، وكان عندي منها واحداً، اشتراه مني رجل لولده، فحرص الحي على مثله لأولادهم، وأنا أبيعه عندهم بدينار وربع. قال :

(486) ب : للأم

(487) بُرنسِيات : لعلها صيغة عامية لتصغير كلمة برنس. وقد تكون بُرَيْنِسات

(488) بنو عامر بن زغبة، من عرب هلال. كانوا خارجين على السلطان أبي عنان منذ استيلائه على مدينة تلمسان. ولما توفي السلطان أبو عنان، انتهز بنو عامر هذه الفرصة واقتحموا مدينة تلمسان وتغلبوا على حامية بني مرين واستولوا على المدينة واسلموها إلى حليفهم أبي حمو موسى بن يغمراسن ملك بني عبد الواد سنة 760 هـ (ابن خلدون، العبر، 7 ؛ بغية الرواد، 40-41).

فأخرجت له جملتها، وقبضت منه ثمنها، وذهبت بالربح إلى الشيخ، رضي الله عنه، فدعا لي بالبركة، وما عدمتها من يومئذ، وفتح الله علي، فاشتريت الدار للشيخ، رضي الله عنه، وهي الدار الذي بحارة[489] الرماة، في آخر السكة الرابعة، التي تعرف بابن جحاف، وهي الآن على ملكي؛ واشتريت داراً لنفسي بمقربة منه، وهي دار بني النجار اليوم.

فمن هذا كان يعول نفسه وأهله، رضي الله عنه، فكانت عيشته، رضي الله عنه، من التجارة.

فصل في ورعه وزهده، رضي الله عنه

أخبرني الشيخ ابن القطان، والصالحة المعظمة المجابة، أم الفتح، المدعوة بفتحون، أم سيدي أبي إسحاق، وكانت من الزاهدات الصالحات، وسيأتي، إن شاء الله، ذكرها، أنه كان يقتصر على طعام يقتات به يأتيه من جهة بعض الصالحين بوانشريس[490]. وأخبرتني أن الذي كان يحصل له في الربح، يتعيش به أهله، ويتصدق منه، ولا ينتفع منه بشيء.

وحدثني شيخنا، الإمام العلامة، أثير الدين أبو حيان محمد بن يوسف بن حيان[491]، بالمدرسة الصالحية[492]، من القاهرة المحروسة، قال : يا بني ! ما ورد من علماء المغرب على الديار المصرية أروع من جدك، لما وصل من[493]

(489) أ : بمجاورة.

(490) وانشريس جبل كبير يقع في وسط الجزائر جنوبي مدينة ـ لف (الأصنام سابق).

(491) محمد بن يوسف بن علي بن يوسف الغرناطي، أثير الدين أبو حيان الأندلسي. وصفه ابن مرزوق بـ "شيخ النحاة بالديار المصرية، وشيخ المحدثين بالمدرسة المنصورية، انتهت إليه رئاسة التبريز في علم العربية". ولد بغرناطة سنة 654 هـ/ 1256 م. من مصنفاته " البحر المحيط" في التفسير وغريب القرآن و"النهر الماهد" وغيرها كثير. ورد اسمه في **عجالة المستوفز**، ووصفه بالإمام. وقد توفي بالقاهرة سنة 745 هـ/1344 م (**نفح الطيب**، 5/394-535 ؛ **البدر الطالع**، 2/288 ؛ **برنامج ابن جابر الواديآشي**، 80-82.

(492) بناها الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل، شرع في بنائها سنة 639 هـ. ووصفها القريزي بأنها "من أجل مدارس القاهرة، إلا أنها قد تقادم عهدها، فرثت". (**حسن المحاضرة**، ج 2، ص 230 ؛ المقريزي، **الخطط**، ج 4، 209-211).

(493) ب : إلى.

المغرب، وعرف مكانه، وكان الأمير الكبير الصالح، طبرس، قد فرغ من بناء المدرسة الكائنة بمصر، المعروفة بالطبرسية، رغب من قاضي القضاة، تقي الدين ابن دقيق العيد[494]، وممن معه من القضاة والأعلام، أن يرغبوا من الشيخ أبي إسحاق، أن يتولى تدريسها، وعين له من ماله، الذي حصل له من مال الغنائم، مرتباً في كل شهر، وأجمع الفقهاء الحاضرون على حليَّته. فلما حضروا معه، اعتذر لهم، فلم يدعوا وجها من المحاولة إلا بذلوه، وهو لا يزيد إلا امتناعاً. قال : وكنا نجتمع بمنزل قاضي القضاة، وبمنزل غيره من علماء البلاد، ومشايخ الوقت، فإذا حضر[495] الطعام، عرفوا عادته، فتركوه على حاله.

وحدثني شيخنا، أبو حيان المذكور، قال لي : مرض سيدنا، الشيخ أبو إسحاق مرة، فجمعنا له دواء، اشتريناه له، وأعوزنا منه دواء لم نجده إلا بالمرستان، وعرفناه بأصل تحبيسه، وحليته، فقال : لا حاجة لي به . فقلنا له : لا بد منه في هذا الدواء، وهو أصله . فقال : إن لم أشف إلا به، لا شفيت. فاقتصر على ما اشتريناه، وشفاه الله، عز وجل.

وحدثني عمي، رحمه الله، والشيخ ابن القطان، وغيرهما، أنهما لما توجها رسولين[496] إلى السلطان المجاهد، المرحوم العابد، أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق[497]، رحمه الله، عز وجل، وكان قد عرف قدره، فإنه لما وصل إلى مدينة فاس المحروسة، اجتمع إليه فقهاؤها، وطلبوا منه أن يسمعوا منه دولة في

---

(494) أبو الفتح محمد بن علي بن وهب بن مطيع القشيري، المشهور بتقي الدين بن دقيق العيد. الإمام المالكي ثم الشافعي، المفتي في المذهبين (ت. 702 هـ) نزيل القاهرة صاحب التصانيف المشهورة، ومنها : " إحكام الأحكام" "الإلمام في أحاديث الأحكام". انظر: ابن فرحون، **الديباج**، ص 324-325، الصفدي، **الوافي بالوفيات**، ج 4، ص 193-209، **شجرة النور**، 189 ؛ الشوكاني، **البدر الطالع**، 2/229-232 ؛ **برنامج ابن جابر الواديآشي**، 135 ؛ **رحلة العبدري**، 138؛ **درة الحجال**، 152 ؛ ابن رشيد السبتي، ملء العيبة.. ج 3، تونس، 1981، ص 245 وما بعدها ؛ **حسن المحاضرة**، 1/273 ؛ علي صافي حسين، **ابن دقيق العيد**، دار المعارف، 1960.

(495) أ : حضروا

(496) في النسختين : رسولا

(497) يوسف بن يعقوب بن عبد الحق بن محيو، السلطان أبو يعقوب المريني بويع في غرة صفر سنة 685/ هـ29 مارس 1286م وقتل في ضحى يوم الأربعاء 7 ذي القعدة عام 706 هـ ودفن بشالة (**روضة النسرين**، 30-31 ؛ **روض القرطاس**، 374 ؛ **الإحاطة**، 4/356).

الحديث، فقرأ عليه الشيخ العالم الشهير، أبو الربيع الونشريسي(498)، أحاديث من الموطأ بلفظه، وحضر معه علماء فاس، ومن ثم عرفه الشيخ الكبير، أبو الحسن علي الصُغيّر(499)، وكان يعده من مشايخه، وكان السلطان إذاك بمراكش، فسمع به، وعرف قدره قبل وصوله إليه. فلما وصل إليه بمراكش، أكرم مثواه، وقابله مقابلة مثله من خيار الملوك لأخيار العلماء. فلما ودعه، بعث إليه كبير دولته، الفقيه أبي علي الملياني، بخمسمائة دينار من الذهب، وقال له : هذه، يقول لك مولانا، أبو(500) يوسف يعقوب ابن عبد الحق، من طيب ماله، وخالص حلاله. فاعتذر له عن أخذها بأنه لا حاجة له إليها، وأنه مكفيّ المؤونة، وأن السلطان أولى بها، فقال له : خذها، وتصدق بها . فقال له : السلطان أعرف بالمصرف. فامتنع من قبولها، فراجعه الفقيه أبو علي الملياني في ذلك كله، وكانت في خلقه حدة(501)، فقال له : يا أبا إسحاق ! إن كان هو ورع، فمن عندنا انقطع الورع، تسير إلى مقام سيدنا أبي العباس والده، فقال له الشيخ : نعم . ولا يعود. فولى(502) الملياني، وهو يبكي، ويقول : ليته قال : "ولم يعد"، ليكون لي أو لعقبي مطمع في عوده، لما علم من حاله. فجاءه واستعطفه، وقيل إنه أخبره بالمحنة التي جرت عليه.

وكان لما وصل إلى مراكش، عرض علي النزول في دار، فنظر في ذلك، فلما رأى أن أكثر دورها التي عليه الغصب، ضرب قيطونه حذاء المصلى، وأقام فيه إلى أن سافر، رحمة الله عليه.

(498) **سليمان بن إبراهيم الونشريسي** الفاسي، أبو الربيع. المفتي المشاور، والإمام المقرىء بجامع الأندلس بمدينة فاس. توفي بها سنة 705 هـ/1305/م (**جذوة الاقتباس**، 515-516 ؛ **درة الحجال**، 308/3-309 ؛ **سلوة الأنفاس**، 316/3).

(499) أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الحق الياصلوتي الزرويلي ثم الفاسي (ت.719 /م1319م) فقيه مغربي؛ من آثاره شرحه على المدونة، وأجوبته التي جمعها تلميذه ابن أبي يحيى ابراهيم ابن عبد الرحمان التسولي ورتبها إبراهيم بن هلال السجلماسي وعنونها بـ "الدر النثير في أجوبة أبي الحسن الصغيّر" وله تقييد على تهذيب البرادعي: ترجمته في : **الإحاطة**، 186/4-187 ؛ **الديباج**، 271/2؛ **الجذوة**، 472/2، **السلوة**، 147/3 ؛ **ألف سنة من الوفيات**، 77 ؛ وانظر : محمد المنوني، **ورقات**، ص 297.

(500) في النسختين : أبي.

(501) ب : حدث.

(502) ب : هو لا،

وحدثني شيخنا، أبو العباس ابن القطان، رحمه الله تعالى، أنه لما سك
تلمسان، أقطعه السلطان، رحمه الله، المدشر المعروف بترشت[503]، وهو بمقر
من الحنايا، على أميال من تلمسان، فسأل فيه عن رقعة مملوكة، فاشتراها، فكان
تحرث له، وفيها غرس الجنان الكائن فيه إلى الآن بيده ؛ وهذا المدشر اليو
لورثة الإمامين، ابني الإمام، إقطاعاً. قال : وكان السلطان قد تخير له ها
الموضع، وليس فيه مملوك، إلا هذه الرقعة، وكان في أيام الموحدين للفتيان، وه
من الأملاك المختصة بجانب المخزن، ومع ذلك، لم يستحل ما كان يستفاد منه

فصل في ملبسه، رحمه الله.

كان، رحمه الله، مقتصداً في لباسه، مقتصراً على أقل ما يمكنه. كان يلبس المرقّعة بين ثيابه، وأدركتها من جبة صوف سوداء، مبطنة بخرقة سوداء، محشوة بالقطن، مرقعة. ويلبس فوقها بدنا أخضر، أو أسود، وغفارة خضراء، وكانت له أخرى زبيبية، ويتعمم عمامة فقهاء أهل إفريقية الآن، وهي كانت عمائم أهل تلمسان، في القديم. هذا كان لباسه، رضي الله عنه، ورحمه بمنه.

فصل في صفته، رحمه الله.

كان قصيراً، نحيفاً، أبيض، مشوب البياض بحمرة، خفيف نبات العارضين، رقيق الأطراف، وقوراً سكوناً، كثير الصمت، حسن الملاقاة، شديد التواضع، بساماً، أحسن الناس خلقا.

فصل في حسن خلقه، [رحمه الله][504]

كان، رحمه الله، أحسن الناس خلقا، وأحملهم للأذى.

حدثني الشيخ، أبو محمد الشريشي، وأبو عبد الله بن داود[505]، وابن القطان، وغيرهم، أنه لما وقع بينه وبين الفقيه المحدث، أبي زيد اليلولي[506]، ما وقع من

(503) نفس المعطيات تجدها في نظم الدر والعقيان، 127.
(504) في أ : رضي الله عنه.
(505) لم أقف على ترجمته.
(506) في هامش أ : الفقيه أبو زيد اليلوني.

الإختلاف، في مسألة الأيْمان، حسبما نذكره بعد، بحول الله تعالى، قال اليلولي للسلطان : دعني أتوجه إلى هذا الفقيه، فأناظره. فجاء إليه، فوجده في الموضع الذي يصلي فيه الجمعة من الجامع الأعظم، فقال : أين هذا الفقيه ؟ فقيل له : هو هذا. والشيخ لا يعرفه، وزاوية الجامع فيها ظلمة، فوقف اليلولي، وهو يقول : أين هذا ؟ يفتي بما لم يفت[507] به النبي، صلى الله عليه وسلم، ولا أحد من أعلام الصحابة. وغلظ في الكلام، وتجاوز إلى السب، فقال الشيخ : قولوا له (سلاما سلاما). إشارة إلى ما جاء في مخاطبة الجاهل[508].

وحدثتني الشيخة الصالحة، أم الفتح، أم ولده، قالت : كان أخوه شديد الحرج، وكان بمنزلة ولده، فإنه رباه صغيراً. قالت : فكلمه يوماً في شيء، فراجعه فيه، فقال له : يا علي ! أتراجعني وأنت ولدي؟ قالت : وكان في يد سيدي أبي الحسن، آنية للماء، تناولها ليشرب منها، فلشدة حرجه، رماها من يده، فصادفت الشيخ، وهو دابر نحوها، فأصابته، فجعلته يمسح وجهه، ويقول : اللهم لا تؤاخذ عليا، يا علي ! يا ولدي ! لا تتغير، فإني أنا حنيت عليكم، أنا الذي أحرجتك. وجعل يستعطفه، وكل من لقيه ممن رآه، يتحدث بحسن خلقه، رضي الله عنه.

فصل في قصده لتعليم العلم والإفادة

كان يدرس بتلمسان، وضم إليه طلبة البوادي، وظهرت عليهم مخائل النجابة، فكان يجري عليهم النفقة، ويقوم بهم، حتى ظهروا، وقد اشتهر جماعة منهم. ودخلنا يوما زاوية أبي عبد الله، أحد كبار الأعلام المشاهير، المتفق عليه، وكان قد سكن موضعا، واتخذ فيه خلوات للتربية، وألزم كل من دخل رباطه ألا يتحرك، إلا على وفق السنة، ولا يجري في جميع أموره من الملبس والأكل، وسائر التصرفات إلا على طريق السلف، وكنت مع مولاي الوالد، فوجدناه جالسا وهو يسمع الحديث، والقارىء يقرأ بين يديه موطأ مالك بن أنس، رواية، فوجد والدي فسحة، فدخل بإشارة الشيخ، وجلست أنا في أخريات الناس، فقلت لرجل، إلى جانبي : إن صاحبنا نور الدين ضعيف الصوت، فأخذني بيده وقام، وقال للشيخ :

(507) في النسختين : يفتي.
(508) يشير إلى الآية القرآنية : ﴿وَإِذا خاطَبَهُم الجاهِلُونَ قالُوا سَلاما﴾. الفرقان، الآية 25.

يا سيدي !هذا مغتاب[509]، فكدت أموت خجلاً، وخجل والدي، رحمه الله، فأجابه الشيخ، وقال : لحاضر أو غائب؟ فقال : لحاضر، يا سيدي، للقارىء، قال فيه كذا. فالتفت القارىء، وكان من أصحابي، ومن شيوخنا، وكنت أتناوب معه قراءة الحديث على المشايخ، فقال له : هذا أخي، وقد حاللته، فجلسنا وأنا في نهاية الكرب، فلما فرغ من قراءة نوبته من الموطأ، شرع في قراءة دولة من كتب الحوادث والبدع، الذي صنف سيدنا، أبو عبد الله ابن الحاج[510]، وهو من أعظم الكتب المصنفة في هذا النوع، وهو في مجلدات؛ فقرأ منه فصلا فيما أحدث الناس من الانتفاع على تعليم العلم، وأخذ الإجارة عليه، فتمادى في الفصل إلى ذكر ما نصه : "ويرحم الله شيخنا، الفقيه الإمام، الصالح الورع، أبا إسحاق إبراهيم ابن يخلف بن عبد السلام التنسي، فلقد جرى لنا معه، أنا خرجنا إلى بعض البادية، خارج مصر، لزيارة بعض الصالحين، فاشتدت الهاجرة علينا، وأخذ جميعنا عطش شديد، واشتد العطش بالشيخ، فقربنا من موضع فيه عمارة، فاشتد بعضنا جريا إليها، فوجدناها قرية لبعض تلامذة الشيخ، فأخبرناه الخبر، فجاء يجري قاصدا نحو الشيخ مع خدامه، معهم أواني بالماء، وباللبن المشوب بالسكر وبماء الليمون والسكر، فلما وصل إلى الشيخ وإلى الجماعة، دفع إلى الشيخ إناء، فتناوله منه، فلما أن هم بالشرب، قال : لا، والله لا أفعل، إنما قرأتك لوجه الله، فأخاف أن ينقص من أجري، ورد له الإناء". فلما أكمل القارىء هذه القصة من الكتاب، التفت والدي، رحمه الله، للشيخ، وكان يمينه، وقال له : هذا الولد الذي قام بين يديكم الآن، سبطه وابن ابنته. فرحب بي ودعاني، وقبّل بين عيني، وقال : حفيد شيخي الذي به انتفعتُ. ومازلت مكرما عنده من ذلك اليوم.

---

(509) في النسختين : مغتابا.

(510) محمد بن محمد بن محمد ابن الحاج العبدري الفاسي، نزيل مصر، والمتوفى بها سنة 737هـ/1337م. وكتابه هو "المدخل إلى تنمية الأعمال بتحسين النيات، والتنبيه على بعض البدع والعوائد التي انتحلت وبيان شناعتها وقبحها" (الديباج، 2-321-322 ؛ شجرة النور، 218).

فصل فيما حفظته من كراماته، نفع الله به بمنه[511]

حدثني ابن القطان، رحمه الله، أنه قال : لما دخلت إلى مكة، شرفها الله تعالى، وطفت بالبيت، ذكرت قوله تعالى : ﴿مَقام إبْراهيم ومَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِناً﴾[512] فقلت في نفسي : تعارضت عندي الأقوال، واختلفت المذاهب في المعنى الذي يحمل عليه الأمن، فصرت أكرر وأقول : كان آمنا، آمنا مماذا؟ فسمعت صوتا من وراء ظهري : آمنا من النار، يا إبراهيم ! من النار يا إبراهيم! ثلاث مرات[513].

وحدثني أيضا قال : قال لي سيدي أبو إسحاق : يا أبا العباس ! اشتر[514] لي موضعاً في العباد، أعده مدفناً لي، وسأخبرك بقصة، أني مرضت بمصر، واشتد بي المرض، وقد رويت الحديث المروي في فضل المعظم، وهو موضع القرافة، التي هي مقبرة أهل القاهرة ومصر، المحروستين، وأن النبي، صلى الله عليه وسلم، خيره[515] بين أن يكون روضة يانعة في الدنيا، وروضة من رياض الجنة، يشفع فيمن دفن فيه. قال : فنمت مفكراً في هذا، حريصاً على أن أدفـن في القرافة، فرأيت ما قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أو أحد أصحابه، غاب عني الآن، فقال : العُباد بدل من القرافة، العُباد بدل من القرافة، العُباد بدل من القرافة، يا إبراهيم. فعلمت أنها مقبرتي، فاشتريت له الروضة، التي فيها قبره الآن، وقبور أهله، نفعني الله، عز وجل، به.

وحدثني شيخنا، ابن القطان أيضاً، رحمه الله تعالى، أن السلطان أبا سعيد المريني[516]، رحمه الله، خرج في بعض أسفاره، فبلغه أن بعض قبائل البرابر أرادوا الخروج عن الطاعة، فأمر باستباحتهم، قال : فخرج له الشيخ، فوجده واقفا[517] في الموضع الذي أراد[518] أن يوقع بهم فيه، فوعظه وذكّره وخوّفه وأطمعه في

(511) أ : آمين.
(512) – سورة آل عمران، الآية 57.
(513) أورد ابن مريم هذه الفقرة في بستانه (ص 67) دون أن ينسبها لابن مرزوق.
(514) في النسختين : اشتري.
(515) ب : أخبره.
(516) سبق التعريف به في هامش 204.
(517) في النسختين : واقف.
(518) أ : أرادوا.

ثواب العفو، فلم يجد عنده شيئاً، فكأنه استكثر كلام الشيخ، وطال عليه، فأراد يعرض عن كلامه، فتركه الشيخ وولى من غير أن يسلم، وانصرف. فأصابه مرض شديد، سقط من سببه في حينه عن فرسه، فبعث له واسترده واسترضاه بقضاء حاجته في العفو عن أولئك القوم، فشفي.

وحدثني هو وغيره، وهذه القصة من المشهورات، قال: لما كثر ازدحام الناس على الشيخ في المجلس الذي كان يقعده لإقراء التفسير والحديث، حتى كان الناس يجلسون في السكك، وكان ذلك في مسجد القيسارية، وكان الناس يزدحمون، حتى ضاقت الشوارع المتصلة بالجامع المذكور، وكانوا يشكون لبعض حالهم، فوشى قوم إلى السلطان بذلك، وحيلوا حيالات توجب الخوض في هذا، وكان متولي أمر ذلك، والخائض فيه، والمتسلط على الشيخ، عبد الله المغيلي[519]. فجاء يوماً إلى المجلس، وذلك قبل مجيء الشيخ، فوقف على الناس، وقال: فرقوا هذا المصدع. فلما جاء الشيخ وجلس في مجلسه، هابه الناس أن يخبروه هذا الخبر، فتقدم إليه بعض أصحابه، فأخبره الخبر، فقال: اللهم هنه، وسلط عليه مخدومه، واجعله عبرة. فوالله، ما تمت جمعة إلا وهو يعذب بأنواع العذاب. وخبره، والعياذ بالله، في تنويع العذاب مشهور. قال: فكان يقول: ارحموا من دعا عليه رجل صالح مقبول، وسلوه[520] أن يدعو لي بالسلامة في الآخرة.

وحدثني شيخنا أبو العباس ابن القطان، أيضا، قال: كان الخطيب أبو عبد الله ابن الفقيه الإمام، إمام الصلاة، وكاتب الخلافة، وحاجب الدولة الزيانية، وثقتها، أبي سعيد عثمان بن عامر، له وجاهة في بلده، وظهور لمكان أبيه من الخلافة، ولطلبه، فإنه كان نبيلا فصيحاً، خطيباً مفلقاً بليغاً، فيه طلاقة، وإقدام وجسارة على أمور تحذر، فرغب من الشيخ أن يتوجه في رسالة ليصلح بين السلطان، أبي عثمان ابن يغمراسن[521]، والسلطان أبي يعقوب، وهي الرسالة الثانية[522]، فرغب الفقيه

(519) لم أقف على ترجمته.

(520) أ: سالوه.

(521) هو السلطان أبو سعيد بن يحيى يغمراسن بن زيان. بويع أوائل ذي الحجة متم سنة 681 هـ وتوفي في ذي القعدة 703 هـ (**بغية الرواد**، 208-210 ؛ **نظم الدر والعقيان**، 121، 322.

(522) لعلها السفارة التي يشير إليها ابن مرزوق في **المسند**، ص 121، 322.

أبو[523] سعيد بن عامر، في أن يتوجه ولده شريكاً له في الرسالة، وهو من تلامذة الشيخ، عليه قرأ، وبه انتفع. فأسعفه السلطان بذلك، فقال لي ابن القطان : لما عرف بذلك الشيخ، قال : ما أغناه عن هذه الوجهة، وأغنانا عنه. قال : فسافر صحبة الشيخ، فلما بلغوا إلى بلاد المغرب، وعرف الناس مجيء الشيخ، تلقوه بما يتلقى به أمثاله، ولم يشعر أحد بمكان الخطيب، فأنف من ذلك، وكثر منه القول في جهته، حتى قابله بسوء أدب، وربما تعدى إلى الشتم، فرفع الشيخ بصره، وقال : اللهم عامله واجعله عبرة، وافضحه. فلما وصلوا إلى مدينة فاس المحروسة، وقصوا حديثهم، طلب الخطيب من السلطان أن يخلو به، فخلا به، وفاوضه في حديث، وأطلعه على أسرار، وتمادى في حديثه، إلى أن وقع في سلطانه بقبيح من القول، وكان السلطان، [أبو سعيد عثمان الزياني[524]]، قد أهدى للسلطان أبي يعقوب، رومية وسيمة، وأجرى لها رزقاً[525] يبعثه لها في كل حين، على أن تعرِّفه بالأخبار، وكانت واقفة خلف الحجاب، فكتبت إليه بالمجلس على التفصيل، فعرفته بإمارات لا يعرفها إلا أبوه، وكان أبوه من خيار الناس، فأدركته بليّة، فقتلا بعد وصوله إلى تلمسان، قتلا شنيعاً، وانتهبت أموالهما، وسبي من لهما من الأهل، إلا بنت الشيخ الصالح، أبي العباس ابن منصور بن صاحب الصلاة، المتقدم ذكره. وأشار في قوله : "وافضحه"، لقضية هي كانت سبب هلاكه؛ وذلك أن الخطيب، أبا زيد بن أبي العيش[526]، استحلف ولد عثمان، وحرص أبو عبد الله محمد بن محمد بن عامر[527]، على أن ينوب عنه في جامع تلمسان العليا، حرصاً على صلاته بالسلطان، فلم يجبه لذلك، فتعرض لعثمان المذكور، بقبيح من القول، وأشاعه في الناس، فلم يجد[528] لعلم الناس بحاله، واعتقادهم في سلفه. قالوا : فلما لم يجد ذلك شيئاً، وخطبه عثمان، اشتد أخوه فيه، وكان قد وقع واقع شنيع، لم يعهد الناس مثله، وذلك أن يوم الجمعة التي خطب فيها عثمان، أصبح

(523) أ : ابن.
(524) في ب : أبو سعيد المريني.
525 – ب : ورقا.
(526) أ : العباس.
(527) لعله محمد بن عامر الولهاصي، أبو عبد الله، حاجب السلطان أبي سعيد بن يغمراسن بن زيان، والمقرب إليه. (بغية الرواد، 208).
(528) في النسختين : يعد.

الجامع الأعظم ملوثا جميعه : حُصره وجدرانه[529] والمحراب والمنبر وال
الذي فوق المحراب، إلى السقف بالعذرة، حتى لم يبق في المسجد ال
والعياذ بالله، موضعاً إلا وقد تلوث، ففزع الناس إلى الجامع بالماء وبال
فأكثروا فيه التبخير[530] بأنواع البخور. وحدثني غير واحد أن النصارى
يستبقون إلى الجامع بالعود والعنبر وأنواع الطيب، واليهود كذلك. ولما حص
العذرة في نقوش الجبس، وتعذر غسله، أعيد عليه التجصيص، والغسل بالج
فهو كذلك إلى الآن. فكانت القصة تنسب لابن عامر، ولا يتجاسر أحد
ذكره. فلما نزل به ما نزل، شهد عليه بذلك من عاينه وعلم بذلك. فالله سائل
وهو العليم بحقائق الأمور، لا إله غيره. وذكرت هذه القصة لغرابتها.

وحدثني الشيخ الثقة، أبو محمد الشريشي، رحمة الله عليه، قال : حدثني
الشراط[531]، وكان من خواص الشيخ، رضي الله عنه، أنه دخل عليه في مر
الذي توفي منه، قال : فقال له : إني أشم رائحة السفرجل، قال : فقلت له
سيدي ! وأين السفرجل اليوم، وليس هذا وقته؟ قال : فتبسم وأطرق قليلا، قال
فخرجت ثم عدت ولم يخرج. قال، فقال لي : هذا السفرجل. قال : فالتف
فرأيت حداه سفرجلا لم أر مثله قط في الدنيا. ثم قال لي : هذه روائح[532] الج
تعلى، فمات من يومه ذلك.

وحدثني ابن القطان، أن بعض الطلبة ورد على الشيخ برسم القراءة عليه، وكان
صاحب عافية، وأوصل ذهباً برسم أن ينفقه في طلب العلم، وكان ذهبا كثيراً
جعله في ثوب على وسطه، فاحتاج إلى الغسل، فدخل إلى مطهرة ليتطهر فيها
وجعل الثوب على خشبة تجعل عليها الثياب مع ثيابه الذي كان لبسه؛ فلما فرغ
لبس ثيابه، وترك الثوب المذكور بالنفقة مربوطة فيه، وهو يظنه في بيته، فمكث
ثلاثة أيام، وحينئذ تفقده، فلم يجده بالبيت، فظن أنه قد سرق له. فجاء إلى الشيخ،
وقد كاد عقله يتلف، فأخبر الشيخ بالقصة، وقال له : لا بأس عليك. اذهب إلى

(529) أ : جداراته.
(530) ب : التجيير.
(531) أحمد ابن الشراط.
(532) أ : رائحة.

الموضع الذي تطهرت فيه، فها هو في موضعه لم ينقص منه شيء. فعجب الحاضرون، وكان صاحبه قد ذهل عن الموضع، حتى أخبره به، فذهب ومعه جماعة من الناس إلى المطهرة، فوجد الثوب على حاله، وجاء به إلى الشيخ، وتصدق منه بقدر صالح، نفع الله بالجميع.

فصل في حاله في آخر عمره، رضي الله عنه.

كان، رحمه الله، في آخر العمر، قد ترك التدريس والفتوى، وأجلس أخاه، أبا الحسن في موضعه، وكان يجلس إلى جانبه، ويحضر تدريسه. وعكف على كتب التصوف، فكان يقرأ مقامات الهروي، ورسالة أبي القاسم القشيري؛ ثم ترك الإقراء جملة، واشتغل بنفسه.

حدثني والدي، رحمه الله، قال : كنت أدخل عليه، فأجده في مرقعة بين كتبه، لا يشتغل بشيء عن المطالعة والقيام. وكان نحيفاً، وأنحله في أخريته التجرد للعبادة، وقالت والدتي، رحمها الله، فيما حدثت عنها : أقام قبل موته نحو سنة لا ينتفع به أهله، بل شأنه البكاء والحضور، والتخلي عن شوائب دار الغرور. وكان قد لقي أئمة.

فصل في مشايخه الذين أخذ عنهم طريق القوم
رضي الله عنهم

حدثني ابن القطان، رحمه الله تعالى، أن شيخه كان سيدي فلان، أنسيت إسمه، وكان من كبار الأولياء قدراً، فعنه أخذ أولاً، وبه انتفع. وحدث عنه أيضاً، أنه حضر موته حين قضى، قال لأصحابه : اقرأوا لي سورة يونس، قال : فقرأ الفقراء، وكنت من جملتهم، وهو ملقىً بالأرض، يقرأ معنا، فلما انتهينا إلى قوله، عز وجل، ﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ الله لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنونَ، الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ لَهُمُ البُشْرَى فِي الحَيَاةِ الدُّنْيا﴾(533)، صاح، وقال : نعم. لهم البشرى في الحياة الدنيا، لهم البشرى، لهم البشرى، وارتفعت به السجادة حتى سامت رؤوسنا، ونحن نقرأ، ثم عادت به إلى الأرض، فمات رحمه الله عز وجل.

---

(33) سورة يونس، آية 63-64.

ومن أصحابه وعدّه في مشايخه، الشيخ الصالح، واضح[534]، الكبير القد
الذي كان بنواحي شلف، وقبره ووطنه وخلفه معروف بتلك البلاد إلى اليوم،
الله تعالى به.

حدثني غير واحد من شيوخنا، عن سيدي أبي إسحاق، أنه قال : دخلت يو
عليه، وكان يوماً شديد البرد، وعلي ثياب تقيني البرد، فدخل رجل، بره الش
وأكرمه، وكان من الأولياء، وعليه ثوب خلق، لا يقي شيئاً، قال : فقلت في نفس
عليّ جبة زائدة يمكنني الاستغناء عنها، ولا يؤذيني البرد، ثم ترددت في ه
الخاطر. قال : فقال لي سيدي واضح، كيف تقولون في التردد في الخاطر الأول
التردد في الخاطر الأول بخل. فقال لي، والثوب المستعار يخلع[535] يا سيد
ويقفه التردد في الاستغفار، فجرد الثوب، وكساه إياه. وهذا الخبر مستفيض، إ
أن العبارات اختلفت في حكايته، مع اتفاق الجميع على معناها.

وأخص الناس به من المشايخ : بلال الحبشي[536]، خادم سيدي الشيخ، أبي
مدين، رضي الله عنه. فعنه أخذ طريق سيدي أبي مدين، رضي الله عنه.

ومن مشايخه : الشيخ أبو عبد الله ابن يعقوب[537].

ولقي في البلاد أعلام. وبالديار المصرية والشام، من أصحاب الشيخ، الواصل
العارف بالله، الوارث، القطب، أبي الحسن الشاذلي[538]، رضي الله عنه. قال لي

(534) هو واضح بن عاصم بن سليمان المكناسي، أبو مطهر. كان حيا في أواسط المائة السابعة من الهجرة. من الأولياء المعروفين بالزهد والإيثار. كان أمراء الوقت وجباة الأموال يهابونه ويحترمون أصحابه، ويخشون تغير خاطره عليهم. أشار على يغمراسن بن زيان بنقل ولاية العهد من ابنه عمر وإسنادها إلى ابنه عثمان، وامتثل لذلك. (ابن صعد، **النجم الثاقب**، ج 8، مخطوط الخزانة الداودية، رقم 53 ص ع ن، ورقة 101-102).

(535) أ : يخلق.

(536) بلال بن عبد الله الحبشي، الشيخ العالم القطب. ولد سنة 559 هـ وخدم الشيخ أبي مدين نحوا من خمسة عشر عاما، إلى أن توفي في عام 590 هـ (**البستان**، 71 ؛ **نفح الطيب**، 242/5).

(537) لم أقف على ترجمته.

(538) علي بن عبد الله بن عبد الجبار **الشاذلي، أبو الحسن**. أصله من بلاد غمارة بالريف المغربي، وبها ولد سنة 591 هـ، حج وهو صبي ودخل مدينة تونس وجال في مدن العراق، ولقي رجاله ومتصوفته. وكان دائم السؤال عن القطب، يبغي لقاءه والاجتماع به، فقال له أحد من لقيه من الصلحاء : "تطلب القطب بالعراق وهو ببلادك. ارجع إلى بلادك تجده" فرجع إلى بلاده. =

الشيخ أبو العباس ابن القطان : سأل سائل يوما، فقال له : يا سيدي ! هلا أخذنا[539] في الطريق ؟ فقال له : يا بني! نبت عليه العوْسج منذ سنين، وكبر فيه القطاع.

قال، وسألته ذات يوم عن مقالات تضمنها كلام القوم في الرسالة، فقال لي : يا أبا العباس ! أولئك يجب التسليم لهم، ولا يقتدى بهم.

وسألته يوماً عن أصول الطريق، فقال : أصلح لقمتك، وامسك لسانك، وحسن ظنك، واستعمل السنة في جميع تصرفك، فإنه يتضح لك نور الهدى. وكان يحرض على مقامات الهروي، ورسالة القشيري، والإحياء، وكتاب الهداية.

فصل في ذكر من أخذ عنه من المشايخ في رحلاته، رحمه الله تعالى

أخذ ببجاية عن جماعة من أصحابه معاصريه، كالشيخ أبي فارس عبد العزيز بن كحيلا[540]، وشيخنا أبي علي ناصر الدين[541]. حضر مجلسه، وقرأت أنا عليه، وكان بين التاريخين ما يزيد على خمسين عاماً، وقرأ على جماعة بتونس.

= وكان لقاؤه بأستاذه ومربيه عبد السلام بن مشيش. وبعد تشبعه بمبادىء شيخه أمره هذا الأخير بالانتقال إلى إفريقية وسكنى بلدة قرب مدينة تونس تدعى "شاذلة". لكنه استقر نهائيا بالإسكندرية. تفرعت عن طريقته الشاذلية نحو خمس عشر طريقة أشهرها الطريقة الجزولية بالمغرب والوفائية بمصر. توفي أبو الحسن الشاذلي سنة 656 هـ بصحراء عيذاب بقرية حكيثرة من صعيد مصر وهو في طريقه إلى الحج. (د. جعفر ابن الحاج السلمي، " **ترجمة أبي الحسن الشاذلي في كتاب سبك المقال لفك العقال**"، مجلة كلية الآداب تطوان، ع. 5 س. 1991، ص 125-141 ؛ ابن الطواح، **سبك المقال، لفك العقال**، تحقيق محمد مسعود جبران، بيروت، 1995 ص 76-82 ؛ روبار برنشفيك، **تاريخ إفريقية في العهد الحفصي** : 337/2 ؛ عبد الحليم محمود، **أبو الحسن الشاذلي**، القاهرة، 1967 ؛ محمد نجيب الراهم، **أبو الحسن الشاذلي : سيرته، مقامه وزواره**، زغوان، تونس، 1987).

(539) أ : أخذت.

(540) أ : كجيلا. وهو أبو فارس (أو أبو محمد) عبد العزيز بن كحيلة (أو كحيلا) البجائي، فقيه محدث من القضاة، شيخ أحمد الغبريني. روى عنه محمد بن غريون البجائي وغيره، توفي سنة 658 هـ (**درة الحجال**، 117/3 ؛ **عنوان الدراية**، 139 هامش 2، 287).

(541) أبو علي منصور بن أحمد بن عبد الحق المشذالي الزواوي (ت. سنة 731 هـ). الإمام الفذ والعالم المتفنن الحافظ المجتهد النوازلي المشاور. له رحلة إلى المشرق. له مشاركة في علم المنطق وعلم العربية. من أهل الشورى والفتيا، وله شرح على رسالة ابن أبي زيد لم يستكمله. انظر : **عنوان الدراية**، ص 229-230 ؛ **نيل الابتهاج**، ص 609 (نقلا عن رحلة التجيبي ورحلة العبدري) ؛ **نفح الطيب**، 5/ 359 ؛ **ألف سنة من الوفيات**، 77، 185 ؛ **شجرة النور**، 217-218).

وفي القاهرة المحروسة، على الشيخ شمس الدين الأصبهاني(542)، لازمه عليه المحصول، وكتبا كثيرة في الأصلين والمنطق والجدل؛ وعلى الشيخ شه الدين القرافي(543)، وعلى سيف الدين حنفي(544).

حدثني شيخنا أبو حيان، رحمه الله، أنه حضر مجلس سيف الدين حن الإرشاد(545) يقرأ عليه، حتى ختم، والشيخ أبو إسحاق لم يتكلم بكلمة، فأع إقراءه، فأول ما تحدث سيف الدين على مسلك التعليل، وقرر كلام المصنف. له الشيخ أبو إسحاق، رضي الله عنه : تقدم لكم في هذا الموضع تقريرغير ه فطلب له تقريره، فقرره له، ثم كذلك في المجلس الثاني، فسأله الشيخ سيف الد عن استحضاره لذلك، فأحضر له تقييداً على كتاب الإرشاد، نبيلا، فأمر الش بقراءته عليه، فكان يقرأ عليه، حتى ختم، واستحسنه جميع الحاضرين. ف الشرح الموجود الآن بأيدي الناس، ومن الناس من ينسبه لسيف الدين. وه قصته، رحمة الله عليهما(546)، وقد قدمت أنه شرح التلقين، وشرح الحاصل، و مبيضة عندي، وتعرفت(547) الآن أنه تفرقت أوراقه، وتبددت كرارسه، والأمر الله، عز وجل.

(542) شمس الدين الأصبهاني : محمود بن عبد الرحمان (أبي القاسم) بن أحمد بن محمد أبو الثنا شمس الدين الأصفهاني أو الأصبهاني، مفسر كان عالما بالعقليات ولد سنة 674 هـ/ 276 بأصبهان وتعلم بها، رحل إلى دمشق ثم انتقل إلى القاهرة مات بالطاعون في القاهرة سنة 9 هـ/ 1349م من كتبه : " التفسير"، "تشييد القواعد". (الزركلي، **الأعلام** 176/7).

(543) أحمد بن ادريس بن عبد الرحمان، أبو العباس شهاب الدين القرافي. أصله من صنهاجة، نسب إلى القرافة وهي المحلة المجاورة لقبر الإمام الشافعي بالقاهرة. فقيه مالكي مصري المو والمنشأ والوفاة، توفي سنة 684 هـ/1258م له كتاب "الفروق" في القواعد الفقهية، و"الذخيرة" ف الفقه وشرح تنقيح الفصول، والإحكام في تمييز الفتاوى من الأحكام" (كحالة، **معجم المؤلفي** 158/1 ؛ **الديباج المذهب**، 236/1-239 ؛ **شجرة النور**، 188).

(544) لم أقف على ترجمته.

(545) يقصد كتاب "الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد في أصول الدين" لعبد الملك بن ع الله بن يوسف الجويني النيسابوري، الشافعي الأشعري، الملقب بإمام الحرمين، الفق الشافعي الشهير المتوفى سنة 478 هـ (**معجم المؤلفين**، 184/6).

(546) أورد ابن مريم هذه القصة دون الإشارة إلى مصدرها. (**البستان**، 67-68).

(547) ب : تعرف.

فصل في سبب رحلته عن تلمسان
رضي الله عنه وأرضاه.

نزلت نازلة كانت سبب رحلته، وهي أن السلطان، صاحب تلمسان، جرى بين أولاده شنئان وحرب، أفضى إلى قتل أحد الأولاد للآخر، فحلف السلطان بالأيمان اللازمة أن لا يساكنهم. فلما ذهب عنه الغيظ، ندم على هذه اليمين، فاستفتى الفقهاء وأحضرهم أجمعين، فكل عبر عن ما عنده، وراعى الغرض ؛ فقال للشيخ : تكلم، فقال له : يا سلطان ! أعزكم الله تعالى بعز طاعته، وجعلكم من حزب الحق وجماعته، منذ كذا وكذا لي عندكم من السنين، وقد تكررت[548] الفتوى في هذا اليمين غير ما مرة، بما عندي، وأن مذهبي في هذا مذهب الجماعة وكبار علماء هذه الأمة : فقال له بعض من حضر من الفقهاء : الخلاف معروف ولك مندوحة في أن تنظر للسلطان في هذا اليمين مخرجاً يجمع شمله بأولاده. فقال له : لا يراني الله أفتي في دينه بالغرض. فانفصل المجلس، ثم أعاد السلطان الحديث مع من حضر من الفقهاء دونه، فقال بعضهم : قد ورد على هذه البلدة الفقيه المحدث، أبو زيد عبد الرحمان بن عتيق اليلولي[549]، وسمعوا أنه ورد من البلاد، وأنه قد حصل علوما واستفاد، وكاد يبلغ درجة الاجتهاد، فأُحضِر، فلم يكن عنده كبير علم، إلا أنه حفظ أحاديث ورواها ببغداد غير مجردة[550] ولا محصلة، فأفتى السلطان بغرضه، فقال له : حتى يسمع فلان حديثك، ويوافق عليه. فصنف هذا الفقيه اليلولي في المسألة تصنيفاً خارجاً عن الغرض، ليس بينه وبين المسألة مناسبة، ومحصوله أن هذه النازلة لم يحفظ فيها عن النبي، صلى الله عليه وسلم، ولا عن الخلفاء الأربعة، ولا عن أحد من الأعلام الصحابة[551]، ولا عن كثير من التابعين وفقهاء الأمصار شيئاً، وأن الناس اختلفوا، فللمفتي في مذهب إمامه أن يختار [أحد أقوال أصحابه][552]. فعرض على الشيخ فقال لهم : قد سمع ما عندي ولا أدين بقوله، فركن السلطان لقوله، فاشتد وجد الأولاد والخدام عليه، وأساءوا القول فيه، وقالوا : يخرج من بلادنا. فبلغه القول، فجهز حركته وخرج

---

(548) أ : نزرت.
(549) لم أقف على ترجمته.
(550) ب : مجودة.
(551) في أ : أصحابه.
(552) في أ : أحد الأقوال.

هو وأخوه، فبلغ السلطان الخبر، فركب لاستعطافه، فتمادى على السفر، وامتنع من الإقامة، فأقام في هذه الوجهة نحوا[553] من الأربعة أعوام، وعاد لتلمسان رضي الله عنه.

فصل

وخلف من الأولاد ثلاثة : خالي، الفقيه العدل أبا عبد الله؛ وكان خيارا ساذجاً[554]، ثقة، عدلاً، توفي في الطاعون. وخلف الفقيه الخير أبا إسحاق إبراهيم، وهو الآن مستوطن بفاس المحروسة ؛ وكانت أم خالي من الصالحات، وهي أم الفتح المتقدمة الذكر؛ سألت الله أن تموت في بيت المقدس ليلة سبع وعشرين من رمضان، فقضى الله تعالى حاجتها، فحجت وزارت، ثم توجهت نحو بيت المقدس، فمنَّ الله عليها بما طلبت منه سنة أربع وعشرين وسبعمائة، وهي التي ربتني، فإن أمي، رحمها الله تعالى، توفيت وخلفتني إثر الفطام، فربتني إلى أن حججت صحبتها في العام المذكور، لا أعرف غيرها في التربية.

فصل في مهابته وتوقير العظام من الملوك له، رحمة الله عليه، ونفعنا به بمنه.

حدثني شيخنا الفقيه الفاضل الكاتب، صاحب العلامة وكاتب الخلافة، المحدث الراوية، القدوة الشهير، أبو محمد عبد المهيمن الحضرمي، ابن الفقيه الإمام القاضي الأعدل، المرحوم أبي عبد الله الحضرمي[555]، قال لي : ما رأى الناس أحسن طريقة[556]، ولا أعظم مهابة، ولا أشد وقارا، من جدك أبي إسحاق. وكان الناس يضربون بعلمه ووقاره المثل. لما قدم المغرب، كان علماء المغرب يتلقونه، فيتلقاهم بالبشر والتواضع، وإذا لقيه أحد من أبناء الدنيا، لا يزيده على رد السلام كلمة، ولا يعرج عليه.

---

(553) في النسختين : نحو.
(554) في أ : ساجدا.
(555) سبقت ترجمته.
(556) أ : طريقة من.

وحدثني الفقيه الفاضل الحسيب، صاحب العلامة، أيضا، وصاحب الأشغال، الشهير، أبو الفضل، ابن الفقيه، الصدر الأوحد، فخر المغرب، الشهير المرحوم، أبي محمد عبد الله بن أبي مدين[557]، رحمة الله تعالى عليه، عن أبيه أبي محمد، قال : سمعت السلطان أبا يعقوب المريني، رحمة الله عليه، يقول : ما صافحني أحد قط إلا حسست بارتعاش يده، لهيبة السلطان، إلا الفقيه أبو إسحاق التنسي؛ عندما صافحني، أدركتني منه مهابة، فكانت يدي ترتعش من هيبته، والفقيه الصالح، أبو عبد الله ابن تيجلات[558]. وحدثني بهذه الحكاية جماعة.

وحدثني أيضا، هو وغيره، أن السلطان [أبي] يعقوب، لما نزل تازة، وكانت سنة اثنين وتسعين[559]، وتوجه الشيخ له، فعندما دخل عليه، وفاوضه في شأن الصلح، ظهرت في السلطان غيرة، وقابله بما أوجب قيام الشيخ عن المجلس، وهو متغير، فرفع بصره إلى السماء، فأصاب السلطان، رحمه الله، المرض الذي كان يعتاده بعد، إلى أن توفي، رحمة الله عليه. وكان قد استعطفه، وطلب منه الدعاء، فخفف حاله، وأدركه بنفسه، وتبعه إلى أن فارقه مقضي الحاجة. وبعد رجوع الشيخ من هذه الوجهة، مرض مرضه الذي توفي منه، ودفن بالعُباد. وقبره الآن معروف، مكتوب عليه تاريخه، نفع الله تعالى به.

---

(557) أبو الفضل محمد بن عبد الله بن أبي مدين العثماني كاتب السلطان أبي الحسن، ويقول ابن خلدون أنه كان "صاحب ديوان الخراج" و"كاتب الجباية والعساكر" خلف عبد المهيمن الحضرمي في منصب صاحب العلامة، وكان عضوا في السفارة التي بعثها أبو الحسن لمصر سنة 746 هـ/1346م كما بعثه في سفارة إلى تونس لخطبة ابنة أبي يحيى الحفصي التي تزوجها السلطان أبو الحسن. كان حيا سنة 763 هـ/1361-1362 م (**تاريخ الدولتين**، 160 ؛ **درة الحجال** ؛ **روضة النسرين** ؛ **العبر** ؛ **المسند**، 118-119، 190، 364).

(558) في النسختين : تيحلات. وهو محمد بن محمد بن عبد الله بن تيجلات الهزميري المراكشي الأغماتي، مؤلف كتاب "**إثمد العينين ونزهة الناظرين في مناقب الأخوين الهزميريين**"... كان حيا بعد سنة 720 هـ وتوفي بأغمات (**أنس الفقير**، 69 ؛ الإعلام، 291/8).

(559) يؤرخ ابن خلدون نزول السلطان أبي يعقوب يوسف بتازة بسنة 695 هـ بينما يؤرخه ابن أبي زرع بسنة 696 هـ (**العبر**، 7، ص 260 ؛ **القرطاس**، 385).

فصل

وأما أخوه الفقيه العلامة، المفتي القدوة، أبو الحسن[560]، شقيقه، فتربى في حجر أخيه، وعليه قرأ، إلا أنه كان يتسبب في التجارة، فأقام على هذا الحال مدة ورحل تاجراً إلى بلاد إفريقية. ثم إنه تجرد للقراءة، ورحل إلى بجاية، فقرأ بها على من أدرك فيها من العلماء، ولازم ابن كحيلة[561]، وشيخنا أبا علي ناصر الدين المشدالي[562]، والشيخ الإمام، أبا محمد، وأبا يوسف[563]، الزواويين، بمدينة تونس، وغيرهما. وعاد إلى أخيه حين استوطن تلمسان، فلم يزل في صحبته بتلمسان، وفي رحلته إلى بلاد المشرق، وأقام بعد وفاة أخيه، وتوجه في الرسالة للمغرب، فاعتنى به السلطان أبو يعقوب، وأنزله منزلة أخيه، ثم عاد لتلمسان، فلما نزل السلطان أبو يعقوب على تلمسان، النزول الذي حاصرها فيه، خرج له رسولا، فاعتنى به، وفاوضه في المقام عنده، إن أعادوه، لأنه ظهر له من سلطان تلمسان ما دلّه أنه اتهمه بإيثار جهة السلطان أبي يعقوب، فطلبوا منه العود، فقال لهم : أنتم بعدتم عن موافقة أغراض هذا السلطان، وظهر لي منكم اتهام بجهتي، فإن حملتم عليّ العودة إليه، أقيم هناك. فظنوا هذا منه، فلم يزالوا به إلى أن خرج، فلما استقر عند السلطان أبي يعقوب، بناء على المقام، لما ظهر له من حال القوم، وكان ذلك في شهر صفر، فبحث أهل تلمسان عنه، فأجابهم السلطان بأنه حتى يحضر المولد عنده، وهذا أول ملك قام بالمغرب بإقامة ليلة المولد

---

(560) في ب : أبو إسحاق.

(561) وهو أبو فارس (أو أبو محمد) عبد العزيز بن كحيلة البجائي، فقيه محدث من القضاة، شيخ أحمد الغبريني. روى عنه محمد بن غريون البجائي وغيره، توفي سنة 658 هـ (**عنوان الدراية**، 139 هامش 2، 287 ؛ **ألف سنة من الوفيات**، 74).

(562) أبو علي منصور بن أحمد بن عبد الحق المشدالي الزواوي (ت. سنة 731 هـ). الإمام الفذ والعالم المتفنن الحافظ المجتهد النوازلي المشاور. له رحلة إلى المشرق. له مشاركة في علم المنطق وعلم العربية. من أهل الشورى والفتيا، وله شرح على رسالة ابن أبي زيد لم يستكمله. ورد ذكره في كتاب "**تيسير المرام في شرح عمدة الأحكام**" لابن مرزوق الجد، مخطوط الخزانة العامة بالرباط رقم 38 د ص 83 انظر : **عنوان الدراية**، ص 229 -230 ؛ **نيل الابتهاج**، ص 377 ؛ **توشيح الديباج**، 271 ؛ **برنامج ابن جابر الواديآشي**، 143 ؛ **نفح الطيب**، 359/5؛ **شجرة النور**، 217-218 وعن أفراد عائلة المشداليين، انظر : رابح ونار: "**عبقرية المشداليين العلمية في بجاية على عهدها الإسلامي الزاهر**"، مجلة الأصالة، (الجزائر) العدد 19، 1974، ص 314-316.

(563) أ : يونس. وقد ورد اسم الفقيه أبي يوسف الزواوي عرضا في **عنوان الدراية**، 137.

الشريف[564]؛ وكان العزفي[565]، رضي الله عنه، قد أقامه بسبتة، وبه وقع الاقتداء[566]. فلما انقضى سابع المولد، بعث الفقيه كتاباً لتلمسان، يعرفهم أنه عزم على المقام، وكان قد ترك بناته وخالي وأمي وأختها، وجميع كتبه وأسبابه بتلمسان، فتمسك أهل تلمسان بجميع ذلك، إلى أن ظفر السلطان أبو يعقوب، بالعباس ابن يغمراسن، وهو أخو السلطان أبي سعيد، ففدى[567] به ناس التنسي وأسبابه، وخرجوا إليه، وحظي هذا الفقيه عند السلطان حظوة لم ينلها فقيه قط عند ملك.

وكان الفقيه أبو محمد بن أبي مدين من يقوم لمحبته، ويتلقاه، ويسايره إلى منزله، فيقال له في ذلك، فيقول : هذا فقيه.

وكان السلطان أبو يعقوب يقوم له إذا جاء حتى حلف عليه أن لا يفعل، وكان جليسه ومشاركه في الخاص من أمره.

حدثني السلطان الكبير، خاتمة الملوك بالمغرب، أبو الحسن المريني، رحمه الله، يوما وقد شكرته على ما والاني، فقال : لو رأيت مكان جدك، التنسي[568]، عند أبي[569] يوسف، يعني عمه، لرأيت عجبا مبينا.

---

(564) انظر تفاصيل هذه الظاهرة السوسيو- دينية عند محمد المنوني، **المولد النبوي الشريف في المغرب المريني**، ضمن كتابه **ورقات عن حضارة المرينيين**، ص 517-540.

(565) المقصود هو قاضي سبتة أبو العباس أحمد المتوفى سنة 633 هـ1236 /م الذي ألف كتاب "الدر المنظم في مولد النبي المعظم" يهيب فيه بلدييه بضرورة الاعتناء بمولد الرسول والاحتفال به عوض الاقتداء بالمسيحيين في إقامة النيروز والمهرجان ويناير. وقد اكمل ابنه أبو القاسم هذا التأليف وحينما انتصب أميرا على سبتة عام 648 هـ/1250 م عمل على تحقيق دعوة والده، وسن الاحتفال بعيد المولد بسبتة، وبذلك كان السباق في التاريخ المغربي للاحتفال بهذا العهد، قبل ترسيمه من قبل السلاطين المرينيين (انظر التفاصيل في : محمد الشريف، **سبتة الإسلامية : دراسات في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي**، منشورات جمعية تطاون أسمير، 1995).

(566) يقول ابن مرزوق بخصوص عادة السلطان ابي الحسن في الاحتفال بليلة المولد النبوي: "هذه مكرمة خص الله بها هذه المملكة الشامخة والسلطنة المرينية... أثار الفقيه العزفي، رحمه الله صيدها، فصادوه، ونبه على الخير فمضوا عليه واعتادوه". (المسند، ص 152).

(567) أ : ففادني. ب: ففادى.

(568) أ : التونسي.

(569) في النسختين : أبا.

حدثني الفقيه الإمام شيخنا، أبو عبد الله الآبلي[570]، رحمه الله عز وجل، قال لي : كل فقيه يخالط السلطان ولا يكون مثل التنسي[571]، فأقل الخدمة المخزنية أولى به، ومن رأى التنسي[572]، عرف قدر العلم، وقدر العلماء عند الملوك.

وحدثني أبي، وعمي، رحمهما الله، قالا : رأينا السلطان في اليوم الذي توفي فيه التنسي[573]، وقد جاء إلى قبره، ولم يحفظ له قط أنه شاهد جنازة، أو وقف على مقبرة[574]، فجلس على شفير القبر، وبسط له برنسا ليجلس عليه، فرمى به، فلما جيء بالجنازة، بكى، وقال : لقد كنت نِعم الصاحب، لقد كنت نعم الحبيب، جمع الله بيني وبينك في الجنة، ولقد كنت نعم الولي، نفع الله بك[575]. وكان مع هذه الحكاية شديد التواضع، ما ركب قط من دار السلطان إلى داره، بل يمشي على قدميه، وفي يده عكاز يتوكأ عليه في أيام الطين، ويرفع حتى يختضب بالطين، فإذا وصل إلى منزله، أو إلى دار السلطان، غسل الطين عن رجله، مع اتساع حاله في الدنيا. وكان موسعا عليه، لأنه كان يتجر، وله مقارضون، ومع هذه المكانة التي نالها، لم يقبل من السلطان قط، قليلا ولا كثيراً، ولا من غيره.

وتوجه رسولاً إلى تونس عن السلطان أبي يعقوب، رحمه الله، إلى الأمير أبي

---

(570) أبو عبد الله محمد بن علي الآبلي. أحد أساتذة ابن خلدون وابن الخطيب أصله أندلسي من مدينة آبلة في الشمال الغربي لمدينة مدريد ثم انتقلت عائلته إلى تلمسان. وهناك عكف على تحصيل العلم وتدريسه مخالفا في ذلك اتجاه أبيه وأعمامه الذين احترفوا الجندية . "لزم العالم الشهير أبا العباس بن البناء الشهير الذكر، فحصّل عنه سائر العلوم العقلية وورث مقامه فيهاوأرفعه حسب ابن خلدون، ووصفه ابن مرزوق في المسند بشيخ المغرب في العلوم العقلية وإمام وقته". اندمج في طبقة العلماء بمجلس السلطان أبي الحسن المريني بفاس وظل هناك إلى أن مات في ذي القعدة سنة 757 هـ (انظر : **المسند**، 266، **رحلة ابن خلدون**، 67-68، 79-80 ؛ **بغية الرواد**، 120، **جذوة الاقتباس**، ص 191، 144، المقري، **نفح الطيب**، ج 244/5، **أزهار الرياض**، ج 2، ص 78 **نيل الابتهاج**، ص 245-248، ابن مريم، **البستان**، 214-219، الحفناوي، **تعريف الخلف**، ج 1 ص 89-100.

(571) أ : التونسي.

(572) أ : التونسي.

(573) أ : التونسي.

(574) أ : قبره.

(575) انظر كذلك المقري، **نفح الطيب**، 13/5.

عبد الله، المعروف بأبي عصيدة[576]، فاستعد له موضعاً لنزوله، فامتنع، واكترى لنفسه، وأعطاه عطاء جزيلاً لم يقبله منه، فبعث به الأمير أبو عبد الله، إلى تلمسان، فأمر به السلطان بعد [وفاة الشيخ[577]]، لوالدتي. وجرى له في تونس مع الفقيه أبي عبد الله التلمشاني المستاري، الخطيب، قصة، رأيت عدم ذكرها، فرحم الله الجميع، وغفر لهم.

وكان، رضي الله عنه، أشد الناس مراقبة لله، عز وجل، وتوقير للعلم. سمعت الفقيه، القاضي الخطيب، أبا عبد الله محمد منصور بن هدية يقول : كنا يوما نقرأ على الفقيه أبي[578] الحسن التنسي، فجاء أحد خدام السلطان، فقال له : يا سيدي ! مولانا السلطان يدعوك. فأعرض عنه، وانصرف. فبعد زمن يسير، جاء آخر فقال له : يا سيدي ! السلطان يدعوك. فأعرض عنه، وقال لي وكنت القارىء، أشتغل بقراءتك، وجاء ثالث ورابع، إلى أن بلغ من الارسال سبعة، وهو حاله، فنحن كذلك إذ دخل السلطان أبو سعيد عثمان بن يغمراسن، رحمة الله علينا وعليه، في الجامع؛ فسلم، فرد عليه السلام، وهو جالس، وقال له : اقبل عذرنا يا سلطان، فإنا نقرأ حديث النبي، صلى الله عليه وسلم، ولا يسعنا الإشتغال بغيره . فقال له : حبست الآن دارك التي هنا، فقال له الشيخ : شأنك وإياها. قال : فدخل السلطان يتمشى في الجيار[579] والطين في الدار، وجلس فيها، حتى قضى الشيخ وظيفه، ودخل عليه. وأخباره في مثل هذا عديد متكاثر.

---

(576) الأمير الحفصي : أبو عبد الله محمد بن السلطان محمد الواثق بن السلطان المستنصر بن السلطان أبي زكرياء بن الشيخ أبي محمد عبد الواحد بن الشيخ أبي حفص عمر الهنتاتي. يعرف بأبي عصيدة بويع سنة 694 هـ وتلقب بالمستنصر بالله وتوفي سنة 709 هـ/1309 م. أما لقب أبي عصيدة فهو يرجع حسب الزركشي إلى ظروف ولادة الأمير. فلما قتل الواثق بن المستنصر هو وبنوه عقب حبسهم "فرت إحدى جواريه حاملا منه إلى زاوية الشيخ الولي الصالح أبي محمد المرجاني، فوضعت الولد في بيته، سمّاه الشيخ محمدا وعزّ عليه، وأطعم الفقراء يومئذ عصيدة الحنطة، فلُقب بأبي عصيدة" (الزركشي، **تاريخ الدولتين**، ص 111 ؛ أبو عبد الله محمد الشماع، **الأدلة البينة النورانية في مفاخر الدولة الحفصية**، تحقيق د. الطاهر بن محمد المعموري، الدار العربية للكتاب، 1984، ص 83).

(577) في كلا النسختين، كتبت (كذا) فوق الكلمتين الموضوعتين بين المعقوفين داخل النص.

(578) في النسختين : أبو.

(579) أ : الجباسين.

وخلف بناته، تزوج الفقيه القاضي، أبو زيد عبد الرحمن بن يوسف، بن عبد الرحمان[580] بن زاغ، واحدة، وأخوه الفقيه أبو عمر ميمون أخرى، وكانت هي الكبرى ؛ وابن أخيه، خالي، أبو عبد الله، المتقدم الذكر، أخرى ؛ ووالدي تزوج أخرى، وهي أم أختي، المتقدم ذكرها، تزوجها بعد وفاة والدتي ؛ وتزوج الفقيه أبو العباس أحمد بن القاضي أبي عمران الزرهوني، أخرى؛ وهي اليوم بقيد الحياة، من خيار الصالحات، مستوطنة بفاس المحروسة، أمتع الله بحياتها وبركتها.

وتاريخ وفاته مكتوبا[581] على قبره بتلمسان، حذاء قبر أخيه بالعباد، رحمه الله تعالى، وانجرت لي قرابة كثيرة من جهته، رضي الله عنه.

خاتمة لهذا التعليق، أذكر فيها، إن شاء الله، مولدي وتاريخ رحلتي، واستطاني، وبعض من لقيت من الأولياء، ذكرا جميلا.

كان مولدي، أجمل الله الخاتمة، وحسن العاقبة، في أوائل ذي قعدة سنة إحدى عشر، وقيده بعضهم سنة إثني[582] عشر وسبعمائة[583]، بتلمسان، في دارنا المعروفة لنا بمرسى الطلبة. وحملت بي أمي بمدينة فاس، بدارنا التي بزنقة حجامة[584]. فقرأت كتاب الله على شيخنا، الفقيه الصالح، الولي أبي زيد عبد الرحمان بن يعقوب بن علي، المتقدم الذكر[585]، بمكتبه بسويقة إسماعيل[586] ؛ وكان من خيار الصالحين الفضلاء، أرباب القلوب. وقد ذكرته في برنامجي. وكان أصح خلق الله باطناً، وله كرامات.

---

(580) سماه سابقا : عبد الرحمان بن يوسف بن علي بن زاغ.

(581) ب : مكتوب.

(582) في النسختين : إثنا.

(583) يذكر ابن خلدون أن ابن مرزوق أخبره بأن مولده سنة 710 هـ. ويجعل ابن مريم ولادته آخر سنة 710 هـ (ابن خلدون، **رحلة ابن خلدون**، 94 ؛ **البستان**، 184).

(584) زنقة حجامة : توجد في الزنقة التي تحت باب المدرسة المصباحية في الداخلة في الدرب (ابن عيشون، **الروض العطر الأنفاس**، ص 277).

(585) لم يتقدم ذكر له. ولعله أبو زيد بن عبد الرحمان بن يعقوب بن علي الصنهاجي، المكتب (**أزهار الرياض**، 58/5).

(586) هي إحدى السقايات التي بناها السلطان أبو الحسن المريني بتلمسان (**المسند**، 417).

حضرته يوماً، وقد جاءه ضعيف يشتكي جوعه وجوع عياله، وكانت سنة مجاعة، فأمر من جاء من الفرن بخبز عياله، وأهل داره، فرفع الضعيف جميعه، فخرج ولده يشتكي الجوع، ووقفت الخادم تشتكي جوع أهل الدار، فقال لها : ذهب بخبزكم من هو أشدّ حاجة منكم، وسيأتيكم، إن شاء الله، أكثر وأطيب. فما استتم كلامه إلا ومائدة كبيرة تشتمل على أطعمة مختلفة، بعثها إليها القائد هلال[587].

وكان، رضي الله عنه، لا يمسك شيئا بداره، وكانت داره زاوية للوارد. ودخلت إليه في ليلة اليوم الذي مات فيه، وقال لي : رأيت هذا كله- وأشار إلى بلد منصورة تلمسان[588] ونواحيها- عن قريب يتلف جميعه، وتتغير أشكال ما تراه، لا إله إلا [هو[589]]، ماذا ترى من العجائب؟ وماذا تحتفر من المقابر؟ وأما أنا فراحل. فلما كان من الغد، مررت بمنزله، فدخل إليه ولده الفقيه العدل، أبو يوسف يعقوب، ومضيت أنا على حالي، فلحقني وأخبرني بوفاته، وأنه أكل طعاما، ثم قام واغتسل[590]، وتنفل على سجادة له، واستقبل، فقضى، نفعه الله. وقبره عند قبر أبيه، رحمهما الله عز وجل.

---

(587) **هلال بن عبد الله** (حاجب السلطان أبي تاشفين) : أصله من سبي النصارى القطلونيين، لذا يسمى أحيانا "هلال القطلاني". أهداه السلطان ابن الأحمر إلى عثمان بن يغمراسن وصار إلى السلطان أبي حمو، فأعطاه ولده أبا تاشفين فيما أعطاه من موالي ونشأ معه تربيا، وكان مختصا به بالمداخلة والدالة. ولما ولي أبو تاشفين استوزره وولاه على حجابته. وكان مهيبا فظا غليظا، فقعد مقعد الفصل ببابه وأرهب الناس بسطوته، فاستولى على أمر السلطان. حج سنة 724 هـ ولقي في طريقه بمصر سلطان مالي منسى موسى. ولما عاد من حجه لم يجد مكانه من السلطان، فقبض عليه سنة 729 هـ وأودعه سجنه فلم يزل معتقلا إلى أن هلك من وجع أصابه قبيل فتح تلمسان ومهلك السلطان بأيام (ابن خلدون، **العبر**، 135/7 ؛ **بغية الرواد**، 214-215، 217).

(588) **منصورة تلمسان** : تعرف أيضا بمنصورة فقط، ملكية بظاهر تلمسان، شرع في بنائها السلطان يوسف بن يعقوب بن عبد الحق المريني سنة 702 هـ، كانت من أبهى الحواضر الملكية وأجملها في العصر المريني، وبها كان يستقر ملوك بني مرين ورجال مخزنهم عند مجيئهم إلى تلمسان مسالمين أو محاربين وقد خربها سلاطين تلمسان العبدلواديين الزناتيون تشفيا وانتقاما (**جذوة الاقتباس**، 63).

(589) أ : الله.

(590) أ : استسل.

فقرأت عليه، وعلى الخطيب [أبي محمد عبد الله[591]] بن عبد الوا[حد] المجاصي[592]، وقد تقدم ذكره؛ وعلى الفقيه، الحاج الصالح، أبي عمر ميمون [بن] سعيد السرغيني، من بلاد جناتة؛ والسراغنة يدعون الشرف، وقد رأيت للمؤر[خ] الحافظ ابن سعيد[593]، ما يصحح دعواهم. وكان هذا السيد ميمون، من الأول[ياء] الصالحين، انتفع ببركاته خلائق، وجمع كتاب الله عليه، ما يزيد على نحو م[ن] الستين، وكتب أسماءهم، وأوصى أن يدفن معه ذلك المكتوب، وكان قد قرءا م[نه] على الفقيه الأستاذ أبي عبد الله الشعبي، وعلى الأستاذ أبي مهدي عيسى الجناتي، وكانا من الكبار، وعلى غيرهما.

وقرأتُ كتاب الله، أيضاً، على مولاي والدي. وقد ذكرت في برنامجي من قرأت عليه القراءات وغيرها، وإنما أذكر هنا بعض الأولياء عند ذكر الرحلة والاستيطان.

فرأيت من الأولياء في صغري بتلمسان خلائق، منهم : الفقيه العلامة، الولي المحدث، أبو عبد الله محمد بن علي بن قطرال[594] ؛ وكان من كبار الأئمة المحدثين المشاهير، والإمام أبو عبد الله بن حريث العبدري[595]، وأبو عبد الله القصري[596]، المقرىء الولي؛ والحاج الصالح، أبو عبد الله المصمودي، وكان

(591) في أ : أبي عبد الله.

(592) انظر هامش 176.

(593) هو أبو الحسن بن سعيد العبسي المشهور بابن سعيد المغربي، المؤرخ الأندلسي المعروف، المتوفى بتونس سنة 685 هـ/1286 م، مؤلف (مع بعض أفراد عائلته) كتاب "**المغرب في حلى المغرب**" و"**اختصار القدح المعلى**" و"**الغصون اليانعة**"، و"**بسط الأرض في الطول والعرض**" (أو كتاب الجغرافية)، وغيرها من المؤلفات الأدبية والجغرافية والتاريخية وقد أحال عليه ابن مرزوق في الفصل المخصص لنسب المرينيين من كتاب **المسند**، ص 107.

(594) أبو عبد الله محمد بن علي بن قطرال الأنصاري. من أهل مراكش. كان عالما فاضلا فقيها محدثا زاهدا ورعا. جاور بمكة وبها توفي سنة 710 هـ/1310 م إثر سقوطه من سطح رباط الخوزي. (**الدرر الكامنة**، 202/4 ؛ ابن القاضي، **درة الحجال في أسماء الرجال**، ج 2 ص 207.

(595) انظر الترجمة التي أفردها له عبد الله ابن فرحون المالكي، **نصيحة المشاور وتسلية المجاور**، م. س.، ص 88-89 ؛ **درة الحجال**، 248/2 ؛ وورد ذكره عرضا في؛ **أزهار الرياض**، 59/5.

(596) أبو عبد الله محمد بن غصن القصري الأنصاري، "عالم زمانه بالقراءات" (ترجمته في : ابن فرحون المالكي، **نصيحة المشاور وتسلية المجاور**، م. س. 90-93، ص وورد ذكره كذلك عرضا في **أزهار الرياض**، 59/5 وهو غير الفقيه العالم العارف العابد الزاهد الولي أبو عبد الله بن علي القصري الذي ترجم له الغبريني في **عنوان الدراية**، ص 186.

من أولياء الله الصادقين، توفي في صحراء خليص، منصرفه من الحج، سنة أربعة وعشرين، وغيرهم.

وكانت الرحلة الأولى، سنة أربع وعشرين[597]، في شهر ربيع الأول، في ركب كان المقدم عليه الشيخ أبو زكريا يحيى بن عمر بن جدار العبدلوادي، مستوطن فاس، وكان خيراً ؛ رافقنا فيه من أهل فاس، الفقيه العدل، أبو حاتم محمد بن محمد المغيل. ومن أهل طنجة، الفقيه الشريف، أبو عبد الله الجراوي. ومن أهل تلمسان، الفقيه، أبو عمرو ميمون بن يوسف بن عبد الرحمان بن زاع، وابن يحيى أبو بكر بن عبد الواحد المقري، صهري[598]. ومن أهل مليانة، الفقيه، القاضي الصالح، ابن زكرياء يحيى بن محمد، وميمون الفاروندي[599].

ودخلنا بجاية المحروسة، فلقينا بها من الأولياء خلائق، أبا علي ناصر الدين[600]، وقرأت عليه، وأبو عبد الله بن غيريون[601]، وأبو عبد الله محمد بن عبد الله بن بختي[602] الزواوي[603]، من الفقهاء ؛ والولي أبو إسحاق الأليسي[604]،

(597) هذا التاريخ يصحح كثيرا من التواريخ الأخرى الواردة في بعض المصادر (مثلا : **البستان**، 184؛ **رحلة ابن خلدون**، 94).

(598) لم أعثر على ما يفيد بعلاقة ابن مرزوق بالمقري في هذا العهد. إلا أن المقري يقول، بعد حديثه عن بني مرزوق وأوليتهم في العلم بتلمسان : "لهم على جدنا أحمد ولادة، فإن أم جدي أحمد المذكور، بنت الفقيه العلامة، سيدي محمد بن مرزوق، المعروف بالكفيف" (**أزهار الرياض**، 342/4).

(599) أ : الفاروبري.

(600) أبو علي منصور بن أحمد بن عبد الحق المشدالي الزواوي (ت. سنة 731 هـ). الإمام الفذ والعالم المتفنن الحافظ المجتهد النوازلي المشاور. له رحلة إلى المشرق. له مشاركة في علم المنطق وعلم العربية. من أهل الشورى والفتيا، وله شرح على رسالة ابن أبي زيد لم يستكمله. انظر : **عنوان الدراية**، ص 230/229 ؛ **نيل الابتهاج**، ص 609 (نقلا عن رحلة التجيبي ورحلة العبدري) ؛ **نفح الطيب**، 359/5 ؛ **شجرة النور**، 217-218).

(601) محمد بن محمد بن محمد بن عبد الله بن إبراهيم بن غريون، أبو عبد الله الأنصاري البجائي. عالمها وخطيبها في وقته. تتلمذ عليه جماعة من علماء المغرب الأوسط وإفريقية، ووصفه تلميذه الحضرمي بـ"شيخنا الخطيب الصالح". وقال عنه ابن قنفذ القسنطيني في وفياته : "خطيب قصبة بجاية، المتمتع بالرواية، السالك مسلك الدراية" (**نيل الابتهاج**، 386؛ **ألف سنة من الوفيات**، 77، 185 ؛ **تعريف الخلف**، 512/2).

(602) كذا في النسختين. وفي **نفح الطيب** (ج 395/5) : يللبخت

(603) وصفه ابن مرزوق في برنامجه "**عجالة المستوفز**" بـ "الحافظ فقيه زمانه" (**نفح الطيب**، 395/5).

(604) أ : الألسي.

والولي أبو زكرياء الصفوني؛ ومن الفقهاء أيضا، أبو عبد الله المسفر(605)، وأبو محمد عبد الواحد بن الكاتب(606) ؛ وأبو عبد الله بن ميدمان؛ وأبو عزيز، وأبو موسى بن فرقان(607) ؛ وأبو علي بن حسين(608). وتأخرت وفاة هؤلاء الثلاثة فلقيتهم(609) في مرات، وأبو العباس ابن عمران(610)، كذلك، وأبو موسى عمران المشَدَّالي(611)، وغيرهم من العلماء. وكانت دار علم، وحضرة فقه ودين.

ولقيت بقسنطينة، مع والدي رجلا، لا أعرف الآن اسمه، من الصلحاء. ومن الفقهاء قاضيها، وأشك في أبي عزيز، هل كان في قدمتي الأولى بقسنطينة، أو ببجاية.

ولقيت بتونس، حرسها الله تعالى، من الصلحاء أبو عبد الله الزبيدي(612)، وسيدي أبي(613) الحسن الخطاب، وغيرهم. ومن الفقهاء، قاضيها أبو إسحاق بن

---

(605) أبو عبد الله محمد بن يحيى الباهلي البجائي، عرف بالمسفر. عالمها وفقيهها وقاضيها. توفي سنة 743 هـ/1342 م (**نيل الابتهاج**، 401-402 ؛ **الديباج**، 332 ؛ **البستان**، 227 ؛ **أزهار الرياض**، 69/5 ؛ **نفح الطيب**، 250/5 ؛ **شجرة النور**، 219).

(606) عبد الواحد الكاتب المعروف بأبي دينار، نال مع الأمير المستنصر الحفصي فوق ما ينال (**عنوان الدراية**، 152).

(607) ورد ذكره في **نفح الطيب** (ج 250/5) بصيغة " ابن فرجان"، هو والشيخ أبو عزيز ضمن شيوخ المقري الجد) .وانظر كذلك : **أزهار الرياض**، 70/5).

(608) أبو علي حسين بن حسين، إمام المعقولات بعد ناصر الدين (**نفح الطيب**، 250/5 ؛ **أزهار الرياض**، 69/5).

(609) أ : ولفيتهم.

(610) أبو العباس أحمد بن عمران، خطيب بجاية (**نفح الطيب**، 250/5 ؛ **أزهار الرياض**، 69/5).

(611) أبو موسى عمران بن موسى بن يوسف المشدالي. الحافظ المدرس المفتي بتلمسان.ت 745هـ/1344م / أخذ عنه صهره الناصر المشدالي والإمام المقري. له رسالة في اتخاذ الركاب من خالص الفضة، وفتاوى كثيرة، نقل الكثير منها الونشريسي في معيار. (ابن مرزوق، **المسند**، ص 131، 268 (المشذالي، بالذال)، **بغية الرواد**، 162، 130 ؛ **البستان**، 294 ؛ **نيل الابتهاج**، 350 ؛ **نفح الطيب**، 223/5، 218-224 ؛ **توشيح الديباج**، 160 161 ؛ **شجرة النور**، 220 ؛ **تعريف الخلف برجال السلف**، 78-80 ؛ **ألف سنة من الوفيات**، 196. وانظر : رابح بونار : "**عبقرية المشذاليين العلمية في بجاية على عهدها الإسلامي الزاهر**"، مجلة الأصالة، (الجزائر) العدد 19، 1974، ص 304-316).

(612) محمد بن حسن (أو حسين) بن عبد الله القرشي الزبيدي، أبو عبد الله. العالم الصالح الزاهد النسابة. قال فيه ابن خلدون : "كان كبير تونس لعهده في العلم والفتيا، وانتحال طرق الولاية التي ورثها عن أبيه حسين وعمه حسن الوليين الشهيرين". توفي عام 740 هـ/ 1339 م (ابن مرزوق، **المسند**، 263 ؛ **نيل الابتهاج**، 396 ؛ **البستان**، 156 ؛ **رحلة ابن خلدون**، 61 ؛ ابن بطوطة، الزركشي، **تاريخ الدولتين**، 109 ؛ **نفح الطيب**، 239/5 ؛ **أزهار الرياض**، 54/5).

(613) أ : أبو.

عبد الرفيع[614]، وأبو عبد الله بن الغماد[615]، وأبو علي بن قداح[616]، وجماعة، ذكرت أسماءهم في برنامجي ومروياتي[617].

وبثغر الإسكندرية جماعة، منهم : سيدي داود[618]، وسيدي ياقوت[619]، وسيدي أبو عبد الله الفاسي[620]، وسيدي أبو الحسن العربي، وسيدي أبو عبد الله المرسي، وسيدي أبو زكرياء الزواوي. ومن الفقهاء خلائق، كالعماد الكندي، والفاكهاني[621]،

(614) إبراهيم بن حسن بن عبد الرفيع الربعي التونسي، قاضي القضاة بتونس، يكنى أبا إسحاق. له كتاب "معين الحكام"، وهو كتاب "كثير الفائدة غزير العلم". وله "الرد على ابن حزم" في اعتراضه على مالك وله "اختصار أجوبة القاضي أبي الوليد بن رشد" و"ثبوت الشرف من قبل الأم" وغيرها. توفي سنة 733 هـ/1333 م (**الديباج المذهب**، 271/270/1 ؛ **توشيح الديباج**، 79-80 ؛ الزركشي، **تاريخ الدولتين**، 113-114 ؛ **برنامج ابن جابر الواديآشي**، 45 ؛ **ألف سنة من الوفيات**، 78 ؛ **شجرة النور**، 207.

(615) لعله ابن الغماز أبو عبد الله محمد الأنصاري الخزرجي البلنسي الأصل، وكان أبوه أحمد قاضي الجماعة بتونس (**رحلة ابن بطوطة**، ج 168/1).

(616) الفقيه المفتي أبو علي عمر بن علي بن قدّاح الهواري ت. 734 هـ/1334 م، ابن حجر، **الدرر الكامنة**، ج 3، ص 179 ؛ ورد ذكره في **رحلة ابن بطوطة**، ج 168/1).

(617) ذكر منهم في "**عجالة المستوفز**..." محمد الهواري، ومحمد القفسي، وأبي موسى هارون، وأبي عبد الله التلمساني، ومحمد بن هارون، ويحيى بن عصفور، وأبي محمد بن البراء.

(618) لعله داود الشاذلي الإسكندراني تلميذ الشيخ أبي العباس المرسي (**الدرر الكامنة**، 100/2-101).

(619) ياقوت بن عبد الله الحبشي القرشي، تلميذ الشيخ أبي العباس المرسي المشهور. توفي بالإسكندرية سنة 1332/732م (**الدرر المكنونة**، 408/4 ؛ السيوطي، **حسن المحاضرة**، ج 1، ص 454).

(620) الشيخ الصالح أبو عبد الله الفاسي. يقول عنه ابن فرحون أنه ارتحل إلى الإسكندرية وأدرك بها من أهل العلم والصلاح والأئمة جماعة كثيرين فصحبهم... توفي عام سبعة وأربعين وسبعمائة بالمدينة المشرفة) (ابن فرحون المالكي، **نصيحة المشاور وتسلية المجاور**، م.س.ص 140، ويقول ابن بطوطة : "زيذكر أنه كان يسمع رد السلام عليه إذا سلم من صلاته" (رحلة ابن بطوطة، ج 1، ص 186).

(621) هو عمر بن أبي اليمن، علي بن سالم بن صدقة اللخمي المالكي، الشهير بتاج الدين الفاكهاني. يكنى أبا حفص الإسكندري. فقيه متفنن في الحديث والفقه والأصول والعربية والأدب. له "شرح العمدة" في الحديث و"شرح الأربعين للنووي" سماه "المنهج المبين في شرح الأربعين" وله "الإشارات" في العربية وغيرها. توفي في الإسكندرية سنة 734 هـ (**الديباج المذهب**، 81/2-82 ؛ **الدرر الكامنة**، 254/3-255 ؛ **بغية الوعاة**، 221/2 ؛ **شجرة النور**، 204.

ومن القضاة[622]، ابن منير[623]، وتكرر لقاؤهم، وذكرتهم في برنامجي ؛ وغيرهم من العلماء.

وفي القاهرة خلائق، كشيخ الشيوخ، علاء الدين الغزنوي[624]، وسعد الدين الحزاري، وأبي الحسن الواني، وجماعة. ومن العلماء المحدثين جماعة، كقاضي القضاة، بدر الدين ابن جماعة[625]، وغيره، ممن سميته ورويت عنه.

وفي مكة من ذكرت، فأقمنا بمكة بعد وقفنا وقفة الثلاثاء[626]، سنة كاملة، ثم رحلنا إلى المدينة، فأقمنا فيها إلى آخر سنة ثمان وعشرين، نحج فيها كل سنة، وأدركت بها خلائق، نفع الله بهم. فوقفنا يوم الجمعة، وبعد تمام الحج، توجهنا إلى بيت المقدس، فلقيت فيها أعلاماً، وتوجهنا إلى الخليل كذلك، ثم قدمنا على القاهرة المحروسة، فرويت إذاك على جماعة، وكذلك بثغر الإسكندرية المحروسة، وعدنا إلى المغرب سنة تسع وعشرين، على بلاد الجريد، فأقمنا بتلمسان إلى سنة أربع وثلاثين، فعدنا إلى الحجاز، أيضاً على بلاد الجريد، فأقمنا في القاهرة المحروسة، إلى آخر سنة ست وثلاثين. وفي سنة سبع وثلاثين، عدت إلى المغرب، وأقمت بتلمسان أخطب بالعباد، وأدخل في داخل البلد، بمسجد مرسى الطلبة، من مسجد ابن النعمة، وبمسجد سويقة إسماعيل، وغيرها، وأتردد إلى مجلس السلطان، رحمة الله عليه، ثم رحلت سنة أربعين، إلى فاس المحروسة، في كرتين، ولمدينة سلا المحروسة، صحبة السلطان المرحوم، أبي الحسن المريني.

---

(622) أ : القاضي.

(623) أبو محمد عبد الواحد بن محمد بن شرف الدين بن المنير. أخذ عنه عميه ناصر الدين وزين الدين (ترجمتهما في شجرة النور، 188 وترجمة زين الدين في **رحلة العبدري**، ص 100-108؛ **حسن المحاضرة**، 273/272/1. وغيرهما وعنه جماعة منهم ابن مرزوق الجد. ولد سنة 651 وتوفي سنة 736 هـ.ذكره ابن مرزوق في برنامجه "**عجالة المستوفز**" ووصفه بـ "القطب الحافظ" (**نفح الطيب**، 394/5 ؛ **شجرة النور**، 205).

(624) كذا في النسختين. ولعله علاء الدين "القونوي" المذكور ضمن شيوخ ابن مرزوق الذين التقاهم في القاهرة. ويصفه بشيخ الشيوخ (**المسند**، ص 266، 273). وهو أبو الحسن علي بن إسماعيل القونوي. الفقيه الشافعي المتوفى سنة 729 هـ (**الدرر الكامنة**، 24/3-28).

(625) بدر الدين بن جماعة، قاضي القضاة بالقاهرة، شافعي المذهب، توفي سنة 733 هـ/1333م (**حسن المحاضرة**، 366/1 ؛ ذكره ابن مرزوق في **المسند**، ص 483).

(626) أ : الثلاثة.

ثم رحلت أيضاً سنة إحدى وأربعين، فشاهدت[627] واقعة طريف[628] في خدمة السلطان المرحوم أبي الحسن، رحمة الله عليه، وباستدعائه، ثم عدت إلى تلمسان، فأقمت فيها أشهراً، ثم استدعاني أيضاً، رحمة الله عليه، لخدمته؛ فأقمت في خدمته أتولى الخطابة، والنظر في الشكايات في أوقات، وألازم مجلسه وحضرته، وعاملني بما يثيبه الله عليه في الآخرة.

ورحلت، في صحبته، إلى مراكش، على بلاد السواحل، حين قصد الزيارة، ثم عدت صحبته إلى تلمسان، فأقمت في خدمته، ولازمته بمقصورة تلمسان، إلى أن رحلت صحبته إلى تونس، قاصداً الحج، فمنعني من ذلك، فحلفت ألا أقيم، فحمل جهلي وجفائي[629]، رحمه الله تعالى.

ووافقت ورود [ابن] السلطان، أبي عمر[630]، من بلاد النصارى، وورد عليّ كتاب السلطان المرحوم بملازمته، فلازمته إلى أن وصلنا[631] قسنطينة المحروسة، فوافقنا فيه ورود الخبر بواقعة القيروان[632]، فبقينا فيها إلى أن ثارت قسنطينة المحروسة وانتقضت[633]، فوجهت منها إلى بسكرة[634] المحروسة، فأقمت فيها

---

(627) أ : شهدت.

(628) وقعة طريف تسمى في المصادر القشتالية (*Batalla del Rio Salado*) المعركة البحرية الحاسمة التي انهزم فيها المرينيون يوم 7 جمادى الأولى سنة 741 هـ/6 اكتوبر 1340م ويقول ابن مرزوق أنه "كان الواقع فيها جللا والخطب عظيما" (**العبر**، 310/7-311 ؛ **نفح الطيب**، 451/1 ؛ **المسند**، 390، 225-391؛ **الإحاطة**، 180/2 ؛ رشيد السلامي، "طريف"، معلمة المغرب، ج 17، ص 5748-5751).

(629) هو أبو زيان عريف بن يحيى بن عثمان السويدي الزغبي جليس السلطان أبي الحسن وأنيسه. ويورد ابن مرزوق نفس المعطيات مفصلة في **المسند**، 494.

(630) في الأصل : ورد السلطان أبي عامر. وهو الأمير أبي عمر تاشفين ابن السلطان أبي الحسن. وكان قد وقع أسيرا في معركة طريف. وتم تكليف ابن مرزوق بمفاوضة القشتاليين على ابرام معاهدة الصلح وفداء الأمير الأسير الذي كان قد "أصابه مسّ من الجنون" خلال مدة أسره. وقد نجح ابن مرزوق في هذه المهمة ورجع بأبي تاشفين مع طائفة من زعماء النصرانية ؛ جاءوا في السفارة عن ملكهم. (**المسند**، 467، 495 ؛ ابن خلدون، **العبر** 329/7).

(631) أ : وصلت.

(632) انهزم السلطان أبي الحسن في القيروان في شهر محرم 749 هـ / أبريل 1348م.

(633) حول انتفاض قسنطينة وغيرها من "الثغور الغربية" انظر : **العبر**، 328/7-330.

(634) **بسكرة** : بلدة تقع بنواحي الزاب، وهي مدينة مسورة ذات أسواق وحمامات، أهلها علماء على مذهب أهل المدينة ، وبها جبل ملح يقطع منه كالصخر الجليل، وتعرف ببسكرة النخيل (**ياقوت، معجم البلدان**، 422/1).

أشهراً في راعية الشيخ، أبي يعقوب بن مزني[635]، فعامل بما لو دوّنت في الدواوين لما استوفيت عُشر ما عامل به من الفضل، حتى أنساني أهلي وولدي ووطني، جزاه الله خير الجزاء، وبلدنا[636] ذخيرة لنا.

ثم لما بلغ الخبر بخروج السلطان المرحوم، من القيروان إلى تونس، تجردت في فرسان وتوجهت نحوه، وقاسيت أموراً عظيمة وشدائد، سهلها الله علي بورودي عليه، رحمة الله عليه، ثم إنه وجهني إلى محلة ولده عبد الله الصغير[637] ومن معه من كبار بني مرين، والشيخ أبي زيان عريف بن يحيى[638]، خاصته فخرجت من تونس أيضاً مجرداً في فرسان من المرابطين، ووجه صحبتي ابن ناصح، مملوكه[639]، فأدركتهم بين مقرة[640] والمسيلة[641]. فرجعت معهم، ومع شيوخ رياح، وأهل الوطن، فلحقنا بتونس[642]. ثم اقتضى نظره أن وجه ولده الأمير أبي الناصر[643]، فوجهني في موافقته لمحاولة خروج أولاده من

(635) هو عامل منطقة الزاب وأميرها (العبر، 329/7 ؛ المسند، 496).

(636) ب : بلده.

(637) هو الأمير أبو عامر عبد الله (المسند، 496 ؛ وانظر كذلك العبر، 328/7 حيث يشير إلى "ابن صغير من أبناء السلطان" وفد على قسنطينة على رأس "عسكر من أهل المغرب".

(638) عن هذا الوزير انظر: المسند، 367، وتجيد المعطيات المشار إليها في المتن في : المسند، 496.

(639) هو وزيره عبد الواحد بن ناصح. ورد ذكره في المسند، ص 206، 207، 467.

(640) مقرة : اختلف في ضبطها : مَقْرة أو مَقَرّة. ويبدو أن مَقرّة هو الضبط الأرجح. فالمقري صاحب نفح الطيب الذي ينتسب إليها يقول في مطلع أرجوزة له (مقدمة روضة الآس العاطرة الأنفاس، تصحيح عبد الوهاب بن منصور، الرباط 1960) :

أحمد الفقير المقـري   المغربي المالكي الأشعري

وقد ذكر أنها مدينة لها حصون كثيرة، والمدينة العظمى مقرة أهلها قوم من بني ضبة وبها قوم من العجم وحولها قوم من البربر. ووصفها ياقوت بأنها مدينة في المغرب قريبة من قلعة بني حماد بينها وبين طبنة ثمانية فراسخ (معجم البلدان، مادة مقرة، نفح الطيب، ...).

(641) المسيلة : مدينة بالمغرب تسمى بالمحمدية، اختطها أبو القاسم محمد بن المهدي سنة 315هـ.

(642) انظر : المسند، 496.

(643) لم يرد ذكر هذا الأمير في المصادر. ويفترض ليفي بروفنسال – خطأ – أنه أبا علي عمر، ابن السلطان أبي سعيد المريني. ولعله الأمير أبو علي الناصر الذي ورد اسمه مرارا في المسند ويوصف بالصلاح والتقوى (المسند، 234، 366، 496 ؛ وقد وجهه والده السلطان أبي الحسن إلى المغرب الأوسط لإرجاع مناطقها إلى الطاعة. إلا أن جيوشه منيت بالهزيمة في بسكرة. انظر كذلك : العبر، 335/7-336).

Lévi-Provençal, "Un nouveau texte d'histoire mérinide : le Musnad d'Ibn Marzuk", *Hespéris*, t V, 1925, p. 53 note 3.

قسنطينة(644)، وبالمقام ببسكرة لمحاولة تلك الجهات؛ فأقمنا بها، ولم نزل في تلك النواحي على طاعته. ثم ورد علي كتابه أن حاول خروج أولاده إلى المغرب، وأن أتوجه صحبتهم إلى المغرب، وأحاول رجوع ولده، السلطان أبي عنان، إلى طاعته، مع والدته المرحومة، شمس الضحى.

فتوجهت إلى المغرب، فتوفيت والدة السلطان أبي عنان بتلمسان، وقدمت على السلطان أبي عنان، رحمه الله، فأكرم مثواي، وحاول جلوسي عنده، فلم يمكنني ذلك، لكوني فارقت والده على أن أعود إليه، ولم أجد سببا لمحاولة رجوعه إلى طاعته. فلما وصلت تلمسان، رغب مني سلطانها أبو سعيد عثمان بن عبد الرحمان بن يحيى بن يغمراسن بن زيان، وأخوه، أبو ثابت(645)، محاولة الصلح مع السلطان أبي الحسن؛ فأقمت بتلمسان، ووجهت له، فجاء من تونس إلى الجزائر عازماً على هذا الصلح، فسعى في نقضه وفي إذايتي، من باء بإثمه(646)، فثقفوني، فأقمت في ثقافهم وسجنهم تسعة أشهر، وكابدت ما يعظم الله أجره، مما هو مشهور، وبقي أهلي مدة يعتقدون وفاتي(647)، ثم أخرجوني واستعطفوني، فامتنعت من المقام بتلمسان، ورحلت إلى الأندلس، فقدمت على مالقة، فعرف

---

(644) خاطب السلطان أبو الحسن ابن مرزوق بهذا الصدد قائلا : "اقتضى نظرنا أن تتوجه صحبة هؤلاء ليكون حدك بسكرة، فتحاول مع ابن مزني ويعقوب خروج أولادي من قسنطينة" (المسند، 497).

(645) حكم من سنة 749 هـ/1348 م إلى سنة 755 هـ/1352 م (التنسي، **تاريخ بني زيان ملوك تلمسان (مقتطف من نظم الدر والعقيان...)**، ص 150-156.

(646) يفصح ابن مرزوق عن أسباب فشل محاولة توسطه قائلا : "قدمت تلمسان فحاولت مع ابن أجانا انقياد بني عبد الواد له [السلطان أبي عنان]، فكتبوا وكتبت، ووجهت أحد أهل العباد ويعرف بعلي بن محمد إلى تونس، فوافى وصول مولانا للجزائر، فدخل إليه بالكتب فسر، رضي الله عنه، وكتب لي أبلغ كتب، ولم يكتب لبني عبد الوادي فلما وصل كتبي دون كتبهم اتهموني وسعى بي من سعى ممن أخذ الله منه الحق" (**المسند**، 497).

(647) يصف ابن الخطيب هذه المرحلة الحرجة من سجن ابن مرزوق قائلا : "وأسكن قرارة مُطْبق عميق القعر مقفل المسلك حريز القفل، ثاني اثنين... ولأيام قتل ثانيه ذبحا بمقربة من شفا تلك الركية، وانقطع أثره، وأيقن الناس بفوات الأمر فيه، ولزمان من محنته ظهرت عليه بركة سلفه في خبر ينظر بطرفه إلى الكرامة فنجا ولا تسل كيف" (**نفح الطيب**، 369/5).

بي سلطانها، أبو الحجاج[648]، فبعث لي إلى حضرته، وأنزلني في الموضع الذي كان أنزلني فيه حين قدمت عليه رسولا، وقلدوني خطابة جامع الحمراء، دار ملكه، وجامع غرناطة[649]، أتناوب في الجامع الحمراء مع قاضي الجماعة، أبي القاسم الشريف[650]، وفي البلد معه، ومع اللوشي[651]، والبيري[652]، ثلاثة أعوام، تنقص بضع أيام.

ورحلت معه إلى مالقة، فخطبت في جامعها، ثم قدمت على فاس باستدعاء السلطان المرحوم، أبي عنان[653]، المرة بعد المرة، فأكرمني، ولازمت حضرته. ولما بلغه الخبر باستيلاء النصارى على مدينة اطرابلس، وعزم على افتكاكها بماله، بعثني إليها بخمسة وأربعين ألفاً من الذهب[654]، ووافقني صاحبنا الحاج أبو

(648) هو يوسف بن إسماعيل بن فرج بن إسماعيل بن يوسف بن نصر، السلطان النصري، أبو الحجاج. تولى الملك بعد أخيه محمد بن اسماعيل يوم 13 ذي الحجة عام 734 هـ وتوفي سنة يوم عيد الفطر من عام 755 هـ مقتولا بالمسجد (ابن الخطيب، **اللمحة البدرية في الدولة النصرية**، بيروت، ط 2، 1978، 102-110).

(649) تقلد الخطبة بجامع غرناطة في 6 صفر عام 753 هـ (**الإحاطة**، 104/3).

(650) أبو القاسم محمد بن أحمد بن محمد الحَسَني، السبتي النشأة. (أبو القاسم الشريف الغرناطي). القاضي الأديب. ولي عدة مناصب في دولة بني نصر مثل كتابة الإنشاء وتولى خطة القضاء والخطابة. له جملة تصانيف منها "رفع الحجب المستورة عن محاسن المقصورة". توفي بغرناطة وهو على قضائها سنة 760 أو 761 هـ/1359م (الإحاطة، 181/2-186؛ **نثير فرائد الجمان**، 231 ؛ **الديباج**، 267/2/268 ؛ **نفح الطيب**، 242/6 ؛ **أزهار الرياض**، 149/2 -161 ؛ **جذوة الاقتباس**، 306 ؛ **المرقبة العليا**، 171-177 ؛ وانظر د. محمد الحجوي، **أبو القاسم الشريف السبتي : حياته وآثاره الأدبية اللغوية والبلاغية**، القنيطرة، 1996.

(651) هو أبو عبد الله محمد بن يوسف بن عبد الله بن محمد اليحصبي، عرف باللوشي. الشيخ الفقيه الخطيب البليغ المقرىء المحدث الراوية. ولد أواخر سنة 692 هـ. خطيب المسجد الأعظم من غرناطة لأول الدولة النصرية (**فهرسة أبي زكرياء يحيى بن أحمد السراج الرندي الفاسي** (ت 805هـ)، مخطوطة المكتبة الوطنية بباريس رقم 758)مصورة د. عبد الله المرابط الترغي)، ورقة 119-121؛ **الإحاطة نصوص جديدة**، 90 ؛ ابن الخطيب، **أوصاف الناس**، 59-61).

(652) لعله محمد بن عبد العزيز الغساني الألبيري. "مفتي البشارة وعليه كانت تدور أحكامها، وكان صاحب صلاة غرناطة ومن الخطباء البلغاء" (**الإحاطة، نصوص جديدة**، تحقيق عبد السلام شقور، ص 31).

(653) استدعاه السلطان أبي عنان سنة 754 هـ/1353 م.

(654) تعرضت مدينة طرابلس للاحتلال الجنوي (أو القطلاني) عام 755 هـ/1354م واستباحها النصارى وعاثوا فيها سلبا ونهبا ، وتوسط أبو العباس أحمد بن مكي صاحب قابس لافتدائها من المغيرين. وقد طالبه المحتلون بتقديم مبلغ خمسين ألفا من الذهب العين. وحتى لا يترك=

عبد الله ابن سيد[655] الناس[656]، فوصلت إلى مدينة قابس، ووصل المال إلى يد الفقيه مروان بن مكي[657]، متولي افتكاكها، وأقمت بقابس وبلاد الجريد شهراً، ثم رحلت صحبة السلطان أبي عنان، رحمه الله تعالى، إلى قسنطينة، ووجهني منها إلى تونس، وأمرني فيها بمحاولات[658]، أنتج بعضها، وخاب بعضها؛ فوّجد الحسدة سببا لما كانوا عاملين عليه من الطعن في جهتي.

فلما عدت إلى تونس على الوجه المعروف، أدركني خدامه على مرحلة من تلمسان[659]، فثقفوني، ووصلت إلى حضرته، فحضرت بين يديه، فقابلني بالإذاية من لم يبق الله فيه حقاً، وهم جماعة بادٍ أكثرهم هلكى، فظهر الحق وزهق الباطل.

وبقيت في ثقافه[660]، إلى أن رضي، وقابل بالجميل وعزم عليه، فاخترمته المنية، واستقل ولده السعيد[661]، فبعثني الوزير القائم بأمره، أبو علي الحسن بن

= المدينة عرضة للاحتلال فكر في فتح اكتتاب لدى أهل قابس والحامة وبلاد الجريد لجمع المبلغ المطلوب لإخلاء طرابلس. لكنه عجز عن تحصيل المبلغ فاستنجد بالسلطان المغربي أبي عنان الذي لم يتردد في مده بالأموال اللازمة لافتكاك المدينة (ابن خلدون، **العبر**، 468/6-469 ؛ ابن بطوطة، **الرحلة**، 201/1 ؛ الزركشي، **تاريخ الدولتين**، 192-193 ؛ ابن الشماع، **الأدلة البينة**، ص 102-103. Mas Latrie, Relations et commerce, p. 384-386, 407, 411).

(655) أ : سيدي.

(656) لعله الحاج أبي عبد الله محمد بن يوسف بن عمر بن سيد الناس الذي ذكره ابن مرزوق في **المسند**، ص 255، 454.

(657) أمير جربة، ولاه السلطان أبي الحسن عليها سنة 788 هـ (ابن خلدون، **العبر**، 449/6).

(658) لعله يشير إلى المهمة التي أوكلت إليه حينما سُفّر إلى تونس ليخطب إحدى بنات السلطان أبي يحيى الحفصي (ت.747 هـ/1346 م) للسلطان أبي عنان. لكن ابن مرزوق لم يوفق في مهمته، واتهم بالتماهي مع الرفض التونسي. (**المسند**، 27) "ردّت، ابنة السلطان أبي يحيى تلك الخطبة واختفت. ووشي إلى السلطان أبي عنان أنه كان مطلعا عى مكانها" (**العبر**، 474/7 ؛ **البستان**، 185؛ ويورد الزركشي حديثا طريفا دار بين السلطان أبي عنان وابن مرزوق، إذ خاطب السلطان ابن مرزوق معاتبا : "لِمَ لمْ تضع اليد فيها حين مشيت تخطبها لي؟ فقال له : ابنة ملك يخطبها سلطان! كيف أضع يدي فيه؟. فأبقاه في الثقاف بسبب ذلك ستة أشهر" (**تاريخ الدولتين**، 198).

(659) يوضح ابن خلدون أن أوامر السلطان أبي عنان أعطيت باعتقال ابن مرزوق "وخرج لذلك يحيى بن شعيب من مقدمي الجنادرة ببابه، فلقيه بتاسالة، فقيده هناك وجاء به فأحضره السلطان وقرعه، ثم حبسه مدة، وأطلقه بين يدي مهلكه" (**العبر**، 474/7).

(660) لم يطلق سراح ابن مرزوق إلا قبيل وفاة أبي عنان (28 ذو الحجة 759 هـ/5 دجمبر 1358م).

(661) أبو بكر السعيد بن أبي عنان. بويع وأبوه مريض يوم الأربعاء 25 ذي الحجة عام 759 - وخُلع يوم الثلاثاء 12 شعبان سنة 760 هـ، وقتل غرقا في البحر، وله 10 سنين (**روضة النسرين**، 40؛ **النفحة النسرية**، 55 ؛ **العبر**، 286/7).

عمر[662] لمراكش لتوطين أمرها[663]، فبلغنا استيلاء أبي علي منصور بن سليمان بن منصور[664] على الملك، فقدمنا عليه، فحملني الخطابة[665]، ثم انتقض أمره، وورد السلطان أبو سالم[666]، رحمه الله تعالى، فعزمت على التوجه إلى الحجاز، فلم يدعني، وألزمني حضرته، إلى أن توفي، رحمه الله تعالى[667]. وكان الناس يظهرون لي جميل الود، ويبطن أكثرهم خلافه، ولشدة أتيه في صار كل من قال ضُرّا خُيب مطلبُه، ومن بقي على ما في ظنه[668] قال : هو سببه وأصله. فمضى هو بسبيله إلى رحمة الله، وبقيت غرضاً لجميع من نالته مضرته، فنالني، ولله الحمد، ما أنا بصدده، والله المحمود على كل حال، ومنه أسأل، جل وعلا، أن يعظم الأجر، ويجزل الذخر، ويمن بالخلاص، وأن يجزي على ما عود من الفرج القريب، والسلامة، وكف الأيدي العادية، والأمم الباغية، وأخذ الحق ممن بغي، وخاتمة الخير والانقطاع إلى الله عز وجل، في بقية العمر، ودوام الصون والستر،

(662) هو الوزير أبو علي الحسن بن عمر الفدودي، خانق السلطان أبي عنان والمستبد على السلطان السعيد (**العبر**، 7/354-255).

(663) يشير هنا إلى ما قام به الوزير الحسن بن عمر المستبد على السلطان السعيد، حينما بعث يبحث عن أبناء السلطان أبي عنان الأصاغر، لاستقدامهم إلى فاس، إلا أن الأمير محمد المعتمد الذي كان بمراكش امتنع، وكان بها في كفالة عامر بن محمد الهنتاتي، وخرج به من مراكش إلى معقله من جبل هنتاتة، وجهز الوزير العساكر لمحاربته" (**العبر**، 7/355-356).

(664) هو منصور بن سليمان بن منصور بن عبد الواحد بن يعقوب بن عبد الحق المريني إبن أخ السلطان أبي الحسن. ثار على السلطان أبي سعيد بدعم من شيوخ القبائل المرينية وخاصتها وأقبلوا به إلى بمدينة فاس "وهو رجل خير قد اقتحم الشيخوخة". والتفت عليه قبائل غمارة ودخلت في أمره أصيلا وطنجة وسبتة. وسرعان ما انفضوا من حوله، وفر بنفسه إلى جبال بادس. ولما استولى على السلطان المريني أبو سالم إبراهيم ابن الحسن على الملك، سُلم منصور بن سليمان إليه مع ولده، فقتلهما السلطان صبرا. (**العبر**، 7/359-360، 361 ؛ ابن الخطيب، **اللمحة البدرية**،117-118).

(665) أ: الخطاية.

(666) السلطان إبراهيم بن أبي الحسن. يكنى أبا سالم. أبوه السلطان أبو الحسن الملك الكبير، وأخوه أبو عنان. بويع يوم الجمعة منتصف شعبان من عام 760 هـ/1359/م وقتل يوم الخميس 21 ذي القعدة سنة 762 هـ/1361 م، وله 28 سنة (**روضة النسرين**، 41 ؛ **الإحاطة**، 1/303-310؛ **النفحة النسرية**، 56-58 ؛ **النجوم الزاهرة**، 11/11 ؛ **العبر**، 7/402-416؛ **جذوة الاقتباس**، 1/ 83؛ **الاستقصا**، ج 4/7-40).

(667) ساقطة من أ : وقد اغتيل السلطان أبو سالم يوم الخميس 21 ذي القعدة 762 هـ/23 شتنبر 1361م على يد جندي نصراني بتحريض من الوزير عمر بن عبد الله الياباني (**روضة النسرين**، 41).

(668) في النسختين : بطنه.

والانتقال إلى حرم الله، وحرم الرسول، صلى الله عليه وسلم، والوفاة في أحدهما، بفضل باسم الله الرحمان الرحيم، وحرمة الرسول، صلى الله عليه وسلم، وبركة الأولياء، ومن اشتمل عليه هذا المجموع منهم؛ وليكن هذا آخره، فقد اشغلنا عن استيفاء الغرض ما دهيت به من الكرب المتصل، دفعه الله، والحمد لله، وسلام على عباده، وذلك في أوائل ثلاث وستين وسبعمائة[669].

(669) الموافق لشهر نوفمبر 1361 م.

ملحق من النسخة ب

بسم الله الرحمان الرحيم، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيد المرسلين، محمد وآله وسلم.

يقول كاتبه لنفسه عبيد الله، أحمد، بن عبد الرحمن، التجاني(670)، لطف الله به : وجدت معلقا بآخر هذا الديوان المبارك، ما نصه، بعد الحمد لله، والسلام على محمد وآله، وسلم :

مؤلف هذا المجموع المبارك، خطيب الخطباء، محدث وقته، الإمام الحافظ، شمس الدين، أبو عبد الله، محمد، بن أحمد، ابن مرزوق، الخطيب، رضي الله عنه، له تصانيف عديدة، منها :

= شرح الأحكام، لعبد الحق(671). ما رأيت مثله في التحصيل والنقل والفائدة، نفع الله بذلك.

ومنها : التعليق على صحيح البخاري، لم أره، وذكره هو في بعض تواليفه.

ومنها شرح الشفا، المسمى ببوح الخفا. رأيت السفر الأول منه، وما أبدعه، والله يجمع باقيه !

ومنها : شرح العمدة(672)، وهو مشهور.

ومنها : الأربعين في فضل الصلاة على سيدنا محمد، والأربعين في فضل العلم، والأربعين عن الصحاح، أملاها بعد صلاة الجمعة، وقبل العصر منها، وغير ذلك.

(670) سيسميه بعد حين : التجيني

(671) عبد الحق بن عبد الرحمان الأزدي الإشبيلي المتوفى سنة 582 هـ له الأحكام الكبرى في الحديث والأحكام الصغرى. انظر : **عنوان الدراية**، ص 73-74.

(672) **تيسير المرام في شرح عمدة الأحكام**، مخطوط الخزانة العامة بالرباط، رقم 38 ق.

ومنها : رسالة البدر في ليلة القدر.

وجنى الجنتين في فضل الليلتين[673]، ليلة القدر وليلة المولد النبوي.

والمعجم في ذكر شيوخه.

وفهارس مطولة، ومختصرة.

والعجالة[674].

وخطب مرتبة على حروف المعجم[675].

وخطب كثيرة من غير التزام حروف المعجم.

وقصائد في مدح النبي، صلى الله عليه وسلم،

وقصائد في التوسل.

ونظم كثير، منه، القصيدة المسماة بالمنفرجة، وأولها :

اشتدي أزمة تنفرج لابد لضيقك من فرج
إن عم العسر مع الحرج أبشر باليسر وبالفرج

إلى آخرها، وهي مائة وثلاثون،

والقصيدة اللامية، وأولها :

إليك شكوت يا موالي الموالي ويا رب المعادي والموالي

وهي نحو من ثمانين،

والقصيدة النونية الحجازية، وأولها :

---

(673) مخطوط الخزانة العامة رقمه : ك 1228.

(674) لعل المقصود بها فهرسته **عجالة المستوفز**، مخطوط الخزانة الحسنية رقم 7579.

(675) مخطوط الخزانة الحسنية رقمه 4070 : وانظر :

Maria J. Viguera, «al Jutab al-diniyya li Ibn Marzuq», in, Festschift for Ihsan Abbas, Beirut, American University, 1981, 81-84.

هات الحديث عن قبا والمنحنا وعلل النفس بما قد أمكنا

وهي خمس وسبعون.

والقصيدة النونية أيضا الحجازية، وأولها :

رفقا بها يا حادي الركبان روح لطيف في جسيم فان

والقصيدة الحجازية أيضا، الدالية، وهي نحو من ثمانين، والقصائد المولديات.

والحجازيات، نفعه الله، ونفعنا به. والقصيدة التي مطلعها :

رفعت أموري لباري النسم وموجدنا بعد سبق العدم

نحو أربعين مشهورة البركة.

ومنها في الفقه : شرح ابن الحاجب الفرعي، ولم أره،

وكلامه في الوصية مع الغبريني، والرد عليه، والإنتصار لصاحبه، العلامة الشريف، والقاضي المقري، رحم الله الجميع، مما يكتب بماء الذهب، وهو مشهور.

والمسند الحسن.

ومصنفاته، رحمه الله، معدودة في إجازة الجد الأقرب، ذكرت بعضها هنا اختصارا، واقتصارا.

وأما حفيده، الإمام الأشهر الحافظ، الذي أنشأ خطبة هذا المجموع، فقد جمع وصنف وأفاد وأبدا، في كل فن من الفنون وأعاد، أذكر منها ما أمكن، على سبيل الإختصار[676] :

التفسير، رأيت منه، تفسير المائدة، ومريم. ما صنف مثله.

(676) انظر توشيح الديباج، ص 171-172.

والقراءات، له نظم فيها عجيب، وعقيدته مشهورة في البركة والعلم الكثير والإختصار الغرير، شرحه للجامع الصحيح، المسمى بالمتجر الربيح والمسعى الرجيح والمرحب الفسيح، والوجه الصحيح، والخلق السميح، ما رأى الراؤون مثله، لو كمل، أربعة أسفار إلى أثناء الصلاة. وله عليه كلام كامل، في مناسبة تراجمه، وله أنوار الدراري، في مكررات البخاري.

وله في الحديث : الروضة، واختصارها الحديقة. وله النور اليقين في شرح حديث أولياء الله المتقين، الحديث المشهور، المشكل، الذي أخرجه أبو نعيم الحافظ، في الحلية. جاء الشيخ في شرحه بما يبهر العقول.

ومصنفاته في الفقه، منها : روضة الأريب في شرح التهذيب، ومنها المنزع النبيل، شرح مختصر الشيخ خليل[677]، وهو مشهور، كتب من أوله إلى أثناء الصلاة؛ ومن الأقضية إلى الختم، ولو كمل لما نظر في غيره، لكن الأمر لله من قبل ومن بعد.

ومنها، اغتنام الفرصة في محادثة عالم قفصة[678]، والروض البهيج في مسائل الخليج، والذيل المومي في جواز النسخ في الكاغط الرومي، والنصح الخالص في مدعي رتبة الكمال للناقص، ومسائل فقهية، وشرح في الأصلين، كثيرا،

ومنها كلام على التسهيل، حسن، غاية، وشرح ألفية ابن مالك، وشرح شواهدها، واختصارها في نحو خمس مائة بيت ؛ ونظم تلخيص المفتاح، ونظم جمل الخونجي، وشرح الأصل له، مشهور، ونظمه في الفرائض، ونظمه في الوقت، وفهرسته، وشرحه للشقراطية، وشرحه للخزراجية، كل واحد منها في غاية التحقيق والحسن، وإظهار صدق المودة في شرح البردة[679]، ما صنف مثله، والوسط، مختصر منه والإستعاب لما في البردة من البديع والإعراب.

(677) مخطوط الخزانة العامة بالرباط رقم ق 265.

(678) مخطوط الخزانة العامة بالرباط رقمه : ك 429؛ نسخة أخرى : ك 2983.

(679) مخطوط الخزانة العامة، ك 1365.

لائحة المصادر والمراجع

1) المصـادر

- ابن الأبار، أبو عبد الله محمد القضاعي (ت. 658 هـ)، **التكملة لكتاب الصلة**، نشر عزت العطار الحسيني، القاهرة، 1956 (وطبعة كوديرا، مدريد، 1889-1888 ؛ وطبعة الدكتور عبد السلام الهراس، مطبعة الرشاد، الدار البيضاء، د. ت.).
- ابن أبي دينار، محمد بن أبي القاسم القيرواني، **المؤنس في أخبار إفريقية وتونس**، تحقيق محمد شمام، تونس، 1967.
- ابن أبي زرع الفاسي، علي (ت. حوالي 741 هـ)، **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس**، دار المنصور، الرباط، 1973.
- ابن أبي المنصور، صفي الدين بن الحسين الأنصاري (ت 682هـ)، **رسالة صفي الدين بن أبي المنصور**، تحقيق وترجمة ديني جريل، المعهد العلمي للآثار الشرقية بالقاهرة، 1986.
- الآزموري، أبو عبد العظيم (ت. بداية ق 9هـ)، **بهجة الناظرين وأنس العارفين**، مخطوط الخزانة العامة بالرباط، رقم 1343.
- الأنصاري، محمد بن القاسم (ت. بعد 825 هـ)، **اختصار الأخبار عما كان بثغر سبتة من سني الآثار**، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، ط. 3، الرباط، 1983.
- ابن الأحمر، أبو الوليد إسماعيل، **نثير الجمان في شعر من نظمني وإياه الزمان**، تحقيق الدكتور محمد رضوان الداية تحت عنوان : **أعلام المغرب والأندلس في القرن الثامن**، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1976.

Maghreb et Andalousie au XIVe siècle, Les notes de voyage d'un andalou au Maroc, 1344-1345, P. U. Lyon, 1981.

– ابن حجر العسقلاني، شهاب الدين أحمد (ت. 852 هـ)، **الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة**، دار الجيل، بيروت، (د. ت.).

– الحفناوي، أبو القاسم محمد، **تعريف الخلف برجال السلف**، مؤسسة الرسالة، المكتبة العتيقة، 1982

– الحموي، ياقوت، **معجم البلدان**، تحقيق فريد عبد العزيز الجندي، دار الكتب العلمية، بيروت، بدون تاريخ.

– الحميري، ابن عبد المنعم، (ت. 900 هـ/1494 م)، **الروض المعطار في خبر الأقطار**، تحقيق إحسان عباس، بيروت، 1984.

– ابن الخطيب، لسان الدين أبو عبد الله محمد (ت. 776 هـ)، **الإحاطة في أخبارغرناطة**، تحقيق محمد عبد الله عنان، ط 2. القاهرة، 1973.

– ابن الخطيب، لسان الدين أبو عبد الله محمد (ت. 776 هـ)، **اللمحة البدرية في الدولة النصرية**، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1978.

– ابن الخطيب، لسان الدين أبو عبد الله محمد (ت. 776 هـ)، **نفاضة الجراب في علالة الاغتراب**، تحقيق أحمد مختار العبادي، مراجعة عبد العزيز الأهواني، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، (د. ت).

– ابن الخطيب، لسان الدين أبو عبد الله محمد (ت. 776 هـ)، **ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب**، تحقيق محمد عبد الله عنان، جزآن، القاهرة، 1980.

– ابن خلدون، عبد الرحمان (ت. 808 هـ)، **كتاب العبر** ...، دار الكتب العلمية، ج 6، بيروت، 1992.

– ابن خلدون، عبد الرحمان (ت. 808 هـ)، **المقدمة**، دار الكتب العلمية، بيروت، 1992.

- ابن خلدون، عبد الرحمان (ت. 808 هـ)، **رحلة ابن خلدون**، تحقيق محمد ابن تاويت، تقديم نوري الجراح، دار السويدي للنشر والتوزيع، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2003.

- ابن خلدون، أبو زكرياء يحيى، **بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد**، ج 1، تحقيق د. عبد الحميد حاجيات، الجزائر، 1980ج 2، نشره ألفريد بل، مطبعة فونطانة، الجزائر، 1910.

- ابن خلكان، أبو العباس أحمد (ت. 781 هـ)، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، تحقيق إحسان عباس، بيروت، 1968.

- الدباغ، عبد الرحمان ت. 696 هـ وابن ناجي، أبو الفضل بن عيسى (ت. 839 هـ)، **معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان**، ط2، تحقيق شيوخ، ماضور، أبو النور، المكتبة العتيقة، تونس، (د. ت).

- ابن رزين التجيبي، **فضالة الخوان في طيبات الطعام والألوان**، تحقيق د. محمد ابن شقرون، ط 1، الرباط، 1981.

- الرعيني، أبو الحسن علي (ت. 666 هـ)، **برنامج شيوخ الرعيني**، تحقيق إبراهيم شبوخ، دمشق، 1962.

- ابن رشيد السبتي، أبو عبد الله محمد بن عمر (ت. 721 هـ)، **ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة إلى الحرمين مكة وطيبة**، ج، 3 تحقيق د. محمد الحبيب ابن الخوجة، الشركة التونسية للتوزيع، 1981.

و ج 5، تحقيق د. محمد الحبيب ابن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1988.

- ابن رشيد السبتي، أبو عبد الله محمد بن عمر (ت. 721 هـ)، **إفادة النصيح في التعريف بسند الجامع الصحيح**، تحقيق د. محمد الحبيب ابن الخوجة، تونس، 1974.

- الرصاع، أبو عبد الله محمد الأنصاري (ت. حوالي 598 هـ)، **فهرست الرصاع**، تحقيق وتعليق محمد العنابي، المكتبة العتيقة، تونس، 1967.

- ابن الزبير، أبو جعفر أحمد بن إبراهيم (ن. 708 هـ)، **صلة الصلة**، القسم الثالث، تحقيق د. عبد السلام الهراس والشيخ سعيد أعراب، الرباط، 1993.

- الزركشي، محمد بن إبراهيم، **تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية**، تحقيق وتقديم الحسين اليعقوبي، المكتبة العتيقة، تونس، 1998.

- السراج، أبي زكرياء يحيى بن أحمد (ت. 805 هـ)، **فهرسة السراج الرندي الفاسي**، مخطوطة المكتبة الوطنية بباريس رقم 758 (مصورة د. عبد الله المرابط الترغي).

- السلمي، أبو عبد الرحمان محمد بن الحسين (ت. 412 هـ)، **طبقات الصوفية**، القاهرة، 1953.

- ابن سماك العاملي، (أواخر ق. 8هـ وبداية ق. 9هـ) **الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية**، تحقيق سهيل زكار وعبد القادر زمامة، الدار البيضاء، 1976.

- السخاوي، شمس الدين محمد، **الضوء اللامع لأهل القرن التاسع**، القاهرة، 1935-1937.

- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمان (ت. 911 هـ)، **بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة**، ط 2، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم، القاهرة، 1384هـ/1964.

- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمان (ت. 119 هـ)، **حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة**، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، 1988.

- ابن الشماع، أبو العباس أحمد، (ت. 833 هـ)، **الأدلة البينة النورانية في مفاخر الدولة الحفصية**، تحقيق الطاهر بن محمد المعموري، الدار العربية للكتاب، 1984.

- الشراط، أبو عبد الله محمد بن عيشون (ت. 1109 هـ)، **الروض العطر الأنفاس بأخبار الصالحين من أهل فاس**، تحقيق زهراء النظام، منشورات كلية الآداب الرباط، 1997.

– ابن صاحب الصلاة، عبد الملك بن محمد (ت 495 هـ)، **المن بالإمامة (تاريخ بلاد المغرب والأندلس في عهد الموحدين)**، السفر الثاني، تحقيق عبد الهادي التازي، دار الغرب الاسلامي، ط 3، 1987.

– الصومعي، أحمد التادلي (ت.1013 هـ)، **المعزى في مناقب الشيخ أبي يعزى**، تحقيق علي الجاوي، الرابط، 1996.

– ابن صعد، أبو عبد الله محمد (ت. 901)، **النجم الثاقب في ذكر ما لأولياء الله من مفاخر المناقب**، مخطوط الخزانة الداودية بتطوان، رقم 53 – ص ع ن، ج 4.

– ابن الطواح، عبد الواحد محمد (ت. بعد 718 هـ)، **سبك المقال لفك العقال**، تحقيق محمد مسعود جبران، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1995.

– العبدري، أبو عبد الله محمد بن محمد الحيحي، **رحلة العبدري**، تحقيق محمد الفاسي، الرباط، 1968.

– ابن العماد، الأصبهاني، **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، القاهرة، 1931.

– العزفي، أبو العباس أحمد (ت. 336 هـ)، **دعامة اليقين في زعامة المتقين**، تحقيق أحمد التوفيق، الرباط، 1989.

– العمري، أحمد بن يحيى بن فضل الله (ت. 749 هـ)، **التعريف بالمصطلح الشريف**، تحقيق محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، 1988.

– العمري، أحمد بن يحيى بن فضل الله (ت. 749 هـ)، **"مسالك الأبصار في ممالك الأمصار"** (مملكة افريقيا ما وراء الصحراء وممالك افريقية وتلمسان وجبال البربر وبر العدوة والأندلس)، تحقيق د. مصطفى أبو ضيف، الدار البيضاء، 1988.

– عياض، (القاضي) أبو الفضل بن موسى بن عياض (ت. 544 هـ)، **ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك**، تحقيق سعيد أعراب وآخرون، 1983.

– ابن عبد الملك، (انظر : المراكشي).

- ابن عذاري المراكشي، أبو العباس أحمد (عاش بعد سنة 712 هـ)، **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب** (قسم الموحدين)، تحقيق محمد إبراهيم الكتاني وآخرون، دار الغرب الإسلامي، بيروت - دار الثقافة، الدار البيضاء، 1985.

- ابن عربي، محيي الدين أبي عبد الله محمد الحاتمي المرسي (ت. بعد 638 هـ)، **رسالة روح القدس**، نشرها آسين بلاثيوس، مدريد غرناطة، 1939.

- ابن عمار، **نحلة اللبيب بأخبار الرحلة إلى الحبيب**، الجزائر، 1902/1320.

- الغبريني أبو العباس أحمد (ت. 714 هـ)، **عنوان الدراية**، تحقيق عادل نويهض، بيروت، 1969.

- ابن فرحون المالكي، إبراهيم بن نور الدين (ت. 799 هـ)، **الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب**، تحقيق الدكتور محمد الأحمدي أبو النور، القاهرة، 1972.

- ابن فرحون المالكي، أبو محمد عبد الله بن محمد (ت، 769 هـ)، **نصيحة المشاور وتسلية المجاور**، تحقيق علي عمر، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2006.

- ابن القاضي، أحمد بن محمد بن أبي العافية المكناسي (ت. 1065 هـ)، **جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس**، دار المنصور، الرباط، 1973.

- ابن القاضي، أحمد بن محمد بن أبي العافية المكناسي (ت. 1065 هـ)، **درة الحجال في غرة أسماء الرجال**، تحقيق أحمد أحمدي أبو النور، القاهرة، دار التراث، 1970.

- ابن القطان، أبو علي حسن بن محمد بن الكتامي (ت. 628 هـ)، **نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان**، تحقيق محمود علي مكي، بيروت، 1990.

- القرافي، بدر الدين، **توشيح الديباج وحلية الابتهاج**، تحقيق أحمد الشتيوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1983.

- ابن قنفذ، أبو العباس أحمد الخطيب القسنطيني (ت 809 هـ)، **الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية**، تحقيق محمد الشاذلي النيفر وعبد المجيد التركي، تونس، 1968.

- ابن قنفذ، أبو العباس أحمد الخطيب القسنطيني (ت 809 ه)، **أنس الفقير وعز الحقير**، تحقيق محمد الفاسي وأدولف فور، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، الرباط، 1968.

- ابن قنفذ، أبو العباس أحمد الخطيب القسنطيني(ت 809 هـ)، **شرف الطالب في أسني المطالب**، ضمن كتاب : **ألف سن من الوفيات**، تحقيق محمد حجي، الرباط، 1976.

- القشتالي، أحمد بن إبراهيم الأزدي، **تحفة المغترب ببلاد المغرب لمن له من الإخوان في كرامات الشيخ أبي مروان**، تحقيق فرناندو دي لا جرانخا، مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمدريد، المجلد 17، مدريد، 1972-1973.

- القلصادي، أبو الحسن على الأندلسي، **رحلة القلصادي**، دراسة وتحقيق محمد أبو الأجفان، تونس، 1985.

- القشيري، عبد الكريم، **الرسالة القشيرية**، تحقيق معروف زريق، بيروت، ط 2، (د. ت.).

- المجاري، أبو عبد الله محمد (ت. 862 هـ)، **برنامج المجاري**، تحقيق محمد أبو الأجفان، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1982.

- المراكشي، ابن عبد الملك، أبو عبد الله محمد الأنصاري الأوسي (ت 703 هـ)، **الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة**،

السيفر الخامس، قسم 1.2، تحقيق إحسان عباس، بيروت، 1965؛

السفر الثامن، تحقيق محمد بن شريفة، الرباط، 1984.

- ابن مرزوق التلمساني، محمد (ت. 781 هـ)، **المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن**، تحقيق دة. ماريا خيسوس بيغيرا، الجزائر، 1981.

- ابن مرزوق التلمساني، محمد (ت. 781 هـ)، **تيسير المرام في شرح عمدة الأحكام**، مخطوط الخزانة العامة بالرباط، رقم 38 ق.

- ابن مرزوق التلمساني، محمد (ت. 781 هـ)، **جنى الجنتين في فضل الليلتين ليلة القدر وليلة المولد النبوي**، مخطوط الخزانة العامة بالرباط تحت رقم ك 1228.

- ابن مرزوق التلمساني، محمد (ت. 781 هـ)، **خطب مرتبة على حروف المعجم**، مخطوط بالخزانة العامة بالرباط، جائزة الحسن الثاني للمخطوطات والوثائق، رقم 5/930 مراكش 1979.

- ابن مرزوق التلمساني، محمد (ت. 781 هـ)، **الأحاديث الأربعون النبوية من مرويات الخلافة العلوية**، مخطوط الخزانة العامة بالرباط تحت رقم (د 3582).

- ابن مرزوق التلمساني، محمد (ت. 781 هـ)، **خطب كثيرة من غير التزام حروف المعجم**، مخطوط المكتبة الحسنية بالرباط رقم 4070.

- ابن مريم، أبو عبد الله محمد بن محمد التلمساني (ت. 1014 هـ)، **البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان**، نشر بعناية عبد الرحمان طالب، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، 1986.

- المنتصر بن أبي لحية القفصي، **نور الأرماش في مناقب القشاش**، تحقيق ودراسة لطفي عيسى وحسين بوجرة، المكتبة العتيقة، تونس، 1998.

- الماجري، أحمد بن إبراهيم بن أحمد (ت. منتصف ق 8 هـ)، **المنهاج الواضح في تحقيق كرامات الشيخ أبي محمد صالح**، ط مصر، 1933.

- المراكشي، عبد الواحد (ت. 581 هـ)، **المعجب في تلخيص أخبار المغرب**، تحقيق محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي، القاهرة، 1949.

- المقري، أحمد بن التلمساني ت (1040 هـ)، **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**، تحقيق إحسان عباس، بيروت، 1988.

- المقري، أحمد بن التلمساني ت (1040 هـ)، **أزهار الرياض في أخبار عياض**، صندوق إحياء التراث الإسلامي المشترك بين المملكة المغربية والإمارات العربية المتحدة، الرباط، 1973...

- المقري، أحمد بن التلمساني ت (1040 هـ)، **روضة الآس العاطرة الأنفاس**، تصحيح عبد الوهاب بن منصور، الرباط، 1960.

- المنذري، عبد العظيم بن عبد القوي (ت. 656 هـ)، **الترغيب والترهيب من الحديث الشريف**، دار الفكر (د. ت.).

- النباهي (انظر : البناهي).

- الوادي آشي، محمد بن جابر، **برنامج ابن جابر الواديآشي**، تحقيق د. محمد الحبيب الهيلة، تونس، 1981 (وتحقيق محمد محفوظ، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1980).

- الوزان، الحسن بن محمد الفاسي، **وصف إفريقيا**، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، الطبعة الثانية 1983.

- الونشريشي، أبو العباس أحمد بن يحيى (ت. 914 هـ)، **المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل افريقية والأندلس والمغرب**، نشر محمد حجي وآخرون، ج 12، الرباط، 1983.

2) المراجع الحديثة

أ) الكتب

- أبو القاسم، د. سعد الله، **أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر** ، ج 3، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1990.
- أبو القاسم، د. سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي من القرن العاشر إلى الرابع عشر الهجري (16 - 20 م)**، ج 1، الجزائر، 1981.
- ابن الأحرش، د. سعيد، **بردة البوصيري بالمغرب والأندلس خلال القرنين الثامن والتاسع الهجريين**، منشورات وزارة الأوقاف المغربية، 1998.
- ابن عبود، د. امحمد، **مباحث في التاريخ الأندلسي ومصادره**، منشورات عكاظ، الرباط، 1989.
- ابن منصور، عبد الوهاب، **أعلام المغرب العربي**، المطبعة الملكية، الرباط 1406هـ/1986 م.
- بورويبة، د. رشيد، **الدولة الحمادية : تاريخها وحضارتها**، ديوان المطبوعات الجامعية، المركز الوطني للدراسات التاريخية، الجزائر، 1977.
- برنشفيك، روبار، **تاريخ إفريقيا في العهد الحفصي من القرن 13 إلى نهاية القرن 15م**، ترجمة حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى 1988.
- بوداود، عبيد، **ظاهرة التصوف في المغرب الأوسط**، دار الغرب للنشر والتوزيع، الجزائر، 2003.
- بوعياد، د. محمود، **جوانب من الحياة بالمغرب الأوسط في القرن التاسع الهجري**، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982.
- الجابري، د. محمد عابد، فكر ابن خلدون : **العصبية والدولة. معالم نظرية خلدونية في التاريخ الإسلامي**، ط 2، (د.ت) (. د.م.).

- جوليان، شارل أندري، **تاريخ إفريقيا الشمالية تونس الجزائر المغرب الأقصى من الفتح الإسلامي إلى سنة 1830 م**، تعريب محمد مزالي، البشير بن سلامة، الدار التونسية للنشر 1969.

- حاجيات، د. عبد الحميد، **أبو حمو موسى الزياني : حياته وآثاره**، الجزائر، ط 2، 1982.

- الحجوي، د. محمد، **أبو القاسم الشريف السبتي : حياته وآثاره الأدبية اللغوية والبلاغية**، القنيطرة، 1996.

- الحريري، د. محمد عيسى، **تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس في العصر المريني**، ط 2، الكويت، 1987.

- حسن، د. محمد، **الجغرافيا التاريخية لإفريقية. من القرن الأول إلى القرن التاسع**، دار الكتاب الجديد المتحدة، بنغازي، ليبيا، 2004.

- حسن، د. محمد، **المدينة والبادية بإفريقية في العهد الحفصي**، ج 1، منشورات كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية تونس الأولى، تونس، 1999.

- بوزيان الدراجي، **نظم الحكم في دولة بني عبد الواد الزيانية**، الجزائر، 1993.

- رزوق، د. محمد، **الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب خلال القرنين 16 و 17**، الدار البيضاء، 1989.

- ابن رمضان شاوش، محمد، **باقة السوسان في التعريف بحاضرة تلمسان عاصمة دولة بني زيان**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1995.

- ابن سودة، عبد السلام، **دليل مؤرخ المغرب**، ط 2، الدار البيضاء، 1965.

- سعيدوني، د. ناصر الدين، "**من التراث التاريخي والجغرافي للغرب الإسلامي، تراجم مؤرخين ورحالة وجغرافيين**"، دار الغرب الإسلامي، 1999.

- شريط، عبد الله، ومحمد الميلي، **الجزائر في مرآة التاريخ**، قسنطينة، 1965.

– الشريف، د. محمد، **الغرب الإسلامي، نصوص دفينة ودراسات**، منشورات الجمعية المغربية للدراسات الأندلسية وكلية الآداب تطوان، ط. 2، 1999.

– عبد الوهاب، حسن حسني، **كتاب العمر في المصنفات والمؤلفين التونسيين**، مراجعة محمد العروسي المطوي وبشير البكوش، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1990 (جزآن).

– شقور، د. عبد السلام، **الشعر المغربي في العصر المريني : قضاياه وظواهره**، منشورات كلية الآداب بتطوان. 1996.

– العامري، دة. نللي سلامة، **الولاية والمجتمع : مساهمة في التاريخ الديني والاجتماعي لإفريقية في العهد الحفصي**، جامعة منوبة، تونس، 2001.

– العروي، د. عبد الله ، **مجمل تاريخ المغرب**، ط. 2، الدار البيضاء، 1994.

– عمار، هلال، **العلماء الجزائريون في البلدان العربية الإسلامية فيما بين القرنين التاسع والعشرين الميلاديين (3– 14 هـ)**، الجزائر، 1995.

– فيلالي، د. عبد العزيز، **تلمسان في العهد الزياني**، الجزائر، 2002.

– القبلي، د. محمد، **مراجعات حول المجتمع والثقافة بالمغرب الوسيط**، الدار البيضاء، 1987.

– الكتاني، محمد بن جعفر، **سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس**، طبعة حجرية، فاس، 1316 هـ/ 1898 م.

– الكتاني، عبد الحي بن عبد الكبير، **فهرس الفهارس والإثبات ومعجم المعاجم والشيخات والمسلسلات**، تحقيق الدكتور إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1982.

– الكتاني، عبد الكبير بن هاشم، **زهرة الآس في بيوتات أهل فاس**، تحقيق الدكتور علي ابن المنتصر الكتاني، الدار البيضاء، 2002.

– كحالة، عمر رضا، **معجم المؤلفين**، بيروت، 1975.

– الماحي، علي حامد، **المغرب في عصر السلطان أبي عنان المريني**، الدار البيضاء، 1986.

– المنوني، محمد، **ورقات عن حضارة المرينيين**، منشورات كلية الآداب الرباط، ط 2، 1998.

– المنوني، محمد، **المصادر العربية لتاريخ المغرب**، ج 1، الرباط، 1983.

– الناصري، أبو العباس أحمد، **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، ج 2، الدار البيضاء، 1954.

– ابن مخلوف، محمد حسنين بن محمد، **شجرة النور الزكية في طبقات المالكية**، دار الكتاب العربي، بيروت، د. ت.

– لاكوست، إيف، **العلامة ابن خلدون**، ترجمة ميشال سليمان، ط 2، بيروت، 1978.

– ليفي بروفنسال، إيفاريست، **الإسلام في المغرب والأندلس**، ترجمة د.محمود عبد العزيز سالم ومحمد صلاح الدين حلمي،القاهرة، (د. ت.).

– الميلي، مبارك بن محمد، **تاريخ الجزائر في القديم والحديث**، تصحيح محمد الميلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت (د.ت.).

– نشاط، د. مصطفى، **إطلالات على تاريخ المغرب خلال العصر المريني**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، وجدة، سلسلة : بحوث ودراسات، –23- وجدة، 2003.

– نوهيض، عادل، **معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى منتصف القرن العشرين**، منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى 1971.

ب) المقالات

– أعراب، سعيد، "من نوادر المخطوطات المغربية في التصوف : "**وصول العبد بالسمو، إلى محل القدس العلو**" المنسوب لأبي يعقوب البادسي"، دعوة الحق، عدد 262، ص 22-33.

- البزاز، محمد الأمين، **الطاعون الأسود بالمغرب في القرن 14م**، مجلة كلية الآداب الرباط، العدد 16، 1991، ص 116-117.

- ابن شريفة، د. محمد، **"نظرة حول الخط الأندلسي"**، ضمن كتاب : المخطوط العربي وعلم المخطوطات، تنسيق أحمد شوقي بنبين، فضالة، المحمدية، 1994.

- بنبين، د. أحمد شوقي، **"السيرة البيليوغرافية أو البيوبيليوغرافيا في التراث العربي. جلال الدين السيوطي نموذجا"**، مجلة التاريخ العربي، الرباط، العدد 29، شتاء 2004، ص 333-350.

- بنعلي، محمد بن بوزيان، **"من نوادر المخطوطات بخزانة الإمام عبد الجبار الفكيكي"**، دعوة الحق، عدد 260، نونبر 1986.

- بوشرب، د. أحمد، **"أزمات القرن الرابع عشر ودورها في تغير ميزان القوى لصالح الدول المسيحية المشرفة على الحوض الغربي للأبيض المتوسط"**، أعمال الملتقى الدولي الثاني عن ابن خلدون، الجزائر، 1992، ص 211-232.

- بونار، رابح، **"عبقرية المشذاليين العلمية في بجاية على عهدها الإسلامي الزاهر"**، مجلة الأصالة، (الجزائر) العدد 19، 1974، ص 304-316.

- بوعياد، د. محمود، **"من مآثرنا المغمورة : المسند الصحيح الحسن في مآثر مولانا أبي الحسن لمحمد بن مرزوق الخطيب"**، مجلة الثقافة (الجزائر)، عدد 61، 1981.

- بيغيرا، دة. ماريا خيسوس، **"أخبار إفريقية في "المسند" لابن مرزوق"**، أعمال الملتقى الثالث التونسي الإسباني، عدد خاص من الكراسات التونسية، مجلد 25، عدد 103-104، 1978، ص 61-87.

- التوفيق، د. أحمد، **"التصوف بالمغرب"**، معلمة المغرب، إنتاج الجمعية المغربية للتأليف والترجمة، ج 7، سلا، 1994.

- حدادي، د. أحمد، **"وحدة المناهج التعليمية من خلال الاهتمامات الثقافية والفكرية لعلماء مدينتي فاس وتلمسان في القرن 7 هـ"**، ضمن كتاب : مجهودات وإسهامات

الأجيال السالفة عبر التاريخ في بناء المغرب العربي، الجامعة الشتوية، يفرن، 1988، الكتاب الثالث، المحور الاقتصادي والأجنبي، ص 19-48.

– رزوق، د. محمد، **"الرؤية الخلدونية للحضارة الإسلامية"**، أعمال الملتقى الدولي الثاني عن ابن خلدون، المنعقد بفرندة، 1986، ط. الجزائر، 1992، ص 45-58.

– ابن شقرون، د. محمد، **"من مظاهر وحدة الثقافة في دول المغرب العربي : الخطيب ابن مرزوق"**، مجلة المناهل، العدد الأول، (د.ت.)، ص 128-144.

– الشدادي، د. عبد السلام، **"المسلمون والبحر الأبيض المتوسط"**، ضمن كتابه : **ابن خلدون من منظور آخر**، ترجمة محمد الهلالي وبشير الفكيكي، دار توبقال، 2000، ص 63-68.

– الصغيّر، د. عبد المجيد، **"تقويم ابن خلدون للحالة العلمية في الغرب الإسلامي"**، ضمن كتاب : **العلم والفكر العلمي بالغرب الإسلامي في العصر الوسيط**، تنسيق بناصر البعزاتي، منشورات كلية الآداب بالرباط، 2001، ص 163-175.

– العلوي، التقي، **أصول المغاربة**، مجلة البحث العلي، عدد 33، الرباط، 1982.

– فتحة، د. محمد، **"المؤسسة السلطانية والمجال : أمثلة من العصر الوسيط"**، مجلة البحث التاريخي، العدد 2، 2004، ص 18-27.

– فرحات (دة. حليمة) والتريكي (حميد)، **"كتب المناقب كمادة تاريخية"**، ضمن كتاب : التاريخ وأدب المناقب، عكاظ، الرباط، 1989، ص 51-62.

– القاضي، دة. وداد، **"النظرية السياسية للسلطان أبي حمو موسى الزياني الثاني ومكانتها بين النظريات السياسية المعاصرة لها"**، محاضرات ومناقشات الملتقى التاسع للفكر الإسلامي، قسنطينة، المجلد الأول، 1979، ص 95-200.

– المغراوي، د.محمد، **"تصوف المرأة في العصر الموحدي"**، البحث التاريخي (مجلة)، العدد الثاني، 2004، ص 7-17.

– ناجي، د. هلال، **"توثيق عنوان المخطوط العربي وتحقيق اسم مؤلفه"**، دراسات ووثائق الحلة، 1، بابل، جامعة بابل، 2002، ص 1-23.

- نشاط، د. مصطفى، **"المغرب المريني وأزمة القرن 14م /8 هـ النقدية"**، مجلة أمل، العدد الثالث، 1993، ص 4-19.

- الهلالي، محمد ياسر، **"اغتيال السلطان يوسف بن يعقوب المريني : قراءة في نصوص تاريخية ومناقبية لحادثة المنصورة"**، ضمن كتاب : التاريخ والفقه. أعمال مهداة إلى المرحوم محمد المنوني، تنسيق محمد حجي، منشورات كلية الآداب الرباط، 2002، ص 229-260.

3) المراجع باللغات الأوربية

- Arié, Rache, *L'Espagne musulmane au temps des Nasrides*, (1232- 1492), Paris, 1973.

- Basset H., "Recherche sur la religion des Berbères", *Revue de l'histoire des religions*, LXI, 1910

- Bel, Alfred, "Inscriptions arabes de Fès", *Journal Asiatique*, série 11. t. 9, 1917.

- Blachère, Régis, «Quelques détails sur la vie privée du sultan mérinides Abu l Hasan», *Mémorial Henri Basset*, t.1, Paris, 1928, pp. 83-89.

- Bellaire, Michaux E., «La Mission Scientifique du Maroc», Rabat, Services des Renseignements, 1925.

- Benchekroun, Mohamed, B.A., *La vie Intellectuelle marocaine sous les mérinides et les wattasides* (13-16e siècles), Rabat, 1974.

- Carpentier, E., "Autour de la peste noire, Famines et épidémies dans l'histoire du XIVe siècle", *Annales*. E.S. C. , 1962, pp. 1062.

- Dermenghem Emile, *Le culte des saints dans l'Islam maghrébin*, Guillimard, 2e éd., Paris, 1982.

- Devis, Jean, "Routes de commerce et échanges en Afrique occidentale en relation avec la Méditerranée. XIe- XVe siècles", *Revue d'Histoire Economique et Sociale*, 50 (1972), pp. 42-73; 357-397.

- Dhina, Atallah, *Les états de l'occident musulman au XIII, XIVe et XVe siècles. Institutions gouvernementales et administratives*, Alger, 1984.

- Douté, E, "Notes sur l'Islam en Berbérie", *Revue de l'histoire des religions*, n° 40, 1900.

- Drague, George, *Esquisse d'histoire religieuse du Maroc, Confréries et Zaouias*, Paris, 1950.

- Dufourcq, Charles E., *L'Espagne catalane et le Maghreb aux XIII et XIVe siècles*, Paris, 1966.

- Fagnan E., *Additions aux dictionnaires arabes*, Alger, 1923.

- Ferhat, Halima, *Le soufisme et les Zaouyas au Maghreb*,Toubkal, Rabat, 2003.

- Ferhat, Halima, *Le Maghreb aux XIIe et XIIIe siècles : Les siècles de la foi*, Wallada, Casablanca, 1993.

- Ferhat, Halima, "Hagiographie et religion au Maroc médiéval", *Hespéris-Tamuda*, 1986, pp. 17- 51.

- Gourdin, Philipe, "Le partage du Maghreb entre l'Aragon et la Castille au traité de Monteagudo (1291)" in, *Le partage du monde. Echanges et colonisation dans la Méditerranée médiévale*, publications de la Sorbonne, Paris, 1998.

- Kably, Mohamed, *Société, pouvoir et religion au Maroc à la fin du Moyen Age*, Paris,1986.

- Kaneboubi, Mohamed, *Les premiers sultans mérinides 1269- 1331 : histoire politique et sociale*, Paris, l'Harmattan, 1987.

- Lacoste, Camille et Yves (sous la direction de), *L'Etat du Maghreb*, La Découverte, 1991.

- Lévi-Provençal, Evarist, «Un nouveau texte d'histoire mérinide : Le *Musnad* d'Ibn Marzuk» ,*Hespéris*, V, 1925, pp. 1- 82.

- Prémare, Alfred de, "Les notes de voyages d'Abu Ishaq Ibrahim al - Numayri al Andalusi, en l'année 745 h. 1344 J.C.", *Revue d'Histoire et de Civilisation du Maghreb*, IX, 1970.

- Shatzmeller, Maya, " Les circonstances de la composition du *Musnad* d'Ibn Marzuq", *Arabica*, XXII, 1975, pp . 292- 299.

- Shatzmeller, Maya, *L'historiographie mérinide : Ibn Khaldun et ses contemporains*, Leiden, 1982.

- Talbi Mohamed, "Les contacts culturels entre l?Ifriqiya hafside (1230-1569) et le sultanat nasride d?Espagne (1232- 1492)", Actas del II *Coloquio Hispano- Tunicino de Estudios Histôricos*, Madrid, 1973, pp. 63- 90.

- Vidiasov Maria F., "Le Maghreb médiéval : 'mercantilsme parasitaire' ou société productrice ?", *Anaquel de Estudios Arabes*, III, 1992, pp. 241-246.

- Viguera, María Jésus., El Musnad : *Hechos memorables de Abu l -Hasan, Sultan de los Benimerines*, estudio, traducción, anotación. Instituto Hispano-Arabe de Cultura, Madrid, 1977.

- Viguera, María Jésus., "Ibn Marzuq segûn Ibn Al Jatîb : Análisis de una biografía", *Revue de la Faculté des Lettres de Tétouan*, N° 2, 1987, pp.33- 41.

- Viguera, María Jésus., «al Jutab al- diniyya li Ibn Marzuq», in, *Festschift for Ihsan Abbas*, Beirut, American University, 1981, pp. 81- 84.

- Viguera, María Jésus., "Au sujet du musnad d'Ibn Marzuq", *Arabica*, XXIII, 1976, pp.266- 274.

- Viguera, María Jésus.,"*Le Maghreb mérinide : un processus de transfèrement*", in La signification du bas Moyen Age dans l'histoire et la culture du monde musulman, *Actes du 8e Congrès de l'Union Européenne des Arabisants et Islamisants*, Edisud,1978, pp.309- 321.

- Viguera, María Jésus., "La intervención de los Benimerines en Al Andalus", in *Relaciones de la Peninsula Ibérica con el Magreb (siglos XIII-XVI)*, Madrid, 1988, pp. 237-247.

- Wiett, G., «La grande peste noire en Syrie et en Egypte», in, *Etudes d'orientalisme dédiées à la mémoire de Lévi-Provençal*, Paris, 1962.

- Zeggaf Abdel Majid, *Des récits hagiographiques marocains. Essai d'analyse morphologique* et mythologique, thèse d'Etat, Université de Toulouse, 1988.

الفهارس العامة

1- فهرس الآيات القرآنية

2- فهرس الحديث

3- فهرس الأعلام البشرية

4- فهرس الأعلام الجغرافية

5- فهرس المصطلحات الحضارية

6- فهرس الأمم والجماعات

7- فهرس الكتب

الفهرس العام للكتاب

الفصل الثاني
المناقب المرزوقية
قضاياها المنهجية ومصادرها
(ص 93-114)

الفصل الثالث
ظروف تأليف «المناقب المرزوقية» وقيمتها التاريخية
(ص 115-133)

القسم الثاني
التحقيق